

جميع الحقوق محفوظة
لدار الصلوة

نیز می‌گوید در شهر غزو و جنگ است و در دیو بر من است ای شکر و در آن است
در صفت و در من است ای شکر و در آن است ای شکر و در آن است ای شکر
در دیو بر من است ای شکر و در آن است ای شکر و در آن است ای شکر
ای شکر و در آن است ای شکر و در آن است ای شکر و در آن است ای شکر
نمست و در آن است ای شکر و در آن است ای شکر و در آن است ای شکر



المطبعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلب

محرران: ۱۳۸۴ - ۱۳۸۵

1997-1998 年 4 月

E-mail: ans19794@hotmail.com

الكتاب

تتشرف بخدمته
العلم وأعله...

الطبعة الثانية

PT-10-21177

الغافي

في مشج الأربعين التوفيقية

تأليف

الدكتور محيي الدين متو

الدكتور مصطفى ديب البغا

دار المصطفى

دمشق - حارثو

توزيع: ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة السادسة

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مريده . يا ربنا لك الحمد كله ولك الشكر كله .
لا نعنت وباركت وتعظمت . وحصل اللهم وسلم على عبدك ورسولك سيدنا محمد وعلى
آله وأصحابه ومن استن بسنة واعتدى بهناه .

و بعد ..

فلما عندما تقدم هذا الكتاب في طبعة السادسة بعد إجراء شيء طفيف من التعديل
والتلخيص في شكله ومضمونه ، لنحس في قلبنا لهذه الرضى وسعادة النجاح ، وعلى لسان
كل منا أسدق آيات الشكر والثناء والاعتراف :

● الشكر لله عز وجل الذي كتب له التوفيق ، هذا القبول والقبول ، وسأله سبحانه
أن يدخره لنا عبده في صالح أعمالنا .

● والثناء بالرحمة والغبارة ، وعلى الطريقة عبد الله تعالى : الإمام النووي الذي احتار هذه
الأربعين الكلية الجامعة بتفصيل طاهر وإخلاص عظيم .

● والاعتراف بأعوان المؤمنين وأخواتهم المؤمنات الذين يقبلون على هذه الأحاديث القوية
حفظاً وحمداً ، وفهماً ومسلماً ، ويجدون في شرحها أسلوباً معاصراً ، ومنهجاً تربوياً
واضحاً ، ويسأل الله تعالى لنا ولهم الإخلاص والنيات .

والحمد لله أولاً وآخراً بوله الشكر والامتنان على النعم .

المقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ،
وعلى آله وأصحابه ومن اعتدى يديه وعمل بستره إلى يوم الدين .. وبعد :

فإن من فضل الله تعالى علينا أن وقفا للعمل في تأليف كتب الحديث المقررة في المدارس
الشرعية بمرحلتها الإعدادية والثانوية ، وقد لقت تلبعا أثناء شرحنا (٢٨٠) حديثاً
موزعة على الصفوف الستة ، أن مؤلفي كتب المصادر الحديثة من علمائها الأفاضل أطلقوا
على عدد من الأحاديث النبوية : أنها أحاديث كلية جامعة ، لأن عليها مدار الإسلام ،
أو نصفه أو ثلثه ، أو ربعه .. وهذا كان يجعلنا نتوقف عند بعضها للإمام بمعناها فترة أطول ،
وتبدل في شرحها رعاية أكبر . وبدأت تتكون لدينا خطة متكاملة لجمع هذه الأحاديث
الكلية وشرحها ، ولكن صدق من قال : لم يترك الأول للأخيراً شيئاً ، فقد وجدنا الإمام
الحافظ أبا عمرو بن الصلاح الشافعي سنة (٦٤٣) هـ رحمه الله تعالى ، أتمل مجلساً سماه :
الأحاديث الكلية . جمع فيه الأحاديث الجوامع التي يقال إن مدار الدين عليها ، وما كان
في معناها من الكلمات الجامعة الوجيزة ، فاشتمل مجلسه على ستة وعشرين حديثاً ، ثم
إن الإمام النووي رحمه الله تعالى أتمل هذه الأحاديث التي أتملها ابن الصلاح ، وأضاف
إليها ثمان الدين وأربعين حديثاً ، وسمى كتابه بالأربعين ، واشتهرت هذه الأربعون ، وكرر
حفظها ، ونفع الله بها بركة نية جامعها وحسن قصده ، وأقبل عليها مشايخ العلماء بالشرح
والتأليف ، حتى قد العلماء لها محسنين شرحاً باللغة العربية ، بعضها طبع وأكثرها لا زال
مفقوداً أو مخطوطاً .

فعلينا الحرص على شرح الأربعين للإمام النووي ، وإضافة الشرح الحادي والخمسون

في شروح هذه الأحاديث المباركة ، لا يثقب منسياً على رفوف حروف المكتبات القديمة طبعاً سائلاً للحشرات والغبار ، ولكن ليحول بإذن الله حروفاً وكلمات وصحائف مطبوعة ، تصل إلى القارئ المسلم بأسر خط ، وأوضح منهج ، وأجل حلة . ويتلخص منها : بطريرك الحديث وبين عرجته ، كما نص على ذلك جهابذة علماء الحديث .

ثم العناية بأهمية الحديث ، ليتضح من خلالها سبب اعتباره في الأريين النبوية . ثم شرح مفرداته وألفاظه شرحاً لغوياً وألفياً ، لتصل بعد ذلك للمخطوطة المهمة وهي فقه الحديث وما يرشد إليه ، وقد عرضناها تحت عنوان جانبية بارزة ومرفقة ، وسقنا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يؤيد الحكم الشرعي المستنبط من الحديث زيادة في تأكيده ، وذكرنا ما وسعها المحكمة التشريعية والقواعد الفقهية والفقهية المتحققة لدى الأكرام والطاعة للحديث النبوي الشريف ، كما أشرنا خلال ذلك كله إلى الدور من النبوة والنبضات الإنسانية التي تصلح دواء ناجعاً ، لكثير من أمراضنا الاجتماعية المستعصية في عصرنا الحاضر .

والهام النفع منطلق في آخر الكتاب تراجم لرواة هذه الأحاديث ، للتعرف عليهم ، وعلى جواب أصحابهم لرسول الله ﷺ ومواطن القدوة لنا في حياتهم ، وستكون هذه التراجم متصلة حسب الحروف الفجائية التي بها أسماء هؤلاء الرواة ، ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة .

والله نرجو أن يكون عملاً مجدياً في فهم هذه الأحاديث الجليلة ، وترجمتها إلى سلوك وعمل ، وبذل وعطاء ، وجرعة وجهاد . والله من وراء القصد .

الزَّالِمان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الإمام النوي

الحمد لله رب العالمين . قُبُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِينَ . مُدَبِّرُ الخَلَائِقِ
أَجْمَعِينَ . بِإِجْمَاعِ الرُّسُلِ صَلَوَاتُهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ إِلَى الْمُكَلَّفِينَ لِهَدْيِهِمْ وَنَهْيِ
خَرَائِجِ الدُّنْيَى . بِالذَّلَالِ القَطِيعَةِ وَوَأَمْسَاحِ التَّرَاجِينِ . أَخْبَدْتُ عَلَى جَمِيعِ بِضَعِهِ .
وَأَسْأَلُهُ المَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ . وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . وَحَبِيبُهُ
وَعَلِيلُهُ^(١) أَفْضَلُ المَخْلُوقِينَ . أَمُكَّرَمُ بِالقُرْآنِ العَرَبِيِّ المُنْجِزَةِ المَسْتَوْرَةِ عَلَى تَعَالَى
السُّنَنِ . وَبِالسُّنَنِ المَسْتَوْرَةِ لِلْمُسْتَشْرِفِينَ . المَخْصُوصِ بِمَجَامِعِ الكَلِمِ وَتَسَامُخِ
الدُّنَى . صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالرَّسُلِينَ . وَآلِ كُلِّ وَاسِيٍّ
الصَّالِحِينَ .

(أَمَا بَعْدُ) : قَدْ رَوَيْنَا عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَشُعْبَةَ
ابْنِ جَبَلٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عُثْمَرَ وَابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي
سَعِيدٍ الخَلَدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مِنْ طَرَفِي كَثِيرَاتٍ بِرِوَايَاتٍ مُتَوَحَّاتٍ أَنَّ رَسُولَ
اللهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَفِظَ عَلَى أُنْثَى أَرْبَعِينَ حَدِيثًا مِنْ أَمْرِ دِينِهَا بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فِي زُمرَةِ النَّبِيِّينَ وَالْعُلَمَاءِ »^(٢) . وَفِي رِوَايَةٍ « بَعَثَهُ اللهُ قَبِيلاً عَالِمًا » . وَفِي

(١) « قُبُورُ » : القَامُ بِالْمَدِّ وَالْمُخَفَّفِ .

(٢) « وَعَلِيلُهُ » : مِنَ الْخَلْدِ : أَيْ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهَا فِي الْقَلْبِ .

(٣) « أَمْرُهُ دِينُهَا » : مِنْ حَدِيثِ الإِمَامِ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ . وَقَالَ : أَلَيْسَ هَذَا الْحَدِيثُ كَقَوْلِهِ ضَعِيفًا . وَأَمْرُهُ أَيْضًا =

رواية أبي الثرداء ، وتحدث له يوم القيامة شافعاً وشهيداً ، وفي رواية ابن مسعود :
 « قيل له ادخل من أي أبواب الجنة شئت » . وفي رواية ابن عمر : « كتب في
 زمرة العلماء وخُسر في الشهداء » ، والفن الحُفَاطُ على لغة حديث ضعيف وإن
 كثرت طُرُقُه ، وقد صنف العلماء رضي الله عنهم في هذا الباب ما لا يُحصى
 من المصنفات ، فأول من علمته صنف فيه عبد الله بن المبارك ، ثم محمد بن أسلم
 الطوسي العلّام الرّياضي ، ثم الحسن بن سليمان النسائي ، وأبو بكر الأجرّي ، وأبو
 بكر محمد بن إبراهيم الأصفهاني ، والذوقطي ، والحاكم ، وأبو نعيم ، وأبو
 عبد الرحمن السلمي ، وأبو سعيد اللّيثي ، وأبو عثمان الصابوني ، وعبد الله بن
 محمد الأنصاري ، وأبو بكر التّيهي ، وعلائق لا يُحصون من المُفكرين
 والمُتأخرين .

وقد استخرت الله تعالى جمع أربعين حديثاً اقتداءً بؤلاء الأئمة الأعلام
 وحُفَاط الإسلام . وقد اتفق العلماء على جواز الغفل بالحديث الضعيف في
 فضائل الأعمال ، ومع هذا فليس اعتادي على هذا الحديث ، بل على قوله ﷺ
 في الأحاديث الصحيحة : « يُبَلِّغُ الشَّاهِدُ مَكْمَ الغَائِبِ » ، وقوله ﷺ :
 « نُصَرِّفُ اللهَ أَمْرًا سَبْعَ مَقَالَتِي فَوَغَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَبَّعَهَا » .

ثم من العلماء من جَمَعَ الأربعين في أصول الدين ، وبعضهم في الفروع ،

= الحفظ بين هاتك من طرق وقال : وقد روي هذا الحديث عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي سعيد
 وأبي أمامة طرقاً ، بأسانيد فيها كثرة نقل ، ليس فيها لتصحيح رجال . الذين على تعميم الأربعين : لأن
 الحفظ (مخطوط) .

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ (بَابُ فَرْقِ الْعِلْمِ) ﷺ : رَبِّ بَلِّغْ أَوْحِي مِنْ سَمْعٍ) فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ
 وَالْجُجِ وَالصِّدْقِ وَالْفَنِّ وَغَرَاهَا .. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْقِسَامَةِ رَقْم ٢٩ وَ ٣٠ .

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ (بَابُ فَضْلِ نَسْرِ الْعِلْمِ) رَقْم ٢٢٦٠ / وَتَرْغَمُذِي فِي كِتَابِ الْعِلْمِ (بَابُ
 الْحَثِّ عَلَى بَلِّغِ السَّمْعِ) وَابْنُ مَاجَةَ فِي الْمَدَقَةِ رَقْم ٢٢٠ / وَصَحَّ هَذَا الْحَدِيثُ بِلَيْدِ عَبْدِ الْأَمَةِ .

وبعضهم في الجهاد ، وبعضهم في الزهد ، وبعضهم في الأدب ، وبعضهم في
 المطلب ، وكلها مقاصد صالحة ، رضي الله عن قاصديها . وقد رأيت جُمُع
 أربعين أهم من هذا كله ، وهي أربعون حديثاً مشتملة على جميع ذلك ، وكل
 حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين قد وصفتها العلماء بأن تدار الإسلام
 عليه ، أو يصف الإسلام ، أو تثبت ، أو نحو ذلك .

ثم أقرت في هذه الأربعين أن تكون صحيحة ومُعتمدة في صحيح البخاري
 ومسلم ، وأذكرها مخدومة الأسانيد ، لتسهيل حفظها وتعم الانتفاع بها إن شاء
 الله تعالى . ثم أتبعها باب في ضبط عيني ألفاظها^(١) .

ويبغى لكل راغب في الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث إنما اشتملت عليه
 من المهمات واحضوث عليه من التنبيه على جميع الطاعات ، وذلك ظاهر لمن
 تدبره ، وعلى الله اعتمادي ، وإليه تفرضي واستأدي ، وله الحمد والشعة ، وبه
 التوفيق والعصمة .

(١) وهذا الباب قلما يوجد في طبعات الأربعين أو شروحها ، وهي سببت هذا الباب آخر الكتاب ، إتماماً
 للعادة ، وإن كان قد شرحها الألفاظ وضبطها بعد كل حديث حسب خطتها بما فيه الكفاية ، ولكن
 لا يخفى لما عدا كتيب سبعة الصالح : لما فيه من ذلك وأمره وصدق وإخلاص .

ورق لیختن

إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ

عن أبي هريرة الميموني أني خُفِصَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ بِهِ مَا تَوَيَّ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِيَ هِجْرَةٌ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَكِبُهَا فَهِيَ هِجْرَةٌ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »

رواه إمامنا المحدثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن تميم البخاري ، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري البسابري في صحيحيهما اللذين هما أصح الكتب المصنوعة .

رواه البخاري أول صحيحه ، وفي الإيمان (باب ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ولكل امرئ ما نوى) وخمسة مواضع أخرى من صحيحه . ومسلم في الإمامة (باب قوله ﷺ : إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ) رقم / ١٩٠٧ ، ورواه أبو داود في كتاب الطلاق (باب فيما غلب به الطلاق والنيات) رقم / ٢٢٠١ ، والترمذي في كتاب فضائل الجهاد (باب ما جاء فيمن يقاتل رياءاً وللدنيا) رقم / ١٦٤٦ ، وابن ماجه في كتاب الزهد (باب النية) رقم / ١٢٢٧ ، والنسائي في كتاب الطهارة (باب النية في الوضوء) ١ / ٥٩ - ٦٠ ، وهو في المسند ٢٥ / ٢٣ ، والدارقطني وابن حبان والبيهقي .

أهميته :

إن هذا الحديث من الأحاديث العامة ، التي عليها مدار الإسلام ، فهو أصل في الدين وعليه تدور غالب أحكامه ، ويتضح هذا من كلام العلماء : قال أبو داود : إن هذا الحديث - إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ - نصف الإسلام ، لأن الدين إما ظاهر

وهو العمل ، أو باطن وهو البنية . وقال الإمام أحمد والشافعي : يدخل في الحديث :
 « إنما الأعمال بالنيات » تثبت العلم ، وسبب ذلك أن كسب العبد يكون قلبه ولسانه
 وجوارحه ، فالبنية بالقلب أحد الأقسام الثلاثة . ولذا استحب العلماء أن تستفتح به
 الكتب والمصنفات ، فيجعله البخاري في أول صحيحه ، ولقد بدأ به النووي في كتبه
 الثلاثة « رياض الصالحين » و « الأذكار » و « الأربعين حديثاً النبوية » . وعائدة هذا
 فيه تبيه طالب العلم أن يصحح نيته لوجه الله تعالى في طلب العلم وعمل الخير .
 وما يدل على أهميته : أن النبي ﷺ خطب به ، كما في رواية البخاري ، ثم خطب
 به عمر . قال أبو عبيد : ليس في الأحاديث أجمع وأقوى وأكثر فائدة منه .

لغة الحديث :

« المخلص » : الأمد ، وأبو حفص : كنية لعمر بن الخطاب رضي الله عنه .
 « إنما » : أدلة حصر ثبت المذكور بعدها ونفي ما عداه
 « بالنيات » جمع نية ، وهي في اللغة : القصد . وفي الاصطلاح : القصد المقرون
 بالفعل .

« امرئ » : إنسان ، رجلاً كان أو امرأة .

« هجرته » : هجرة لغة : الترك . وشرعاً : مغادرة دار الكفر إلى دار الإسلام
 بحرف الفتحة ، والمراد بها في الحديث : الانتقال من مكة وغيرها إلى المدينة قبل فتح
 مكة .

« إلى الله » : إلى محل رضائه وقصداً .

« فهاجرة إلى الله ورسوله » : قبولاً وجزاء .

« الدنيا بصيبها » : لغرض ديني يريد تحصيله .

سبب ورود الحديث :

روى الطبراني في معجمه الكبير بإسناد رجاله ثقات ، عن ابن مسعود رضي

أنه عنه قال : كان فيها رجل يعطى امرأة يقال لها : أم قيس ، فأبى أن يتزوجها حتى يهاجر ، فهاجر ، فزوجهها ، فكما تسميه : مهاجر أم قيس^(١) .

وروى سعيد بن منصور في مسنده ، بسند عن شرط الشيخين : عن ابن مسعود قال : من هاجر يمتلي شيئاً فإن ماله من ذلك مثل أسير رجل هاجر ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس ، فقبل له مهاجر أم قيس^(٢) .

فقد الحديث وما يرشد إليه :

١- اشتراط النية : اتفق العلماء على أن الأفعال الصادرة من المكلفين المؤمنين ، لا تصير معتبرة شرعاً ، ولا يترتب الثواب على فعلها إلا بالنية .

وانية في العبادة المقصودة : كالصلاة والحج والصوم ، ركز من أركانها ، فلا تصح إلا بها ، وأما ما كان وسيلة : كالوضوء والغسل ، فقال الحنفية : هي شرط كمال فيها ، لتحصيل الثواب . وقال الشافعية وغيرهم : هي شرط صحة أيضاً ، فلا تصح الوسائل إلا بها .

٢- وقت النية ومحلها : وقت نية أول العبادة ، كتكبير الإحرام بالصلاة ، والإحرام بالحج ، أما الصوم فتكفي النية قبله لعسر مراقبة الفجر .

ومحل نية القلب : فلا يشترط التلفظ بها ، ولكن يستحب لمساعد المسان القلب على استحضارها .

ويشترط فيها تعيين الموي وتيممه عن غيره ، فلا يكفي أن يولي الصلاة بل لا بد من تعيينها بصلاة الظهر أو العصر .. الخ .

٣- وجوب الحجرة : الحجرة من أرض الكفار إلى ديار الإسلام واجب على المسلم الذي لا يتمكن من إظهار دينه ، وهذا الحكم باق وغير مليد ، وأما غير

(١) الفتوحات الربانية : لابن عثيمين ٦٠/٦ .

« لا هجرة بعد الفتح » فالتقصود : لا هجرة من مكة بعد فتحها ، لأنها صارت دار الإسلام .

وتطلق الهجرة على : ما نبى الله به (والمهاجر من هجر ما نبى الله به) ، وهجر المسلم أخاه فوق ثلاث ، وهجر المرأة عرائش زوجها . وقد يجب على المسلم أن يهجر أخاه المسلم العاصي ، كما يجوز له أن يهجر زوجته الفاسقة تأديباً .

٤- يفيد الحديث أن من نوى عملاً صالحاً ، فممنعه من القيام به غير قاهر ، من مرض أو وفاة ، أو نحو ذلك ، فإنه يثاب عليه . قال البيضاوي : والأعمال لا تصح بلا نية ، لأن النية بلا عمل يثاب عليها ، والعمل بلا نية هباء ، ومثال النية في العمل كالروح في الجسد ، فلا بقاء للجسد بلا روح ، ولا ظهور للروح في هذا العالم من غير تعلق بجسد .

٥- ويرشدنا إلى الإخلاص في العمل والعبادة حتى نحصل الأجر والثواب في الآخرة ، والتوفيق والفلاح في الدنيا .

٦- كل عمل نافع وغير يصبح بالنية والإخلاص وإبتغاء رضا الله تعالى عبادة .

الإسلام والإيمان والإحسان

عن عمر رضي الله عنه ألقياً قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فاستند ركبته إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتصح البيث إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . فصبنا له كأساً فمضاه . قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن السابعة ، قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أمثالها ، قال : أن تلب الأمانة زكياً ، وأن ترى الخلقاء العالة رعاة الشياه يتطلعون في البنيان ، ثم اطلق ، فلبث قليلاً ، ثم قال : يا عمر ، أخبرني عن السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه يجنبك أهلكم يقتلوكم ويهتكهم » رواه مسلم .

رواه مسلم في أول كتاب ، الإيمان رقم ٨١ ، والترمذي في كتاب الإيمان رقم ٢٧٣٨ ، وأبو داود في كتاب السنة (باب في القدر) رقم ٤٦٩٥ ، والنسائي في كتاب الإيمان (باب بحث الإسلام) ٩٧/٨ .

قال ابن دقيق العيد : هذا حديث عظيم يشمل على جميع وظائف الأعمال الظاهرة والباطنة ، وعلوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه ، لما تضمنه من جملة علم الله ، فهو كالأم للنسب ، كما سميت الفاتحة ، ثم القرآن ، لما تضمنته من جملة معاني القرآن .

وهو من الأحاديث المشوارة ، لأنه ورد من رواية ثمانية من الصحابة الكرام هم : أبو هريرة ، وعمر ، وأبو ذر ، وأمس ، وابن عباس ، وابن عمر ، وأبو عامر الأشعري ، وجرير البجلي^(١) رضي الله عنهم .

لغة الحديث :

« بيا » : بين طرف زمان ، وما زائدة ، وفي رواية « بيا » .

« إذ طلع » : إذ حرف مضاعفة . أي حرح علياً ضحاة .

« ووضع كفيه على فخذيه » : أي فحدي نفسه كهيئة التأدب . وفي رواية الساق « فوضع يديه على ركبي النبي ﷺ » ورواية الأولى أصح وأشهر .

« أخبرني عن الإسلام ؟ » : أخبرني عن حقيقته وأعماله شرعاً ، وكذلك « أخبرني عن الإيمان » و « الإحسان » .

« فحينئذ له يسأله ويصدقه » : أي أصابنا العجب من حاله ، وهو يسأل سؤال العارف ليعتق المصدق . لم عجبنا ، لأن سؤاله يدل على جهله بالمسؤول عنه ، وتصديقه يدل على علمه به .

« أن تؤمن بالله .. » : الإيمان لغة التصديق والحرم في القلب ، وشرعاً : التصديق بما ذكر في الحديث .

« فأخبرني عن الساعة ؟ » : أخبرني عن وقت هيئ يوم القيامة .

(١) انظر كتاب ، المختار من الحديث المشوارة ، للكناني ص ٣٠ .

« أمارتها » : بفتح الميم جمع أماراة : وهي العلامة . والمراد علاماتها التي تسبق قيامها .

« أن تلد الأمة ربتها » : أي سيدها . وفي رواية « ربيها » أي : سيدها . والمعنى أن من علامات السحابة كثرة الخلاء الإماء ووطئهن بملث الجين ، فيأتين بأولاد هم أحرار كأبائهم ، فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها . لأن ملثت الوالد صائر إلى ولده ، فهو ربيها من هذه الجهة . وقيل : هو كتابة عن كثرة حقوق الأولاد حتى يحاف الوالد من ولده كما يخاف الرقيق من سيده . والعبارة كتابة عن مساند الرمن والقباض الأشخاص .

« الحفلة المرأة العالة » : الحفلة : جمع حاف ، وهو من لا يعمل في رجليه . المرأة : جمع عام ، وهو من لا ثياب على حسنه . فعالة : جمع عاتل ، وهو المظور . « رجاء الشاء » : جمع راج ، وهو الحائط ، ويجمع على رجاة أيضاً . والشاء : جمع شاة ، وهي واحدة الضأن .

« يتناولون في القيان » : يتناول الأتية العالية تعاجرة ورياء .
« فيثت ملياً » : انظرث وثناً طويلاً ، أي : غلت عن النبي ﷺ ثلاث ليلٍ كما في رواية ، ثم نقيته .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١- تحسين الثياب والمهبة : يستحسن ارتداء الثياب الطيفة ، والمطلب والمرحلة الزكية لدخول المسجد وحضور مجلس العلم ، والتأديب في مجلس العلم ومع العلماء ، فإن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى معلماً للناس بحاله ومقاله .

٢- ما هو الإسلام ؟ : الإسلام لغة : الانقياد والاستسلام لله تعالى . وهو شرعاً : قائم على أسس خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة في نوافها كاملة الشروط والأركان ، مستوعبة الحسن والآداب ، وإيتاء الزكاة ، وصوم شهر رمضان . وحج البيت الحرام مرة في العمر على من قدر عليه وتوفر له

مؤونة السفر من الزاد والراحلة وفقه الأهل والعيال .

٣- ما هو الإيمان ؟ - الإيمان لغة : التصديق ، وشرعاً : التصديق الحازم بوجود الله الخالق وأنه سبحانه واحد لا شريك له .

والتصديق بوجود خلق الله هم الملائكة ، وهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، خلقهم الله من نور ، لا يأكلون ولا يتصفون بذكورة ولا أنوثة ولا يتناسلون ، ولا يعلم عندهم إلا الله تعالى .

والتصديق بالكتب السماوية المنزلة من عند الله تعالى ، وأنها شرع الله قبل أن تنال أيدي الناس بالتحريف والتبديل .

والتصديق بجميع الرسل الذين اعطاهم الله هداية خلقه ، وأنزل عليهم الكتب السماوية ، والاعتقاد أن الرسل بشر معصومون .

والتصديق بيوم آخر ، يعني الله فيه الناس من قبورهم ، ويحاسبهم على أعمالهم ويجزيهم عليها إن خيراً فخير وإن شراً شراً .

والتصديق بأن كل ما يجري في هذا الكون هو بقدر الله تعالى وإرادته ، حكمته يعلمها الله تعالى .

هذه هي أركان الإيمان ، من اعتقد بها نجا وفاز ، ومن حجبها ضل وخاب ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ [النساء : ١٣٦] .

٤- الإسلام والإيمان : وما تقدم تعلم أن الإسلام والإيمان حقيقتان متباينتان لغة وشرعاً ، وهذا هو الأصل في الأسماء المختلفة ، وقد يتوسع الشرع فيطلق أحدهما على الآخر على سبيل التجوز . ولا عبرة بإيمان دون إسلام ، كما لا عبرة بإسلام دون إيمان ، لأنهما متلازمان ، فلا بد من الإيمان بالقلب والعمل بالأعضاء .

٥- ما هو الإحسان ؟ : الإحسان هو الإخلاص والإنسان ، أي تخلص في عبادة الله وحده مع تمام الإنفاق كأنك تراه وقت عبادته ، فإن لم تقدر على ذلك فذكر أن الله يشاهدك ويرى منك كل صغير وكبير .

٦- الساعة وأماراتها : علم وقت قيام القيامة ، بما اختص الله بعلمه ، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه ملكاً كان أو رسولاً ، ولذلك قال النبي ﷺ لجبريل : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » . ولكنه أجهل عن بعض أماراتها التي تسبقها وتدل على قربها :

أ - فساد الزمن ، وضعف الأخلاق ، حيث يكثر عقوق الأولاد ومخالفتهم لأبائهم فيعاملوهم معاملة السيد لعبده .

ب - انعكاس الأمور واعتلاطها : حتى يصبح أسفل الناس ملوك الأمة ورؤسايها ، وتسد الأمور لغير أهلها ، ويكثر الخلل في أبندي الناس ، ويكثر البذخ والسرف ، ويتساهى الناس بعلوم البيان ، وكثرة الناح والأثاث ، ويتعالى عن الخلق ويملك أمرهم من كانوا في فقر ويؤس ، يعيشون على إحسان الغير من البلى والرحلة وأشباهم .

٧- السؤال عن العلم : التسلم إنما يسأل عما يضعه في دياره أو آخرته ، ويترك السؤال عما لا فائدة فيه . كما ينبغي لمن حضر مجلس علم ، وليس أن الحاضرين بحاجة إلى مسألة ما ، ولم يسأل عنها أحد ، أن يسأل هو عنها وإن كان هو يعلمها ، ليتفجع أهل المجلس بالجواب . ومن سئل عن شيء لا يعلمه وجب عليه أن يقول : لا أعلم ، وذلك دليل ورعه وتقواه وعلمه الصحيح .

٨- عن أساليب الحرية : طريقة السؤال والجواب ، من الأساليب التربوية الناجعة قديماً وحديثاً ، وقد تكررت في تلميح النبي ﷺ لأصحابه في كثير من الأحاديث النبوية : لما لها من كفة لنباه السامعين وإعداد أذهانهم لتلقي الجواب الصحيح .

أركان الإسلام ودعائمه العظام

عن أبي عبد الرحمن غدير الغري عن عمار بن الخطاب رضي الله عنهما قال :
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « ثَمَنِي الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَخُحُّ الْقِسْمِ ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ » . رواه البخاري ومسلم .

تحدث أسرخه البخاري في الإيمان ، (باب : الإيمان وقول النبي ﷺ) ، في
الإسلام على خمس) (رقم ١٤٨٠ ، ومسلم في الإيمان (باب : بيان أركان الإسلام
ودعائمه العظام) رقم : ١٦٠٠ ، والترمذي في الإيمان (باب ما جاء في بني الإسلام
على خمس) رقم ٢٦١٦ ، والسنائي في الإيمان (باب على كم بني الإسلام)
١٠٧/١ . وهو عند الإمام أحمد في « المسند » ٢٦/٢ ، ٩٢ ، ١٢٠ .

أهميته :

حديث « أركان الإسلام » حديث عظيم جداً ، فهو أحد قواعد الإسلام وحواص
الأحكام ، إذ فيه معرفة الدين وما يعتمد عليه وجميع أركانه ، وهذه الأركان منصوص
عليها في القرآن الكريم .

لغة الحديث :

« بني » : فعل ماضٍ مبني للمجهول من بني بناءً ، أي أسس .

« على خمس » : وفي رواية « على خمسة » أي خمس دعائم أو خمسة أركان ،

وه « على » بمعنى : من .

« شهادة » : أي الإقرار والتصديق .

« أن لا إله إلا الله » : أن تخفف من الثقل ، واسمها ضمير الشأن مخوف ، وأصلها آله : أي الشأن والأمر .

« إقام الصلاة » : المداومة عليها ، وقصتها كاملة الشروط والأركان ، مستوفية السنن والآداب .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١ - بناء الإسلام : يشبه رسول الله ﷺ الإسلام الذي جاء به - والذي يخرج به الإنسان من دائرة الكفر ويستحق عليه دخول الجنة والبيعة من الدار - بالبناء المحكم ، القائم على أسس وقواعد ثابتة ، وبين أن هذه القواعد التي قام عليها وتم هي :

١ - شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله : ومعناها الإقرار بوجود الله تعالى ووحدانيته ، والتصديق بسوة محمد ﷺ ورسالته ، وهذا الركن هو كالأساس بالنسبة لبقية الأركان ، قال عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » روى البخاري ومسلم . وقال عليه الصلاة والسلام : « من قال لا إله إلا الله تخلصاً دخل الجنة » حديث صحيح أخرجه الأئمة .

٢ - إقام الصلاة : والمراد المحافظة على الصلاة والقيام بها في أوقاتها ، وأداؤها كاملة بشروطها وأركانها ، ومراعاة آدابها وسننها ، حتى تؤدي ثمرها في نفس المسلم فترك الفحشاء والمنكر ، قال تعالى : ﴿ وَاتْمِرِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْبِيهِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [الشعرون : ٢٥] . والصلاة شعار المسلم ، وعنوان المؤمن ، قال ﷺ : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » أخرجه مسلم وغيره . وقال : « الصلاة عماد الدين » حديث حسن أخرجه أبو نعيم .

٣ - إيتاء الزكاة : وهي إعطاء نصيب معين من المال - من ملك الثواب ، وتوفرت فيه شروط الوجوب والآداء - للفقراء والمستحقين . قال الله تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ مُعْتَمِدِينَ ﴾ [المؤمنون : ٤] وقال :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِّلنَّسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الماعز : ١١] ، وهي عبادة مالية تتمحق بها العدالة الاجتماعية ، ويقضى بها على الفقر والعوز ، وتسود الثقة والعطف والاحترام بين المسلمين .

١- الحج : وهو قصد المسجد الحرام في أشهر الحج ، وهي شوال وذو القعدة والعشر الأول من ذي الحجة ، والقيام بما بينه رسول الله ﷺ من مناسك ، وهو عبادة مالية وبدنية تتحقق فيه منافع كثيرة للفرء والجنس ، وهو فوق ذلك كله من أهم إسلامي كبير ، ومناسبة عظيمة لائقاء المسلمين من كل بلد ، قال الله تعالى ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَشْرِبُوا مِنْ لِبَاسِ الْفَقْرِ ﴾ [الحج : ٢٧-٢٨] . ولذا كان ثواب الحج عظيماً وأجره وفيراً ، قال عليه الصلاة والسلام : « الحجُّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » . وقد فرض الحج في السنة السادسة من الهجرة بقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ عَلَى النَّاسِ جِئَ الْبَيْتَ مِنْ اسْطِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

٥- صوم رمضان : وقد فرض في السنة الثانية للهجرة بقوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ [البقرة : ١٨٥] . وهو عبادة فيها تطهير للنفس ، ومحو للروح ، وصحة للجسم ، ومن قام بها امتثالاً لأمر الله وإيفاء مرضاته كان ثكافراً لسيئاته وسبباً لدخوله الجنة ، قال عليه الصلاة والسلام : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

٦- أرباط أركان الإسلام بعضها بعض : من أن هذه الأركان كاملة كان مسلماً كامل الإيمان ، ومن تركها جميعاً كان كافراً قطعاً ، ومن ترك واحدة منها كان غير مسلم بالإجماع ، ومن اعتقد بها جميعاً وأكمل واحدة منها - غير الشهادة - كسلاً فهو غاسق ، ومن أن بالأعمال وأثر بلسانه هائلة فهو مابق .

٣- غاية العبادات : ليس المراد بالعبادات في الإسلام صورها وأشكالها ، وإنما المراد عايشها ومصلحتها مع القيام بها ، فلا تنفع صلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، كما لا يفيد صوم لا يترك فاعله الزور والعمل به ، كما لا يُكسِل حج أو زكاة فعل اللرباء والسمة . ولا يعني ذلك ترك هذه العبادات إذا لم تحقق ثمرتها ، وإنما المراد حمل النفس على الإخلاص بها وتحقيق المقصود منها .

٤- شعب الإيمان : ليست هذه الأمور المذكورة في الحديث هي كل شيء في الإسلام ، وإنما تقتصر على ذكرها لأهميتها ، وهناك أمور كثيرة غيرها ، قال عليه الصلاة والسلام : « الإيمان بضئع وسبعون شعبة » متفق عليه .

٥- ويُقصد بالحديث أن الإسلام عقيدة وعمل ، فلا ينفع عمل دون إيمان ، كما أنه لا وجود للإيمان دون عمل .

أطوارُ خلقِ الإنسانِ واحتياجاته

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يَخْلُقُ خَلْقَهُ في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يَكُونُ عِلَّةً يَلُفُّ ذَلِك ، ثم يَكُونُ مُضْغَةً يَلُفُّ ذَلِك ، ثم يَرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، ويُوَسِّرُ بَارِئِجَ كَلِمَاتٍ يَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَغَنِيْلَهُ وَشَقِيْقَهُ نَوْ سَجِيْدَ قَرَارِهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ بِإِذْنِ أَحَدِكُمْ لِيَقْتُلَ بِقَتْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ يَتْنُ وَتَبْنِيهَا إِلَّا بِزِرَاعٍ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَقْتُلُ بِقَتْلِ أَهْلِ النَّارِ قَبْلَ خَلْقِهَا . وَإِذَا أَحَدُكُمْ لَيَقْتُلُ بِقَتْلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ يَتْنُ وَتَبْنِيهَا إِلَّا بِزِرَاعٍ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَقْتُلُ بِقَتْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَبْلَ خَلْقِهَا » رواه البخاري ومسلم .

الحديث أخرجه البخاري في بدء الخلق (باب ذكر الملائكة) رقم /٣٠٣٦/ والقدر والأنبياء ، ومسلم في أول كتاب القدر (باب كيفية سبق الأدمي) رقم /٢٦٤٣/ ، وأبو داود في السنة (باب في القدر) رقم /٤٧٠٨/ ، وشمس الدين في القدر (باب الأعمال بالخواتيم) ، رقم /٢١٣٨/ ، وابن ماجه في المقدمة (باب في القدر) رقم /٧٦/ .

أهميته :

هذا الحديث عظيم جامع لأحوال الإنسان من مبدأ خلقه وعمله إلى هذه الحياة الدنيا إلى آخر أحواله من الخلود في دار السعادة أو دار الشقاء بما كان منه في الحياة الدنيا من كسب وعمل ، وفق ما سبق في علم الله قدره وقضاءه .

« الصادق » : في جميع ما يقوله ، إذ هو الحق الصدق المطابق للواقع .
 « المصدوق » : فيما أوحى إليه ، لأن أئمة جبريل يأتيه بالصدق ، والله سبحانه وتعالى يصدقهم فيما وعد به .

« يجمع » : يضم ويحيط ، وقيل : يُقدر ويجمع .

« علقه » : أي مادة حلقه ، وهو الماء الذي يحلق به .

« في بطن أمه » : في رحمها .

« نطفة » : أصل النطفة الماء الصافي ، والمراد هنا : منياً .

« علقه » : قطعة دم لم تيسر ، وصحبت « علقه » لعوقها بيد الممسك بها .

« مضغة » : قطعة لحم بقدر ما تقطع .

« فسبق عليه الكتاب » : الذي سبق في علم الله تعالى ، أو اللوح المحفوظ ،

أو الذي سبق في بطن الأم .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١- أطوار الجنين في الرحم : يدل هذا الحديث على أن الجنين يتقلب في مائة وعشرين يوماً في ثلاثة أطوار ، في كل أربعين يوماً منها يكون في طور « فيكون في الأربعين الأولى نطفة ، ثم في الأربعين الثانية علقه ، ثم في الأربعين الثالثة مضغة » ثم بعد المائة وعشرين يوماً ينفخ فيه الملك الروح ، ويكتب له هذه الكلمات الأربعة ، وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز تقلب الجنين في هذه الأطوار « فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَحْثِ فَرِيقًا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ﴾ [الحج : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا فِي قَرْنٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَجَعَلْنَاهُ مَضْغَةً عِظَامًا فَكَسَبْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَرَاكَ أَهْلَ الْخَالِفِينَ ﴾ [المؤمنون :

١٢-١٤] . وفي هذه الآية ذكر الله الأطوار الأربعة المذكورة في الحطبت وورد عليها ثلاثة أطوار أخرى ، فأصبحت سبعاً ، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : خلق ابن آدم من سبع . ثم ينظر هذه الآية .

والحكمة في خلق الله تعالى للإنسان بهذا الترتيب ووفق هذا التطور والتفرد من حال إلى حال ، مع قدرته سبحانه وتعالى على إبعاده كاملاً في أسرع لحظة : هي انتظام خلق الإنسان مع خلق كون الله التسليح وفق أسباب ومسببات ومقدمات ونتائج ، وهذا أبلغ في بيان قدرة الله . كما نلاحظ في هذا التفرد تعليم الله تعالى لعباده الثاني في أمورهم والبعد عن التسرع والعمالة ، وفيه إعلام الإنسان بأن حصول الكمال المعنوي له إنما يكون بطريق التدرج نظير حصول الكمال الظاهر له بتدرجه في مراتب الخلق وانتقاله من طور إلى طور إلى أن يبلغ أشده ، فكذلك ينبغي له في مراتب السلوك أن يكون على نظير هذه المراحل وإلا كان راكباً متى عمياء وحائطاً عبط عشواء .

٢- خلق الروح : اتفق العلماء على أن تمنح الروح في الحبل يكون بعد مضي مائة وعشرين يوماً على الاحتجاج بين الزوجين ، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس ، وهذا موجود بالمشاهدة وعليه يُعَوَّل فيما يُحتاج إليه من الأحكام من الاستحباب ووجوب النفقات ، وذلك لثقل حركة الجنين في الرحم ، ومن هنا كانت الحكمة في أن المرأة المتوفى عنها زوجها تعد أربعة أشهر وعشرة أيام ؛ لتحقق برائة الرحم ببلوغ هذه المدة تنون ظهور أثر الحمل .

والروح : ما ينحيا به الإنسان ، وهو من أمر الله تعالى ، كما أخبر في كتابه العزيز ﴿ وَبَسَّاتُ لَكَ مِنَ الرُّوحِ ، فَبِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا تُؤْمِنُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] . وفي شرح مسلم للنووي : الروح : جسم لطيف سار في البدن مصلحك به تشاك الماء بالعود الأخضر . وفي إحياء علوم الدين للغزالي : الروح : جوهر مجرد منصرف في البدن .

٣- تحريم إسقاط الجنين : اتفق العلماء على تحريم إسقاط الجنين بعد دفع الروح فيه ، واعتبروا ذلك جريمة لا يعقل للمسلم أن يفعلها ، لأنه جناية على شيء متكامل الخلق ظاهر الحياة ، ونحب الدية في إسقاطه إن نزل حياً ثم مات ، وعقوبة مالية أقل منها إن نزل ميتاً .

وأما إسقاط الجنين قبل دفع الروح فيه فمحرّم أيضاً ، وإلى ذلك ذهب أغلب الفقهاء ، والدلائل أحاديث صحيحة أفادت أن التخليق يبدأ في النطفة بعد أن تستقر في الرحم ، فقد روى مسلم عن حذيفة بن أسيد أن النبي ﷺ قال : « إنا مر بالنطفة اثنا وأربعين ليلة - وفي رواية يصح وأربعون ليلة - بعث الله ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها » .

وفي كتاب « جامع العلوم والحكم » لأبي رجب الخليل ص ٤٦ : « وقد رخص طائفة من الفقهاء للمرأة في إسقاط ما في بطنها ما لم ينفخ فيه الروح وحملوه كالعزل ، وهو قول ضعيف . لأن الجنين ولّد العقد وربما تصور ، وفي العزل لم يوجد ولد بالكلية ، وإنما تنسب إلى مع انعقاده ، وقد لا يتنج بالعزل إذا أراد الله خلقه » .

وفي « إحياء علوم الدين » للعزالي ٥١٢٣ : « وليس هذا - أي العزل - كالإباحة والوثوق لأن ذلك حاية عن موجد حاصل ، والموجود له مراتب ، وأول مراتب الموجود أن تقع النطفة في الرحم وتلتصق به المرأة وتستعد لقبول الحياة ، والحداد ذلك حيلة . فإن حصلت نطفة فعقده كانت الجنينة أخصس ، وإن دفع فيه الروح واستوت الحلقة برزوات الحياة تفاحشاً ، ومتى التفاحش في الحياة هي بعد الانفصال حياً » .

٤- علم الله تعالى : إن الله تعالى يعلم أمور الخلق قبل أن يخلقهم ، مما يكون منهم شيء من إيمان وحاجة أو كفر ومعصية . وسعادة وشقاوة ، إلا يعلم الله وإرادته ، وقد تكررت النصوص بذكر الكتاب السابق : فهي البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ما من نفس مفوضة إلا وقد كتب الله مكانها

من أمة أو أمة ، وإلا قد كنت شقية أو سعيدة ، فقال رجل : يا رسول الله ! أفلا تمكث على كتابها وتدع العمل ؟ فقال : تعملوا فكل مسر لما خلق له ، أما أهل السعادة فيسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فيسرون لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ : ﴿ هَاتِمًا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى - وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى - . الْآمِنِينَ ﴾ [الليل : ٥-٦] .

وعمل ذلك فإن علم الله لا يرفع عن العبد الاعتبار والتقصير ، لأن العلم صفة غير مؤثرة ، وقد أمر الله تعالى الخلق بالإيمان والطاعة ، ونهاهم عن الكفر والعصية ، وذلك برهان على أن للعبد اعتباراً وقصداً إلى ما يريد ، وإلا كان أمر الله تعالى وعيه عبثاً ، وذلك محال ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمْنَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا . وَقد حَبَّتْ مِنْ دَسَّاسِهَا ﴾ [الشمس : ١٠-١٤] .

٥ - الاحتجاج بالقدر : لقد أمرنا الله تعالى بالإيمان به وطاعته ، ونهاها عن الكفر به سبحانه وتعالى ومعصيته ، وذلك ما كتبتنا به ، وما قدره الله لنا أو علينا مجهول لا علم لنا به وألسنا مسؤولين عنه ، فلا يتحج صاحب الضلالة والكفر والفسق بقدر الله وكتابه وإرادته قبل وقوع ذلك منه قال الله تعالى : ﴿ وَفَلِ اعْمَلُوا فَيُجِزِي اللهَ عَمَلَكُمْ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

لما بعد وقوع القدر فيكون الاحتجاج بالقدر مأخوذاً به ، لما يجد المؤمن من راحة عند خضوعه لقضاء الله تعالى ، وقضاء الله تعالى للمؤمن بهي بالخير في صورتي السراء والضراء .

٦ - الأعمال بالمخوفات : روى البخاري عن سهل بن سعد ، عن النبي ﷺ قال : « إنما الأعمال بالمخوفات » . ومعنى ذلك أن من كتب له الإيمان والطاعة آخر العمر ، قد يكفر بالله ويحصى الله حياءً ، ثم يوقه الله تعالى إلى الإيمان والطاعة في فترة من الزمان قبل آخر عمره ، ويموت على ذلك فيدخل الجنة ، ومن كتب عليه الكفر والفسوق آخر العمر ، قد يؤمن ويطيع حياءً ، ثم يخذله الله - يكتب العبد

وعنده وأزواجه - فيطلق بكلمة الكفر ، ويعمل بعمل أهل النار ، ويموت على ذلك
فبدخل النار .

فلا يَخْتَرُّ بظاهر حال الإنسان ، فإن العبرة بالخواص ، ولا يأمن من ظاهر حال
الإنسان ، فإن العبرة بالخواص ، نسأل الله تعالى الثبات على الحق والخير وحسن
الخلافة .

٧- كان النبي ﷺ يكثر في دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على
دينك » وروى مسلم : « إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل
كقلب واحد يصرفه كيف يشاء » ثم قال ﷺ : « اللهم مصرف القلوب ، صرف
قلوبنا على طاعتك » .

٨- قال ابن حجر العسقلاني : (إن حالة السوء تكون - والعياذ بالله - سبب
وسيلة باطنية للعد ، ولا يطلع عليها الناس ، وكذلك قد يعمل المرحل عمل أهل
النار وفي باطنه حقيقة خير خفية تغيب عليه آخر عمره فتوح له حسن الخلافة .
وحكى عبد العزيز من داود قال : حضرت عند مختصر نفس الشهادتين فقال " هو
كافر بهما ، فسأل عنه ، فإذا هو مدمن حمر . وكان عبد العزيز يقول : اتقوا الدنوب
فإنها هي التي ألقتكم ") .

٩- أشار هذا الحديث النبوي إلى مراحل نمو الحبيب في فرجه ، ولم يكشف
علم التشريح وعلم الأجنة عن هذه المراحل إلا في العصر الحديث ، وهو يعتمد على
ظواهر في القرآن الكريم والسنة النبوية .

إبطال المنكرات والبذع

عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أَخَذَتْ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ زَدٌ » . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ . وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ « مَنْ عَمِلَ غَتَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ زَدٌ » .

الحديث رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي تَسَابِيقِ الصَّحَابَةِ (بَابُ إِذَا احْصَطَحُوا عَلَى صَدِيقٍ جَوْرٍ بِالصَّالِحِ مَرْجُوحٍ) رَقْمُ / ٢٥٥٠ . وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الْأَفْضِيَّةِ (بَابُ نَقْصِ الْأَحْكَامِ بِطَائِفَةِ وَرَدِ مُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ) رَقْمُ / ١٧١٨ ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي السُّنَنِ (بَابُ فِي لُزُومِ السُّنَةِ) رَقْمُ / ٤٦٠٦ ، وَابْنُ مَاجَةَ فِي الْمَقْدِمَةِ رَقْمُ / ١٤١ .

أهمية الحديث :

هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أَصُولِ الْإِسْلَامِ : وَكَأَنَّ حَدِيثَ « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » مِيزَانُ الْأَعْمَالِ فِي بَاطِنِهَا ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ تَعَالَى فَلَيْسَ لِعَامِلِهِ بِهِ ثَوَابٌ ، فَكُنْكَ لَكَ حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ هَذَا مِيزَانُ الْأَعْمَالِ فِي ظَاهِرِهَا ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يَكُونُ عَلَيْهِ أَمْرُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُوَ مَرْجُوحٌ عَلَى عَامِلِهِ ، وَكُلُّ مَنْ أَحْدَثَ فِي الدِّينِ مَا لَمْ يَأْتِ بِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَبَسَ مِنَ الدِّينِ فِي شَيْءٍ .

قَالَ قُتُوبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : هَذَا الْحَدِيثُ يَدْعِي حِفْظَهُ وَإِنْشَادَهُ فِي إِبْطَالِ الْمُنْكَرَاتِ .

وَقَالَ ابْنُ حِبَرٍ الْهَيْتِيُّ : هُوَ فَاعِلَةٌ مِنْ لُغَةِ الْإِسْلَامِ وَأَعْمَلُهَا نَفْعًا مِنْ حَيْثُ مَطْلُوبُهُ ، لِأَنَّهُ مُقَدِّمَةٌ كَلِمَةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَبَدَّ بِهِ حُكْمٌ شَرْعِي .

لغة الحديث :

- « من أحدث » : أنشأ واعتبر من قبل نفسه وهواه .
- « في أمرنا » : في ديننا وشرعنا الذي ارتضاه الله لنا .
- « ما ليس منه » : مما ينافيه وينقضه ، أو لا يشهد له شيء من قواعد وأصوله العامة .
- « فهو رد » : مردود على قاعدة لطلانه وعدم الاعتداد به .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١- الإسلام اتباع لا ابتداع : والرسول مكرم صلوات الله وسلامه عليه حفظ الإسلام من علو المنطوقين وتخريف المبطلين بهذا الحديث الذي يعتبر من جوامع الكلم ، وهو مستمد من آيات كثيرة في كتاب الله عز وجل ، نصت على أن الفلاح والنجاح في اتباع هدي رسول الله ﷺ دون تزييد أو تنقيح ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ عَلَيَّ فِي مَقَامِي مُسْتَقِيمُونَ فَاتَّبِعُونِي وَلَا تَلْبِغُوا عَنِّي لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته : « خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » ورواه البيهقي وفيه زيادة « وكل ضلالة في النار » .

٢- الأعمال المردودة : والحديث نص صريح في رد كل عمل ليس عليه أمر الشارع ، ومطلوقه يدل على تنقيح الأعمال بأحكام الشريعة ، واحتكامها كأفعال للمكلفين بما ورد في كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ من أوامر ونواه ، والمضلل على المضلل أن تخرج الأعمال عن نطاق أحكام الشريعة فلا تنقيد لها ، وأن تصبح الأعمال خاضعة عن الشريعة لا محكومة لها ، ومن واجب كل مسلم حينئذ أن يحكم

عليها بأنها أصول باقية وموجودة ، وهي الخمسة : عبادات ، ومعاملات .

أ - أما العبادات : فما كان منها خروجا عن حكم الله ورسوله بالكلية فهو مردود على صاحبه ، وهو داخل تحت قوله تعالى : ﴿لَا تَمْلِكُ لَهُمْ أَرْسَالُهُمْ وَلَا تُمْسِكُ بِعَمْرِ الْوَعْدِ﴾ [التكوير : ٢٦] ومثال ذلك أن يتقرب إلى الله تعالى سماع الأغاني ، أو بالرقص ، أو بالنظر إلى وجود النساء ، أو بكشف الرأس في غير الإحرام ، أو ما أشبه ذلك من محذورات الشر وحسن التصرف ، وهؤلاء وغيرهم هم أغصان الله منصوبة عن امتاع سبيل الحق ، وجميع سبيل الشهوات ، يدعون أنهم يتقربون إلى الله تعالى بما أحدثوه من أفكار وحضرات ، وهم في باطنهم كالغرب الشرابين الذين اجتدعوا عبادات وقربات ما أنزل الله بها من سلطان ، وقال الله عز وجل عنهم : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِدْلَ فُلُوحٍ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

وقد يظن بعضهم أن ما كان لغرة في عبادة يكون لغرة في غيرها مطلقا ، ومثال ذلك الرجل الذي تدر في عهد رسول الله ﷺ أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل وأن يصوم ، فأمره النبي ﷺ : « أن يقعد ويستظل وأن يتم صومه » .

وفي كتب الفقه تفصيل أحكام العبادات في الإسلام وما يردُّ بها وبطلان عهد أحداث زيادة أو نقص عما ثبت عن المشرع الحكيم .

ب - وأما المعاملات : كالعتود والفسوح ، فما كان مخالفا للشرع بالكلية فهو باطل ومردود ، دليل ذلك ما حدث في عهد النبي ﷺ ، فقد جاءه سائل يريد أن يقر حذ الزنى اليهود إلى فداء من المال والمناخ ، فرد عليه النبي ﷺ في الحال وأبطل ما جاء به ، روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ جاءه سائل فقال : « إن أبي كان عسيفا على فلان فزني بامرأته ، فخلعت منه عاتقها وخدم ؟ فقال النبي ﷺ : لا إثم للشاة والخدم ردُّ عليك ، وعلى أمك حطد مائة ، وتغريب عام » .

وكذلك كل عقد من عهد المشرع ، أو أهل المتعاقدين مكرن من تركه أو شرط

من شروطه ، فهو عقد باطل ومردود ، وتخصيص ذلك في كتب الفقه .

٣- الأعمال المقبولة : وهماك أعمال وأمر مستحبة ، لا تنافي أحكام الشريعة ، بل يوجد في أدلة الشرع وفروعه ما يؤيدها ، فهذه لا ترد عن قاعها بل هي مقبولة ومحمودة ، ولقد فعل الصحابة رضوان الله عليهم كثيراً من ذلك واستجاروه ، وأجمعوا على قبوله ، ولوضح مثال على ذلك جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في مصحف واحد ، وكتابة نسخ منه ورسلها إلى الأنصار مع القرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه . ومنه الكتابة في عموم العلوم والعرائض والحساب ، والتفسير ، والكلام على الأسانيد ومتون الأحاديث .. وغير ذلك من العلوم النظرية التي تخدم مصادر التشريع الأساسية ، أو العلوم التطبيقية التي تخدم الناس في معيشتهم ، ونصل بهم إلى إبعاد القوة وإعمار الأرض ، وتمكين لشرع الله ، والحكم بما أنزل الله .

٤- البدعة المدعومة والبدعة المحمودة : ونصل بعد الكلام على الأعمال المردودة والأعمال المقبولة إلى نتيجة واضحة وحاسمة ، وهي أن بعض الأعمال البدعة المخالفة لشرع الله هي بدع سيئة وضالة ، وبعض الأعمال المستحبة لا تخالف الشرع ، بل هي موافقة له مقبولة فيه ، فهذه أعمال مقبولة ومحمودة ، ومنها ما هو مندوب ، ومنها ما هو فرض كفاية ، ومن هنا قال الشافعي رحمه الله تعالى : « ما أحدث وخالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً أو قرأ فهو البدعة الضالة ، وما أحدث من الخير ولم يخالف شيئاً من ذلك فهو البدعة المحمودة » .

والبدعة السيئة قد تكون مكرمة وقد تكون حراماً لضررها وفسادها ومخالفتها لمقاصد الإسلام وضروره ، وقد تصل بالإنسان إلى الكفر والزيف والفساد كالإتيان إلى المذنبات والمخاضات التي تنكر الوحي أو تنكر لشرع الله ، أو تنادي بتحكيم الناس بالوضع ، وترى في تحكيم شرع الله خلقاً وضعفاً . وكالاتياف إلى جماعة يذعنون لأهوائهم ، ويستحلون التهاون في التكليف الشرعية ، ولا يقفون عند حدود ما أحله الله وما حرمة ، أو يحولون بوجوه التوحيد والحلول وغيرها من الأحوال والأقوال

الضلالة الكافرة .. ومن ألدع السيفة عند عامة الناس تعظيم بعض الأشياء والتبرك بها واعتقاد الضع فيها ، كتعظيم نحو عين وشجرة وضريح ، وقد صح أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم مروا بشجرة سدر قبل حنين ، كان المشركون يعظمونها وينوطون بها أسنحتهم ، فقالوا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أوطى كما لهم ذات أوطى ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، هذا كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم إله . ثم قال : إنكم قوم تجهلون ، فركب من من كان قبلكم » .

٥- فائدة رواية مسلم « من حمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » أن بعض المعاندین يدعة سبق إليها ، يرد على احتجاجنا عليه بالرواية الأولى فيقول : أنا ما أحدثت في الدين شيئاً . قروي له رواية مسلم « من حمل عملاً .. » فنفهمه .

٦- وفي الحديث أن من ادع في الدين بدعة لا توافق الشرع فإلها عليه ، وعمله مردود عليه ، وأنه يستحق الوعيد .

٧- وفيه أن النبي يقتضي الفساد .

٨- فدين الإسلامي كامل لا يخص فيه .

الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ

عَنْ أَبِي غُنْدٍ أَهْلَ الثُّعَيْنَانِ بْنِ نَجِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنْ فَخَّلَ بَيْنَ وَابْنِ فَخْرَامَ بَيْنَ وَابْنِهَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَفْلَحُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ أَتَى الشُّبُهَاتِ اسْتِثْرًا لِدِينِهِ وَفِرَاطِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْفَخْرَامِ ، كَأَنَّهُ يَرَى حَوْلَ الْجَنَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَفِعَ فِيهِ ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَبْلُوكٍ جَمْعٌ أَلَا وَإِنَّ جَنَى أَهْلِ مَخَارِمِهِ ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقُلْبُ » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

الحديث رواه البخاري في الإيمان (باب من استبرأ لدينه) رقم / ٥٦ / ، والبيوع ، ورواه مسلم في البيوع (باب أعذ الحلال وترك الشبهات) رقم / ١٥٩٩ / ، وأبو داود في البيوع (باب في احتساب الشبهات) رقم / ٣٣٢٩ / و / ٣٣٣٠ / ، والترمذي في البيوع (باب ترك شبهات) رقم / ١٢٠٥ / و / ١٢٠٦ / في البيع (باب اجتنب شبهات) ٢٤٦ / ٧ ، ومن مباحه في الفرس (باب لوقوف عند الشبهات) رقم / ٣٩٨٤ / .

أهمية الحديث :

هذا الحديث مُخْلِصٌ عَلَى عَظِيمٍ مَوْقِعِهِ وَكَثْرَةِ قُرُونِهِ ، فَهُوَ أَحَدُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي دَوَّرَ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ . قَالَ جَمَاعَةٌ : هُوَ كَلِمَةٌ . وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ : رُبْعٌ . وَمَنْ أُنْعِمَ الْمَطَرُ عَلَيْهِ ، حَذَرَهُ خَلْقُهُ كُلُّهُمْ ، لِأَنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى بَيَانِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالشُّبُهَاتِ ، وَمَا يَصْلُحُ الْحَلِيلَ ، مَا يَحْسَبُهُ ، وَهَذَا بِسُطُورٍ مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ لَصُوغًا وَمُرُوعًا . وَهُوَ أَمْسِلُ فِي الْأَعْيَادِ بِالْوَرَعِ ، وَهُوَ تَرْكُ الشُّبُهَاتِ .

لغة الحديث :

« بين » : ظاهر ، وهو ما نص الله ورسوله أو أجمع المسلمون على تحريمه عليه أو تحريمه عليه .

« مشبهات » : جمع مشبه ، وهو المشكل ، لما فيه من عدم الوضوح في المعنى والحكمة .

« لا يعظمهن » : لا يعظم حكمها ، لتنازع الأدلة ، فهي شبهة مرة الحلال ، وشبهة مرة الحرام .

« اتقى المشبهات » : اتعد عنها ، وجعل بينه وبين كل شبهة أو مشككة وقاية .
« استبرأ لدينه وعرضه » : طلب البراءة أو حصل عنها العريضة من الطعن ، ولديه من القصد ، وأشار بذلك إلى ما يتعلق بالناموس وما يتعلق بالله عز وجل .

« واقع في المشبهات » : احتراز عن الوقوع في المشبهات ، التي أشبهت الحلال من وجه والحرام من وجه آخر .

« الحصى » : الحصى ، وهو المحطور على غير ما لكه . وقيل : هو ما يحسبه الحليفة أو نائبه من الأرض المباحة للمواثيق المتعاقدين ، ويمنع الغير عنه .

« يوشيك » : يسرع أو يقرب .

« أن يرتع فيه » : أن يأكل منه ماشيته ولقيم فيه .

« محارمه » : المعاصي التي حرمها الله تعالى .

« مصعة » : قطعة من اللحم قدر ما يذضع في الفم .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١ - الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشبهات قال النووي - رحمه الله تعالى - : معناه أن الأشياء ثلاثة أقسام : حلال وصحيح ، لا يقضى بحرمه ، كالأكل والخمر ، والكلام ، والنفس ، وغير ذلك .. وحرام ومصح ، كالخمر والربا ، ونحوهما

وأما المشتبهات : فمعناه أنها ليست بواضحة الحلل والحرمة ، ولهذا لا يعرفها كثير من الناس ، وأما الطهارة فيعرفون حكمها نص أو قياس ، فإذا تردد الشيء بين الحلل والحرمة ولم يكن نص ولا إجماع اتجه فيه التحديد ، فأقلقه بأحدهما بالدليل الشرعي . ومن الورع ترك المشتبهات مثل عدم معاملة إنسان في ماله شبهة أو مخالطة ماله الزهيا ، أو الإكثار من مباحات تركها أول .

أما ما يصل إلى درجة التوسوسة من تحريم الأمر فيبعد فليس من المشتبهات المطلوب تركها ، ومثال ذلك : ترك الكناج من نساء بلد كبير خوفاً من أن يكون له فيها محرماً ، وترك استعمال ماء في غلاة ، لجوار النجاسة .. فهذا ليس بورع ، بل وسوسة شيطانية .

٢ - المشتبهات أقسام : قسم ابن الشر المشتبهات إلى ثلاثة أقسام :

شيء يعينه المرء حراماً ، ثم يشك فيه ، هل هو باق على حله أم لا ؟ فلا يصل الإقدام عليه إلا يتيقن ، كشتائر ذبح أحدهما ونسي ، وشككها في تعيينها . وعكسه أن يكون الشيء حلالاً فيشك في تحريمه ، كالزوجة يشك في حلاليتها . وكأحدث يشك فيه بعد يقين الطهارة ، فلا أثر له .

ونسيء يشك في حرمة أو حله عن السواء ، فالأولى الشبهة ، كما فعل رسول الله ﷺ في الهرة الساقطة ، روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ قال : إني لأحب إلى أني فأجد الهرة ساقطة على فراشي ، فأرجمها لأكلها ، ثم أحسن أن يكون من الصدقة فألقيا .

٣ - أقوال السلف في ترك المشتبهات : قال أبو البرداء - رضي الله عنه - : دام التقوى أن يفتي الله العبد ، حتى يطلب من متفاد ذرة ، وحين يترك بعض ما يرى أنه حلال . خشية أن يكون حراماً ، حذراً به وبين الحرام . وقال الحسن البصري : لا تأكل من الثمر حتى ترى كثر من الحلال يحاطة الحرام . وقال أبو بصير : لا تأكل من الثمر حتى لا يفتي ، وروى عن ابن عمر قال : إني لأحب أن

أدع مني وبين الحرام ستره من الحلال لا أحرقها . وقال سفيان بن عيينة : لا يُصيب عبد خليفة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال ، وحتى يدع الإثم وما تشابهه منه .

ولبت عن أبي بكر رضي الله عنه أنه أكل شاة غير عالم بها ، فلما علمها لأجل يده في فيه فغتها .

وقال إبراهيم بن الأدهم : ألا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لي دلو لشربت . [إشارة إلى أن الدلو من مال السلطان .

وروي الله عن أصحاب رسول الله ﷺ ورحم الله من تعهم بإحسان من سلف الصالح فقد ابتعدوا عن الشهات واستبرؤوا أنفسهم لئلا يراهم .

١- لكل ملك حمى ، وإن حمى الله في أرضه محارمه : القهر من ذكر هذا المثل هو التنبيه بالشاهد على الغائب وبالمشغوس على المخرد ، فإن موقوف فحرب كتبت تحمي مراعي لمواشها وتتوعد من يقربها ، والخائف من غشوة لملك يتعد محاشيته خوفاً الوقوع ، وغير الخائف يقرب منها ويرعى في جوارها وجواربها ، فلا يلبث أن يقع فيها من غير احتيلاره ، فيعاقبه على ذلك .

وقد سبحانه في أرضه حمى ، وهو للعاصي والحرمات ، فمن ارتكب منها شيئاً استحق عقاب الله في الدنيا والآخرة ، ومن اقترب منها بالدخول في الشهات يوشك أن يقع في الحرمات .

٢- صلاح القلب : يتوقف صلاح الحسد على صلاح القلب ، لأنه أهم عضو في جسم الإنسان ، وهذا لا خلاف فيه من الناحية التشريعية والطبية ، ومن المسلم به أن القلب هو مصدر الحياة المشاهدة للإنسان ، وطالما هو سليم يصح الدم بانتظام إلى جميع أعضاء الجسم ، فالإنسان بخير وعافية .

واصبح الشاهجة بهذا الحديث على أن أصل العطل في القلب ، وما في الرأس منه ،

فإنما هو من القلب ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلْمِ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ جَاهًا ﴾ .

وَحُكْمِي مِثْلِي هَذَا عَنِ الْفَلَّاسَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ .

وأما مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ، فهو أن العقل في الدماغ ، وَحُكْمِي مِثْلِي هَذَا عَنِ الْأَطْبَاءِ ، وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُ إِذَا صَدَّ الدِّمَاغُ صَدَّ الْعَقْلُ . وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ عِلْمِ الطَّبِّ وَالتَّشْرِيحِ الْحَدِيثِ أَنَّ مَصْدَرَ التَّفَكُّرِ الْمُبَاشِرِ إِنَّمَا هُوَ فِي الدِّمَاغِ ، لِأَنَّ الْحَوَاسِيَ إِنَّمَا تَتَحَرَّكُ بِأَوَامِرٍ صَاحِقَةٍ مِنَ الْمَخِ .

ومع ذلك فإن القلب يبقى هو المصدر الأصلي لحياة جميع الأعضاء ومنها المخ ، فإذا ربط الحديث صلاح الحسد والفكر بالقلب ، فقد ربطه بالمصدر الأصلي . والآية أُسِدَّتِ الْعُقْلَ إِلَى الْقُلُوبِ ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ هِيَ الْمَصْدَرُ الْبَعِيدُ ، أَمَّا الدِّمَاغُ فَهُوَ الْمَصْدَرُ الْقَرِيبُ الْمُبَاشِرُ لِلتَّفَكُّرِ .

والمراد من الحديث صلاح القلب المعنوي ، والمقصود به صلاح النفس من داخلها حيث لا يطلع عليها أحد إلا الله تعالى ، وهي السريرة ، وفي كتابه للمعِينِ مِنْ تَعْمِهِمُ الْأُمَرَاءُ : « لَئِنْ طَلَّقَ الشَّافِعِيُّ : أَنَّ صَلَاحَ الْقَلْبِ فِي خَمْسَةِ أَشْيَاءَ : قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالْتَدَرُّجِ ، وَغَلَاءُ النَّظَرِ ، وَفَهَامُ اللَّيْلِ ، وَالتَّضَرُّعُ عِنْدَ السَّجْدِ ، وَبِجَالَسَةِ أَصْحَابِ الْخَيْرِ . قُلْتُ : وَأَكْلُ الْحَلَالِ ، وَهُوَ رَأْسُهَا . وَمَا أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ : الطَّعَامُ يَدْرُ الْأَفْصَالَ . دَخَلَ حَلَالًا مَخْرَجَ حَلَالًا ، وَإِنْ دَخَلَ حَرَامًا مَخْرَجَ حَرَامًا ، وَإِنْ دَخَلَ شَيْئًا مَخْرَجَ شَيْئًا .

وَالْقَلْبُ السَّمِيعُ هُوَ عِنْدَ الْفُضُولِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ لَا يَفْعَلُ مَا يُؤْمَرُونَ إِلَّا مَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِقَلْبٍ سَمِيعٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨] « وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « دَعَاكَ » ، طَلَبَهُمْ إِلَى أَسْأَلِكَ لِقَاءَ سَلِيمًا ، قُلْتُ السُّوَيْي : إِنَّمَا يَحْصُلُ صَلَاحُ الْقَلْبِ بِإِصْرِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ ، كَالْعَمَلِ وَالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ ، وَالشُّجِّ وَالْبَحْلِ وَالْكُفْرِ ، وَالشُّكْرِ وَالْإِيَّاءِ وَالسَّمْعَةِ وَالْفِكْرَ ، وَالْحَرَمَ وَالطَّمْعَ ، وَغَدَمَ الرِّضَى بِالْقَدُورِ ..

وقال ابن رجب : القلب السليح هو السالم من الآفات والمكروهات كلها ، وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة الله وعشيقته ، وحشية ما يباعد منه .
وقال الحسن البصري لرجل : داو قلبك ، فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم .

ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح ، فإذا كان القلب صالحاً ليس فيه إلا إرادة الله وإرادة ما يريد ، لم تمتع الجوارح إلا فيما يريد الله ، فسارحت إلى ما فيه رضا وكفت عما يكرهه ، وعما يخشى أن يكون مما يكرهه وإن لم يتيقن ذلك^(١) .

٦- ويرشد الحديث إلى الخت عمل فعل الحلال ، واجتناب الحرام ، وترك الشبهات ، والاحتياط للدين والعرض ، وعدم تعاطي الأمور الموجبة لسوء الظن والوقوع في المحذور .

٧- الدعوة إلى إصلاح القوة العاقلة ، وإصلاح النفس من داخلها وهو إصلاح القلب .

٨- سد الذرائع إلى المحرمات ، وتحريم الوسائل إليها .

(١) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب المحلى ص ٦٥-٦٦

الَّذِينَ التَّصِيحَةُ

عن أبي رُقَيْةٍ لَيْبِيزَ بْنِ قُورَمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ الشَّيْخَ عليه السلام قَالَ :
« الَّذِينَ التَّصِيحَةُ ، قُلْنَا : لَيْسَ ؟ قَالَ : هُوَ ، وَكِتَابُهُ ، وَرَسُولُهُ ، وَالْأُيُومَةُ
الْمُسْلِمِينَ ، وَعَامَّتُهُمْ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

الحديث رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ (بَابُ بَيَانِ الَّذِينَ التَّصِيحَةُ) رَقْمُ (٥٥)
وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُسْلِمٍ . قَالَ الطَّبْرِيُّ : لَيْسَ تَحْمِيصُ الدَّارِيِّ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ الشَّيْخِ
عليه السلام شَيْءٌ ، وَلَا لَهُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ غَيْرِ هَذَا الْحَدِيثِ .

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ (بَابُ فِي التَّصِيحَةِ) رَقْمُ (٤٩٤٤) ،
وَالسَّائِي فِي كِتَابِ الْبَيْعَةِ (بَابُ التَّصِيحَةِ لِلْإِسْلَامِ) ١٥٦/٧ .
أهمية الحديث :

هذا الحديث من جوامع الكلم التي اختصر بها رسولنا عليه السلام ، فهو عبارة عن
تفصيلات موجزة اشتملت على معاني كثيرة وموارد جديدة ، حتى بما عُدَّ سحر السنن
وَأَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ أَصُولًا وَفُرُوعًا دَاخِلَةً لِنَحْوِ . مِنْ لَحَبِّ كَلِمَةٍ مِنْهُ وَهِيَ « وَكِتَابُهُ »
لأنَّ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى اشْتَمَلَ عَلَى أُمُورَ عَدِيدَةٍ مِنْهَا أَصْلًا وَفُرُوعًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا ،
فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَتَعَالَى تَصَدَّقَ عَلَى مَا يَنْبَغِي فِي الصَّحاحِ لَهُ ، فَقَدْ جُمِعَ الشَّرِيعَةُ بِأَمْرِهَا ،
قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَوْ مَا فُرِغَتْ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الْأَنْعَامُ : ٣٨) وَلِذَا قِيلَ الْعَصَاءُ -
هَذَا الْحَدِيثُ عَلَيْهِ مَدَارُ الْإِسْلَامِ .

لغة الحديث :

« الَّذِينَ » : أَمْثَلُهَا « طَلَّةٌ » وَهِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ ، أَيْ عَمَادَتُهُ وَقُورَمُ
التَّصِيحَةُ .

« النصيحة » : كلمة يعبر بها عن إرادة الخير للمتصوح له ، وأصل النصيح في اللغة : الخلوص ، ومنه : نصحت العمل إذا صقيته من الشيع وأخلصته منه ، وأصل : مأخوذ من نصح الرجل لونه إذا خاطه ، فشيء فعل الناصح فيما يتحرره للمتصوح له بإصلاح الثوب .

« أئمة المسلمين » : حكامهم .

« عاينهم » : سائر المسلمين غير الحكام .

فقد احدثت وما يرشد إليه :

١- النصيحة لله : وتكون بالإيمان بالله تعالى ، ونفي الشريك عنه ، وترك الإلحاد في صفاته ، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها ، وتربيته سبحانه وتعالى من جميع القائلين ، والإخلاص في عبادته ، والقيام بطاعته وتجنب معصيته ، والحب والبغض فيه ، وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه . والقيام بالسلم لهذا في أقواله وأفعاله يعود بالنع على في الدنيا والآخرة ، لأنه سبحانه وتعالى حي عن يصح الناصحين .

٢- النصيحة لكتاب الله : وتكون بالإيمان بالكتب السماوية المبررة كلها من عند الله تعالى ، والإيمان بأن هذا القرآن حاكم لها وشاهد عليها ، وهو كلام الله تعالى المنجز ، حفظه في الصدور والسطور ، وتكفل سبحانه بذلك ﴿ إِنَّا نَحْنُ وَإِلَهُ الذِّكْرِ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وتكون نصيحة المسلم لكتاب ربه عز وجل :

أ- بقرائه وحفظه : لأن في قراءته اكتساب العلم والمعرفة ، وحصول طهارة النفس ، وصفاء الضمير ، وزيادة التقوى . وفي قراءة القرآن حسنة عظيمة لكتب في صحيفته ، وشفاعته بعدها في النظارة يوم القيامة ، روى مسلم عن رسول الله ﷺ « لَمَّا رَأَوْا الْقُرْآنَ ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لِأَصْحَابِهِ » . وأما حفظ كتاب الله تعالى في الصدور ، ففيه إعمار القلوب بنور كتاب الله ، وتقدير عظيم وشرف بهالة

المسلم فيصبح شاعراً بين الناس في الدنيا ، ودرجة عالية يرتقي إليها بمقتضى ما حفظ من آيات كتاب الله وسوره في الآخرة ، روى أبو داود والترمذي عن رسول الله ﷺ : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » .

ب - ترتيله ولحسي الصوت بقراءته ، مما يجعل القراءة أوقع في النفس ، وأسمع في القلب ، روى البخاري عن رسول الله ﷺ : « ليس منا من لم يغن بالقُرآن » .

ج - يتدبر معانيه ، وتفهم آياته ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى غَلَبٍ أَلْفَاظُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] .

د - بتعليمه للأجيال المسلمة ، لتقوم بعبء المسؤولية في حفظ كتاب الله ، ولي تعلم القرآن وتعليمه سبل عروضا وسعادتنا ، روى البخاري عن رسول الله ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

هـ - بالتفكير والعمل ، فلا خير في قراءة لا فقه فيها ، ولا خير في فقه لا عمل به ، وأهم ما تحصل عليه من ثمرات قرآنية باعثة : إنما نصل إليها بعد فهم وعمل ، وفيح بنا أن نعلم ولا نعمل ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ . كَثِيرٌ مِمَّنْ يَقُولُ أَنَّ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾ [القصص : ٢ - ٣] .

٣- الشريعة لرسول الله : وتكون بتصديق رسالته والإيمان بجميع ما جاء به من قرآن وسنة ، كما تكون بحبه وطاعته ، وفي حبة رسول الله ﷺ حبة الله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] وفي طاعة رسول الله ﷺ طاعة الله عز وجل ﴿ مَنْ طَعِبَ رَسُولَ فَقَدْ طَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] والصبح لرسول الله بعد موته ، يقتضي من المسلمين أن يفرقوا بينه في يومهم ، وأن يتحفظوا بأحلافه ﷺ ويتأدبوا بأدابه ، ويلتزموا سنته بالقول والعمل ، ويسعدوا من حياته وأيامه القروس والعمر والعظمت ، وأن يسهموا في نشر السنة

بين الناس ، وأن بلغوا عنها جميع الأعداء والغرضين ، ودعائوى المبتلىين ويدع الخافين .
 ١ - النصيحة لأئمة المسلمين : وأئمة المسلمين إما أن يكونوا الحكام أو من يتوب عنهم ، وإما أن يكونوا العلماء والمصلحين .

فأما حكام المسلمين فيجب أن يكونوا من المسلمين ، حتى يحب طاعتهم ، قال تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ مَنكُم ﴾ [النساء : ٥٩]
 ونصيحنا هم أن يحب مصالحهم ورشدتهم وعدلهم ، لا أن نحبهم لأشخاصهم ، ولما يتحقق من مصالحها الخاصة على أيديهم ، وأن يحب احتياج الأمة في ظل حكمهم العادل ، ويكره افتراق الأمة وصيغة الناس في ظل حكمهم جائر وظالم .. ونصيحنا لهم أن نعينهم على الحق وننظريهم فيه ونذكرهم به ، ونبيهم في حق وحكمة ولطف ، فإنه لا خير في أمة لا تصح حاكمها ، ولا تقول النظام أنت ظالم ، ولا خير في حاكم يستبدن شعبه ويحكم نفوه المصلحين ، ويصم أمية عن سماح كلمة الحق ، بل يكره أن يتفوه بها أحد ، وعندما تصحح الأمة كالقطيع لا تقوم بحق النصيح للحاكم ويصح الحاكم طاعتها لا يتسل النصيحة ، فيبغى ذلك البدل والفساد والخرابة والصغار ، وهذا قاتل فروع والحدوث كلما تعرفت الأمة على الإسلام ، ونسحت وشوهت مبادئه وأفكاره في أقوال الناس وأفعالهم .

وأما العلماء والمصلحين ، فإن مسؤوليتهم في التصحيح لكتاب الله وسنة رسوله كثيرة ، وتتضمن رد الأهواء المصيلة بالكتاب والسنة ، وبين ذلكهما على ما يخالف الأهواء كلها ، وكذلك رد الأقوال الضعيفة من رأت العلماء ، وبين الصحيح والضعيف من الأحاديث المروية في كتب السنن والمسانيد ، وذلك عرضها عن قواعد الجرح والتعديل وحلل الأحاديث .

ومسؤوليتهم في تصحيح الحكماء ودعوتهم إلى الحكم بكتاب الله وسنة رسوله أكبر وأعظم ، وأئمة مسجده وتعالى سبحانه إن قصروا في هذه المسؤولية ، ولم يكونوا مجاهدين يملكون كلمة الحق في وجود الحكماء ، قال ﷺ : « إن من أعظم الجهاد

كلمة حق عند سلطان حائر . وسبحانهم إذ هم أعزوا الحاكم بالحق في طمسه
وعيه عندهم الكادب . وحملوا من أنفسهم أثراً للحكام ومطية ، والفرق كبير
حداً بين أن يعضوا في قاذرة سلاطين العلماء ، وبين أن يصيحوا ديلاً في قاذرة خدام
الحكام .

ونصحنا هم أن تذكرهم هذه المسؤولية النقا على عاتقهم ، وأن يصدقهم بما
يروونه من أحداث ما داموا أهل ثقة . وأن يصون كسبنا عن تخرجهم أو ذمهم ،
فإن هذا يفقدهم الحياة ، ويحطهم أهل التهمة .

٥ - الصيحة لعامة المسلمين : وذلك بإرشادهم لمصالحهم في أمر آخرهم
وديارهم . وما يؤسف له أن المسلمين قد تناولوا في القيام بحق نصيح بعضهم بعضاً
وحاصة فيما يفتشونه لأخبرتهم ، وقصروا على تعاتباتهم عن مصالح الدنيا
ورحارتها . . ويجب أن لا تقتصر الصيحة على القول ، بل يجب أن تتعدى ذلك
إلى العمل ، فظهر الصيحة في المجتمع الإسلامي سبباً للمعصية ، وبدأً للفتن ،
ودعاً للضرر ، وجلباً للمصالح ، وأمرأ بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وتوقيراً للتكبر ،
ورحمة بالصغير ، وتركاً للعش والحسد ، وإي أضر ذلك بدنياً للمصالح أو بديلاً .

٦ - أعظم أنواع الصيحة : ومن أعظم أنواع النصيح بين المسلمين : أن
ينصح لمن استشاره في أمره ، قال النبي ﷺ : « إذا استنصحت أحدكم أمراً فليصح
له » ، ومن أعظم أنواع أن ينصح أمراً في عهده ، وذلك بصبرته والنداء عنه ؛
لأن النصيح في الغيب يدل على صدق النصيح ، قال ﷺ : « إن من حق المسلم
على المسلم أن ينصح له إذا علم » .

٧ - أقوال فريدة للعلماء في الصيحة : قال الحسن البصري : إنك لن تبلغ
من نصيحتك لأخيك حتى تأمره بما يعجز عنه . وقال : قال بعض أصحاب النبي
ﷺ . والذي نفسي بيده إن شتم لأقربكم لكم بالله . إن أشت عباد الله إلى الله
أقرب يصون الله إلى عباده ، ويصون عباد الله إلى الله ، ويسعون في الأرض بالصيحة .

وقال أبو بكر المزني : ما عاق أبو بكر رضي الله عنه أصحاب محمد ﷺ صوم ولا صلاة ، ولكن شيئا كان في قلبه ، قال : الذي كان في قلبه حب قد مر وحل والصيحة في خلفه .

وقال الفضيل بن عياض : ما أدرك عبدا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام ، وإنما أدرك عبدا بسجاء الأعرس وسلامة الصدور والصح للأمة .

٨- عن أذرب الصيحة : وإن من أدب الصبح في الإسلام أن يصبح المسلم أخاه المسلم وعظه سرا ، لأن من ستر سره الله في الدنيا والآخرة ، قال بعضهم : من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي لصيحة ، ومن وعظه على رؤوس الناس فلما رآه . وقال الفضيل بن عياض : المؤمن يستر ويصيح ، والمعاشر يهتج ويخبر .

٩- ويستفاد من الحديث كما قال ابن بطال :

— أن الصيحة دين وإسلام ، وأن الدين يقع على العمل كما يقع على القول .
الصيحة فرض كتابة بحزى ، فيه من قلم به ويسقط عن الماقين .
الصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم المصيح أنه يكبر صوته ، ويخطأ أمره وأمن على نفسه للذكور ، فإن حشني على نفسه أدى فهو في سعة .

حُرْمَةُ الْمُسْلِمِ

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال : « أُبْرِتَ أَنْ تُقَابِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِنِ افْعَلُوا ذَلِكَ غُصِنُوا مِنِّي بِعَمَلَتِهِمْ وَأَتَوَّاهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ » وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى » رواه البخاري ومسلم .

الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان (باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة) رقم / ٢٥١٠ . ومسلم في كتاب الإيمان (باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله) رقم / ٢٢٠٢ وقوله ﷺ : « إِلَّا عَلَى الْإِسْلَامِ » نفرد به البخاري دون مسلم .

أهمية الحديث :

هذا الحديث عظيم جداً لأشهاده على المهمات من قواعد دين الإسلام وهي : الشهادة مع الصديقين الحارم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة على الوجه المأمور به ، ودفع الزكاة إلى مستحقيها .

شرح ألفاظ الحديث :

- « أُبْرِتَ » : أمرت .
- « النَّاسَ » : هم عبدة الأوثان والمشركون .
- « يُلِيمُوا الصَّلَاةَ » : يأتمروا بها على الوجه المأمور به ، أو يدعوها عليها .
- « يُؤْتُوا الزَّكَاةَ » : يدفعونها إلى مستحقيها .

« عَصَمُوا » : حَفِظُوا وَحَمَوْا ، وَمِمَّا احْتَصَمَتْ بِهَا : اجْتَنَبَتْ بِعَظْمِهِ مِنْ مَعْصِيَةٍ .

« إِلَّا بِحَنِ الْإِسْلَام » : هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُقْطِعٌ ، وَجَوَابٌ : لَكِنْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ عَدَّ عَصَمَةِ دَعَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ أَنْ يَقُومُوا بِحَنِ الْإِسْلَامِ مِنْ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمَنْهَاتِ .

« وَحَسَابُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ » : حِسَابُ بَوَالِيهِمْ وَصَدَقَ قُلُوبِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّهُ مَبْحَثُهُ هُوَ الْمَطْلَعُ عَلَى مَا فِيهَا .

فَقَدْ اخْتَلِثَتْ وَهِيَ يَرْشِدُ إِلَيْهِ :

١ - وَبَابَاتِ الْخَلِيفَةِ : رَوَى مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَجْهٍ مُتَعَدِّدٍ ، تَرِيدُهُ وَضُوحاً وَبَيَاناً ، فَعَنِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « أُمِرْتُ أَنْ أَفْأَكِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ، وَصَلُّوا صَلَاتِي ، وَاسْتَقْبَلُوا قَبْلَتِي ، وَأَكَلُوا ذِيحَا فَقَدْ حَرَمْتُ عَلَيْهِمْ دَعَائِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا » .

وَحَرْجُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَفْأَكِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيَكْبِتُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَوَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ «عَصَمُوا» - أَوْ عَصَمُوا دَعَائِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ - إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ » وَخَرَّجَهُ ابْنُ مَاجَةَ مُخْتَصِراً .

٢ - الْإِنْتِصَارُ عَلَى النُّطْقِ بِالشَّهَادَتَيْنِ كَافٍ لِعَصَمَةِ النَّفْسِ وَالْمَالِ : وَمِنْ ثَلَاثٍ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَنْصَرُّ مِنْ كُلِّ مَنْ جَاءَهُ يُرِيدُ الْإِسْلَامَ الشَّهَادَتَيْنِ فَنَفِطَ ، وَبَعْضُهُمْ بِهِ يَدْفَعُ وَيَجْعَلُهُ مُسْلِماً ، وَيُرِيدُ هَذَا أَحَادِيثُ قَوْلِهِ صَحِيحَةٌ لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا إِقَامَةَ الصَّلَاةِ وَإِيَاءَ الزَّكَاةِ ، فَعَنِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « أُمِرْتُ أَنْ أَفْأَكِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَخَسَّ قَالَ : لَا إِلَهَ

إلا الله عصم مني ماله وبفسه إلا بحقها ، وحصله على الله عز وجل ، وفي رواية
 لاسم : « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به » .
 وروى مسلم أيضاً عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ
 يقول : « من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم الله دمه وماله
 وحسابه عن الله عز وجل » . وذكر البيهقي عن أسماء بن زيد قال لا إله
 إلا الله ، واشتد تكبره عليه .

ولا تعارض بين الأحاديث ، بل كلها حق ، فإن مجرد الطعن بالشهادتين بعصم
 الإنسان ويصيح مسلماً ، فإن أقام الصلاة وآتى الزكاة بعد إسلامه ، فله ما للمسلمين
 وعليه ما عليهم . وإن أغفل شيئاً من أركان الإسلام ، فإن كانوا جماعة لم معة
 غفلوا ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَلَاَوْا وَلَمْ نَجِدْ لَهُمْ مَا نُكَلِّمُكُمْ بِهِ فَانْتَدِبُوا سَابِيحِينَ ﴾ [التوبة : ٥] وقال سبحانه : ﴿ فَإِنْ تَلَاَوْا وَلَمْ نَجِدْ لَهُمْ مَا نُكَلِّمُكُمْ بِهِ فَانْتَدِبُوا سَابِيحِينَ ﴾ [التوبة : ١١] . ونبت أن رسول الله ﷺ كان إذا عزا قوماً لم يُعز
 عليهم حتى يُصبح ، فإن سمع أدباً ولا أفعالاً عليهم ، مع احتمال أن يكونوا قد دخلوا
 في الإسلام .

٣- التناظر بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : وإن ما وقع من تناظر بين
 أبي بكر وعمر من الخطاب رضي الله عنهما بشأن قتيل مانعي من ركعة ، يؤكد
 ما اجتمعت عليه الأحاديث من قبول الشهادتين للدخول في الإسلام ، وقال المسلمون
 لبعضهم بشكل جهامي عن إقامة الصلاة وأداء الزكاة ، فبي البخاري ومسلم ، عن
 أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزل رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر الصديق
 رضي الله عنه بعده ، وكفر من كفر من العرب ، قال عمر رضي الله عنه لأبي بكر :
 « شئت أن أقاتل الناس وقد نزل رسول الله ﷺ » . « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا
 لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله وبفسه إلا بحقه ، وحسابه
 من الله عز وجل » فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة

والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلهم على منعه . فقال عمر : عوانه ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق .

فأبو بكر الصديق رضي الله عنه استدلل على قتال مانعي الزكاة من قوله ﷺ : « لا يحقه » ، وعمر رضي الله عنه ظن أن مجرد الإتيان بالشهادتين يعصم الدم في الدنيا ، واستدل على ذلك بعصم أول الحديث ، ثم رجع عمر إلى موافقة أبي بكر رضي الله عنهما .

ومن التؤكد أن حديث ابن عمر وهو نص صريح في قتال مانعي الزكاة ثم يكنى عبد أبي بكر ولا عمر ، ولم يلقعهما ، ولعل السبب في ذلك أن ابن عمر لم يعلم بما وقع بينهما من اختلاف لمرض أو سفر ، أو كان ناسياً لهذا الحديث الذي رواه . وهذه القصة تدل على جلالة علم أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ودقيق استنباطه وقياسه ، فقد وافق ذلك النص دون أن يكون له علم به ، وفي القصة إشارة إلى أن قتال تارك الصلاة أمر مجمع عليه بين الصحابة ، وقد ورد النص بتصريح بذلك في حديث رواه مسلم عن أم سبعة ، عن النبي ﷺ قال : « إنه يستعمل عليكم أمره فتعرفون وتشكرون » فمن أنكروا فقد برئ ، ومن كرهه فقد سمع ، ولكن من رضي وتابع « فقالوا : يا رسول الله ، ألا نقاتلهم ؟ قال : لا ، ما صلوا » .

٤ - حكم من ترك جميع أركان الإسلام : وحكم من ترك جميع أركان الإسلام إذا كانوا جماعة وهم منعة ، أن يقاتلوا عليها ، كما يقاتلون على ترك الصلاة والزكاة ، روى ابن شهاب الزهري عن حنظلة بن عدي بن الأسقع : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه وأمره أن يقاتل الناس على خمس فمن ترك واحدة من الخمس فقاتلهم عليها كما تقاتل على الخمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان . وقال سعيد بن جبير : قال عمر من الخطابات رضي الله عنه : لو أن الناس تركوا الحج

لقاتلناهم عليه كما نقائلهم على الصلاة والزكاة .

أما إذا ترك المسلم أحد أركان الإسلام وامتنع عن القيام به ، فقد ذهب مالك والشافعي إلى قتل الممتنع عن الصلاة حداً ، وذهب أحمد وإسحاق وابن المبارك إلى قتله ككفرأ . وأما الممتنع عن الزكاة أو الصوم أو الحج ، فقال الشافعي : لا يُقتل بذلك . وروى عن أحمد في ذلك قولان ، والمشهور عنه قتل الممتنع عن أداء الزكاة .

٥- الإيمان المطلوب : وفي الحديث دلالة ظاهرة لضعف المحدثين من السلف والخلف ، أن الإيمان المطلوب هو التصديق الحازم ، والاعتقاد بأركان الإسلام من غير تردد ، وأما معرفة أدلة المنكسرين والوصول إلى الإيمان بالله بها ، فهي غير واجبة ، وليست شرطاً في صحة الإيمان ، وهذا رسول الله ﷺ في حديثه هذا ، وفي غيره من الأحاديث ، ينكفي بالتصديق بما جاء به ، ولم يشترط معرفة الدليل .

٦- معنى قوله ﷺ : « إلا يحقها » : وفي رواية : « إلا يحق الإسلام » ، سبق أن أباه بكر الصديق رضي الله عنه استنبط من هذا الحق إقامة الصلاة ، وإتمام الزكاة ، ومن العلماء من استنبط منه فعل الصيام والحج أيضاً ، ومن حنفها ارتكاب ما يبيح دم المسلم إذا ارتكب محرماً يوجب القتل ، وقد ورد تفسير هذا في حديث رواه الطبراني وأبو حنيفة الطبري عن أبي أس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله تعالى » . قيل : وما حقها ؟ قال : « زنا بعد إحصان ، وأمر بعد إيمان ، وقتل نفس فيقتل به » قال ابن رجب : ولعل آخره من قول أبي أس ، بعد قيل : إن الصواب وقف الحديث كله عليه . ويشهد لهذا ما في البخاري ومسلم من عبد الله بن مسعود ، عن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

٧- الحساب في الآخرة لله عز وجل : وهو سبحانه وتعالى يعلم السرير

وبخاصة عليها . هذين كلان مؤمناً صادقاً أدعوه لبيعة ، وإن كان كاذباً مرثياً بإسلامه فإنه متعلق في الدرك الأسفل من النار .

أما في الدنيا فإن مهمة لرسول ﷺ التذكير ، قال تعالى : ﴿ وَتَذَكَّرَ بِمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ . لَسْتُ عَلَيْهِمْ غَافِلٌ . إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَتَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية : ٢٦-٢٨] . وفي البخاري ومسلم قال ﷺ لحالد بن الوليد : « إني لم أؤمر أن أتقف عن قلوب الناس ، ولا أنشق بطونهم » .

٨- ويرشدنا الحديث إلى وجوب قتال عبدة الأوثان حتى يسلموا .

٩- دعاء المسلمين وأمورهم مصونة .

الْأَخْذُ بِالْيَسِيرِ وَتَرْكُ التَّغْيِيرِ

الطاعة وعدم التعت سبل النجاة

عن أبي هريرة غيب الرحمن من منكر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة تغييرهم واختلافهم على أنبيائهم » رواه البخاري ومسلم .

أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (باب : الاقتداء بسن رسول الله ﷺ) رقم / ٦٧٧٧ / ، وأخرجه مسلم في الفضائل (باب : توقره ﷺ) ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه) رقم : / ١٢٢٧ / .

التهذيب :

لقد ذكر العلماء : أن هذا الحديث ذو أهمية بالغة وفوائد جلى ، فعمله جديراً بالحفظ والبحث :

قال النووي في شرح مسلم عند الكلام عنه : هذا من قواعد الإسلام المهمة ، ومن جوامع الكلم التي أعطيناها ﷺ ، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام .

وقال من حصر المختصر في شرحه للأربعين : وهو حديث عظيم من قواعد الدين وأركان الإسلام ، فيبقى حفظه والاعتناء به .

ومثل هذا قال غيره من الشراح الذين تناولوا هذا الحديث بالشرح والبيان ، بخمس أهمية هذا الحديث ، فيما يوجه إليه من الترام شرع الله عز وجل ، الذي لا يجوز أن يكون أمراً أو نهياً ، وما يوجه إليه من ضرورة الوقوف عند حدود ما بينه كتاب

الله تعالى ، وما فصلته سنة نبيه ﷺ ، دون إكراه أو تقريط ، ودون شطط أو تقصير .

وستجلى هذه الأهمية فيما يلي من بحث ، يكشف عن معنى الحديث ومرماه ، ويوضح صدق ما قاله هؤلاء الأجلة من أعلام المسلمين .

سبب ورود :

سبب ورود هذا الحديث وقول رسول الله ﷺ له : « ما روات مسلم في صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : حطينا رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس ، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا » فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت ، حتى لما ثلاثاً ، فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم . ثم قال : ذروني ما تركتكم ، فإنما هذك من كان قبلكم يكره سؤا لهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشي ء فأتوا به ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدهوه » .
الحج (باب : فرض الحج مرة في العمر) ، رقم / ١٣٣٧ .

ورود أن السائل هو الأقرع بن حابس رضي الله عنه ، فقد روى من صاحبه في مسنده ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن الأقرع بن حابس سأل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، الحج في كل سنة أو مرة واحدة ؟ قال : « بل مرة واحدة » ، فمن استطاع فطوىح . الحج (باب : فرض الحج) ، رقم / ٢٨٨٦ .

وعند أبي داود : « فمن زاد فهو تطوىح » / ١٧٣١ . وفي المستدرک : « فمن أراد فيطوىح » . أول كتاب المناسك .

ولعل : إن ذلك كان في حجة الوداع حين وقف رسول الله ﷺ في الناس خطيباً ، بين الناس معالم الدين ، ويعلمهم مراضئ الإسلام .

لغة الحديث :

« بينتكم عنه » : طلبت منكم الكف عن فعله ، ونهي : المنع .

« فاجتنبوه » : اجملوه في جانب ، أي التركوه ، وفي رواية « فادعوه » .

« أترككم به » : طلبت منكم أن تعلقوه .

« فأتوا » : فافعلوا ، كما في رواية .

« ما استطعتم » : ما قدرتم عليه وتيسر لكم فعله دون كبير مشقة .

« أهلك » : صار سبب الهلاك ، إذ ألوجب العقوبة في الدنيا والآخرة .

« كثرة مسائلهم » : أسئلتهم الكثيرة ، لا سيما فيما لا حاجة إليه ولا ضرورة .

« اعتلواهم عن أنبيائهم » : عصيائهم لهم ، وترددهم في أخبارهم ، وحنالهم

فما جازؤوهم به من شرخ .

فلقد احدثت وما يرشد إليه :

١ - ما نهىكم عنه فاجتنبوه : لقد ورد النهي في كتاب الله تعالى وستة رسول

الله ﷺ لثمان عدة ، والمراد به ما ما تناول أحد معيين اثنين ، هما أساس في استعمال
سبعة النبي لدى العلماء ، وهما : التحريم والتكره :

أ - نهي التحريم : هناك تصرفات سبى الله عز وجل عنها ، على لسان نبيه

ﷺ ، وقامت الأدلة على أن هذا النهي للتحريم ، أي يحرم على المكلف فعل ما نهى
عنه ، وإن قصد عوقب عليه العقوبة الشرعية شرعاً ، في الدنيا وفي الآخرة .

ومن أمثلة ذلك : النهي عن الزنا وشرب الخمر وأكل الربوا والسرقة وقتل النفس

غير حق ، وكشف العورة وإظهار النساء كثرية أمام الأجانب ، والكذب والفسخ

والرشوة ، والعبث والهمزة وشر الفساد ، وهو ذلك مما نهى عنه في شرع الله

مر وحل . وطلب المكلف عنه على سبيل الإلزام والحلم .

معنى هذه الجهات يجب احتسابها دفعة واحدة ، إجمالاً وتفصيلاً ، ولا يجوز

المختلف فعل شيء منها ، إلا إذا ألحقت إلى ذلك ضرورة ، بقيد وشروط بينها شرع

الله تعالى المحكم .

ب - نهي الكراهة : ويسمى أحياناً نهي التنزيه ، وذلك أن الشارع نهي عن تصرفات ، ولكن قامت الأدلة على أن هذا النهي للكراهة وليس للتنجيز ، أي لا يجرم على المكلف فعل ما نهي عنه ، وإن فعله لا يعاقب عليه .

ومن أمثلة ذلك : النهي عن أكل البصل أو الثوم النيء ، لمن أراد حضور صلاة الجمعة أو الجماعة ، ومثل البصل والثوم كل ذي رائحة كبرية . ونحو ذلك ، مما ثبت نهي عنه في شرع الله عز وجل ، وطلب من المكلف الكف عنه ، لكن لا على سبيل الحرم والإكرام .

فمثل هذه الملبات يجوز فعلها ، كلاً أو بعضاً ، سواء دعت إلى ذلك ضرورة أم لا ، وإن كان الأئمة يحال المسلم التقى احتساباً ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

٢ - الضرورات تبيح المحظورات : علماً أن ما نهي عنه نهي تحريم بحسب الكف عنه جملة واحدة ، ولكن المكلف قد يقع في ظروف تضطره إلى فعل المحرم ، وللحثة إلى زيار المحظور ، وإن هو امتنع عن ذلك ألقى بنفسه إلى الهلكة . وهذا بعد شرع الله تعالى الحكيم ، يخلف عن الحما ، ويبيح لهم في هذه الحالة فعل ما كان محظوراً في الأحوال العادية ، ويرفع عنهم التواحدة والإثم . قال الله تعالى : ﴿ في نفس اضطر غير باع ، ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾ [البقرة : ١٧٣] .

وعملاً بهذا واستنتاجاً منه وجميع العلماء هذه القاعدة الفقهاء : (الضرورات تبيح المحظورات) .

ومن أمثلة ذلك : إباحة أكل الميتة لمن فقد الطعام ولم يقدر على غيرها ، ويجوز كشف العورة للندوي أمام الطبيب ، وعدم قطع يد من ألجأته الحاجة والفقر إلى السرقة ونحو ذلك .

ولكن مما ينبغي التنبيه إليه ، هو ما يقع فيه الكثير من الناس ، عندما يأخذون هذه القاعدة على إطلاقها ، دون تحديد لمصى الضرورة ، أو معرفة مدى الإباحة التي تراتب عنها . وحتى لا يقع المكلفون في هذا الخطأ ، نجد الفقهاء حددوا مصى

الضرورة : مما يعمل الإنسان في خطر يهدده بالثوت ، أو بالإلحاق عظيم من أعضائه أو زيادة مرضه . ونحو ذلك مما يتقرر معه قيام مصالح الحياة ، أو بجمعها في مشقة وعسر لا يتحمل . وفي الوقت نفسه احتجوا بمدى الإباحة بما يندفع به الخطر ، ويؤول به الاضطراب ، فوضعوا هذه القاعدة : (الضرورة تقدر بقدرها) . أخذاً من قوله تعالى : ﴿ عِزِّ مِائِمْ وَلَا عِزِّ مِائِمْ ﴾ أي عز فاحدد للمخالفة والعصية ، وغير متعدد حدود ما يدفع عنه الاضطراب .

فمن اضطر لأكل ميتة ليس له أن يمتنع بها أو يدهر ، ومن اضطر أن يسرق ليصمم عياله ليس له أن يأخذ ما يريد عن حاجة يوم وليلة ، ومن اضطر لكشف العورة لعدم الطبيب ليس له أن يكشف عن غير موضع الألم ، وغير الموضع الذي يحتاج الطبيب إلى كشفه لضرورة المعالجة . ومن اضطر لمعالجة نيس لها الذهب إلى طبيب رجل وهناك امرأة تقوم بعينه ونحوي عنه .

وليس من الاضطراب في شيء التوسع في الدنيا ، والحصيل الكماليات ، وإتلاف المراحة ، ومسايرة المجتمع في عاداته المستوردة . فمن كان داراً زاهلاً قليل ليس مضطراً للتعامل بالزنا لتوسع تجارته . ومن كان له مسكن صغير متطرف ، ليس مضطراً كذلك حتى يباح له أن يحصل مسكناً فخماً لأنك من أي طريق ، ومن كان لما روح أو ولي يُلحق عياله ليست مضطراً ، حتى يباح لها الاختلاط بالرجال أو الحيوة بهم ، في الوظيفة أو العمل ، وكذلك : من كانت مضطراً إلى العفة ونيسر لها عمل ليس فيه مثل هذا المخطور وليس لها أن تعمل فيما فيه عذور ، بل لا يباح لها مطلقاً أن تعمل حال الحلو أو الاختلاط ، دفعاً للمفسدة التي تحرّ ثمرات على العاد والبلاد . وعيلاً لمقاومة : (ذرة الفساد مقدم على جلب المصالح) . ومن كان له معاملة ، ليس مضطراً لدفع الرشوة حتى يسهل مبرها . ومن كان له علاقات مع الناس ، ليس مضطراً لأن يحسن معهم على موافاة الفخر ويسكت عن مكرهم . ومن كانت ذات روح متهوكة ، ليست مضطراً لأن تلعب بالناس الخشنة وحساب العياد ، فتترك الآداب الطهرية والباس القوامات ، تنحصر عن إعطائه ورصده

٢- التزام الأمر (أقسام الأمر والتزام للمأمورات) :

لقد ورد الأمر في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ لمعان عدة ، وقد اتفق من يعتد بهم من العلماء ، على أن الأصل في الأمر هو الطلب ، وأنه يقول أحد معبري أساسين هما : الإيجاب والتدب ، وهذا المعنى هو المراد بقوله ﷺ : « وما أمرتكم به » أي أمر إيجاب أو أمر تدب ، وإليك بيان ذلك :

أ - أمر الإيجاب : أمر الله تعالى على لسان نبيه ﷺ المسلمين ، أن يقوموا بتصرفات ، وقامت الأدلة على أن أمره بذلك للإيجاب ، أي يجب على المكلف فعل ما طلب منه بهذا الأمر ، وإن تركه عوقب على تركه ، كما أنه إن فعله أثيب على فعله ، وتصرف المطلوب بمثل هذا الأمر يسمى : واجباً .

ومن أمثلة ذلك : الأمر بالصلاة والزكاة والحج والصيام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأمر بالوفاء بالعقود وأداء الشهادة لمن لحملها ، والحكم بما أنزل الله عز وجل ، والأمر بإقامة الحدود والعدل بالحكم ، والبيعة على الأهل والأولاد بالمعروف ، ونحو ذلك ، مما استلزم الأمر به في شرح الله عز وجل ، وطلب فعله من المكلف على سبيل الختم والإلزام .

فمثل هذه المأمورات يجب أدائها ، ولا يجوز التهاون في شيء منها ، ولا يعتبر المكلف بالإحلال لها ، إلا إذا قللت بعض شروطها أو أسبابها ، أو حالت الواقعة دون تحقيقها ، أو تبس أدائها بطرف توقع العقاب بها في حرج وعسر .

ب - أمر التدب : وذلك من الله تعالى ، أمر المسلم ، على لسان نبيه ﷺ ، بتصرفات كثيرة ، وقامت الأدلة على أن هذا الأمر لتدب ، أي لا يجب على المكلف فعل ما طلب منه بهذا الأمر ، وإن تركه لا يعاقب على تركه ، وإن فعله أثيب على فعله ، والتصرف المطلوب بمثل هذا الأمر يسمى : مستحباً .

ومن أمثلة ذلك : الأمر بالنسب لزوجات مع المصلوات الخمس ، والأمر بالأدب ، والأمر بالتوسعة في البيعة على الأهل والعيال ، والإلتفات في سبل الخير فيما ردد عن

تركاة المفروضة ، والأمر بكفارة الذين ، والحمل الشهادة ، والأكل باليمين ، وبحو ذلك ، مما ثبت الأمر به في شرع الله عز وجل ، وطلب من المسلم فعله ، لكن لا على سبيل الحزم والإلزام ، وإنما على سبيل التنبه والاستحياء .

فمثل هذه الأمور يُستحسن بالمسلم فعلها والتزامها ، وإن كان يجوز له تركها كلاً أو بعضاً ، سواء توفرت الشروط وميأت الأسباب أم لا ، أوقع فعلها في مشقة وعسر أم كان في سهولة ويسر ، فلا يؤخذ المكلف بترك شيء منها مؤاحضة إثم وغتاب ، وإن كان يؤخذ في ترك بعضها على الخصوص ، أو تركها إجمالاً مؤاحضة لثوم وعتاب .

٤- المشقة تجلب التيسر : من المعلوم أن شرع الله عز وجل يهدف إلى تحقيق السعادة المطلقة للإنسان ، في كل من دنياه وآخرته ، ولذلك جاء بالتيسر على العباد ورفع الحرج عنهم ، قال الله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ . [البقرة : ١٨٥] . وقال : ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ . [الحج : ٧٨] . وقال ﷺ : « إن هذا الدين يسر .. يسروا ولا تعسروا ، أخرجني البخاري .

ومن الثالث شرعاً : أن الله تعالى أباح السفر في رمضان للمسافر والمريض ، كما أباح قصر الصلاة وجمعها للمسافر ، وأباح التيمم عند فقد الماء أو ضرر استعماله ، وغير ذلك من الأحكام التي يُسميها العلماء : رخصاً .

واعتقاداً على ما ثبت في شرع الله عز وجل من اليسر ورفع الحرج ، وأخذاً من حديث الباب ، وضع الفقهاء هذه القاعدة : « المشقة تجلب التيسر » وقرعوا عليها مروءات كثيرة من عظمهم ، واعتبروها مبدأً من المبادئ التي يقوم عليها الفقه الإسلامي .

ومعنى هذه القاعدة : أن المكلف إذا أحاطت به بعض الظروف ، جعلت من العسر عليه القيام ببعض الواجبات الشرعية ، وأوقعه التزامها على الوجه الأكمل في شقة وعسر ، كانت تلك المشقة سبباً للتيسر والتخفيف ، بحيث يسهل الأداء ويدفع

المخرج ، ويبقى المكلف في سعة من أمره .

ومن أمثلة تطبيق هذه القاعدة : العفو عن بعض التجاسات التي يصعب التحرر عنها ، كعدم الفروج والدمامل وطعن الشارع الذي لا يخلو من نجاسة علناً ، وانتظهر من هذه التجاسات يُوقع المكلف في عسر ، وربما صعب عليه القيام بكثير من العبادات ، فلعفي عنها تخفيفاً وتيسيراً .

ومن أمثلتها أيضاً : العفو عن الجهالة التي تقع في بعض المفرد أحياناً ، مثل دخول الخمر ، فإن المدة التي يمكثها المستحرم بجهولة ، وكذلك كمية الماء التي يستهلكها ، وربما كانت الأجرة أيضاً بجهولة في كثير من الأحيان ، ومن الصعوبة بمكان أن تحدد هذه الأمور وتوضح في عقد مع كل داخل إلى الخمر ، والناس في حاجة إلى ذلك ، ولا يسعهم الاستغناء عنه . ومن الدخول إلى الخمر في كل ما سبق استتجار الخلاق .

ويمكن أن يفرع عن هذه القاعدة كثير من الأمور المستحقة ، كالركوب في وسائل النقل الكبيرة والصغيرة ، وإلا الأصل في الشرع : أنه لا بد في هذا من إجراء عقد تبين فيه الأجرة والشقة قبل الركوب .

• حدود المشقة التي تستدعي التيسير : قد يلدس الأمر على بعض المكلفين أحياناً ، فيظنون أن أدنى مشقة وعسر ، قد يعظمهم من الواجب ويبرر لهم تركه ، وربما تعتبر بذلك الكثير من المتأولين في الفير ، والمضوء فريضة للتحلل من شرع الله عز وجل ، ولذا نجد الفقهاء قد بيروا لها أنواعاً للمشقة ، ووضعوها ضابطاً للنوع الذي يؤخذ بهين الاعتبار ويكون سبباً للتيسير والتخفيف .

— هناك نوع من المشقة ملازم لتكاليف الشرعية ، لا تنفك عنه في حال من الأحوال ، لأنه من طبيعة التكليف ، فمثل هذا النوع من المشقة لا أثر له في إسقاط الواجبات أو تخفيفها .

فليس لأحد أن يعطر في رمضان لشعوره بشدة الجوع ، كما أنه ليس لأحد قدر

على نفقات الحج ، وهو صحيح البدن ، أن لا يبيع ، لما في البيع من مشقة السفر
 والبعد عن الأهل والوطن ، وليس لأحد أن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
 لما في ذلك من توقع الأذى والرد . وغير ذلك من أمور ، لأن هذه النفقات من الأمور
 العادية ، التي ليس فيها كبير عناء ، ولا تكاليف لغير من مشتها نعمة من نعمات الحياة ،
 ولو كان لها تأثير لما كان تكليف أصلاً ، ولما قامت الشرائع ، ولقد كانت مصالح المعبود
 في الدارين .

— وهناك نوع مشقة ليس من طبيعة التكليف ، ويمكن أن تنفك عنه الواجبات
 في كثير من أحوالها ، بل هو من الأمور الطارئة والمعارضية ، والرائدة عن القدر الذي
 تقتضيه التكليف في الظروف العادية ، وهذا النوع من المشقة على مرتبتين :
 المرتبة الأولى : توقع المكلف في عسر وضيق خفيفين ، كالسفر القصير والمرض
 الخفيف وهوان المذموم المادية ، فمثل هذه المشقة لا أثر لها أيضاً في إتمام الواجبات ،
 ولا يلتفت إليها ولا تحبر ، لأن ما يحبه المكلف من مصالح أخروية ودينية بأدائه
 الواجبات ، يلوذ بهاء تلك المشقة ، ويقدم على دفعها .

المرتبة الثانية : مشقة رائدة ، تهدد المكلف بخطر في نفسه أو ماله أو عرضه ،
 كسر قدر على الحج مثلاً ، وعلم أن في الطريق قطاع طرق ، أو عفاف من إساءة
 يترقب غريبه ليسرق ماله أو يعتدي على أهله ، وغير ذلك ، مما يعسر حرجاً وصيقاً ،
 في عرف ذوي العقل والدين . فمثل هذه المشقة هي المعصرة شرعاً ، وهي التي تؤثر
 في التكليف ، وتوجب الإسقاط أحياناً أو التحفيف ، لأنها بما لا يحصل عادة ، وعدم
 الاعبات إليها قد يعثر على المكلفين الكثير من المصالح ، فلي جاء شرع الله عز وجل
 برعايتها .

٥- المسور لا يسلط بالعصور : هذه قاعدة ظهية أيضاً ، استنبطها الفقهاء
 من هذا الحديث . قال البيهقي في الأشباه والنظائر : قال ابن السكيت : وهي من
 أشهر أقواله المسبطة من قوله عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا بِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ » .

ومعناها : أن التكليف قد يكون في حالة ، يعتمد عليه فيها فعل الأمر به كله أو يترك عليه ، بينما يتيسر له فعل بعضه ويقدر عليه ، فيجب في هذه الحالة فعل الجزء المتيسر ، ولا يكون لعدم بعض الواجب أو عجزه سبباً في سقوط المطالبة بالتكليف أو عدم التكليف .

ومن أمثلة تطبيق هذه القاعدة - أنه إذا وجد الحدث ماء لا يكفي لرفع حدثه ، وجب عليه استعماله في بعض أعضائه ، ويتمتع عن الباقي ، ولا يصح تيممه قبل استعمال الماء الموجود . ومن وجد ما يستتر بعض عورته وجب عليه ستر ما لم يكن منها - ومن شفي من مرضه وسط النهار وجب عليه إمساك ثيابه يومه . وكذلك الحائض إذا لم تقطع حيضها ، مع وجوب القضاء عليهما . ومن قدر على حره من نفقة قريبه الفقير وجب عليه بدله له ، ومن قدر على تغيير حره من ملكه أو تخفيفه ، وجب عليه فعل ذلك . وهو ذلك من تطبيقاتها في الفروع كثير .

وقد يستدل هذه القاعدة وتطبيقاتها بما رواه البخاري : عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : كانت لي بواوير ، فمأنت النبي ﷺ عن الصلاة فقال : « عمل قائما ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فقل جنب » .

كآل الامتثال وحسن الاقتداء : إن كل ما جاء في شرع الله عز وجل من شيء تحريم أو كراهة ، وأمر بإيجاب أو ندب - على المعنى الذي علمته وسبق بيانه ، باستنائه وقواعده وصوابه - فهو في مقدور التكليف وضمن طاقته ، لأنه تكليف ثابت بالشرع ، والله سبحانه وتعالى لم يكلف عباده إلا بما يستطيع ، قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ تِلْكَ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وعلى هذا ، فلا يحصل الامتثال الكامل من المسلم ، إلا باجتناب جميع النهيات وفعل كل الأمور على قدر السبق ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا أَنَا فَأَنَا أَرْسُولُكُمْ فَخَلُّوه وَمَا تَهَاجَمُوا عَنْهُ فَأْتُوا ﴾ [الحشر : ٢] .

ومن ترك بعض الأمور أو فعل بعض النهيات ، لم يمتثل مقتضى الأمر والشيء

على الوجه الكامل ، وصدق عليه أنه حاصل أو مخالف .

والمسلم مدعو للاقتداء برسول الله ﷺ فيما لم يثبت أنه من خصوصياته ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ ﴾ [الأحزاب : ٢١] . ورسول الله ﷺ لم يكن له ترك ما مورأ به أو يقارب منبأ عنه ، إلا ما كان يائناً للتشريع وإيضاحاً للوعية التكليف .

وعلى ضوء ما سبق نفهم قوله ﷺ : « ما أمرتكم به فأتوا به ما استطعتم » . وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْتَعْتُوا وَانْطَبِحُوا ۝ ﴾ [التغابن : ١٦] . وما ورد في هذا المعنى ، كقوله ﷺ : « إنكم لن تطيقوا ولن تلتفتوا كل ما أمرتكم به ، ولكن مددوا وأنشروا » . رواه أحمد وأبو داود . أي اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة ، والسداد : التصدي في الأمر والعديل فيه دون غلو ولا تطريط .

٦- التشديد في اجتناب المنيات واستتصال جلود الفساد :

يسمى شرع الله عز وجل دائماً للحيلولة دون وقوع بشر ، أو بزوغ بطور الفساد ، ولذا نجد الاهتمام بأمر المنيات ربما كان أبلغ من الاهتمام بالمأمورات ، ولا يعني ذلك التساهل بالمأمورات ، وإنما التشديد في اجتناب المنيات عامة ، والمحرمات على وجه الخصوص ، لأن نهي الشارع الحكيم لم يرد إلا لما في الشيء من مصاد أكيد وضرر محتم ، ولهذا لم يعلن أحد بارتكاب شيء من المحرمات ، إلا عند الضرورة الملحة والحاجة الملحة ، على ما قد علمت .

ومن هنا يتبين خطأ مسلك الكثير من المسلمين ، لا سيما في هذه الأمانة ، التي شاع فيها التساهل في حياة الناس ، عندما تجدهم يحرصون على فعل الطاعة والواجب ، بما تشددوا في التزام المنوبات والمستحب ، فيما تجدهم يتساهلون في المنيات ، وربما زادوا الكثير من المحرمات ، فبعد فصام يتعامل بالربا ، والحاجة المكية تخرج ساقطة ، متعديين بمسابقة الزمن ومواظبة الركب ، فحين أن عبادتهم هذه تسببهم عند الله عز وجل ، ونكبتهم لالتماعهم في سلك السفير وزمرة الشقيين ، يوم العرض

عن رب العالمين ، وهذا خلاص ما تقرّر في شرع الله الحكيم ، وثبت في سنة إمام
الموسين ، وفهمه الأجلاء من الصحابة والأئمة والتابعين ، من أن أصل قاعدة احتساب
ما حرم الله عز وجل ، وطريق النجاة بمجاهدة النفس والقوى ، وحملها على ترك
المحرمات ، وأن ثواب ذلك يفوق الكثير من ثواب فعل الواجبات . فهذا رسول الله
ﷺ يقول : « حق المعلوم تكن أعبد الناس » . رواه الترمذي . وهذه عائشة رضي
الله عنها تقول : من مرّه أن يسق المذنب المنيء فليكف عن الذنوب . وهذا عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه يُسأل عن قوم يشتبهون المعصية ولا يعملون بها ، فيقول :
أولئك قوم امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم . وقال عبد الله بن
عمر رضي الله عنهما وهو ينادي العابدين : لردّ داني من حرم أفضل من مائة ألف
تُغفر في سبيل الله . [السابق : هو سندس درهم من فضة]
وقال الحسن المصري رحمه الله تعالى ، وهو سيد التابعين : ما عبد العابدون
بشيء أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ليست التقوى قيام الليل وصيام النهار
والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن التقوى أداء ما افترض الله وترك ما حرم الله ، فإن
كان مع ذلك عمل فهو خير إلى خير .

وهكذا يتقرر لدينا أن ترك المعصية أول من عمل الطاعة ، ولا يعني ذلك — كما
قال — أن يتساهل المسلم بالواجبات ، كما يروق لبعض مرضى القلوب وضعاف
النفوس ، أن يتهاونوا في شرع الله عز وجل ، فلا يفعلون شيئاً من الواجبات ،
ويزعمون أنهم هم خير من الصالحين الصالحين ، يدعوى أن معاملتهم مع الناس
حسنة ، والدين حسن المعاملة ، وأنهم لا يفترون المواهب والكرامات .

فموقف هؤلاء ، والدين من ملهم ، انحراف عن طريق الهداية . ونشويه لفهم
الإسلام وسلوك المسلمين ، كما تبين لك فيما سبق من بحث .

٧- ذرة المفاسد مقدم على جلب المصالح . هذه قاعدة فقهية عامة ، وضعها

القضاء استباحاً مما تقرر لديهم من تشديد الشارع في أمر الشبهات ، ومعناها : أنه إذا عرضت قضية وتعارض فيها جانب مصلحة وجانب مفسدة بحيث إذا روعي جلب المصلحة تخلفت المفسدة ، وإذا روعي دفع المفسدة ضاعت المصلحة ، فإنه يتجمل في هذه القضية مراعاة جانب دفع المفسدة في الفعل أو الترك ، لأن المفسد يسرع انتشارها ويسري تأثيرها سريان الحريق في العشب اليابس ، فمن الحكمة والحزم المحبولة دون وقوعها ، ولو ترتب على ذلك حرمان من منافع أو تأخير لها .

ومن تطبيقات هذه القاعدة في الفروع : منع بيع العنب لمن علم أنه مبيصره محرراً ، ولو أعطاه ثمناً أعلى من غيره ، ومنع التاجرة بالشحور أو الصديعة ، ولو كان في ذلك ربح مادي أو مصلحة اقتصادية ، ومثل ذلك التعامل بأي محرم شرعاً . وكذلك تمنع المرأة من العمل ولو كان فيه تنفع لها ، إذا كان فيه اختلاط مع الرجال أو خلوة بهم ، فضلاً عما يتبع من ذلك غالباً من مفسدة الفجور والوقوع في الرذيلة ، بل ويمنع الرجال أيضاً من مثل هذا العمل . وتطبيقات هذه القاعدة في الفروع كثيرة .

هذا ويمكن أن يستدل - أيضاً - هذه القاعدة وتطبيقاتها ، بما ثبت من فيه **المرأة أن تسافر وحدها** ، دون أن يكون معها زوجها أو أحد محارمها من الرجال . روى البخاري ومسلم - واللفظ له - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم » . أي رجل يحرم عليها الزواج منه على التأييد .

ومن الجدير بالذكر : أن اعتبار وجود المصلحة أو ترتب المفسدة إنما يبنى على غالبية الظن لا على التحقيق ، ويراعى فيه الغالب الشائع ، ولا يلتفت فيه إلى النادر ، عظاماً أن فعلاً ما يوجب على الظن وقوع مفسدة به هو مجموع ، ولو لم تملك الدليل القاطع على ذلك ، وكذلك إذا كان من شأنه حدوث المفسدة عادة ، ولو تكررت حدوثه مرات دون أن تتبع عنه أية مفسدة .

لا اعتبار للمفسدة الرجوح : هناك تصرفات تعطي على شيء من المفسدة ،

ولكنها لحق مصلحة واضحة تفوق المفسدة كثيراً وترجع عليها ، ولعلك يُباح التصرف لو يجب ، نظراً إلى المصلحة الراجعة فيه ، ولا يلتفت إلى المفسدة لأنها مرجوحة . ومن أمثلة ذلك : إباحة جر عضو حليل في بئر حَفَظَ حياة المكلف ، وكذلك الكذب بقصد الإصلاح بين المتخاصمين . وفي الحليقة : يرجع هذا وأمثاله إلى العمل بأخف المفسدين تعدياً لأشدّها ، إذ مفسدة بقاء العضو الحليل ، الذي قد يؤدي بحياة المكلف ، أشد من مفسدة بئره . ومفسدة استمرار الخصومة بين الناس ، التي قد تمجر إلى تأصيل العداوة والبغضاء ، وتوقع في كثير من الفتن ، أشد من مفسدة الكذب الذي لا يُوقع ضرراً بأحد ، ولا يضيع حق أحد .

٨- من أسباب هلاك الأمم :

لقد بين الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، أن من أسباب هلاك الأمم وشق عصاها وللأذى قوتها واستغفالها عذاب الاستعصال — أحياناً — أمرين اثنين هما :

— كثرة السؤال والتكلف فيه ، والاختلاف في الأمور وعدم التزام شرح الله عز وجل ، وإليك بيان ذلك :

الشي عن السؤال والترخيص فيه : لقد بين الرسول ﷺ أصحابه عامة أن يكثرُوا عليه من الأسئلة ، عشية أن يكون ذلك سبباً في إقناعهم بالتكاليف ، وبدأ باب التصطع والتكلف والاشتغال بما لا يعني ، والسؤال عما لا تقع فيه إن لم تكن مضرة ، ودوماً عن أن ينجح المسلمون منهج من قبلهم في المعركة والجدل . روى البخاري وغيره ، عن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يبي عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال .

ولقد أدرك أصحابه اللازمون له من المهاجرين والأنصار هذه الغاية ، فكانوا لا يسألونه عن شيء حتى ولو رغبتم تفويضهم في ذلك استقلالاً لأمره ووفقاً عند نيه ، وهم الذين ربيع الإيمان في قلوبهم ، فجعلوا هواهم تبعاً لما يرضى رسول الله ﷺ .

وربما لم تكن هناك حاجة هؤلاء لأن يسألوا ، وهم يعيشون مع رسول الله ﷺ الذي يلغهم ما يوحى إليه فزور قوله ، ووحى السماء لا ينقطع عنهم ، فإذا ما حدثت حادثة كان أسرع إليهم بيان ما يحتاجون إليه في دينهم ابتلاء من غير سؤال ، كي لا يقولوا على ربة من أمرهم : ﴿ بين الله لكم أن تضلوا ﴾ [النساء : ١٢٦] . أي لأجل أن لا تقعوا في الضلال ، وحيطة لا حاجة إلى السؤال عن شيء ، ولا سيما قبل وقوعه والحاجة إليه ، وإنما الحاجة إلى فهم ما نزل وإدراك ما أخبر به رسول الله ﷺ ، ثم اتباعه والعمل به . قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله : ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم .. ﴾ [المائدة : ١٠١] للعنى : انتظروا ، فإذا نزل القرآن ، فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم نبيانه .

وأما أولئك الأعراب والوافدون على المدينة ، الذين لم يتوفر لهم أن يعيشوا مع الوحي كسابقهم ، فكان رسول الله ﷺ يرحمهم فلم أن يسألوه ، تألفاً لهم وتيسيراً عليهم ، وترويضاً لهم بالعلم والمعرفة التي يحتاجونها في أمر دينهم ، والتي لا يستطيعون تحصيلها في أي ساعة أرادوا .

لذلك ربما بقي أحدهم في موطنه لا يهاجر ، حفاظاً على التمتع بهذه الرحمة لما لديه من الرغبة في السؤال عما يحطر له من شؤون دينه . روى مسلم : عن النواس ابن سمعان رضي الله عنه قال : أقمت مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنة ، ما يمنعني من الفجرة إلا المسألة ، كان أحداً إذا هاجر لم يسأل النبي ﷺ . أي إنه أقام في المدينة كثر ولم يستوطن فيها ، ولم يمنع من الفجرة والاستيطان إلا حبه للسؤال الذي يمنع عنه هجرته .

ولقد كان سؤال هؤلاء الوافدين يوافق رغبة في كثير من الأحيان لدى المهاجرين والأنصار والمهاجرين به ، ولا سيما إذا كان الجواب فيه بشارة بحجر ، أو بيان لما يوجه إلى طريق الجنة .

روى مسلم : عن أنس رضي الله عنه قال : نهيت أن نسأل رسول الله ﷺ عن

شيء ، فكان يصحنا أن يجيء الرجل من أهل البادية ، العاقل ، قيساً له ونحن نسمع .
وروى البخاري ومسلم : عن أنس رضي الله عنه : « أن رجلاً من أهل البادية
أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، متى الساعة قائمة ؟ قال : وبلك ، وما أعددت
لها ؟ قال : ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله . قال : إنك مع من أحببت .
فقلنا : ونحن كذلك ؟ قال : نعم . ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً » .

٩- السؤال وحكمه :

إن السؤال على أنواع ، يختلف حكمها باختلاف الباعث عليها ، والأثر الذي
يمكن أن يترتب عنها :

أ - مطلوب شرعاً ، وهو على درجات :

فرض عين على كل مسلم : بمعنى أنه لا يجوز لمسلم تركه والسكوت عنه ، وهو
السؤال عما يجهله من أمور الدين وأحكام الشرع ، مما يجب عليه فعله وبطلان بأدائه ،
كأحكام الطهارة والصلاة إذا بلغ ، وأحكام الصوم إذا أدرك رمضان وكان صحيحاً
عليماً ، وأحكام الزكاة والخروج إذا ملك المال أو كان لديه استطاعة ، وأحكام البيع
والشراء والمعاملات إذا كان يعمل بالتجارة ، وأحكام الزواج وما يتعلق به لمن أراد
الزواج ، وأحكام الجهاد لمن كان جديداً في صفوف الجيش ، ونحو ذلك مما يسأل
عنه المكلف حسب حاله في مختلف أطوار حياته . وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ قَالُوا
أَعْلَى الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] . وعليه حمل ما رواه البيهقي في
شعب الإيمان ، من قوله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » أي ومسلمة .

فرض كفاية : بمعنى أنه لا يجب على كل مسلم ، بل يكفي أن يقوم به بعضهم ،
وهو السؤال للتوسع في الفقه بالدين ، ومعرفة أحكام الشرع وما يتعلق بها ، لا للعمل
وحده ، بل ليكون هناك حافظة لدى الله عز وجل ، يقومون بالفقوى والقضاء ،
ويحملون لواء الدعوة إلى الله تعالى ، ويعلمون باقي المسلمين ما يحتاجون إليه من أمور
ديهم ، ليجتنبوا أسباب الضلال والزلل ، ويستذكروا سبيل الهدى والرشاد ، وفي هذا

يقول الله تعالى : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [التوبة : ١٢٢] أي لا ينبغي أن يخرج المسلمون جميعاً للجهاد ، بل ينبغي أن تصرف منهم جماعة تبحث عن العلم وتسال عنه ، وتفتقه في دين الله تعالى ، لتكون معلمة وموجهة للأمة عندما تعود من الجهاد .

وفي هذا يقول رحمه الله : « ألا فليعلم الشاهد منكم الغالب » . متفق عليه .
ومثل ابن عباس رضي الله عنهما عن سب نيله العلم الواسع فقال : إني أعطيت لساناً مسؤولاً وقلباً عفوياً .

مندوب : يعني أنه يستحب للمسلم أن يسأل عنه ، وذلك مثل السؤال عن أعمال قبر والتقربات الزائدة عن الفرائض ، ومثل السؤال للتأكد من صحة ما يلزم به المكلف من واجبات ، وما يستعد عنه من المنهايات .

ب - سؤال مني عنه ، وهو على درجات أيضاً :

حرام : أي يأثم المكلف به ، ومن ذلك :

— السؤال عما أحقاه الله تعالى عن عباده ولم يطلعهم عليه ، وأعبر أن علمه خاص به سبحانه ، كالسؤال عن وقت قيام الساعة ، وعن حقيقة الروح وماهيتها ، وعن سر القضاء والقدر ، ونحو ذلك .

— السؤال على وجه التعت والتحت والاستيلاء ، روى البخاري : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استيلاءً ، فيقول الرجل : من أي ؟ ويقول الرجل لظيل ناقته : أين ناقي ؟ فأمر الله هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن لن يؤدبكم الله ﷻ ﴾ [المائدة : ١٠١] .

— سؤال المحصرات ، وطلب حواشي العادات عبثاً وتعتاً ، أو إزعاجاً وإرباكاً ، كما كان يفعل المشركون وأهل الكتاب .

— السؤال عن الأغاليط : روى أحمد وأبو داود : عن معاوية رضي الله عنه : أن النبي ﷺ يس من الغلوطات . قال في النهاية : هي المسائل التي يغلط بها العلماء ليزلوا فيها ، فيجرب بذلك شر وفتنة ، وإنما يس عنها لأنها غير نافعة في الدين ، ولا تكاد تكون إلا فيما لا يقع . وقيل : هي ما لا يحتاج إليه من كيف وكيف . فالسؤال عن مثل هذه المسائل الغامضة التي يصعب الجواب عنها ، وإنما يقصد بها الإحراج ونحوه ممنوع شرعاً ، وهو علامة سوء الدين والمخلف .

ومثل السؤال عن هذه المسائل الاشتغال بها والبحث عنها وتقريرها وإثباتها على الناس ، روى الطبراني : عن ثوبان رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « سيكون في أممي أقوم يعاطي فقهاؤهم عضل المسائل ، أولئك شرار أممي » الجامع الصغير : صحيح . عضل المسائل : صعبها . ونقل عن الحسن البصري رحمه الله تعالى قال : شرار عباد الله الذين يتبعون شذوذ المسائل يعمون بها عباد الله .

مكروه : أي يحسن بالكلف تركه ، ولا يأثم بسؤاله ، ومن ذلك : — السؤال عما لا يحتاج إليه ، وليس في الجواب عنه فائدة عملية ، وربما كان في الجواب ما يسوء السائل . روى مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : مثل النبي ﷺ عن أشياء كرهها ، فلما أكثر عليه غضب ، ثم قال للناس : « سلوني عما شئتم » فقال رجل : من أي يا رسول الله ؟ قال : أبوك حذافة . فقال آخر فقال : من أي يا رسول الله ؟ قال أبوك سالم مولى شيبه . فلما رأى عمر ما في وجه رسول الله ﷺ من الغضب قال : يا رسول الله إنا نتوب إلى الله . وعند البخاري ومسلم مثله عن أنس رضي الله عنه .

— السؤال عما مكنت عنه الشرع من الحلال والحرام ، ولم يبين فيه طلياً نوئياً ، فإن السؤال عنه ربما كان سبباً لتشككهم به مع التشديد فيه ، فيترتب على ذلك وقوع المسلمين في حرج وحشة ، كان السائل سبباً فيها .

روى مسلم : عن سعد بن أبي واصل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ

« إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسأله » . وفي رواية : « من سأل عن شيء ونظر عنه » أي فتنه وبالف في البحث والاستقصاء .

قال النووي رحمه الله تعالى : قال القاضي عياض : المراد بالحرم هنا الخرج على المسلمين ، لأنَّ الحريم الذي هو الإثم للعقاب عليه . ثم ذكر النووي أن الصواب ما قاله الجمهور في شرح هذا الحديث : أن المراد بالحرم هنا الإثم والذنب . فعلى قول القاضي يدخل هذا في المنكروه ، وعلى قول الجمهور يدخل في الحرام .

وقال النووي : وهذا انتهى بحسب برهانه رحمته ، أما بعد أن استقرت الشريعة ، وأمن من الزيادة فيها ، زال انتهى بروايل مبيته . أي وهو احتمال أن يحرم شيء بالسؤال عنه ، لأنه لا وحي بعد رسول الله ﷺ .

وجاء في البخاري ومسلم : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن رجل وجد مع امرأته رجلاً فقتله ، وذلك حين نزلت آيات حد الزنا وأنه يشترط فيه أربعة شهود ، فذكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها .

مباح : وذلك فيما عدا ما سبق من أنواع الأسئلة وأحكامها . فقد نفل النووي عن الخطابي رحمهما الله تعالى وغيره ، في شرح قوله ﷺ : « إن من أعظم المسلمين جرماً .. » قال : هذا الحديث فيمن سأل تكلفاً أو نعتاً فيما لا حاجة به إليه ، فأما من سأل لضرورة ، بأن وقعت له مسألة فسأل عنها ، فلا إثم عليه ولا حجب ، لقوله تعالى : ﴿ عَسَاكُمَا يَعْلَمُ الذَّكَرُ ﴾ [الأنبياء : ٧] .

١٠ - الاشتغال عن السؤال بالفهم والامتنال .

الذي يعين على المسلم أن يفهم به ويحتجى هو : أن يبحث عما جاء عن الله تعالى ورسوله ﷺ ثم يجتهد في فهم ذلك والوقوف على معانيه ، فإن كان من الأمور العلمية صادق به واحتفظه ، وإن كان من الأمور العمية بذل وسعه في الاحتياط في فعل ما يستطيعه من الأوامر والاحتساب ما ينهى عنه ، فمن فعل ذلك حصل السعادة في الدنيا والآخرة

في الآخرة ، ومن خالف ذلك واشتغل بمخاطر نفسه وقع فيما حذر منه ﷺ من حال أهل الكتاب ، الذين هلكوا بكثرة مسائلهم واختلافهم ، وهدم إيمانهم وانقيادهم .

وهكذا كان حال أصحاب النبي ﷺ والتابعين لهم بإحسان في طلب العلم النافع من الكتاب والسنة .

سأل رجل ابن عمر رضي الله عنهما عن استلام الحجر ، فقال له : رأيت النبي ﷺ يستلمه ويقبله ، فقال له الرجل : رأيت إن رحمت ؟ رأيت إن غلبت عنه ؟ فقال له ابن عمر رضي الله عنهما : اجعل رأيت بلهين ، رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله . رواه البخاري وغيره .

ومراد ابن عمر رضي الله عنهما : لا حاجة إلى فرض العزم عن ذلك أو تعسره قبل وقوعه ، فإنه يفتر العزم على التصميم عن التابعة .

١١- موقف الأئمة المجتهدين والعلماء :

لقد كان هؤلاء معظم مهم البحث عن معاني كتاب الله ، وما يفسره من السنن الصحيحة ، وكلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان . وعن سنة رسول الله ﷺ ، ومعرفة صحيحها وسقيمها ، ثم التفقه فيها وفهمها ، والوقوف على معانيها ، ثم معرفة كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان في مختلف العلوم من التفسير والحديث ، ومسائل الحلال والحرام وأصول السنة ، والزهد والرفائق ، وغير ذلك . فهذا هو مسلك الأئمة أهل الدين الجمع على هدايتهم وعرايتهم ومن سلك غير طريقهم ضل وأضل وأخذ بما لا يجوز وترك ما يجب العمل به .

١٢- السؤال عما لم يقع :

السؤال عن العلم محمود إذا كان من أجل العمل لا بقصد المراء والجدل ، ولهذا كان كثير من الصحابة والتابعين يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها ، ولا يحبون عن ذلك .

— قال عمرو بن مرة : أخرج عمر رضي الله عنه على الناس فقال : أخرج عليكم أن تسألونا عما لم يكن ، فإن لنا فيما كان شيئاً .

— عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لا تسألوا عما لم يكن ، فإن سمعت عمر رضي الله عنه لعن السائل عما لم يكن .

— كان زيد بن ثابت رضي الله عنه إذا سئل عن شيء يقول : كان هذا ؟ فإن قالوا : لا ، قال : دعوه حتى يكون .

— قال مسروق : سألت أبي بن كعب رضي الله عنه عن شيء ، فقال : أكان بعد ؟ فقلت : لا ، فقال : أجبنا — يعني أرحنا — حتى يكون ، فإذا كان اجتهدنا لك رأيها .

— وقال الشعبي : مثل عمار رضي الله عنه عن مسألة ، فقال : هل كان هذا بعد ؟ قالوا : لا ، قال : فدعونا حتى يكون ، فإذا كان تجهشوا لكم . أي كلفنا أنفسنا معرفة والجواب عنه .
وروي مثل هذا عن التابعين .

وروي أبو داود في كتاب المراسيل في هذا : عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تعملوا باليلية قبل نزوها ، فإنكم إن لم تعملوا لم يملك المسلمون أن يكون منهم من إذا قال سدد ووفق ، وإنكم إن عملتم تشبث بكم السيل ، ها هنا وها هنا » .

والأصل في هذا كله أن يقصد بذلك وجه الله عز وجل ، والتقرب إليه بمعرفة ما أنزل على رسوله ، وسلوك طريقه ، والعمل بذلك ، ودعاء الخلق إليه . ومن كان كذلك وفقه الله وسدده ، وألمحه رشده ، وعلمه ما لم يكن يعلم .

١٢ — سؤال الصحابة رضي الله عنهم للعقل -

كان أصحاب النبي ﷺ يسألونه أحياناً عن حكم أمور يتوهمونها ، ويطلب على

عليهم وقوعها ، وهم ليسوا على قرب من رسول الله ﷺ ، فهم يرغبون معرفة حكم الله عز وجل فيها سابقاً ، ليعملوا به في حينه .
ومن ذلك :

— ما رواه البخاري ومسلم ، عن رافع بن خديج رضي الله عنه : قلت : يا رسول الله ، إنا نرجو أو نخاف العدو غلباً ، وليست معنا مدى ، أفتدب بالقتل ؟ قال : « ما أنهر قدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ، ليس لسن والظفر » .

[أنهر : أسال . مدى : جمع مدية وهي السكين . ليس ... أي ما عداهما] .
— ما رواه الخمسة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سأل رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنا نركب البحر ، ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا ، أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » . أي ما مات فيه من سمك ونحوه دون ذبح شرعي فهو حلال ما أكلوه .
١٤ - الطاعة والامتثال طريق السلامة والفلاح :

لقد حذر رسول الله ﷺ من مسلك أولئك الأقوام ، الذين وقعوا من رسالهم موقف الشرد والعصيان ، فاستحقوا أن يؤخذوا بالعذاب ، أو يقتل كأهلهم بالكايف ، والأغلل ، فكان فضل الله تعالى على هذه الأمة عظيماً ، إذ علمها أن تقول : ﴿ سمعنا وأطعنا عرفتك ربنا وإليك المصير . ربنا لا تؤاخذنا إن سبنا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملت على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به وامنننا وأظفر لنا وولجنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [البقرة : ٢٨٥ ، ٢٨٦] . إصراً : ثقلًا وشدة في التكليف .

ولقد فاز الصادقون من هذه الأمة بهذا الفضل العظيم ، إذ كانوا بحق ، كما قال الله تعالى فيهم : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتهقه فأولئك هم المفلحون ﴾ [النور : ٥١ ، ٥٢] .

ولم يسلكوا مسلك أولئك الذين قالوا انبيهم ، وقد أمرهم بدخول بلدة : ﴿ إِنَّا لَنَنصِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] فاستحقوا العناء والضياح : ﴿ فَلَهَا مِثْرَةٌ عَلَيْهِمْ مُّزِينَةٌ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَجِيءُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [المائدة : ٢٦] . كما استحقوا أن يحرّموا الكثير من اللذائذ بسبب عصيانهم : ﴿ لِيُظْلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَهُمْ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَرْمِهِمْ سَبِيلَ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٦٠] .

١٥- التحذير من الاختلاف والحث على الوحدة والانضاق :

لقد وصف الله تعالى الجماعة المسلمة والنفقة المزمعة بأنها أمة واحدة ، فقال سبحانه : ﴿ إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ [الأنبياء : ٩٢] . فنبه على المسلمين أن يحرصوا على هذه الوحدة ، حتى يكونوا قوة متسانكة أمام قوى الشر والبغي والكفر الشكّارة . ولقد حذرنا الله تعالى ورسوله المصطفى ﷺ أشد التحذير من الاختلاف ، الذي من شأنه أن يجعل الأمة جماعات وأحزماً ، يظعن كل منها الآخر ، وتقاتل فيما بينها ، وتشغل بنفسها ، بدل أن تنصرف إلى مجاهدة عدوها الذي يرمي بها الدوائر . بل نجد رسول الله ﷺ يحذر ذلك طريقاً إلى الكفر ، ومن شأن الكفر ، يقول : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » [البخاري ومسلم] . وكذلك يقرر القرآن أن هذا شأن الذين كفروا من أهل الكتاب ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَفُتِ لَحْمُهُمْ عَذَابَ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

١٦- جزاء من فارق الجماعة وسبب الفرقة والاختلاف :

لقد شدد الإسلام التكرار على ذلك الذي يشق عصا المسلمين ، وينسب في اختلافهم وأخلافهم ، فجعل له عقوبة القتل في الدنيا والحرق في جهنم يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْفَعْ عِنْدَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا نُفِثَ لَهُ الْقُدْرُ ، وَيُجِيعُ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] .

وقال ﷺ : « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة لمات مات ميتة جاهلية »
رواه مسلم . وقال : « أناكم وأمركم جميع على رجلي واحد » ، يريد أن يشق عصاكم
أو يفرق جماعتكم فافعلوه » رواه مسلم .

١٧- التمسك بشرع الله تعالى طريق الوحدة :

إن الله تبارك وتعالى شرع لنا في كتابه أسس كل غير محتاج إليه البشرية في حياتها ،
وبين لنا رسوله المصطفى ﷺ ما أجمل فيه ، مما أطعمه الله تبارك وتعالى من سنة
منظورة ، فحسب الأمة - كني تحقق الوحدة ولتحكم الترابط والتماسك فيما بينها -
أن ترجع إلى كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ ، كنظرة بذلك قول الله عز
وجل : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ ، ذاكراً لتلك النعمة التي أنعم بها
عليها بهذا الإسلام الذي يفصله وحده كان اختلافها ، وكانت وحدتها وحرمتها ورفعتها :
﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته
إخوة ﴾ ، وبداية كانت لجهنم وإسلامها . ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فألقاكم
منها ﴾ ، فإذا هي أنعمت النظر واستبحرت لهذا العقل ، واستقلدت من لحارب الحياة ،
فالترمت واستلقت ، كانت لها الهداية المرجوة : ﴿ كذلك بين الله لكم آياته لعلكم
تهتدون ﴾ [آل عمران : ١٠٣] . وحسبنا في هذا الباب قوله سبحانه : ﴿ وأن
هذا صراطي مستقيماً فالتفتوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم
به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام : ١٥٣] . وقوله ﷺ : « تركت فيكم شيئين لن
تفصلا بعدهما : كتاب الله وصتي » رواه الحاكم . أي لن تفصلوا بعد التمسك بهما .

١٨- الاختلاف في الدين :

إن من أهم الأسباب التي تفرق الأمة وتشتت أهلها أن يفتح عنها باب الخلاف
في العلم والراء في الدين ، فيختلف في الأساس ، فيجد تشقة في المسائل والنسب .
ولذا نجد كتاب الله تعالى يأمرنا أن نقيم شرع الله عز وجل ، هذا الشرع الذي بدأ
بما نزل على آدم عليه السلام ، واكتمل بما نزل على نوح الأنبياء والمرسلين ، ولم يزل

ما فيه وبعد عنه كل دليل ، ولا نلتفت إلى رأي أو اجتهد بصادق نصاً من نصوصه
أو يعارض أصلاً من أصوله ، قال تعالى : ﴿ في شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً
والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا
فيه ﴾ [الشورى : ١٣] . وهذا رسول الله ﷺ يوجهنا أن ندرس القرآن ولنفهم
معناه لنعمل بمقتضاه ، فإذا ما بدر خلاف في فهمه قد يؤدي إلى النزاع ، بأمرنا أن
ترك البحث ونقوم حتى تصفو القلوب ونستوي الأفكار ، معلود كتاب الله تعالى
بصدق وإخلاص . روى البخاري عن جندب بن عبد الله الجعفي رضي الله عنه قال :
قال رسول الله ﷺ : « اقرأوا القرآن ما تشلف عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا
عنه » . وهذا هو عليه الصلاة والسلام يحسم مادة الاختلاف ، حين دعا أصحابه
في مرض موته ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً ، فلما اختلفوا : هل يكتب أو
لا يكتب ؟ مزل الكتاب وقال : « قوموا عني » . رادعاً لهم وزاجراً ومنها : أن
الاختلاف سبب الخسران ، ولذلك كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : إن الرزية
كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب ، من
اختلافهم وخطبهم . رواه البخاري . وهذا هو عليه الصلاة والسلام يبين في حديث
الياب : أن هلاك الأمم كان بسبب اختلافهم في دينهم إذ عاقلوا ما جاء به أنبيائهم .

١٩- الخطر في اتباع القوي :

والبلة كل البلة أن يكون الحامل على الاختلاف في الدين الصالح والأهواء ،
والعناد والبغي ، ولذا نجد كتاب الله تعالى يخرج أمثال هؤلاء الناس الذين يتوون
اختلاف في الدين ، ويريدون أن يجعلوا المسلمين شيعاً وفرقاً وأحراباً ، ليجده يخرجهم
من دائرة الإسلام ، ويرى منهم نبيه المصطفى ﷺ يقول : ﴿ إن الذين قرءوا دينهم
وكانوا شيعاً نست منهم في شيء إما أمرهم إلى الله ثم يتبعهم بما كانوا يفعلون ﴾
[الأنعام : ١٥٩] . والخطر إنما يكمن في هذا الشوع من الاختلاف ، الذي لا يحتمل
إلى برهان ولا يصاح إلى حجة ، وهذا الاختلاف هو الذي كان سبب هلاك الأمم ، وإليه
يشير رسول الله ﷺ بقوله : « إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم

عمل أنبيائهم . وهو الذي يحذر منه القرآن بقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا
وَاتَّخَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] والذي يؤكد هذا قوله
تعالى : ﴿ وَمَا تَقْرَأُ الْقُدْسَ أَنْتُمْ أَنْتُمُ الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾
[البينة : ٤] .

أما الخلاف الثاني « عن دليل » ، ويستند إلى أصل ، فليس هو المقصود في الباب ،
لأنه خلاف في الفروع وليس في الأصول ، وخلاف ليس من شأنه أن يحدث التفرقة
والشقاقات في صفوف الأمة ، بل هو عنوان مرونة التشريع وحرية الرأي فيه ضمن
قواعده وأساسه ، ورمز الاستقامة للأمة التي لا تقبل أن تعمل إلا بما اعتقدت أنه حق
وصواب ، وقام عليه الدليل الذي اقتضت به ورعيته ، ولعل خير ما تستدل به على
هذا المعنى ما رواه البخاري : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أنه سمع رجلاً
يقرأ آية « سمع النبي ﷺ يقرأ خلافاً ، فأعلنت يده ، فاعتظمت به إلى النبي ﷺ ،
وفي رواية : فأخبرته فعرفت في وجهه الكراعة ، فقال : « كلاً كما يحسن ، فافترقا ،
لا تختلفوا ، فإن من كان فبلكم اختلطوا فأهلكوا » .

هناك ﷺ أثر اختلافهما في القراءة ، لأنه اختلاف عن دليل ، ويستند إلى أصل ،
وهو نزول القرآن على لهجات عدة من لهجات العرب ، وإنما نهاهم عن الاختلاف
بعد وضوح الدليل وبيان الحجة ، وذلك لا يكون إلا عن هوى .

٢٠- أفاد الحديث :

أن الحج يجب في العمر مرة واحدة على من توفرت له أسبابه وتميأت له ميبله ،
وملك الثقة اللازمة .

الطَّيْبُ الْحَلَالُ شَرْطُ الْقَبُولِ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الرُّسُلُ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْتَصِمُوا بِحُلُمٍ ﴾ [المؤمنون : ٥١] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة : ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ ، وَنُطْقُهُ خَرَامٌ ، وَمَنْشُورُهُ خَرَامٌ ، وَمَنْثَرُهُ خَرَامٌ ، وَغَيْدِي بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ ؟ رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

الحديث رواه مسلم في كتاب الزكاة (باب قبول الصدقة من الكسب الطيب ولزمتها) رقم / ١٠٦٥ ، والترمذي في كتاب التفسير (باب ومن سورة البقرة) رقم / ٢٩٩٢ .

أهمية الحديث :

هذا الحديث من الأحاديث التي عليها قواعد الإسلام ومباني الأحكام ، وعليه العمدة في تناول الحلال وتجنب الحرام ، وما أعم نفعه وأعظمه في إنباد المصنع المؤمن الذي يحب فيه العبد لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه ، ويقف عند حدود الشرع مكتفياً بالحلال المبارك الطيب ، فيحيا هو وغيره في طمأنينة وراحة .

لغة الحديث :

« إن الله طيب » : أي طاهر منزّه عن النقائص ، والطيب من أسماء الله تعالى الحسنى .

« لا يقبل إلا طيباً » : لا يقبل من الأعمال والأموال إلا ما كان خالصاً من المفسدة ، أو حلالاً .

« أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » : سوى بينهم في الخطاب بوجوب أكل الحلال .

« أشعث » : جعد شعر الرأس لعدم غشيطه .

« أخضر » : غير الغبار لون شعره لطول سفره في الطاعات كحج وجهاد .

« يمد يديه إلى السماء » : يرفع يديه إلى السماء داعياً وسائلاً الله تعالى .

« فأنى يستجاب له » : كيف ومن أين يُستجاب لمن كانت هذه صفته .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١- الطيب المقبول : إن قول النبي ﷺ « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً » يشمل الأعمال والأموال والأقوال والاعتقادات :

فهو سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيباً طاهراً من المفسدات كلها كالرياء والعجب .

ولا يقبل من الأموال إلا ما كان طيباً حلالاً ، فقد حث ﷺ على الصدقة من الكسب الحلال الطيب وقال : « ولا يقبل الله إلا طيباً » أي لا يقبل الله من الصدقات إلا ما كان طيباً حلالاً .

ولا يصعد إليه من الكلام إلا ما كان طيباً ، قال الله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [قاطر : ١٠] وقسم الله تعالى الكلام إلى طيب وعيبت فقال سبحانه : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾

[إبراهيم : ٢٤] ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مَالَهُ كَتِيبًا مِثْلَ كِتَابَيْهِ ﴾ [إبراهيم : ٢٤] .

ولا يفور عنه عز وجل إلا القومون الطيرون ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَوَقَّعُونَ
الْآخِرَةَ مَتَى ﴾ [التعليل : ٢٢] ويسلم الثلاثة عليهم عند دخولهم الجنة ويقولون
﴿ سلام عليكم بلقيس فاذنوا لها فاذنوا لها ﴾ [الزمر : ٢٢] .

وقال ابن رجب في نهاية هذا المعنى العام لقوله ﷺ : « ولا يقبل إلا طيباً » :
الؤمن كله طيب قلبه ولسانه وجسده بما يسكن في قلبه من الإيمان ، وظهر على لسانه
من الذكر ، وعمل جوارحه من الأعمال الصالحة التي هي ثمرة الإيمان وداعلة في اسمه .

٢- كيف يكون العمل مقبولاً طيباً : إن من أعظم ما يجعل عمل المؤمن طيباً
مقبولاً طيباً مطهره وحله ، وفي الحديث دليل على أن العمل لا يقبل إلا بأكل
الحلال ، وأن الحرام يفسد العمل ويجمع قبوله ، لأن النبي ﷺ قال - بعد تقريره
« إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » - : « وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ،
فقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ وقال تعالى :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ . ومعنى هذا أن الرسل وأنهم
مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال والعمل الصالح ، فما كان الأكل حلالاً
فالعامل صالح ، فإذا كان الأكل غير حلال فكيف يكون العمل مقبولاً ؟ » .

وقد أخرج الطبراني^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : « تليت عند
رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طيباً ﴾ [البقرة
١٦٨] فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلني مستجاب
الدعوة ، فقال النبي ﷺ : يا سعد ، أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي
ففس محمد بيده إن العبد ليقتذف القصة الحرام في جوفه ما يقبل الله منه عملاً أربعين

(١) جامع العلوم والفوائد ص ٨٦ بصرف يسر .

(٢) قال ابن رجب : وفي نسخة مطر . وذكره الطبراني في جامع الرواة ٢٩١/١٠ وقال : روى الطبراني في

الصغرى ، وفيه من لم يعرفهم .

يوماً ، وأما عبد نبت لحبه من سحت قاله أول به ٤ - وروى أبو يحيى اللثات ، عن جاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا يقبل الله صلاة امرئ في جوفه حرام .

٣ - انطواء القبول : قد يفيد نفي القبول في بعض أحاديث نفي صلى الله عليه وسلم نفي الصلوة ، ومثاله حديث ٥ لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ ٤ . فالقبول هنا هو ترتب الفرض المطلوب من الصلاة على الطهارة ، ويراد به سقوط الفرض من الذمة .

وقد يفيد نفي القبول في كثير من الأحاديث نفي الأجر والثواب ، ومثاله حديث ٥ لا تقبل صلاة المرءة التي زوجها عليها سائط ، ولا من أتى كاهناً ، ولا من شرب حمراً أربعين يوماً ٥ . وحديث ٥ لا يقبل إلا طيباً ٥ . وحديث ٥ من صلى في ثوب قيمته عشرة دراهم حرام لم تقبل له صلاة ٥ فالقصود هنا نفي الكمال المستوجب للأجر والثواب في هذه الأعمال ، مع أنها مقبولة من حيث سقوط الفرض بها من الذمة ، ويميز بين الثنتين بحسب الأدلة الخارجة .

١ - كيف يخرج المسلم من الحرام : يتخلص المسلم من لثال الحرام بعد العجز عن معرفة صاحبه أو العثور عليه بالتصدق به ، والأجر لما لكه ، روي عن مالك بن دينار قال : سألت عطاء بن أبي رباح عمن عنده مال حرام ولا يعرف أربابه ، ويريد الخروج منه ؟ قال : يتصدق به ، ولا أقول إن ذلك يجرى عنه .

والمشهور عن الشافعي رحمه الله تعالى في الأموال الحرام أنها تحفظ ولا يتصدق بها حتى يظهر مستحقها .

وكان المظيل بن عياض يرى أن من عنده مال حرام لا يعرف أربابه أنه يتلقه ويتلقه في البحر ولا يتصدق به ، وقال : لا يفتقر إلى الله إلا بالطلب . قال ابن رجب : والصحيح الصدقة به ، لأن إبطال المال وإضاعته منهي عنه ، وإرضاءه أبداً تعرض له للإتلاف واستيلاء الظلمة عليه ، وإنما هي صدقة عن مالكه ، ليكون نفعه له في الآخرة حيث يجعله عليه الانتفاع به في الدنيا .

٥- أسباب إجابة الدعاء :

أ - إطالة السفر : ويجرد السفر يقتضي إجابة الدعاء ، فقد روى أبو داود وابن ماجه والترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيها : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد لولده » . وإذا طال السفر كان أقرب إلى إجابة الدعاء لأنه مظنة الانكسار النفس بطول الغربة وتعمل المشاق ، والانكسار من أعظم أسباب إجابة الدعاء .

ب - حصول التبدل في اللباس والمخيلة : قال ﷺ في حديث مشهور « رب أشعث أغبر ذي طمرين ، مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره » . وقد خرج النبي ﷺ إلى الاستسقاء متبدلاً متواضعاً متضرعاً .

ج - مد اليدين إلى السماء : وهو من آداب الدعاء ، روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إن الله تعالى حيي كريم ، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خالبين » . وكان النبي ﷺ يرفع يديه في الاستسقاء حتى يرى بياض إبطيه ، ورفع يديه يوم بدر يستصر الله على المشركين حتى سقط رداؤه من منكبِهِ .

د - الإلحاح على الله عز وجل : وذلك بتكرير ذكر ربه سبحانه وتعالى ، وهذا من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء ، روى الزائر من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ : « إذا قال العبد : يا رب ، أربيعاً ، قال الله : ليبيك عهدي ، سل تعطه » .

٦- ما يمنع إجابة الدعاء : أشار ﷺ في هذا الحديث إلى أن التوسع في الحرام أكلاً وشرباً ولبساً وتغذية بمع إجابة الدعاء ، وقوله ﷺ « غافقاً يستجاب له » استفهام وقع على وجه التعجب والاستبعاد ، وليس صريحاً في استحالة الاستجابة ومنعها بالكلية .

٧ الدعاء مع العادة : لأن الداعي إنما يدعو الله عند انقطاع أملة عن سواه ،

وذلك حليقة التوحيد والإخلاص ، ولا عبادة لغيرها .

٨- ويرشد الحديث إلى الحث على الإتفاق من الحلال ، والنهي عن الإتفاق من الحرام .

٩- أن من أراح الدعاء لزمه أن يحثي بالحلال في مأكله وملبسه حتى يقبل دعاءه .

١٠- يقبل الله من المؤمنين الإتفاق من الطيب وينعمه ، ويبارك لهم فيه .

الْأَخْذُ بِالْيَقِينِ وَالْبُعْدُ عَنِ الشُّبُهَاتِ

عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، سَيِّدِ رَسُولِ الْفَرَسِ عليه السلام وَزَيْنِ عَابَدِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله : « دَعْ مَا يَرْتَبِكُ إِلَّا مَا لَا يَرْتَبِكُ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالثَّعَالِيُّ ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (باب اعتقلها ولو كحل) رقم / ٢٥٢٠ / وحسنه زائدة (قان الصدوق علمانية والكذب رية) . ورواه الثعالب في الأشربة (باب المحدث على ترك الشبهات) ٣٢٧/٨ - ٣٢٨ . وهو عند الإمام أحمد في المسند ، رقم / ١٧٢٣ / وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى : إسناده صحيح .

أهمية الحديث :

هذا الحديث من جوامع الكلم ، ومن الحكم النبوية البليغة ، فهو بكلماته القليلة قدّم قاعدة عظيمة في ديننا الإسلامي ، وهي ترك الشبهات والتزام الحلال الشيق ، ولذا قال ابن حجر الميمني في نهاية شرحه له : « هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الدين ، وأصل في الورع الذي عليه مدار الملتزمين ، ومنع من ظلم الشكوك والأوهام المائعة من نور اليقين » .

شرح الفاظ الحديث :

- « دَعْ مَا يَرْتَبِكُ » : دَعْ مَا تَشْكُ فِيهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ « وَالْأَمْرُ لِلدُّنْبِ .
- « إِلَّا مَا لَا يَرْتَبِكُ » : إِلَّا مَا لَا تَشْكُ فِيهِ مِنَ الْحَلَالِ الْبَرِّ .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١- ترك الشهات : إن ترك الشهات في العبادة والعاملات والمناكحات وسائر أبواب الأحكام ، والنزاهة للخلال في كل ذلك ، يؤدي بالمسلم إلى الورع ، وهو عميم النفع في قطع وساوس الشيطان ، كثير الفائدة عظيم المنعوى في الدنيا والآخرة ، وقد سبق في الحديث السادس أن من اتقى الشهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، وإن الحلال المتيقن لا يحصل للمؤمن في قلبه منه شك أو ريب ، بل تطمئن النفس إليه ولحمده السعادة في الحصول عليه ، أما الشهات فموضيها الإنسان ظاهراً ، ولو كشفنا ما في قلبه لوحدنا القلق والاضطراب والشك ، ويكفيه هذا العذاب النفسي عسيرة معنوية ، والخسارة الكبرى والمفلك الأعظم أن يبتعد الشهات ثم يجترىء على الحرام ، لأن من حرام حول الحرام يوشك أن يقع فيه .

٢- أقوال السلف وأفعالهم في ترك الزينة إلى بلوغ الورع : واستلزام الصالح أقوال وأفعال واضحة في التزام الحلال الحضي ، والبعد عن الشهات ، والنحل بالورع ، فمن أقوالهم :

قول أبي ذر الغفاري رضي الله عنه : تمام التقوى ترك بعض الحلال خوفاً أن يكون حراماً . وقول أبي عبد الرحمن العمري الزاهد : إذا كان العبد ورعاً ، ترك ما يريه إلى ما لا يريه . وقول الفضيل : يزعم الناس أن الورع شديد ، وما ورد على أمران إلا أخذت بأشدهما ، فادع ما يريبك إلى ما لا يريبك . وقول حسان بن أبي سنان : ما شيء أعون من الورع ، إذا رايك شيء فدهه .

ومن أقوالهم : أن يزيد بن ربيع نثره عن محمسة ألف من ميراث ظلم بأصله ، وكان أبوه يبي الأفعال للسلطين ، وكان يزيد يعمل الخوص ويقبض منه إلى أن مات ، رحمه الله تعالى . وكان السور بن عرفة قد ابتاع طعاماً كثيراً ، فرأى سحابة في الخريف فذكره ، فقال : ألا أراي كرهت ما يبيع المسلمون ؟ قال أن لا يبيع فيه شيئاً ، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال له عمر : جارك الله

عنوا ، وقيل لأم أدهم : ألا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لي دلو شربت ، إشارة إلى أن الدلو من مال السلطان وهو مشبه .

وقد يقول قائل : إن في هذه الأقوال والأفعال مبالغة وورعاً زائداً ، ونقول : إن الأمة في كل عصر بحاجة إلى القدوة الصالحة ، والنموذج الإسلامي المتعلل في حاكم أو عالم ، لتقف عند حدود الحلال والطيب ، وتزهد في الحرام الخبيث ، ولو انتفت من حياة الأمة مثل هذه الأقوال والأفعال في التخرج من الشبهات ، فإن الناس سيخوضون في الشبه والحرام ويرتمون فيه بجرأة عجية ، لأنهم فقدوا المرشد الحكيم الناصح ، واقتصدوا النموذج القدوة .

٢- تعارض الشك واليقين : إذا تعارض الشك مع اليقين ، أخذنا باليقين وقدمناه وأعرضنا عن الشك ، وهذا المعنى ورد في القاعدة الثانية من القواعد الفقهية التي نصت عليها مجلة الأحكام الشرعية ، ونصها : « اليقين لا يزول بالشك » ومثال ذلك : إنسان توضأ يقيناً ثم شك هل انتفض وضوءه ، اعتبر متوضئاً ، ومستند ذلك ما رواه مسلم عن النبي ﷺ قال : « إذا وجد أحدكم في بطنه شيئاً فأشكل عليه أخرج أم لا ، فلا يخرج من المسجد حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً » .

٣- التوقف عند الشبهات لمن استطاعت أحواله : ونحن عندما ندعو إلى التدقيق في الشبهات والتوقف عنها إنما ندعو من استطاعت أحواله كلها ، ولشابهت أعماله في التقوى والورع ، أما من يخوض في المحرمات الظاهرة ، ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبه ، فإن ورعه هذا لقبيل ومظلم ، ويجب علينا أن ننكر عليه ذلك ، وأن نطالبه بالكف عن المحرم الظاهر أولاً ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما لمن سأله عن دم البعوض من أكل العراق : يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين ، وصحبت النبي ﷺ يقول : « هما ريحائني من الدنيا » .

وسأل رجل بشر بن الحارث عن رجل له زوجة وأمه تأمره بطلاقها ، فقال : إن كان ترأه في كل شيء ولم يبق من برها إلا طلاق زوجته فليفعل ، وإن كان

ببرها بطلاق زوجته ثم يقوم بعد ذلك إلى أمه فيضربها فلا يفعل .

واستأذن رجل أحد من حبل أن يكتب من محبته فقال : اكتب ، هذا ورع
مطلق . وقال الآخر : لن يبلغ ورعي ولا ورعك هذا . وهذا قاله الإمام أحمد لواقعاً
فإنه كان لا يكتب من محاربه أصحابه : فكان في حق نفسه يستعمل هذا الورع ،
وكان يذكره على غيره ممن لم يصل إلى مقام التقوى والورع في جميع أحواله .

٥- الصدق طمأنينة والكذب رية : وقول السي رحمته في رواية الترمذي
« إن الصدق طمأنينة والكذب رية » فيه إشارة إلى تحري القول الصادق الفصل ،
عندما يحتاج الإنسان إلى جواب سؤال أو فتوى مسألة ، وعلامة الصدق أن يطمئن
به القلب ، وعلامة الكذب أن تحصل به الشكوك فلا يسكن القلب له بل يفر منه .

٦- وبرشدنا الحديث إلى أن نبني أحكامنا وأمر حياتنا على اليقين .

٧- الحلال والحق والصدق طمأنينة ورضا ، والحرام والباطل والكذب رية
وتلق وتغور .

الاشتغال بما يفيد

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من حُسن إسلامه الفرة تركها ما لا ينفعه » .

حديث حسن رواه الترمذي وغيره هكذا .

الحديث : أخرجه الترمذي في أبواب طرحد (باب : ما جاء ممن تكلم فيما لا ينفعه) رقم / ٢٣١٨ / و / ٢٣١٩ / وأخرجه ابن ماجه في الفتن (باب : كف اللسان في الفتنة) رقم / ٣٩٢٦ / . ورواه مالك في الموطأ في كتاب حسن الخلق (باب ما جاء في حسن الخلق) ٩٠٣ / ٢ ، وقال ترمذي في شرح الموطأ : إسناده حسن ، بل صحيح ..

التمهيد :

يخبرنا أبو هريرة رضي الله عنه ، وهو الذي لازم النبي ﷺ واكتسب منه الأدب النبوي ، بحديث قاله ﷺ ، يُنذره بجملة مختصرة نافعة ما يجمع خير الدنيا وسعادته الآخرة ، فكان يحث . كما قال العلماء : من حواميع كنهه ﷺ ، التي لم يصح نظيرها عن أحد قبله ، لأنه جمع مصيف الدين ، لأن الدين فعل وترك ، ولقد نص على الترك . وقال بعضهم : بل جمع كل الدين ، لأنه نص على الترك ود على الفعل .

وقال ابن رجب الحنبلي : وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الأدب .
وقال أبو داود : أصول المسكن في كل فن أربعة أحاديث ، وذكر منها هذا الحديث^(١) .

(١) شرح من قبله عن الأعمش

وانظر ما جاء في أحبة الحديث الذي بعده .

لغة الحديث :

« من حسن إسلام المرء : من كمال إسلامه وقلعه ، وعلامات صدق إيمانه ، والمرء بُرء به الإنسان ، ذكراً كان أم أنثى .

« ما لا يعيه : ما لا يهجه من أمر الدين والدنيا ، من الأفعال أو الأقوال ، يقال : حياه الأمر يعيه ، إذا تعلقت حياته به وكان من غرضه ومقصوده .

لغة الحديث وما يُرشد إليه :

١ - إقامة المجتمع الفاضل : يحرص الإسلام على سلامة المجتمع ، وأن يعيش الناس في وئام ووفاء ، لا عازعات بينهم ولا خصومات ، كما يحرص على سلامة الفرد وأن يعيش في هذه الدنيا سعيداً ، يألف ويؤلف ، يُكرم ولا يُؤذي ، ويخرج منها فائزاً راحئاً ، وأكثر ما يثير الشقاق بين الناس ، ويعتد المجتمع ، ويورد الناس اليها لك تدخل بعضهم في شؤون بعض ، وخاصة فيما لا يعنيه من تلك الشؤون ، ولما كان من دلائل استقامة المسلم وصدق إيمانه تركه التدخل فيما لا يخصه من شؤون غيره .

٢ - الاشتغال بما لا يعني لتضييع ، وعنوان ضعف الإيمان : إن الإنسان يعيش في هذه الدنيا والناس حوله كثير ، والتدخل والعلاقات كثيرة ومتعددة ومتشعبة ، والمسلم مسؤول عن كل عمل يقوم به ، وعن كل ساعة يقضيها ، وعن كل كلمة يتكلم بها ، فإذا اشتغل الإنسان بكل ما حوله ، وتدخل في شؤون لا تعيه ، شعته ، فذلك عن أداء واجباته ، وإقيام مسؤولياته ، فكذلك مؤاخذاً في الدنيا ومعانداً في الآخرة ، وكان ذلك دليل ضعف إيمانه ، وعدم تمكن الخلق النبوي من نفسه ، وأن إسلامه أقرب إلى أن يكون إسلام الشعة والنسان .

روى الترمذي ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : أئوب رحيل من الصحابة ، فقال رحيل : أشير بالخفة ، فقال رسول الله ﷺ : - أئوب لا تدري ، فقلعه تكلم فيما لا يعيه ، أو يحل بما لا يقصده .

وروى ابن حبان في صحيحه : أنه عليه السلام قال لأبي ذر رضي الله عنه :

« بحسب امرئ من قدر ما يجهل من نفسه ، ويتكلف ما لا يعيه » .

٣ - الإعراض عما لا يعنى طريق السلامة والنجاة : وإذا أفترق المسلم

واجبه ، وعقل مسؤوليته ، فإنه يشتغل بنفسه ، ويغرض على ما يقع في دنياه وآخرته ، فيعرض عن الفضول ، ويبعد عن سبيل الأمور ، ويلتفت إلى ما يعيه من الأحوال والشؤون .

وإذا علمنا أن ما يعنى الإنسان في هذه الدنيا من الأمور قليل بالنسبة لما لا يعيه ، عند أن من اقتصر على ما يعيه سلم من كثير من الضرر والآثم ، وتفرغ للاستغفار بمصالحه الأخروية ، وكان ذلك دليلاً على حسن إسلامه ، ورسوخ إيمانه ، وحقيقة تقواه ، ومحابته طواه ، ومجاهده عدو ربه جل وعلا .

روى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أحسن أحدكم إسلامه ، فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف ، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها » .

وذكر مالك في الموطأ أنه بلغه : أنه قيل للعمان : ما طبع لك ما ترى ؟ . يرددون القصص . فقال للعمان : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يمتنى .

٤ - القلب المشغول بالله تعالى معرض عما لا يعنيه من شؤون المخلوق : وأسلم الذي يعد الله عز وجل كأنه براه ، ويستحضر في نفسه أنه قريب من الله تعالى والله تعالى قريب منه ، يشغله ذلك عما لا يعنيه ، ويكون عدم اشتغاله بما لا يعنيه دليل صدقه مع الله تعالى وحضوره معه ، ومن اشتغل بما لا يعنيه دل ذلك منه على عدم استحضاره لقرب من الله تعالى ، وعدم صدقه معه ، وحبط عمله ، وكان من المالكين .

روى عن الحسن البصري أنه قال : من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه .

٥- ما يعني الإنسان من الأمور وما لا يعنيه : والذي يعني الإنسان من الأمور هو : ما يتعلق بضرورة حياته في معاشه ، من طعام وشراب ومفلس ومسكن وغيرها ، وما يتعلق بسلامته في معاشه وآخرته ، وما عدا هذا من الأمور لا يعنيه : فعلى لا يعني الإنسان الأمراض القلبية الرقيقة عن الضرورات والحاجيات : كالتمسك في الدنيا ، والتنوع في الطعام والشارب ، وطلب المصائب والرياسات ، وحب المحمدة والثناء من الناس ، فمن دلائل صدق المسلم البعد عن ذلك ، ولا سيما إذا كان فيها شيء من المماراة والجمالة على حساب دينه .

الأفعال المباعة ، بما لا يعود على الإنسان منه نفع في دنياه أو آخرته ، كالتعب والفزل وما يخل بالثروة ، بما لا يعني ، ويحسن للمسلم تركها ، لأنها مضیعة للوقت التيسر في غير ما خلق من أجله ، والذي سيحاسب عليه .

القصول في الكلام بما لا يعني ، وقد نجر المسلم إلى الكلام المحرم ، ولذلك كان من خلق المسلم عدم اللعظ والقرقرة والخوض في كل قيل وقال . روى الترمذي عن معاذ رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، أتواعد بكل ما حكمت به ؟ فقال - أي رسول الله ﷺ - : « تكلمت أنتك يا معاذ ، وهل يكب الناس على مناكرهم في شعار إلا حصائد ألسنتهم » . وروى أيضاً : أن رسول الله ﷺ قال : « كلام من آدم عليه لا له ، إلا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وذكر الله تعالى » .

٦- ويرشد الحديث إلى : أن من صفات المسلم الاشتغال بمعالي الأمور ، والبعد عن السلاسل ومحقرات الشؤون .

٧- وفيه : تأديب للنفس وتدريب لها عن الرذائل والفتن ، وترك ما لا جدوى منه ولا نفع .

أخوة الإيمان والإسلام

عن أبي خزيمة أنس بن مالك رضي الله عنه عاين رسول الله ﷺ قال :
« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » زوائد البخاري ومسلم .

الحديث أخرجه البخاري في الإيمان (باب : من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب
لنفسه) رقم / ١٣ / ومسلم في الإيمان (باب : الدليل على أن من حصل الإيمان أن
يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير ، رقم / ٤٥ / ، والسنن في الإيمان (باب
علامة الإيمان) ١١٥ / ٨ ، والترمذي في صفة القيامة (باب ولكن يا حططة ساعة
وساعة) رقم / ٢٥١٧ / ، وابن ماجه في المقدمة رقم / ١٦٧ / .

أهميته :

قال النووي رحمه الله تعالى ، في شرحه لمصحيح مسلم : قال الإمام الحليل أبو
محمد عبد الله بن أبي زيد ، إمام المالكية بالمغرب في رتبته : جماع آداب الخير يتفرع
من أربعة أحاديث : قول النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً
أو ليصمت » وقوله ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » وقوله ﷺ
للذي اختصر له الوصية : « لا تغضب » وقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب
لأخيه ما يحب لنفسه » .

ولعل هذا هو السر في اختيار النووي رحمه الله تعالى هذه الأحاديث الأربعة في
أربعه ، وقد مر بك بعضها ومستأني بقيتها إن شاء الله تعالى .

وقال الطردان في شرحه للأربعين النووية : إن هذا الحديث قاعدة من قواعد
الإسلام .

« لا يؤمن » : الإيمان الكامل .

« أحدكم » : من يدعي الإيمان والإسلام منكم .

« لأخيه » : المسلم والمسلمة ، وقيل : لأخيه الإنسان .

« ما يحب نفسه » : مثل الذي يحبه لنفسه من الخير .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١- تحاسن المجتمع المسلم والمحبة والود فيه : يهدف الإسلام أن يعيش الناس جميعاً متوازين ومتحابين ، يسعى كل فرد منهم في مصلحة الجميع وسعادة المجتمع ، حتى لسود العدالة ، وتنتشر الطمأنينة في النفوس ، ويقوم التعاون والتضامن فيما بينهم ، ولا يتحقق ذلك كله إلا إذا أراد كل فرد في المجتمع لغيره ما يريد لنفسه من السعادة والخير والرفاء ، ولذا نجد ﷺ يربط ذلك بالإيمان ، ويعده محصلة من محصلاته .

٢- الإيمان الكامل : إن أصل الإيمان يتحقق بتصدق القلب الجازم ، وإدخاله لرؤية الله عز وجل ، والاعتقاد ببقية الأركان ، من الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقيامة والقدر ، ولا يتوقف أصل الإيمان على شيء سوى ذلك . وفي هذا الحديث بين لنا رسول الله ﷺ أن الإيمان لا ترمح جذوره في النفس ، ولا يتسكن من القلب ، ولا يكمل في صدر المسلم ، إلا إذا أصبح إنساناً خيراً ، بعيداً عن الأمانة والحقد ، والفكرانية والحسد ، فلا يحب للناس إلا مثل ما يحبه لنفسه ، من السلامة من الشر والأذى ، والمجتمع برعد العرش ، والنفوس مرضوان الله سبحانه ، والقرب منه جل وعلا . وبما يحقق هذا الكمال في نفس المسلم :

أ - أن يحب لغيره من الخير المباح وفعل الطاعات ما يحبه لنفسه ، وأن يحض لحلم من الشر والعصية ما يبغضه لنفسه أيضاً .

أخرج أحمد من حديث معاذ رضي الله عنه : أنه سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الإيمان فقال : « أن تحب للناس ما تحب لنفسك » ، ولكرههم ما تكره لنفسك » .
ب - أن يتعهد في إصلاح أخيه المسلم ، إذا رأى منه تقصيراً في واحدة ، أو نقصاً في عدة .

ج - أن يمازج إلى إصاف أخيه المسلم من نفسه ، ويؤدي إليه حقوقه ، كما يحب هو أن يتصف نفسه من غيره ، ويحصل على حقه منه .

روى مسلم : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « من أحب أن يخرج عن النار ويدخل الجنة ، فليذكر الله ميثمه وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ، ويأتي إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه » .

٣- محو المسلم وإسائه : من كمال الإيمان في المسلم أن لا يقتصر في حب الخير لغيره ويغض الشكر له على المسلم محسب ، بل يحب ذلك لغير المسلم أيضاً ، ولا سيما الإيمان ، فيحب للكافر أن يسلم ويؤمن ، ويكره فيه ويغض له الكفر والفسوق ، قال عليه الصلاة والسلام : « وأحب للناس ما تحب لنفسك تكره مسلماً » رواه الترمذي . ولهذا كان الدعاة بالمدينة للكافر مستحباً .

٤- التفاضل في الخير من كمال الإيمان : ليس من ملص الإيمان ولا من الحسد ، أن يطلب المسلم من الله تعالى ، أن يمن عليه بمثل الفضائل الأخروية التي قاله بها غيره ، ويتعهد أن يلحقه فيها ، بل ذلك من كمال الإيمان ، وبما قاله الله تعالى فيه : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين : ٢٦] .

٥- المجتمع القاضل ثمرة من ثمرات الإيمان : في هذا الحديث حث منه ﷺ لكل مسلم ، أن يعمل نفسه على حب الخير للناس ، ليكون ذلك برهاناً منه على صدق إيمانه وحسن إسلامه ، وبالتالي ليتحقق المجتمع القاضل ، لأنه إذا أحب كل واحد من الناس لغيره أن يكون مثله في الخير أحسن إليهم ، وأمسك عن إيذائهم ، وعندها يحبونه ويحسون إليه ويمسكون عن إيذائه . وهكذا تسري المحبة بين الناس جميعاً ،

ويتشعر بينهم الخوف ، ويرتفع الظلم والشر ، وتنظم شؤون الحياة ، طالما أصبح كل فرد يشعر بمصلحة الجميع ، يسر لسرورهم ، ويفرح لفرحهم ، ويتألم لألمهم ، كما قرر المصطفى ﷺ إذ يقول : « ترى المؤمن في توائمه وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » أخرجه البخاري ومسلم .
وحسبنا بحق الله تعالى لهذا المجتمع المؤمن ، العزة والكرامة والسيادة في الدنيا ، وحسن الخيرة والجزاء في الآخرة .

٦ - المجتمع غير الإيماني مجتمع أناني بغيض : إذا ذبل الإيمان في القلوب وانقضى كلاله انتفت عمة الخير للناس من الفروس ، وحل محلها الجسد ونية الفس ، وتمكنت الأنانية في المجتمع ، وأصبح الناس ذئاباً بشرية ، ففسدت الحياة ، وساد الظلم ، وتخلل الحقد والمقت ، وعمت الكراهية والبغض ، واسيطر على مثل هذا المجتمع قول الله عز وجل : ﴿ قُلُوبٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُخْتَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٦] .

٧ - أقالم الحديث :

أ - الحث على اتلاف قلوب الناس ، والعمل على انتظام أحوالهم ، وهذا من أهم ما جاء الإسلام من أجله وسعى إليه .

ب - التنظير من الجسد ، لأنه يتلاق مع كلال الإيمان ، فإن الجسد يكره أن يلوته أحد في خير أو يساويه فيه ، بل ربما قتل رواه عنه ولو لم يصل إليه .

ج - الإيمان يزيد وينقص : تزيده الطاعة وتنقصه المعصية .

حُرْمَةُ دَمِ الْمُسْلِمِ

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَجْلُ دَمَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِ تَلَاوِيهِ : الثَّيِّبُ الْإِنْسَانِي ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِيَدِيهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

الحديث رواه البخاري في كتاب الديات (باب قول الله تعالى : أَنْ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ..) رقم /٦٤٨٤/ ، ورواه مسلم في كتاب القسامة (باب ما يباح به دم المسلم) رقم /١٦٧٦/ ، وأبو داود في الخنود (باب الحكم فيما ارتد) رقم /٤٣٥٢/ ، والترمذي في الديات (باب ما جاء لا يجل دم لغيره إلا بإحدى ثلاث) رقم /١٤٠٦/ ، والبيهقي في تحريم الدم (باب ما يجل به دم المسلم) ٩١-٩٠/٧ .

أهميته :

هذا الحديث النبوي الشريف بيان إسلامي عظيم ، وقاعدة شرعية محكمة في حياة حياة المسلم طالما كان هذا المسلم إنساناً موطئاً ، ملحقاً من كل أجل أو اضطراب يضر بأمن المجتمع وسلامة أفراد ، أما إذا أصبحت حياة الفرد خطراً على حياة الجماعة ، فأصابه المرض واعترف عن الصحة الإنسانية والسلامة الفطرية ، وأصبح حاملة عيبة ، فظن في جسم الأمة ، وتلفد عليها دينها وأخلاقها وأعراسها ، ونشر فيها الشر والضلال ، فقد سقط حبله في الحياة ، وأعدر وجوده ، ووجب استنصاحه ، ليحيا المجتمع الإسلامي في أمن ورخاء .

ويقول ابن حجر الميمني في أميته : « وهو من القواعد الخطيرة لتعلقه بأخطار الأشياء وهو الدعاء ، وبين ما يحل وما لا يحل ، وإن الأصل فيها العصمة ، وهو كذلك عفوياً ، لأنه عمود حل عبء بقاء الصور الإنسانية المخلوقة في أحسن تقويم .. » .

شرح ألفاظ الحديث :

« لا يحل دم » : أي لا يحل إزالته ، والمراد : القتل .

« بإحدى ثلاث » : يحل قتل المسلم بسبب قطعه صفة أو عصاة من ثلاث عصال .

« النفس بالنفس » : تقتل النفس التي قتلت نفساً عبداً معبر حتى بمقابلة النفس المتولدة .

« الثيب الزاني » : الثيب : من ليس بكافر ، يطلق على الذكر والأنثى ، يقال : رجل ثيب ، والمرأة ثيب ، وهو اسم فاعل من ثاب إذا رجع ، وإطلاقه على المرأة أكثر ، لأنها بصدد الرجوع والعودة إلى أهلها ، والزاني : اسم فاعل من الزنا ، وهو في اللغة الفجور ، وشرعاً : وطء الرجل المرأة الحية في قبلها من غير نكاح .

« التارك لدينه » : كما هو لفظ الترمذي ، وفي رواية البخاري « المارق من الدين » من المروق ، وهو الخروج . والمراد بالدين : الإسلام ، وهذا المارق لدينه أو المارق منه هو المرتد .

« المارق للجماعة » : التارك لجماعة المسلمين بالردة .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١- حرمة دم المسلم : إن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأنقر بوجوده سبحانه ووحدانيته ، وحديث بسيرة عاتق الرسل ﷺ واعترف برسالته ، فقد عصم دمه وصان نفسه وحفظ حياته ، ولا يجوز لأحد ولا يحل له أن يريق دمه

أو يرهق نفسه ، وتبقى هذه العصمة ملازمة للمسلم ، ولا تسلب منه أو ترفع عنه إلا إذا اقرض إحدى جنات ثلاث ، كل منها من شأنها أن ترفع العصمة عن فاعلها وتحطه مهتر الدم ، وهذه الجنات هي :

أ - قتل النفس عبداً بغير حق .

ب - الزنا بعد الإحصان ، وهو الزواج .

ج - الردة .

٢- الرجم : أجمع للمسلمون على أن حد زنى الثيب (المحصن) الرجم حتى يموت ، لأنه اعتدى على عرض غيره ، وارتكب فاحشة الزنا ، بعد أن أئتم الله عز وجل عليه بالتمتع الخلخال ، فعُدل عن الطيب إلى الخبيث ، وجنى على الإنسانية بمخلط الأسباب وإنساد النسل ، وتذكر نهي الله عز وجل ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهَا كَانَتْ فَاحِشَةً وَمَاءً سِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

والمحصن : هو الحر البالغ العاقل الواطئ ، أو الموطوءة في القبل في نكاح صحيح . وقد ثبت الرجم من قول رسول الله ﷺ وفعله ، فقد روى الجماعة أنه رجم ماعراً ، وروى مسلم وغيره أنه ﷺ أمر برجم الغامدية ، وما رواه الجماعة من قوله ﷺ : « واخذ يا أئيب على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » ، فعدا عليها فاعترفت ، فأمر بها رسول الله ﷺ فُرِجَتْ » .

وكان فرجم في القرآن الذي نسخ لفعله : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما آتية تكلاً من الله ، والله عزيز حكيم » . وقد استلطف ابن عباس الرجم من القرآن من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَمُخْفُوهُ كَثِيرٌ ﴾ [المائدة : ١٥] قال : فمن كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب ثم تلا هذه الآية وقال : كان الرجم مما أخفوا . أخرجه النسائي والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٣- القصاص : أجمع المسلمون على أن من قتل مسلماً عبداً فقد استحق القصاص وهو القتل ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ [المائدة : ٤٥] وذلك حتى يأمن الناس على حياتهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ١٧٩] . ويقتل المكلف إذا قتل نفساً بطور حق عبداً سواء كان القتيل أو المقتول ذكراً أم أنثى ، لما ورد في كتاب عمرو ابن حزم عن النبي ﷺ : « بَنَ الرَّجُلُ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ » وصحح أنه ﷺ قتل يهودياً قتل جارية .

ويسقط القصاص إذا عفا أولياء المقتول .

وأجبروا على وجوب القصاص إذا كان القتيل والمقتول كافرين ، واحتفظوا فيما إذا كان المقتول كافراً غير حريري ، كالنسي والنساء من : فذهب قوم - منهم الحنفية - إلى وجوب القصاص ، عملاً بعموم قوله تعالى : ﴿ أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ وقوله ﷺ : « النَّفْسُ بِالنَّفْسِ » . وذهب آخرون - منهم الشافعية والحنابلة والمالكية - إلى أنه لا يقتصر من المسلم بالكافر مطلقاً ، واحتجوا بما رواه البخاري وغيره من قوله ﷺ : « لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ » واعتبروا هذا الحديث محصياً لغيره من العمومات الواردة في قتل النفس بالنفس .

وذهب جمهور الفقهاء إلى أن الوالد لا يقتل بقتل ولده ، وصحح ذلك عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه .

٤- حد الزوجة : أجمع المسلمون على أن الرجل إذا ارتد ، وأصر على الكفر ، ولم يرجع إلى الإسلام بعد الاستتابة ، أنه يقتل ، لما جاء في الحديث « والمطارق لهنه » ولما رواه البخاري وأصحاب السنن : عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ يَزْنِ يَزْنِ دِيْنَهُ فَاقْطَعُوهُ » .

واحتفظوا في قتل المرأة إذا ارتدت ، فذهب جمهور العلماء إلى أنها تقتل كالرجل ، لمعوم الأدلة . وقال الحنفية : لا تقتل ، وإنما تجلس حتى تسلم أو تموت في الحبس ،

والحجوا لذلك بما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من نبيه ﷺ عن قتل النساء في الحرب ، دون تفرق بين الكافرة الأصلية والمردة .

٥- **تارك الصلاة** : وأجمع المسلمون على أن من ترك الصلاة جاحداً بها فقد كفر واعتبر مرتداً ، وأقيم عليه حد الردة . وأما إذا تركها كسلاً وهو يعترف بحرمتها فقد اختلفوا في ذلك : فذهب الجمهور إلى أنه يستتاب فإن لم يتب قتل حداً لا كفراً ، وذهب الإمام أحمد وبعض المالكية إلى أنه يقتل كفراً ، وقال الحنفية : يحبس حتى يصلي أو يموت ، ويحزر في حبه بالضرب وغيره . قال الله تعالى : ﴿ وَتَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُرْكَبِينَ ﴾ [الروم : ٣١] وقال سبحانه : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِذَا ذُكِّرْتُمْ لَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [التوبة : ١٦] . وقال رسول الله ﷺ : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » رواه الإمام أحمد ومسلم . وقال ﷺ : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي .

٦- من يقوم بتنفيذ القصاص والحدود : يقوم بتنفيذ القصاص وثلث المنقول بأمر من الحاكم ، وكذلك المرتد والزاني المحض إنما يأمر الحاكم بتنفيذ العقوبة فيما ، فإذا قصص الولي دون إذن الحاكم ، أو قتل المرتد أو الزاني المحض أحد دون أمر الحاكم أيضاً ، فإنه يحزر الولي والمقاتل ، لتعديهما على وظيفة الحاكم ، ولا يقتلان ، لأن قتلهما كان بغير .

٧- وآفاق الحديث :

أ - أن الدين المعبر هو ما عليه جماعة المسلمين ، وهم الغالبية العظمى منهم .

ب - الحث على التزام جماعة المسلمين وعدم التشويع عنهم .

ج - تشهير من هذه الجرائم الثلاثة والتخدير من الوقوع فيها .

د - تربية المجتمع على الخوف من الله تعالى ومراقبته في السر والعلن قبل تنفيذ الحدود .

هـ - المجدود في الإسلام رادعة ، ويقصد منها الوقاية والحماية .

و - القود (الفصاص) لا يكون إلا بالسيف عند الحفة ، وقال الشافعية :
يُقتل القاتل بمثل ما قُتل به ، وللزولي أن يعدل إلى السيف .

من غصّال الإيمان

القول الحسن ورعاية حق الضيف والجار

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » ، وعن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » ، وعن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » رواه البخاري ومسلم .

الحديث أخرجه البخاري في الأدب (باب : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره) رقم / ٥٦٧٢ / ، ومسلم في الإيمان (باب : التفت على إكرام الجار والضيف والزوم الصمت إلا عن الخير ، وكون ذلك كله من الإيمان) رقم / ٤٧ / .
أهميته :

قال ابن حجر رحمه الله تعالى ، في شرحه لصحيح البخاري : وهذا من جوامع الكلم . وقد اشتمل الحديث على أمور ثلاثة ، تجمع مكارم الأخلاق الفعيلة والقولية . ونظر ما جاء في أهمية الحديث الثالث عشر .

لغة الحديث :

« يؤمن » : الإيمان الكامل ، المحيي من عذاب الله تعالى ، والموصول إلى رضوانه . وأصل الإيمان التصديق والإذعان .

« اليوم الآخر » : يوم القيامة ، وهو وقت الجزاء ، على الأفعال .

« يصمت » : يسنك .

« فليكرم جاره » : يُخصِّل له الخير ، ويكف عنه الأذى والشر .

« فليكرم ضيفه » : يُقدِّم له القرى — وهو طعام الضيف ونحوه — ويُحسن إليه .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١- الإنسان وعلاقته بالمجتمع : يعيش الإنسان في هذه الدنيا مع الناس ، وتقوم بينه وبينهم علاقات وارتباطات ، وهو يحتاجهم وهم يحتاجون إليه ، والإسلام يحرص على أن تكون هذه العلاقات بينهم على أساس سليم ومنهج قويم ، وذلك بتحقيق عندما يكرم بعضهم بعضاً ، ويلتزم كل منهم مع الآخرين آداب المعاملة وحسن المعاشرة ، من كلام جميل ، وجوار كريم ، وخيافة لائقة ، وهذا ما حفا عليه رسول الله ﷺ في الحديث الذي تناولوه بالبحث .

٢- من كمال الإيمان قول الخير والصمت عما سواه : بحثنا رسول الله ﷺ في الحديث على أعظم حصال الخير وأرفع أعمال البر ، فهو بين لنا أن من كمال الإيمان وتمام الإسلام ، أن يتكلم المسلم في الشؤون التي تعود عليه بالقع في دنياه أو آخرته ، ومن ثم تعود على المجتمع بالسعادة والخاتمة ، وأن يلتزم بجانب الصمت في كل ما من شأنه أن يسبب الأذى أو يهلب الفساد ، فيستلزم غضب الرب سبحانه وتعالى وسخطه .

روى أحمد في مسنده : عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال :

« لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » .

وأخرج الطبراني — أيضاً — من حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يخرن من لسانه » . أي يمسكه عن بعض الكلام ، وهو الذي لا خير فيه .

٣- الخواص في الكلام سب الملاك ، وحسن اللسان طريق النجاة : قد مرُّ

بك قوله ﷺ : « من ضمن إسلام المرء تركه ما لا يعنیه » ، وأن الكلام فيما لا يعنیه قد يكون سبباً لإحياء العمل والحرمان من الجنة . فعلى المسلم إذا أراد أن يتكلم أن يفكر قبل أن يتكلم : فإن ظهر له أن ما يتكلم به خير يحقق نتائج عليه تكلم به ، وإن ظهر له أنه شر يضره أو ياتل بشره ، أو التيس عليه الأمر ، فليمتسك عن الكلام فهو خير له وأسلم ، لأنه محاسب عن كل كلمة يلتفت بها ، فإذا متاب أو معاتب ، قال الله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق : ١٨] . وروى البخاري : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، ما يلقي لها بالاً ، يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ، لا يلقي لها بالاً ، يهوي بها في جهنم » . ونذكر حديث معاذ رضي الله عنه : « وهل يكب الناس على مناكرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم » .

٤ - آداب الكلام : للكلام في الإسلام آداب كثيرة منها :

أ - حرم على المسلم أن يتكلم بما فيه نفع ، وأن يمتسك عن الكلام المحرم في أي حال من الأحوال . قال الله تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ والمؤمن هم عن المنكر معرضون ﴾ [المؤمنون : ٣] . والمنكر هو الكلام الباطل ، كالغيبة والبهيمة والظعن في أعراض الناس وغير ذلك .

ب - عدم الإكثار من الكلام للباح ، لأنه قد يجر إلى المحرم أو المكروه . روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « لا تكثروا الكلام بعد ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بعد ذكر الله تعالى فسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي » . وقال عمر رضي الله عنه : من كثر كلامه كثرت سقطته ، ومن كثرت سقطته كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به .

ج - وجوب الكلام عند الحاجة إليه ، وخاصة لبان الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويعتبر ذلك من أشرف الفصال ، وتركه معصية ورم ، لأن

الساكت عن الحق شيطان أخرس .

٥ - العناية بالجوار والوصاية به : من كمال الإيمان وصدق الإسلام الإحسان إلى الجار والبر به والكف عن أذاه ، لا أخبر عليه السلام ، وحسبنا دليلاً على ذلك : أن الله تعالى قرن الأمر بالإحسان إلى الجار مع الأمر بعبادته وحده سبحانه إذ قال : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾ [النساء : ٣٦] . والجار الجنب هو البعيد في الجوار أو النسب ، والصاحب بالجانب هو الزميل في السفر أو غيره .

فالإحسان إلى الجار وإكرامه أمر مطلوب شرعاً ، بل لقد وصلت العناية بالجوار في الإسلام ، إلى درجة لم يعهد لها مليل في تاريخ العلاقات الاجتماعية ، وانظر ما رواه البخاري : عن عائشة رضي الله عنها إذ قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » . أي ظننت أنه سيجعل له نصيباً من ميراث جاره ، من كثرة ما أمان لي من حقوقه عليه .

٦ - إهداء الجوار عتق في الإيمان بسبب الفلاح : أذى الجار محرم في الإسلام ، وهو من الكبائر التي يعظم إثمها ويشتد عتابها عند الله عز وجل ، وتحول بين فاعلها وبين بلوغه مراتب الفضل وكمال الإيمان . روى البخاري ومسلم : عن ابن مسعود رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ مثل : أي النسب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قيل : ثم أي ؟ قال : أن تثلل ولدك غفلة أن يطعم مملكت . قيل : ثم أي : قال : أن تزني حليلة جارك » . أي تغري زوجته حتى توافقك على الزنا وتزني بها ، واقتد الشريك والخيل . وروى البخاري : عن أبي شريح رضي الله عنه « عن النبي ﷺ قال : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . قيل : من يا رسول الله ؟ قال : من لا يأمن جاره بواقته » . أي لا يسلم من شروره وأذاه ، والمراد بقوله : لا يؤمن ، أي الإيمان الكامل للمسلم عند الله عز وجل .

وأخرج أحمد والحاكم : من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قيل يا رسول الله ، إن غلالة تصلي بالليل وتصوم النهار ، ولي لسانها شيء تؤذي جيرانها ، سليطة ؟ قال : لا خير فيها هي في النار . وقيل له : إن غلالة تصلي المكتوبة ، وتصوم رمضان ، وتصديق الأتوار من الأنط ، وليس لها شيء غيره ، ولا تؤذي لسانها جيرانها ؟ قال : هي في الجنة » . ومعنى سليطة : طويشة اللسان بالسب والنحو . والأتوار من الأنط : قطع من اللبن المتجمد .

٧- من وصائل الإحسان إلى الجار : رسائل البر والإحسان إلى الجار كثيرة ، منها :

أ - مواساة عند حاجته ، ففي مسند أحمد : عن عمر رضي الله عنه : لا يشيع المؤمن دون جاره . وروى الحاكم عنه عليه السلام : « ما آمن بي من ذات شعبان وجاره إل حنبه جائع وهو يعلم » . وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه : أوصاني خليلي عليه السلام : « إذا طبخت مرقاً فأكثر عليه ، ثم انظر إلى أهل بيت جوارك ، فأصبرهم منها بمعروف » . أي أعطهم منها شيئاً . والمرق ما طبخ من لحم ونحوه في لاء .

ب - مساعدته وتحصيل الشفع له ، وإن كان في ذلك تنازل عن حق لا يضر التنازل عنه ، ففي الصحيحين : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي عليه السلام قال : « لا يمن أحدكم جاره أن يبرز خشبة في جداره » .

ج - الإهداء له ، ولا سيما في المناسبات ، روى البخاري : عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله عليه السلام قال : « لا تحرقن جارة لجارها ولو فرس شاة » . أي لا تستصفرن أن تهدي لها قليلاً ، ولو كان المهدي فرس شاة ، وهو عظم عليه قليل من اللحم ، والمعنى : فلتهد لها على أي حال .

٨- إكرام الضيف من الإيمان ومن مظاهر حسن الإسلام : بين لنا رسول الله عليه السلام في الحديث : أن من أكرم شرافع الإسلام ، وسلك مسلك المؤمنين الأعيار ،

لرمحه إكرام من نزل عنده من الضيوف ، والتميز بهم والإحسان إليهم ، وكان ذلك دليل
كأن تقته بالله تعالى وصدق توكفته عليه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من كان
يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

الضيافة حق أم إحسان ؟ الضيافة من مكارم الأخلاق وآداب الإسلام ، وحسن
السنة والصالحين ، وهل هي كرم وإحسان من المزور ، أم حق للضيف واجب
عليه ؟ فقد اختلف العلماء في ذلك :

فذهب أحمد والليث إلى أنها واجبة يوماً وليلة ، كما رواه ابن ماجه من قوله عليه السلام :
« ليلة الضيف حق واجب على كل مسلم » . وفي الصحيحين : عن عقبة بن عامر
رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله ، إنك البعاض فتنزل يقوم لا يقرونا ، فما
نرى ؟ فقال لنا رسول الله عليه السلام : « إن أنزلتم يقوم فأمرؤا لكم بما ينهي للضيف
فأقبلوا ، فإن لم يفعلوا ، فخذلوا منهم حق الضيف الذي ينهي لهم » . ولقوله عليه السلام
في الحديث : « فليكرم ضيفه » . فهو أمر ، والأمر للوجوب . وإذا قيل بوجوب
الضيافة واستيعابها للمزور ، فهل يأخذ الضيف حقه من ماله بنفسه ، أو يرفع ذلك
إلى الحاكم ليأخذ له حقه ؟ في ذلك عن أحمد رحمه الله تعالى روايتان .

والجمهور على أن الضيافة مستحبة ، ومن باب مكارم الأخلاق ، وليست
بواجبة ، لقوله عليه السلام : « فليكرم » وفي رواية « فليحسن » وكل منهما لا يدل على
الوجوب ، لأن الإكرام والإحسان من باب الخير ومن مكارم الأخلاق .

٩- من آداب الضيافة والضيف : من أدب الضيافة وكرمهها البشر والبشاشة
في وجه الضيف ، وطيب الحديث معه ، واللباقة بإحضار ما يسر عنده من طعام
وشراب ، ويزيد عما يطعمه أهله وعياله في العناد مدة يوم وليلة ، وفي اليومين
الآخرين يطعمه كما يطعم عياله ، من غير كلفة ولا إضرار بهم .

روى مسلم من قوله عليه السلام : « الضيافة ثلاثة أيام ، وسجارتها يوم وليلة ، فما كان
وراء ذلك فهو صدقة عليه » .

وأما الضيف فمن أدبه أن لا يضيف على مزوره ولا يرصده ، ومن التضييق أن يكت عنه فوق ثلاثة أيام ، أو يكت عنه وهو يشعر أنه ليس عنه ما يضيفه به .
 روى مسلم من حديث أبي شريح رضي الله عنه : « ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤله ، قالوا : يا رسول الله ، كيف يؤله ؟ قال : يقيم عنده ولا شيء له يقره به » . وفي هذه الحالة أنه أن يأمره بالتحول عنه ، وخاصة بعد الثلاث ، لأنه قد قطي ما عليه .

١٠ - أهمية العمل بهذا الحديث : إن العمل بما عرفناه من مضمون هذا الحديث بالغ الأهمية ، لأنه يحقق وحدة الكلمة ، ويؤلف بين القلوب ، ويذهب الضعائن والأحقاد ، وذلك أن الناس جميعاً يجاور بعضهم بعضاً ، وغالبهم ضيف أو مضيف ، فإن أكرم كل جار جلده ، وكل مضيف ضيفه ، صلح المجتمع ، واستقام أمر الناس ، وسادت الألفة والمحبة ، ولا سيما إذا التزم الكل أدب الحديث ، فقال حسناً أو سكوت .

لَا تَغْضَبْ وَلَكَ الْجَنَّةُ

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أوصني ، قال :
« لَا تَغْضَبْ » فرُفِّدَ مراراً ، قال : « لَا تَغْضَبْ » رواه البخاري .

الحديث أخرجه البخاري في الأدب (باب : الحذر من الغضب) رقم
/٥٧٦٥/ .

أهميته :

قال الجرداني : إن هذا الحديث حديث عظيم ، وهو من جوامع الكلم ، لأنه
جمع بين محوري الدنيا والآخرة .

ونظر ما جاء في أهمية الحديث الثالث عشر .

لغة الحديث :

« رجلاً » : قيل : هو أبو الدرداء رضي الله عنه ، فقد أخرج الطبراني عنه :
قلت : يا رسول الله ، داني على عمل يدخلني الجنة ؟ . قال : « لَا تَغْضَبْ وَلَكَ
الجنة » . وقيل : هو جارية بن قليعة رضي الله عنه ، فقد أخرج أحمد عنه أنه قال :
سألت النبي ﷺ فقلت له : يا رسول الله ، قل لي قولاً وأقلل عليّ عمل أحمله ؟
قال : « لَا تَغْضَبْ » . فأعادت عليه مراراً ، كل ذلك يقول : « لَا تَغْضَبْ » .
ولا مانع من تكرار العبادة وتعدد السائل .

« أوصني » : داني على عمل يتقني .

« لَا تَغْضَبْ » : احذر أسباب الغضب ولا تعرض لما يجلبه ، أو : لا تعمل
بمقتضى الغضب ، والغضب نوران في النفس يجعلها على الرغبة في البطش والانتقام .

١ فردد مراراً : تكرر طلبه للوصية أكثر من مرة .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١- خلق المسلم : المسلم إنسان يتصف بمكارم الأخلاق ، يتجمل بالحلم والحياء ، وليس ثوب التواضع والتودد إلى الناس ، وتظهر عليه ملامح الرجولة ، من الاحتمال وكف الأذى عن الناس ، والعلو عند الغفلة ، والعصر على الشدائد ، وكظم الغيظ إذا اعتدى عليه أو أثير ، وعطالة الوجه والبشر في كل حال من الأحوال . وهذا ما وجه إليه رسول الله ﷺ ذلك الصحابي المستصح ، عندما طلب منه أن يوصيه بما يلقه المقصود ويحقق له المطلوب . بذلك العبارة الموجزة ، الجامعة لكل خير ، المانعة لكل شر : « لا تغضب » .

٢- الشوق إلى الجنة والبحث عن طريقها : هذه وصية من رسول الله ﷺ ، يوجهها إلى هذا السائل ، الذي أراد أن يسلك طريق الجنة ، وطلب من معلمه ومرشده وفائده إلى الفردوس الأعلى ورضوان الله عز وجل ، أن يوصيه ويختصر له في الوصية حتى يحتفظها ، ويفهم الصيحة ويدرك التوجيه ، فيجيبه إلى طلبه ويلقنه حاجه ، بذلك الوصية الخالدة : « لا تغضب » . أي تطلق بالأخلاق الرفيعة ، أخلاق النبوة ، أخلاق القرآن ، أخلاق الإيمان ، فإنك إذا تحلقت بها وحصلت لك عداة ، وأصبحت فيك طبعاً وسجية ، اندفع عنك الغضب حين وجود أسبابه ، وعرفت طريقك إلى مرضاة الله عز وجل وجهته .

٣- الحلم وحفظ النفس سبيل الفوز والرضوان : إذا غلب الطبع البشري ، وتارت إليك قوى الشر ، أيها المسلم الباحث عن النجاة ، فإليك أن تعطي نفسك هواها ، ولدع الغضب يتمكن منك فيكون الأمر والنهي لك ، فترتكب ما نهاك الله عنه ، بل جاهد نفسك على ترك مقتضى الغضب ، ولذكر خلق المسلم التقى والمؤمن التقى ، الذي وصفك الله تعالى به بقوله : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين . الذين يُنفقون في السراء والعسراء

والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴿١٣٤﴾ آل عمران : ١٣٣-١٣٤ . وعندها تصون نفسك من غضب الله عز وجل ، بعد أن كبحت جماها فخصف في زمرة الشقيين ، وتكون من أهل الجنة الخالدين .

روى الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أنه سأل النبي ﷺ : ماذا ياعدني من غضب الله عز وجل ؟ قال : « لا لغضب » .

وقال الحسن البصري : أربع ، من كن فيه ، عصمه الله من الشيطان وحرمه على النار : من ملك نفسه عند الرزية ، والرغبة ، والشهوة ، والغضب .

٤- الغضب جراح الشر والتحرر منه يحتاج الحيو : فليس في الحديث : أن ذاك السائل المؤمن ، حين قال له ﷺ : « لا تغضب » يدرك منه تلك النصيحة ويقبلها ، ولكنه يعود فيكرر طلبه للوصية والنصح ، وكأنه لم يتق بها وأخطأ قليلا ، وهو يحتاج إلى المزيد مما هو أبلغ منها وأنفع ، حتى يدرك غايته من دعوى الجنة . ولكن رسول الله ﷺ لم يوده عليها ، وإنما كررها له لثباتها وربما أكثر ، كلما قال : أوصني ، قال له « لا تغضب » مؤكدا أنها وصية كافية ونصيحة بالغة ، إذا فهم فحواها وعمل بمقتضاها .

هناك يندب هذا المؤمن العاقل لتأكيد رسول الله ﷺ ، ويدرك غايته ويعرف قصده ، فقد ورد - في رواية عن الإمام أحمد - عن السائل أنه قال : فكبرت حين قال النبي ﷺ ما قال ، فإذا الغضب بجميع الشر كله . ومعنى ذلك : أنه إذا لم يغضب فقد ترك الشر كله ، ومن ترك الشر كله ، فقد حصل الخير كله . فصولات الله وسلامه عليك يا رسول الله ، وجزاك الله تعالى عن الأمة غير ما يجزي به لي مرمي ، فقد وجهت إلى حسن الخلق ، وحذرت من مقتاح كل شر .

روى أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : أي العمل أفضل ؟ قال : « حسن الخلق » ، هو أن لا تغضب إن استطعت .

٥- الغضب ضعف والحلم قوة : سرعة الغضب والانقياد له عنوان ضعف

الإنسان ، ولو ملك السواعد القوية ، والجسم الصحيح . روى البخاري ومسلم :
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ،
إلّا الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » . والصرعة هو الذي يغلب الرجال ولا
يغلبه الرجال .

٦- آثار الغضب المقيته : الغضب علل مدموم وطبع سيء وسلاح فاك ، إذا
استسلم له الإنسان وقع صريع آثاره السيئة ، التي تضر بالفرد نفسه أولاً ، وبالجماع
ثانياً .

أ - أما أضراره بالنفس ، فهي : جسمية مادية ، وعقلية معنوية ، وروحية
دينية ، وتستطيع أن تترك ذلك عندما تصور الغضب ، وقد تغير لونه ، وطفح
دمه ، وانتفخت أوداجه ، وارتعدت أطرافه ، واضطربت حركته وتلجج كلامه ،
واتطلق لسانه بالفاحش من القول ، بسب ويشتم ، وربما قال الكلام المحرم ، الذي
يخرج عن الإسلام أحياناً ، كاللفظ بالكفر والتعرض للدين ونحو ذلك . أضف إلى
كل ما تقدم ، ما يقوم به من تصرفات طائشة ، يدير بها ماله أو يؤدي بها جسمه .

ب - وأما أضراره بالجماع : فهو يولد الحقد في القلوب ، وإحسان السوء
للناس ، وهذا ربما أدى إلى إلقاء المسلمين وهدمهم ، ومزيد الشناعة بهم عند
العصاة ، وهكذا تنور العدوة والبغضاء بين الأصفياء ، وتقطع الصلة بين الأقرباء ،
فتفسد الحياة وتبهر المجتمعات .

٧- دفع الغضب ومعالجته : الغضب من طبع الإنسان وجبته ، ولكن المسلم
المرابط بالملكوت الأعلى يمتون نفسه منه ، ويذبح شره عنه ، بالبعد عن أسبابه حتى
لا يحصل ، ومعالجته إذا حصل :

أ - أسباب الغضب : هي كثيرة ومتنوعة ، منها : الكبر والتعالي والتفاخر على
الناس ، والفرد والسخرية بالآخرين ، وكثرة المزاح ولا سيما في غير حق ، والجذل
والندخل فيما لا يعني ، والحرص على فصول لئال أو الحياء . والسلم منسوب إلى

أن يتخلص من هذه الأخلاق الذميمة ، ويتصامى عنها ، ويهذب نفسه على خلافها .

ب - وأما معالجة الغضب ، فيكون بأمر كثيرة أرشدنا إليها الإسلام ، منها :

• أن يروى نفسه وينتريها على السحلي بمكسارم الأخلاق ، كالخلم والصبر والتثبت في الأمور ، والتأني في التصرف والحكم . وقبولنا في هذا رسول الله ﷺ ، فهذا هو يأتيه زيد بن سحنة قبل إسلامه ، يحضر فيه صفة البوة ، وأنه يسبق حلقه غضبه ، ولا تزيد شدة جهل الجاهل إلا حلقاً ، فيطالبه يدين له عليه لم يبلغ أجله بعد ، بكل فطاعة وعقلية ، فيطالبه ﷺ بكل رحابة صدر ، وانصاعة لعر ، وينتبر عمر رضي الله عنه الرجل ، فيقول له ﷺ معلماً ومؤدباً له ولكر حل : « أنا وهو كنا أخرج إلى غير هذا يا عمر ، تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضي » . وأمر بأداء الدين إليه ، وأن يزداد على حلقه ، لمقابل الدر الذي لصاحبه من قبل عمر رضي الله عنه ، فكان ذلك سبب إسلامه رضي الله عنه ، ونجته من غضب الله عز وجل وفارده . روى ذلك ابن حبان والحاكم والطبراني .

• أن يثبت نفسه ويضبطها إذا أغضب ، ويذكر عاقبة الغضب ، وفضل كظم الغيظ والعفو عن الناس : ﴿ وَالكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه ، عن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظاً ، وهو يستطيع أن ينفذه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، حتى يجره في أي الخور شاء » .

وروى أحمد أيضاً : « ما كظم عبداً الله إلا أُبلى ، جوفه إيماناً » وعند أبي داود : « ملاه الله أمناً وإيماناً » .

• الاستعانة بالله من الشيطان الرجيم ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَرَحْتَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَّحْ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

روى البخاري ومسلم : **سَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُخْتَبِئاً قَدْ احْتَرَّ وَجْهُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِيَّيْ لَأَعْلَمُ كَلِمَةً ، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَحِدُّ ، لَوْ قَالَ : أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » .**

● **تغيير الحالة التي هو عليها حال الغضب ،** فقد روى أحمد وأبو داود : عن النبي ﷺ قال : **« إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَحْسِنْ ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنِ الْغَضَبِ ، وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ » .** وذلك لأن القيام منهي عن الاستفهام وأقرب إليه ، والجالس والمضطجع أبعد عنه .

● **ترك الكلام ،** لأنه ربما تكلم بكلام قوليل عليه بما يزيد من غضبه ، أو تكلم بكلام يندم عليه بعد زوال غضبه ، لأنه ما كان يحب أن يصدر منه . روى أحمد والترمذي وأبو داود : **« إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ » .** قالها ثلاثاً .

● **الوضوء ،** وذلك أن الغضب يثير حرارة في الجسم ، فيبيع القدم ويسور ويحدث سورة الجسم ، والماء يبرده فيعود إلى طبعه ، روى أحمد والترمذي : أنه ﷺ قال في خطبة له : **« أَلَا إِنَّ الْغَضَبَ حَرَّةٌ تَتَوَقَّدُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ » .**

هذا مع ملاحظة أن الوضوء عبادة فيها ذكر الله عز وجل ، يخس عندها الشيطان الذي يُذَكَّرُ نار الغضب في الإنسان ، روى أحمد وأبو داود : أنه ﷺ قال : **« إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ تَحُلَّى مِنَ النَّارِ ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ » .**

٨- **الغضب لله تعالى :** الغضب الملعوم ، الذي يُطلب من المسلم أن يعالجه ويتعد عن أسبابه ، هو ما كان انتقاماً للنفس ، وبغير الله تعالى ونصرة دينه . أما ما كان لله تعالى : بسبب التعدي على حرمات الدين ، من تحد لعقيدة ، أو تهجم على خلق أو انتقام من عبادة ، أو كان بسبب البيل من نفس مسلم أو عرضه أو ماله ، فهو في هذه الحالة خلق محمود ، وسلوك مطلوب . قال الله تعالى : ﴿ فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِئُ صَوْرَهُمْ قَوْمٌ مُؤْمِنِينَ . وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٤-١٥]

وفي الصحيح : أنه عليه السلام كان أشد حياءً من العلواء في عذرهما ، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه . رواه البخاري .

والعلواء : البكر التي لم يسق لها زواج . عذرهما : سترها ، وكأثروا يجعلون للبكر سترًا في ناحية البيت تحلس وراءه حياءً من لقاء الناس .

وورد : أنه عليه السلام كان لا يعضب لشيء ، فإذا انتهكت حرمة الله عز وجل ، لمحمد لا يقوم لغضبه شيء . رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

٩- الغضباني مسؤول عن تصرفاته : إذا أثلف الإنسان ، حال غضبه ، شيئاً ذا قيمة لأحد ، فإنه يضمن هذا المال ويقرم قيمته ، وإذا قتل نفساً عمداً وعدواناً استحق القصاص ، وإن تلفظ بالكفر حكم برده عن الإسلام حتى يتوب . وإن حلف على شيء انعقد بيمينه ، وإن طلق وقع طلاقه .

١٠- وأما الحديث : حرم المسلم على الصبيحة والعرق وجوه الخمر ، والأصراقة من العلم النافع والموعظة الحسنة .

كما لحق : الحث على الإحلال من القول ، والإكثار من العمل ، والتربة بالقدوة الحسنة .

عَمُومُ الْإِحْسَانِ

عن أبي يعقوب شاذان بن أوس رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال :
« إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قُلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقَوْلَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ
فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَكَيْفَ أَعَدَّكُمْ شَفَرُهُ وَلَيْسَ ذَبْحُهُ » رواه مسلم .

الحديث رواه مسلم في كتاب الصيد (باب الأمر بإحسان الذبح والفعل وتحديد
الشفرة) رقم / ١٩٥٥ / .

أهمية الحديث :

هذا الحديث قاعدة من قواعد الدين العامة ، ويضمن إتيان جميع تعاليم الإسلام ،
لأن الإحسان في الفعل يكون بإيفاءه على مقتضى الشرع ، والفعل إما أن يتعلق بمعاش
الإنسان وسياسة في أهله وإخوانه وبآل الناس ، أو بمعاده وهو الإيمان الذي هو عمل
القلب ، والإسلام الذي هو عمل الجوارح ، فمن أحسن في معاشه ومعاده وأتى به
تماماً سديداً ، فقد فاز فوزاً عظيماً وكان من المستضاء في القرآن إن شاء الله تعالى .

لغة الحديث :

« كتب » : طلب وتوجب .

« الإحسان » : مصدر أحسن إذا أتى بالحسن ، وهو ما حسنه الشرع ، ويكون
بإتيان العمل .

« الذبحة » : بكسر الظاف ، الحقة والحالة كالجلسة .

« ليجد » : هو يغم الياء وكسر الحاء وتشديد الدال ، يقال أحد السكين ،
وحدها ، واستعملها بمعنى .

« شفرته » : السكين وما يذبح بها ، وشفرتها : حدها .

فقہ الحديث وما يرشد إليه :

١- وجوب الإحسان : ينص الحديث على وجوب الإحسان ، وهو الإحكام والإكمال والتحسين في الأعمال المشروعة ، وقد أمر الله به في كتابه العزيز فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] وقال سبحانه : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] . وهو مطلوب عند الإتيان بالفرائض ، وفي ترك الغرمات ، وفي معاملة الخلق ، والإحسان فيها أن يأتي بها على غاية كمالها ، ويحافظ على آدابها المصححة والنسبة لها ، فإذا فعل ذلك قيل عمله وكثر ثوابه .

٢- الإحسان في القتل . وهو تحريم هبة القتل بآفة حادة ، ويكون بالإسراع في قتل النفوس التي يُباح قتلها على أسهل الوجوه ، والقتل المباح إما أن يكون في الجهاد المشروع ، وإما أن يكون قصاصاً أو تحفظاً من حدود الله تعالى :

أ- فأما قتل الأعداء في المعركة جهاداً في سبيل الله ، فأسهل وجوه قتل الكافر كان صر به بالسيف على العنق ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ [محمد : ٤] وقد نبى النبي ﷺ عن النخلة ، وهي قطع أجزاء من الجسد ، سواء أكان ذلك قبل الموت أم بعده ، ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ : نبى عن النخلة . وفي مسند أحمد وسنن أبي داود من حديث عمران بن حصين وسمرة بن جندب : أن النبي ﷺ كان ينهى عن النخلة . ولئن جاز للمسلمين أن يستخدموا الأسلحة البارية والسمية المدمرة من قبيل المعاملة بالنخل ﷺ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه مثل ما اعتدى عليكم ﴾ [البقرة : ١٩٤] ، فإنه لا يجوز لهم بحال من الأحوال أن يتجهروا في قتالهم بها إلى التعذيب والتشويه كهدف وغاية ، وقد درجت بعض الدول الكافرة على أن تعذب من جندوها عدم قتل الأعداء والاكتفاء بشوحيهم ، لأن هذا يجعل الشؤم عتافاً على الدولة ، فهي حرب اقتصادية وعسكية ، إلى جانب أنها حرب سفك للدماء وتخريب ودمار .. والإسلام يرفض هذا السلك القويح ،

ويبقى متعلقه هو الإحسان إلى كل شيء ، وخاصة الإنسان .

ب - وأما القتل قصاصاً : فلا يجوز التحليل بالمقتص منه ، بل يقتل بالسيف ، فإن كان القاتل التمسد قد مثل بالمقتول ، فقد ذهب مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه إلى أنه يقتل كما قُتل ، وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : خرجت جارية عليها أوضاع بالمدينة ، فرمعاها يهودي بحجر ، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ وبها زنت ، فقال لها رسول الله ﷺ : « فَلَآنَ قَتَلْتُ ؟ » فرقعت رأسها ، فقال لها في الثالثة : « فَلَآنَ قَتَلْتُ ؟ » فحفظت رأسها ، فدعا به رسول الله ﷺ فوضغ رأسه بين حجرين .

أوضاع : نوع من الخلل يُعمل من القصة .

وذهب الثوري وأبو حنيفة وأحمد - في رواية عنه - إلى أنه لا يقتل إلا بالسيف . وعند أحمد رواية ثالثة : يُعمل بالمقاتل كما فعل بالمقتول ، إلا أن يكون حرقة بالدار أو مثلى به فيقتل بالسيف ، انتهى عن الثعلبي وعن التحريق بالدار .

ج - وأما القتل حداً للكفر ، فأكثر العلماء على كراهة الخطة فيه أيضاً ، سواء كان لكفر أصلي أم لردة عن الإسلام .

٣ - انتهى عن التحريق بالدار : ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ أدان بالتحريق بالدار ثم نهي عنه ، ليكون ذلك أكيد في الامتثال والالتزام ، وروى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « لَا تَقْلَبُوا بَعْدِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » . وهذا يدل على أن تعاليم النبي الكريم تقدمت وسبقت ما اتفقت عليه الدول من مع القتل المرفقة ، علماً بأن الدول الكبيرة والقوية لم تلتزم بهذا المنع ، بل بقي حراً على ورثي ...

والنهي عن التحريق في الإسلام يشمل الحيوانات والحوام ، ففي مسند الإمام أحمد وأبي داود والنسائي عن عبد الله بن مسعود قال : كما مع النبي ﷺ فمحررنا بقرية

علي قد أحرقت ، فضضب النبي ﷺ وقال : « إياه لا ينبغي لشم أن يُعذَّب بهحاب الله عز وجل » .

ولذلك كره أكثر العلماء التحريق حتى للهوام ، قال إبراهيم النخعي : تحريق العقرب بالنار مثله . ونهت أم الدرداء عن تحريق البرغوث بالنار . وقال أحمد : لا يُشوى السمك في النار وهو حي . وقال : البرغوث أعون ، لأنه لا دم له .

٤- النبي عن صبر الهام : وهو أن تُحبس البهيمة ثم تضرب بالهيل والحوه حتى تموت ، ففي البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه : أن النبي ﷺ نهي أن تصبر الهام . وفي البخاري ومسلم أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه مرَّ بقوم نصبوا دجاجة يرمونها ، فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا .

٥- النبي عن القاذ شيء فيه الروح طرخاً : والغرض هو الذي يرمى فيه بالسهام ، أي يجعلونها هدفاً ، وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة : أن النبي ﷺ نهي عن الرمية ، أن يرمى الدابة ثم تؤكل ، ولكن قدح ثم يرموا إن شئوا .

٦- الإحسان في ذبح الهام : وفي الإسلام آداب يلتزم بها المسلم عند الذبح وهي بمجموعها تجسيد عملي للإحسان والرفق ، فمن ذلك أن يحدَّ الشفرة ، ليكون الذبح بآلة حادة ترخ الذبيحة بتسهيل زعزاع روعها ، روى الإمام أحمد وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أمر رسول الله ﷺ بحد الشفار ، وأن لو لوى عن الهام ، وقال : « إذا ذبح أحدكم فليجهز » . ومن الآداب الرفق بالذبيحة ، فصاق إلى الذبح سوفاً رقيقاً ، ففي سنن ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري قال : مرَّ رسول الله ﷺ برجل وهو يجر شاة بأذنها ، فقال رسول الله ﷺ : « دغ أذنها وحدَّ بساقيتها » والساقلة : مقدمة العنق . وقال الإمام أحمد : لقد أُلِيَ الذبح قوداً رقيقاً ، وتوارى السكين عنها ، ولا يُظهر السكين إلا عند الذبح .

ومن الإحسان في الذبح : غري الأوداج ، ففي سنن أبي داود عن ابن عباس

وأني حريرة رضي الله عنهم ، عن النبي ﷺ : أنه نهي عن شريطة الشيطان ، وهي
أن يذبح وتقطع الجلد ، ولا تفري الأوداج .

كما يستحب أن لا يذبح ذبيحة بحضور أخرى ، ويوجه الذبيحة إلى القبلة ،
ويسمي عند الذبح ، ويحركها إلى أن تبرأ ، ويستحضر ثبة القرنة ، ويعترف لله تعالى
بالبينة في ذلك ، لأنه سبحانه يتعزى لنا هذه الهيام وأنعم بها علينا .

ومن الإحسان لما أن لا تحمل فوق طائفتها ، ولا تتركب والملة إلا الحاجة ،
ولا يُحلب منها إلا ما لا يضر بولدها .

٧- والحديث بعد هذا كله فاعلم من قواعد الإسلام العامة ، لأنه دعوة كريمة
من النبي ﷺ إلى الإحسان في كل عمل .

تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَحُسْنُ الْخُلُقِ

عن أبي ذرٍّ جُنْدَبٍ بنِ جُنَادَةَ ، وأبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ثَعْلَابِ بنِ خَتَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِيَّا اللَّهَ خَشِيتُمَا كُنْتُ ، وَكَلِمَةَ السُّبْحَةِ الْخَيْرُ ثُمَّهَا ، وَخَالِي الثَّامِنَ بِخُلُقٍ خَيْرٍ » رواه الترمذي وقال : حديث حسن . وفي بعض النسخ : حسن صحيح .

الحديث أخرجه الترمذي في أبواب البر والصلة (باب : ما جاء في معاشرته الثامن) رقم /١٩٨٨/ .

ويؤيد تحسين الترمذي أنه ورد لهذا الحديث طرق متعددة عند أحمد والبخاري والطبراني والحاكم وابن عبد البر وغيرهم . انظر المقروحات الربانية [٣٧٣/٧] .

لغة الحديث :

« إِيَّا اللَّهَ » : التقوى في اللغة : اتخاذ ولاية وحاجر يبتك ويحفظك مما تخاف منه وتحذره ، وتقوى الله عز وجل : أن تجعل العبد بينه وبين ما يغشاه من عقابه وقاية تحفه وتحفظه منه ، ويكون ذلك باستتال أوامره واجتناب نواهيه .

« حَيْثُمَا كُنْتُ » : أي في أي زمان ومكان كنت فيه ، وحديثك أو في جمع ، رآك الناس أم لم يروك .

- « أَتَيْتُ » : ألتفت ، وأفعل عقبا مباشرة .
- « السُّبْحَةُ » : الذنب الذي يصغر منك .
- « ثُمَّهَا » : تزيئها من محاليف الملائكة الكائين وترفع المؤاملة بها .
- « خَالِي » : جامع نفسك وتكلف الجمالة .

« خلق » : الخلق الطيع والزاج الذي يتبع عنه السلوك ، وقد يوصف بالسوء كما يوصف بالحسن .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١ - سبب وروده : هذه الوصية من رسول الله ﷺ لأنّي ذو وعاء ، رضي الله عنهما ، وردت من طرق عدة وبمناسبات مختلفة ، منها :

أ - ما أخرج ابن عبد البر في المجهيد : عن أنس رضي الله عنه قال : بعث النبي ﷺ معاذاً إلى البحر ، فقال : « يا معاذ ، اتق الله ، وعائني الناس بخلق حسن ، وإذا عملت سيئة فأتبعها حسنة » . فقال : قلت : يا رسول الله ، لا إله إلا الله من الحسنات ؟ قال : « هي من أكبر الحسنات » .

ب - ما أخرج أحمد : عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، علمني عملاً يقربني من الجنة ويباعدني من النار . قال : « إذا حملت سيئة فاعمل حسنة ، فإنها عشر أمثالها » . قال : قلت : يا رسول الله ، أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : « هي أحسن الحسنات » .

٢ - الإنسان خليفة مكرم في الأرض : إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، ومنّ عليه بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى ، وجعل من الناس رسلاً أمراً عليهم الموحي من السماء ، ليبتدوا لباقي البشر طرق الخير والسعادة ، وأمرهم أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً ، وأن يتقوا ما أمرهم به ويتجنبوا ما نهاهم عنه ، وأن يسارعوا إلى فعل الخيرات والكف عن المنكرات ، وأن يسعى كل سبيل في تحقيق السعادة للإنسانية ، ويعامل بعضهم بعضاً بالودّة والتعاون والإحسان ، ويمد كل منهم للآخرين يد المساعدة والإحسان ، ويتجمل بالأخلاق الرفيعة ، ويكون ذا نفس طيبة وروح أكيفة وكلام جميل . وبكل ما سبق يهتدي المرء ، ويحظى الناس بخيري الدنيا والآخرة ، والحقائق خلافة الإنسان المكرمة على الأرض ، التي امتاز بها آدم عليه السلام على الملائكة المقربين : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [البقرة : ٣٥] .

وهذا ما أوصانا به وحشا عليه الصلطفى ﷺ في هذا الحديث .

٣- وصية عائدة : ما أحمل هذه العظة التي يتحلى بها هذان الصحابيَّان الجليلان ، إنها حديث سمعه من مرييها وحبيبها محمد ﷺ ، ولعله كان في الأصل منحة ووصية لها ، ثم أصبح إرشاداً ولوجياً ، وموعظة للأمة عائدة ، لما فيه من خير عظيم والفع عظيم ، يحقق سعادة الدنيا ويشر بتعب الآخرة ، فهو وصية عظيمة ، جامعة لحقوق الله تعالى وحفاظة لحقوق عباده .

٤- التقوى سبيل النجاة : أعظم ما يوجهنا إليه رسول الله ﷺ في هذه الوصية تقوى الله عز وجل ، التي هي جامع كل خير والوقاية من كل شر ، يا استحق المؤمنون التأيد والمعونة من الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [البقره : ١٧٨] . ووعدهم عليها الرزاق الحسن ، والخلاص من الشدائد : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسَبُ ﴾ [البقرة : ٢١٧] . وبها حفظهم من كيد الأعداء : ﴿ وَإِنْ تَصِروا أَوْتَقُوا لَا يَتَّخِذْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : ١٢٠] . وجعل للمتقين حقاً على نفسه أن يرحمهم : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ [الأعراف : ١٥٦] . ووصف نفسه تعالى بأنه حقيق بها وبالظفرة لمن اتصف بها : ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمُنَقَرَةِ ﴾ [المدثر : ٥٦] . وأقرهم في الآخرة بمولاه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَتَنْزِيلٍ فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ حَمِيدٍ مُقْتَدرٍ ﴾ [القمر : ٥٤-٥٥] .

ولقد كثرت الآيات والأحاديث في فضل التقوى وعظيم ثمراتها ، ولا حرامة ، فالتقوى سبيل المؤمنين ، وحلق الأنبياء والمرسلين : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِمُ الْخَيْرَ ﴾ [الأنعام : ٩٠] . ووصية الله تعالى لعباده الأولين والآخرين ، فمن أكرمها ملاز وروح ، ومن أعرض عنها هلك وعسر : ﴿ وَقَدْ زَمَّيْنَا الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنْ قَدْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنياً حميداً ﴾ [النساء : ١٣٦] .

٥- حليقة التقوى : التقوى كلمة جامعة مانعة ، تشمل كل ما جاء به الإسلام من عقيدة وعبادة ومعاملة وخلق ، قال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

في الرقاب : إعتاق العبد وفكك الأسرى . البأساء : شدة الفقر والحاجة . الضراء : المرض وغوه . البأس : وقت شدة القتال .

فالتقوى بهذا المعنى ليست كلمة تقال ، أو دعوى تُدعى دون برهان ، بل هي عمل في طاعة الله عز وجل ذائب ، وترك محارم لمعصية الله تبارك وتعالى ، ولقد فسّر السلف الصالح التقوى بتوهم : أن يطاع الله فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . ولقد عملوا بهذا المعنى والزموه ، في سرهم وعلانياتهم ، وكل حال من أحوالهم وشؤونهم ، تنقيداً لأمر الله تعالى وتلبية لندائه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تمولوا إلا وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

٦- ومن كمال التقوى : البعد عن الشبهات وما ليس بالحرام من الأمور : فمس التقي الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه . البخاري ومسلم . وبدخل في هذا المعنى أن يتزهد عن كثير من الحاجات التي يهوى بها أن توقع في الحرامات . روى الترمذي وابن ماجه عن النبي ﷺ قال : « لا يبلغ البعد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً بما به بأس » . قال الحسن البصري : ما زالت التقوى بالمتقين ، حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام .

٧ شرط لتحقيق التقوى : لا لتحقيق التقوى بمعانيها ولا تؤتي ثمارها ، إلا إذا توفر العزم بدين الله تعالى لدى المسلم ، ليحرف كيف ينبغي الله عز وجل : ﴿ كذلك

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿ [قاطر : ٢٨] . لَأَن الْجَاهِلَ لَا يَعْرِفُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ فَعَلَهُ وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ تَرْكُهُ ، وَلِهَذَا كَانَ الْعِلْمُ أَفْضَلَ الْعِبَادَاتِ ، وَطَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَى الْخَيْرِ ، وَعَوَانُ إِزَادَةِ الْخَيْرِ بِالْمَرْءِ ، قَالَ ﷺ : « فَصِلِ الْعَالَمَ عَلَى الْعَالِدِ كَتَفْصِلِ عَلَى تَوَلَّائِهِ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ . وَقَالَ : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْخَيْرِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ . وَقَالَ : « مَنْ يَرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفْقِهِهُ فِي الدِّينِ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

٨- التوبة من الذنب والإسراع في عمل الخير خلق اللذين الشقيين : قد يعلب عن الإنسان السيئ أو الغفلة ، وقد تغربه نفسه أو يوسوس له شيطانه ، فيقع في المعصية ويرتكب الذنب ، ومن التقوى - عند الله - أن يسارع إلى التوبة ويستغفر الله عز وجل إذا ذكر أو سه ، قال تعالى في وصف الحقير : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَرَحٌ وَإِلَّا فَالَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا تُسْأَلُهُمْ غُفَاتٍ مِنْ الذُّنُوبِ لَمْ تَجِدْ لَهُمْ لَحْظَةً يَوْمَ يُقَالُ لَهُمْ اذْكُرُوا مَا فَعَلْتُمْ وَهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ وَإِنْ كُنْتُمْ تَقُونَ فَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِهِمْ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَرَحٌ وَإِلَّا فَالَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا تُسْأَلُهُمْ غُفَاتٍ مِنْ الذُّنُوبِ لَمْ تَجِدْ لَهُمْ لَحْظَةً يَوْمَ يُقَالُ لَهُمْ اذْكُرُوا مَا فَعَلْتُمْ وَهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ وَإِنْ كُنْتُمْ تَقُونَ » [الأعراف : ٢٠٩] . ثم يبادر المسلم التقي ، بعد التوبة والاستغفار ، إلى فعل الخيرات والإكثار من الأعمال الصالحة ، ليكفر عنه ذنبه ويحرم ما التزمه من إثم ، وفقاً بوعده الله تعالى إذ قال : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ٦] . ومستجيباً لأمر رسول الله ﷺ إذ قال : « وَأَتَمِّعُ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَّتْهَا » .

٩- نور الطاعة يبدد ظلمة المعصية : إن القيام بالأعمال الصالحة والمواظبة عليها ، كالصلاة والصيام والحج والزكاة والجهاد وذكر الله تعالى ، وغيرها من أعمال البر والخير ، تحو ما يخرط من المسلم من زلة وما يقع منه من مخالفة ، وقد ثبت في ذلك أحاديث صحيحة وكثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

— حديث الصحيحين : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

ذَنْبِهِ » .

— حديث مسلم : « ألا أدلكم على ما يحبو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ » . قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « إمساغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة » إمساغ الوضوء على المكاره : أي إتمامه وإكثفه ، ولا سيما الأحوال القاسية ، كشدة البرد ونحوها .

— حديث الصحيحين : « من حج هذا البيت ، فلم يرفث ولم يفسق ، أخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

هذا مع ما في كتاب الله عز وجل من آيات صريحة في تكفير الطاعات للسيئات ، مَرَّ بِكَ بَعْضُهَا وَسَيَأْتِي بَعْضُهَا مِنْهَا .

٦ — التوبة شرط لتكفير الكيثر . أجمع المسلمون على أن الحسنة تكفر الذنوب الصغيرة ، وأما الذنوب الكبيرة — وهي كل ذنب توعد الله تعالى عليه بالعقاب الشديد ، كعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، وأكل الربوا ، وشرب الخمر ونحو ذلك — فلا بد فيها من التوبة ، قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . فإذا صالحاً ثم اعتدى ﴿ [حله : ٨٢] . وهذا إذا كان الذنب لا يتعلق بحق العباد ، فإن كان متعلقاً بحق العباد — كالسرقة والغصب والقتل ونحو ذلك — فلا بد فيها من أداء الحقوق لأهلها ، أو طلب المساعدة منهم ومساعدتهم ، فإذا حصل ذلك رُحِمَ من الله تعالى القبول ونحو الذنوب ، بل تبيها حسنة ، قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ سِتْرًا ﴾ [القرآن : ٦٠] .

وإذا لم يحصل الوفاء أو الإبراء ، كانت للقاصّة يوم القيامة .

روى البخاري : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إذا جلس المؤمنون من النار تحبوا بقطرة بين الحبة والحبة ، فينقاصون مقامهم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نُفِروا وَغُلِبُوا أُذُنُ لِمِمْ يَدْخُولُ الْحَبَّةَ » . ينقاصون .

بحاسنون ، ولعل : من كانت له مظلمة القطع مقابلها من الجهة من نصيب من كانت له عليه .

ومن فضل الله عز وجل : انه إذا لم تكن للمكلف ذنوب صغيرة ، فإن الأعمال الصالحة تؤثر بالذنوب الكبيرة ، فتختلف إثما بقدر ما تكثر من الصفات ، وإذا لم تكن له ذنوب كبيرة ولا صغيرة فإنه سبحانه يضاعف له الأجر والثواب .

١١- الأخلاق أساس قيام الحضارة الإنسانية : يوجهنا رسول الله ﷺ ، في هذه الوصية ، إلى أمر فيه صلاح حياة الفرد واستقامة نظام المجتمع ، ألا وهو معاملة الناس بالخلق الحسن الجميل ، معاملة الإنسان للناس بما يجب أن يعاملوه به من الخير ، حتى يصبح المسلم أليفاً ، يُحِبُّ الناسَ ويُحِبُّونه ، ويُكْرِمُهُمْ ويُكْرِمُونَهُ ، ويُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُحْسِنُونَ إِلَيْهِ ، وعدعا يندفع كل فرد في المجتمع ، إلى القيام بواجبه راضياً مطمئناً ، تستقيم الأمور وتعود القيم وتقوم الحضارة .

وما للأخلاق من قيمة على حياة الأمم ، كانت لها منزلة رفيعة في الإسلام ، وأولاهها رعاية فائقة ، وحسبنا دليلاً على ذلك : كثرة الآيات والأحاديث الواردة في الحث على الأخذ بمكارم الأخلاق ، وبين فضل الالتزام لها والمصنف بها :

— فمن الآيات : قوله تعالى : ﴿ خَيْرَ الْعَمَلِ وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] . وقوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

ومن الأحاديث : ما رواه ابن حبان في صحيحه ، من قوله ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ » قالوا : بلى ، قال : أحسنكم خلقاً » . وما رواه أحمد وأبو داود من قوله : « خَيْرُكُمْ أَحْسَنُكُمْ خُلُقاً » . وقوله : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » . إلى غير ذلك من آيات وأحاديث مرت بك وستمر إن شاء الله تعالى خلال شرح الحديث . ويجمع ذلك كله ما رواه البخاري في الأدب والمناكم واليهي : أنه ﷺ قال : « إِمَّا تُبْعَثُ لِأَتَمِّمْ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » .

١٢- اكتساب الخلق الحسن : يمكن للإنسان أن يكتسب الأخلاق الحسنة القويمة ، فقد ورد في رواية عن معاذ رضي الله عنه ، رواها الحاكم وغيره بالفاظ مختلفة ، أنه ﷺ قال له : « حسن خلقك مع الناس » وفي لفظ : « وتحسن خلقك ما استطعت » . ويتعلق اكتساب الخلق الحسن بأمرين :

أولهما : الاقتداء برسول الله ﷺ في حسن خلقه ، ولقد أمرنا الله عز وجل بذلك إذ قال : ﷺ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﷻ [الأحزاب : ٢١] . وحسبنا ، أنه ﷺ كان على مستوى رفيع من الأخلاق الحسنة ، أن الله تعالى وصفه في قرآنه الحكيم بقوله : ﷺ وإليك المن عبق عظيم ﷻ [القلم : ٤] .

— ومن وسائل اكتساب الأخلاق الحميدة : صحبة الأتقياء والعلماء ، وقوي الأخلاق الفاضلة ، ومحنة الأشرار وقوي الفعل المديعة الرديئة ، قال الله تعالى : ﷻ وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفل قلبه عن ذكرنا وليغ حواء وكان أمره عرجاً ﷻ [الكهف : ٢٨] : أي مجبوراً للحد .

١٣ من مكارم الأخلاق : من حسن الخلق صفة الرحيم ، والعتو والصبر ، والعطاء وعزم الشج ، روى الحاكم وغيره عن حنيفة بن عمار الجهني رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا حنيفة ، ألا أحرصك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة ؟ تصبر من قطعتك ، وتعطي من حركتك ، وتعفو عمن ظلمتك » وفي رواية عبد أحمد : « وتصبر عمن شتمك » .

ومن حسن الخلق : طهارة النوح ، وإحسان والتواضع ، والتوجه إلى الناس وعدم سوء الظن بهم ، وكف الأذى عنهم . قال ﷺ : « لا تغفرون من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » رواه مسلم . أي منهل بالانقسام والفساد . وقال : « عيبست عن البشر فإنه له صيدقة » رواه البخاري ومسلم .

وأفاد الحديث : أن من كمال الإيمان وصفات المؤمنين حسن الخلق ، والمعاملة في
المعاملة والمعاملة الطيبة . ومن كمال التقوى كره أهل المعاصي ، والبعد عن مجالستهم
ومخالطتهم ، إذا لم يأنمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر .

عَوْنُ اللَّهِ تَعَالَى وَحِفْظُهُ وَنَصْرُهُ وَتَأْيِيدُهُ

عن أبي القاسم غيبة الله من غفاس رضي الله عنهما قال : كُنْتُ لِحَفِيفِ الشَّيْءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَوْمًا ، فَقَالَ : « يَا عَلَّامٌ ، إِنِّي أُغْلَمُكَ كَلِمَاتٍ : الْحَفِيفُ اللَّهُ يَحْفَظُكَ ، الْحَفِيفُ اللَّهُ لِحِفْظِهِ لِحَافُكَ ، إِنْ سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعِثْتَ فَاسْتَعِثْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجُفَّتِ الصُّحُفُ » . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وفي رواية غير الترمذي : « الْحَفِيفُ اللَّهُ لِحِفْظِهِ لِحَافُكَ ، تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّغَامِ يَتَرَفَّقُ فِي الشَّدِيدِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَلْفَعُوكَ لَمْ يَكُنْ بِحَبِيبِكَ ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ بِحِفْظِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ النَّصْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » .

الحديث أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، (باب : ولكن يا حنظلة ساعة وساعة) رقم / ٢٥١٦/ ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٠٧/١ . واللفظ المذكور رواه عبد بن حميد في مسنده ، كما ذكره شراح الأربعين .

أهمية الحديث :

قال ابن رجب الحنبلي في كتابه « جامع العلوم والحكم » : وهذا الحديث يتضمن

وصايا عطيفة وقواعد كثرية من أهم أمور الدين ، حتى قال بعض العلماء : تدبر
هذا الحديث ، فأدهشي وكنت أظن ، فوا أسفاً من الجهل بهذا الحديث وقلة
التفهم لمعناه .

لغة الحديث :

« عَيْفَ النَّبِيِّ ﷺ » : أي رايكاً خلفه على دأبه .

« يا غلام » : هو الصبي من حين ينظم إلى تسع سنين ، وكان منه إذ ذاك نحو
عشر سنين .

« كلمات » : أي جملاً تحتوي على نصائح ينفذك الله بها .

« احفظ الله » : اعرف حدوده ولف عبدها ، والترم فرائضه ، والأزم تقواه بفعل
ما أمر به وترك ما نهى عنه .

« بحفظك » : بصونك وبحديث في نفسك وأهلك ، ودينك وديارك .

« ثباحتك » : أمانتك ، أي تحمى معك بالحفظ والتأييد ، والنصرة والمعونة حيثما
كنت .

« سألت » : أردت أن تطلب شيئاً من شؤون الدنيا أو الدين .

« استعنت » : طلبت الإعانة على أمر من أمور الدنيا أو الآخرة .

« الأمة » : المراد سائر المخلوقين من العقلاء .

« رفعت الأفلام » : تركت الكتابة بها ، والمراد أنه قد قدر كل شيء في علم
الله تعالى والنهي .

« حقت الصحف » : المراد بالصحف ما كتب فيه مفادير المخلوقات كاللوح

المحفوظ ، وجفاتها : انتهاء الأمر واستقراره ، فلا تبدل فيها ولا تغير .

« ارحاء » : سعة طبعش والأمن وفراحة والصحة والقوة ونحو ذلك .

قله الحديث وما يرشد إليه :

١- اتهام النبي ﷺ بتوجيه الأمة ، وتنشئة الجيل المؤمن المثالي : كان رسول الله ﷺ حريصاً أن يرس العقيدة السليمة في نفوس المؤمنين ، وخاصة الشباب منهم ، ولا غرامة فقد قال الله تعالى في وصفه : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عظم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة : ١٢٨] . وكان مرة قد أُرِفَ حقه ابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، فوجه إليه تلك النصائح الرائعة ، التي من شأنها أن تجعل المسلم يلزم أوامر الله تعالى ، ويستمد العون والتصرة منه وحده ، فيصيح شجاعاً مقداماً ، لا ترهيه الفوالب ولا تخليه الفخاطر ، يقول الحق ولا يخاف في الله لومة لائم ، إذ علم أن الأمر كله بيد الله العزيز الحكيم ، وأنه لا يملك أحد من الناس ضرباً ولا نقعاً لأحد إلا بإذن الله تعالى .

٢- كلمات خالفة وأسلوب حكيم : يدعونا ابن عباس رضي الله عنهما بتلك الوصية الجامعة المانعة ، التي أوصاه بها رسول الله ﷺ إذ كان ركباً خلفه . ولأهمية تلك الوصية ، ولما فيها من توجيهات نافعة تستحق أن يوليا المرء اهتمامه ، يهبه صلى الله عليه وسلم ويتدبى : « يا غلام ! ليجمع ذهنه ويستحضر قلبه ، ثم يشوقه إلى ما سبقوله له ، ويلفت نظره إلى نفاثة العلم الذي سيدل به إليه فيقول له : « إني أعلمت كلمات » نعم إنها كلمات ، ولكنها تحمل في طياتها قواعد عظيمة من قواعد الدين ، تهذب الفكر ، وتنشئ الذهن ، وتثير العقل ، وترسخ العقيدة ، وتقوي اليقين .

٣- احفظ الله يحفظك : التزم أوامر الله تعالى ، فنف عبد حدوده فلا تقر بها ، وإياك أن تعددها ، وأقم بما فرض عليك ولا تنهوا به ، واجتهد عما نهاك عنه واجعل بينك وبينه حجاباً ، وانظر عندها كيف يحفظ الله تعالى عليك دينك ، ويصون عليكك من الزيع ، ويقيك من هواجس النفس ورحمى الفضائل ، وكيف يحميك من شرار الخلق ، ويحمك من شياطين الإنس والجن ، ويدفع عنك كل أذى أو ضيق ،

أنت ومنُ ملكك مسبك من أعلت وحيالك ونوي قريبك . قال الله تعالى : ﴿لَهُ
مَغْفِرَاتٌ مِنْ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلَقَهُ يُحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر : ٦٦] . المعنى :
لله تعالى ملائكة يتعاقبون على العبد ، ويحفظون به من كل جانب ، بأمر من الله عز
وجل وإذن منه ، ليحموه مما يُسيئه . وقال تعالى في حفظ القدرة : ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَالِحًا﴾ [الكهف : ٨٢] .

وإن أنت حفظت الله تعالى في دنياك حفظتك في آخرتك ، فوفاك من البار وأعطت
لك جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ
رَبِّكُمْ وَجِئَتْ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أَعُدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .
تأديت الملائكة مريحة ومكرمة : ﴿هَذَا مَا تَوْحَدُونَ لِكُلِّ تَوَّابٍ حَفِيفٍ . مِنْ حِثِّي
الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ . ادْعُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ
فِيهَا وَلَدَيْهَا مُزِيدٌ﴾ [ق : ٢٢-٣٥] . ولقاء ما يشرك به الله تعالى إلا قال :
﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة : ١١٢] .

ولقد كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُ أصحابه أن يطلبوا من الله تعالى أن يحفظهم ،
ففي الصحيحين : أنه ﷺ أمر البراء بن عازب رضي الله عنه أن يقول عند نومه :
« رَبِّ إِنِّي قَبِضْتُ نَفْسِي فَارْحَمْنِيهَا ، وَإِنْ أَرْسَنْتُهَا فَاحْفَظْهَا مَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ
الصَّالِحِينَ » . وفي صحيح ابن حبان ، من حديث عمر رضي الله عنه : أن النبي ﷺ
عليه أن يقول : « أَنْتُمْ احْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَاتِلًا ، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَائِدًا ،
وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ رَاقِدًا ، وَلَا تُطْعِمْنِي عِشْوًا وَلَا خَامِدًا » . أي لا تستحب دعاءهما
عليّ ورغبتهما في مسائل . رافداً : نائماً .

٤- نصرة الله تعالى وقائده : من حفظ الله تعالى كان معه ، يمه ويصره ،
ويحميه ويؤيده ، ويوقه ويسدده ، كلما حلك الظلام أو غابقت به الأحوال :
« احْفَظْ اللَّهَ لَعَدَةِ لَحْمِكَ » لعدده معك حارساً وحامياً ، وعضداً وسداً : ﴿إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [الحج : ١٢٨] .

قال قتادة : من يتق الله يكن معه ، ومن يكن الله معه ، فمعها الجنة التي لا تغلب ، والحارس الذي لا ينام ، والهادي الذي لا يضل .

ولكن نصرة الله تعالى وتأيدته مرتبطان بفعل أولاده واجتباب لواعبه ، فمن أطاع الله تعالى نصره وأيده ، ومن عصاه عذله وأذله : ﴿ إِنَّ تَعَصُّوا اللَّهَ يَصْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَهْلَكُمْ ﴾ [محمد : ٢٧] ﴿ إِنَّ يَصْصُرْكُمْ اللَّهُ عَلَّاءَ لَكُمْ وَإِنْ يَعْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَصْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

٥ - شبابك قبل هرمك : من حفظ الله تعالى في شبابه وقوله حفظه الله تعالى حال كبره وضعف قوته ، ومثله يسمعه وبصره وعقله ، وأكرم نزله يوم القيامة ، فأظله بظل عرشه حيث لا ظل إلا ظله ، كما ثبت في الصحيحين : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل .. » . ولعل هذا هو السر في توجيه ﷺ هذه الوصية لابن عمه رضي الله عنه ، وهو غني في مستقبل العمر ، ليستم الشباب وحيوته ، والقوة ونشاطها ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « انتم محسب قبل خمس : شبابك قبل هرمك .. » ، ربه الحاكم بعينه صحيح . ولا سيما وأن الشباب أمل الأمة ، وعمل سواعده تقوم دعوة الحق والعدل ، وفي سبيل إغوائه يهد أهل الباطل والشر ، فهو في حاجة ماسة إلى مرشد من العناية والتوجيه ، ليثبت أمام أهالة الإنس والجن .

٦ - عباد الله تعالى الشاكرون أهل النصرة والمجولة عنه سبحانه : إن المؤمن الذي يلهو بحمط الله تعالى وتأيدته وعنايته ، هو ذلك العبد الشاكر ، الذي أدرك فضل الله عز وجل تعرفه حق المعرفة ، فأطاع أمره واحسب إليه ، وحفظ حدوده وراعى حقوقه ، وهو يرقى بأثواب العيم ، ولحاف به المغريات وتتنازعه الشهوات ، فيتمرد عليها ويحرم من عبا ، ويقبل على الله عز وجل بسخر نعمة في مرضاته ، ويتسحر به إليه أن يحميه من الزلل ، ويلهمه المزيد من شكره ، ليستديم عليه فضله ، وهو يعلن احترامه إلى الغني الحميد ، مؤمن أن الفضل بيد الله ، يؤتيه من يشاء : ﴿ وَمَا يَكُم مِّنْ عِدَّةٍ مِّنْ اللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] . هذه المعرفة الخاصة بالله تعالى هي التي تقرب

العبد من ربه عز وجل ، وتجنب عمة الله تعالى لعبده الساعي إليه ، يستجيب دعوته ، ويُعطيه سؤاله ، ويُنحيه من كل مكروه يخص عبده ، ويجوده من كل عيب يبتدئ أمته : « تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » .

وروى الترمذي : عن النبي ﷺ قال : « من سُرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد ، فليكثر الدعاء في الرخاء » .

وفي مثل هذا العبد يقول الله تعالى في الحديث القدسي : « ولئن سألتني لأعطيته ، ولئن استعاني لأهيئنه » .

٧- التوجه إلى الله تعالى وحده بالاستعانة والدعاء والسؤال : يوحه رسول الله ﷺ ابن عمه - ومن عل طريقه من المؤمنين الصادقين - أن يكون توجهه دائماً وأبداً إلى الله سبحانه وتعالى العليّ القدير ، منه وحده يطلب العطاء ، وبه يستعان ، فلا يسأل سواه ، ولا يستمد العون من غيره ، كما لا يتوجه بالدعاء والشكر إلا إليه ، ولا ترجى المغفرة إلا لديه ، ولا يركع أو يسجد إلا بين يديه « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » . روى البخاري ومسلم ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول : هل من داع فاستجب له دعائه ، هل من سائل فأعطيه سؤاله ، هل من مستغفر فأغفر له » .

٨- الدعاء للقريب المحبب : إنما يتوجه بالدعاء إلى الله عز وجل ، لأنه تعالى هو وحده القائل : ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ [غافر : ٦٠] . وهو الذي أنشأ على عباده المؤمنين ، لأهم يدعونه ويطلبون منه : ﴿ لهم كفوا نساءكم في الخيرات ويدعوننا رغياً ورغماً وكانوا لباغشين ﴾ [الأنبياء : ٩٠] . ولأنه تبارك وتعالى هو القريب من عباده ، يسمع دعائهم ويحب سؤالهم : ﴿ وإذا سألت عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعاب فليستجيبوا لي ولتؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

٩- السؤال لمن لا يملّ العطاء : من كان يتوحد ترك سؤال الناس ، وأن

يطلب المسلم من الله وحده في كل شأن من الشؤون ، لأنه سبحانه هو الذي ألجأ على عباده أن يسألوه ، قال تعالى : ﴿ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٣٢] . وروى الترمذي عن النبي ﷺ قال : « سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ » . وهو سبحانه الذي لا يمل سؤالاً ولا طعناً ، لأن عزه ملائ لا تنفذ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [الزلزل . ٩٦] . بل إنه سبحانه يخطب من ترك العهد سؤاله ، روى الترمذي أنه ﷺ قال : « من لم يسأل الله يعصت عليه ، فليسأل أحدكم ربه حاجته كلها ، حتى شيع نفسه إذا انقطع » . الشُّعْبُ : سِرُّ الْعَمَلِ الذي يدخل بين الأصعبين . وهل بعد ذلك كله يسأل أو يطلب من الإنسان الذي يمل العطاء ويحصى السؤال ؟ . ورحم الله من قال :

لا تسألن بسئ آدم حاجةً وسل الذي أنوابه لا الحصى
الله يخطبُ إن تركت سؤاله وسئ آدم حين يسأل بمقص

١- سؤال غير الله تعالى ذلّة ومهانة : إن الناس إذا سئلوا : فإما أن يعطوا وإما أن يمتنعوا ، وهم إن أعطوا شئوا ، وإن سئلوا أنصروا وأذلوا ، وكل ذلك مما يجر في نفس المسلم ويدخل عليه الفتنة والكرب ، ويخط من كرامته ، ويذل من عزته ، وبذلك كان ﷺ ربما أحد العهد على من يهجمه عن الإسلام أن لا يسأل الناس شيئاً ، وقد دأب جماعة من الصحابة على ذلك ، منهم : أبو بكر الصديق ، وأبو ذر ، وثوبان ، وعوف بن مالك ، رضي الله عنهم ، وكان أحدهم يسقط سوطه أو حطام راقه فلا يسأل أحداً أن يبدله إياه . روى مسلم وأبو داود وغيرهما .

٢- الاستعانة بالقوي الذي لا يقرب : الاستعانة إما تكون بالقوي القادر على الإعانة ، والعبد يحتاج إلى الإعانة في كل كبير وصغير ، ولا قادر على ذلك إلا الله سبحانه ، وغيره عاجز عن أن يدفع عن نفسه عبداً أو يطلب لها طعماً . فليس أعانه الله فهو العنان ، ومن حذله فهو الخذلان : ﴿ إِنَّ يَهْـبِـرْكُمْ اللَّهُ فَلَا تُلَاقُوا لَكُمْ وَيَوْمَ

يَهْلِكُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَصْرِفُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران : ١٥٩] . بَلْ إِنْ قُلُوبُ الْعِبَادِ يَدُ اللَّهِ يَصْرِفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ ، وَهُوَ الَّذِي يَرْجِهَ الْعِبْدَ لِمُسَاعَدَةِ غَيْرِهِ أَوْ الْكَفِّ عَنْ ذَلِكَ ، فَيَرْجِعُ إِلَى الْحَرَكِ الْخَلْقِيِّ وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، فَهُوَ الْمُعْطَى الْمُنَافِعَ ، وَالْمَنْعُ الْمَنْفَعِلَ وَالْمُعْتَمِدَ الْكَفَالِي : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] . وَلْيَتَوَجَّعْ إِلَيْهِ وَحْدَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ : ﴿ إِنْ لَمْ يَنْصُرْكَ نَفْسٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنْ يَنْصُرْكَ نَفْسٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَا مَكْرَهَ فِي ذَلِكَ ذَلِكَ فَالْحَاقَّةُ : ٥] .

١٢ - الاستعانة بغير الله عز وجل استحالة وجعف : إِنْ الْإِسْتِعَانَةُ تَسْتَعِضِي بِإِظْهَارِ ضَعْفِ الْمُسْتَعِينِ وَحَاجَتِهِ وَمُسْكِنَتِهِ ، وَهَذَا تَذَلُّلٌ وَانْقِصَارٌ لَا يَكُونُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، لِأَنَّهُ حَلِيفَةُ الْعِبَادَةِ ، فَإِنْ كَانَ الْغَيْرُ تَعَالَى كَانَ ذَلًّا وَاسْتِحَالَةً لَا جُنْدَى مِنْهَا . وَالْإِسْتِعَانَةُ أَيْضاً اعْتِرَافٌ بِقُدْرَةِ الْمُسْتَعَانَ عَلَى تَحْلِيلِ مَطْلُوبِ الْمُسْتَعِينِ وَنَيْلِ مَقْصُودِهِ ، أَوْ حَلِّ لَفْعٍ لَهُ أَوْ دَفْعِ ضَرَرٍّ عَنْهُ ، وَهَذَا لَا يَكُونُ بِمَقْدُورِ غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَمَنْ ظَنَّهُ فِي غَيْرِهِ سُبْحَانَهُ خَابَ وَحَسِرَ ، وَمَنْ ظَنَّهُ مِنْ عِبْدٍ أَوْ إِلَى رَكْنٍ غَيْرِ شَدِيدٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِيدْ أَنْ نَحْمِلَهُ فَلَا رَافِعَ لَهُ ﴾ [يونس : ١٠٧] . وَقَالَ : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : ٢] .

١٣ - الإيمان بالقضاء والقدر سَكِينَةٌ وَاطْمَئِنَانٌ : بَعْدَ التَّلَاقِ بِحَقِّقَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَأْيِيدِهِ ، وَالْإِعْتِدَادِ عَلَيْهِ وَحْدَهُ فِي كُلِّ الشُّوْنِ ، لَا يُبَالِي الْعِبْدُ الْمُؤْمِنُ بِمَا يَسُدُّهُ الْخَلْقُ أَوْ يَفْعَلُهُ الْعِبْدُ ، بَلْ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْغَيْرَ وَالشَّرَّ يَقْدِرُهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَنَّ الْفَلَاحَ وَالْفُسْرَ يَزِيدُهُ ، وَلَيْسَ لِلْعَالَمِينَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] . وَإِنَّمَا الْعِبَادُ أَسْبَابٌ لِيَأْتِيَ الثَّوَابُ أَوْ يَسْتَحِقُّوا الْعِقَابَ : هـ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ أَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا لَمْ يَفْعَلُوهُ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَصْرُوكَ شَيْئًا لَمْ يَصْرُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِنِعْمٍ فَهُوَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧] . فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَحْصِلَ لَكَ أَذَى لَمْ يَقْدِرْهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، بَلْ يَدْفَعُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ

حك ، وكذلك إذا تحرك أحد بالنفع فلا يمكن أن يعلق لك ما يهلك به ، إذا كان الله سبحانه لم يردك لك : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نزلها ﴾ [الحديد : ٢٢] . روى أحمد وغيره ، عن النبي ﷺ قال : « إن لكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أعطاه لم يكن ليصيبه » .

٦٤- الإيمان بالقضاء والقدر شجاعة وإقدام : بعد ما ثبت أن النفع والضرر قدر بهم ، لا يتأثر المرء منه إلا ما سبق في علم الله عز وجل أنه مصيبه ، إذا لم يندفع المؤمن إلى ما أمره الله به ، ويلتزم الحق ولو على نفسه ، لا يخاف في الله لومة لائم ، وليقف مواقف الشجاعة والبطولة ، دون أن يخاف الموت أو يرجو الحياة ، معتناً صديق يقينه بما يتلو من قول الله عز وجل : ﴿ قل إن مصيبتنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [التوبة : ٥١] . ولطالما أن التقدير لا بد أن يسمي إليه من قدر عليه : ﴿ قل لو كنتم في شك من بيوتكم لنزلنا من السماء كتّاباً عليكم القتلى ﴾ [مضافهم] [آل عمران : ١٥٤] . أي لو لم تخرجوا إلى المعركة ، ويقيم في منازلكم ، لخرج من قدر عليهم أن يموتوا قتلاً إلى الأماكن التي قتلوا فيها ، طوعاً من عند أنفسهم ، ليقتلوا هناك .

٦٥- إيمان لا اضطلام ، وتوكل لا تواكل : إن الإيمان بالقضاء والقدر ، بالمعنى الذي سبق ، يدلنا على طلالان ادعاء أولئك الهناء المخطئين ، المستسلمين لشهواتهم وأهوائهم ، عندما يحشون لأحرامهم وضلالهم ، واستمرارهم على العصية وإصرارهم ، يحشون بتقدير الله تعالى ذلك عليهم ، في حال أن الله تعالى — الذي أمرنا بالإيمان بقضائه وقدره — أمرنا بالعمل ففعل سبحانه : ﴿ وفعلوا غسوراً ما كلفهم الله عيلاً ﴾ [التوبة : ٦٠٥] . ورسوله ﷺ ، الذي هو قدوتنا في كل شيء ، أنكر لنا أن على المسلم أن يأخذ بالأسباب ، من العمل والسعي وبدل الجهد ، فمن ترك الأسباب محتجاً بالتقدير فقد عصي الله تعالى ورسوله ﷺ ، وحالف شرعة الإسلام ، لأن ترك الأسباب تواكل وكسل لا يرتضيه الإسلام ، والأخذ بالأسباب

مع الاعتناء على الله تعالى وحده في تحقيق النتائج توكل وإيمان ، روى مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « اعلموا فكلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له » .

١٦- النصر مع الصبر : إن حياة الإنسان معارك متنوعة ، يتعرض فيها لأعداء كثيرة ومتلونة ، وإن انتصاره في هذه المعارك مرتبط بمدى صبره ومتروك عليه . فالصبر هو طريق الظفر بالمطلوب ، وهو السلاح الفعال لتقهر العدو بمختلف أشكاله ، خفياً كان أم ظاهراً ، ولذا جعده الله عز وجل مادة الاختبار لعباده في هذه الحياة ، يميز الخبيث من الطيب ، ويعلم الصادق للثيق من الدافع المرتاب : ﴿ وَتَبْلُوَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوا أَعْيَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] . ﴿ تَتْلُوَنَ فِي أَرْبَابِكُمْ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ عَنِ الدِّينِ أُولَئِكَ الْأَكْبَابُ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] . أي من الأمور التي ينبغي أن يعزم عليها كل عاقل ويوطن نفسه عليها ، لما فيها من كمال المزية والشرف .

وقال تعالى في وصف الأبرار المطهرين الصادقين : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] . البأساء : شدة الفقر . والضراء : الأمراض والموجها . والبأس : القتال .

والصبر — كما عرّفه — هو حبس النفس ، أي ضبطها ، على ما يقتضيه العقل والشرع ، وكذلك حبسها ، أي منعها ، عما يقتضي العقل والشرع التبع منه . ولحق لو استعرضنا آيات الله عز وجل ، وأحاديث رسول المصطفى ﷺ ، لوجدنا أن كلمة الصبر ترد في مواطن عدة ، كلها تنفي على المعنى المذكور للصبر ، وتهدف إلى غاية واحدة وتخلق النتيجة نفسها ، ألا وهي الفوز والانتصار . ومن هذه المواطن :

أ — الصبر على فعل الطاعة وترك المعصية :

إن فعل ما أمر الله تعالى به وترك ما نهى عنه تكليف ، ولا شك أن فيه نوع ثقل على النفس البشرية ، يحتاج معه إلى محادثة حتى يتغلب المرء على عدوه الحقيقي ،

النفس في النفس والجوى والشیطان : ﴿ إِنَّ النِّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] . ﴿ وَلَا تَلْبِسْ غَوَىٰ فِتْنَتِكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [مر : ٢٦] . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [فاطر : ٦] . فهذه الأعداء الخفية تلوح للإنسان بالمغريات ، وتزين له حب الشهوات ، وتسوِّل له الإنغراس عن الطاعة والخروج إلى المعصية ، وهي ذاتية في عبثها لا تغتر عنه ولا تستحسر ، وهذا لا بد للإنسان جهد حتى يظهرها ، ويعمل نفسه على الامتناع ، ويعمل هوامه تبعاً لما جاء به شرح الله عز وجل ، وفي ذلك ما فيه من صبر واحتياض وجهاد وبذل ، قال الله تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَ مَا يُؤْتِيهِكَ وَأَصْرٌ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ [يونس : ١٠٩] .

وقال : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاعْبُدْهُ وَاسْطَرِّضْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ [مريم : ٦٥] . وقال ﷺ : « المجاهد من جاهد نفسه في الله » رواه الترمذي وابن حبان . ولا ريب أن من استطاع أن يجهز نفسه على مرضاة الله تعالى ، فيعتقل الطاعة ويحتب المعصية ، قد تغلب على علوه الخفي ، فظهر نفسه وشيطانه وهواه ، وهذا نصر لا يُدانيه نصر ، إذ به يملك الإنسان نفسه ، ويصبح طليفاً من أسر الأهواء والشهوات ووساوس الشيطان ، وإذا ما انتهت تلك المعركة مع العدو الباطن بالقلية صبه وقهره ، أشرق الحق في صدر المؤمن واستنار قلبه ، فسلكت السبيل إلى الله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [المكيات : ٦٩] . وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « النصر ضياء » رواه مسلم .

ب - الصبر على المصائب :

إن الإنسان مُعَرَّضٌ في هذه الحياة للكمثرات تنزل في نفسه أو ماله ، أو أهله وعياله ، أو أمته وأهليته . ولا شك أن هذا له وقع شديد على الإنسان ، يعمل اليأس يعمى من نفسه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا ﴾ [الإسراء : ٨٣] . ويسيطر عليه الحزن والغليح : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَخَلْقٌ فَجُورًا . إِذَا مَسَّ الشَّرُّ فَزُورًا ﴾ [المعارج : ١٩-٢٠] .

هتوماً : من المطلع وهو أشد من الجزع ، والجزع شدة الخوف .

ومن كانت هذه حاله فهو إنسان منهزم ، لا يمكن أن يشق طريقه إلى النصر في هذه الحياة ، ولذا يستحث الله عز وجل عوام المؤمنين : أن يصمدوا أمام هذه القصائب التي هي واقعة لا محالة ، وأن يتعالوا على الضعف والخور ، ويشقوا طريقهم إلى الفوز والفلاح ، مسلحين بالصبر الذي هو أساس العظمة وسر النجاح : ﴿ ولبلو لَكُمْ بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والشملاء وبشر الصابرين . الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] .

لا شك أن هؤلاء هم المهتدون لطريق العزة والكرامة والفلاح ، ولا سيما أولئك الذين يصمدون للكرامة من أول وهلة : « إنا الصبر عند الصدمة الأولى » متفق عليه . فيخرجون منها منتصرين ، يستقبلوا الحياة بكل شجاعة وإقدام ، ليحولوا النعمة التي نزلت بهم غيراً يستفيدون منها دنيا وأخرى ، فلا يختلف حالها لديهم عن حال النعمة : « حباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم . ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع المثل في ذلك ، حين أرسلت إليه ابنة تقول : إن ابني قد احتضر ، فاشهدنا ، فأرسل يقرئ ويقول : « إن الله ما أخذ وله ما أعطى ، كل شيء عنده بأجل مستسئ ، فتصبر وتحتسب » . رواه البخاري وغيره . احتضر : حضرته مقدمات الموت . فاشهدنا : احضر عندنا . تسئ : معلوم مقلر . وتحتسب : تقوي بصورها طلب الثواب من ربه ليحسب من عملها الصالح . وقوله [يقرئ] أي السلام .

ج - الصبر على أدنى الخلق :

إن الإنسان يعيش وحوله الناس مختلفون بأخلاقهم وأمزجتهم ، ولا بد أن تدر منهم الإسلامية وشتى ألوان الأذى ، فإذا ضايق الإنسان بذلك ذرعاً خاب وحسر ،

وعاش في حبيب مستقر ، وإن هو احتمل وتصبر ، وعفا وصفح ، فار وريح ، وعاش في سعادة ورفاء وود : ﴿ فاعفُوا واصفحُوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ [البقرة : ١٠٩] ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ [صافات : ٢٤] . ولا شك أن هذا عنوان لرحولة ﴿ ولئن صبرنا وخففنا إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ [الشورى : ٤٣] ولا يتلصق به إلا من آمن بالله عز وجل واستمد العون منه ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتن أنصرون وكان ربك بصيراً ﴾ [الفرقان : ٢٠] ورحما هذه الفتنة والأجر : ﴿ والذي صبروا ابتغاة وجه ربهم ﴾ [الزمر : ٢٢] وفي ذلك كله نصر أي نصر .

د - الصبر في ميدان الدعوة إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

وهذا ما أمر الله تعالى به رسله ، وأوصى به حكمائه وأصفياءه قال تعالى : ﴿ وأمر أممك بالصلاة واسطر علىها ﴾ [طه : ١٣٢] . وقال : ﴿ وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأصبر على ما أمرك ﴾ [لقمان : ١٧] . وقال لرسوله ﷺ ﴿ واصبر فم صبراً جميلاً ﴾ [المزمل : ١٠] . ولا بد للداعية إلى الله عز وجل أن يتحلى بحق الصبر ، ويتحمل ما يشاء في طريق الدعوة حتى يتحقق له النصر المزمع على أعداء الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يؤمنون ﴾ [الروم : ٦٠] وإن هو استعجل النتيجة خياب وخسر ، وصاحت مساعيه ، قال تعالى لرسوله المصطفى ﷺ : ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ﴾ [الأحقاف : ٣٥] وقال : ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ، إنهم يروا بعيداً ، ونرا قريباً ﴾ [المعارج : ٥-٧] .

هـ - الصبر في ميادين القتال ومنازلة الكفار :

الجهاد مظنة الموت ومورد الخطر ، فهو كربة إلى العوس ، قال تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كربة لكم ﴾ [البقرة : ٢١٦] . ولما كان على المؤمن ، الذي

فَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ أَعْدَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سَاحَةِ الْقِتَالِ ، ثُمَّ يَصْبِغُ أَوَّلًا بِوَالذَّاتِ
بِالصَّبْرِ ، وَأَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ صَبْرًا وَجَهْلًا مِنْ عَدُوِّهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
صَبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] وَلَقَدْ
قَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ فَقَالَ : ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ وَصَبِرُوا ﴾ [النحل : ١١٠]
وَجَعَلَ الصَّبْرَ شَرْطَ الْعِلَّةِ وَالْفَهْرَ لِعَدُوِّهِ فَقَالَ : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ
يَعْلَمُوا مَا فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٦٥] . ثُمَّ خَفَّفَ فَقَالَ : ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ
يَعْلَمُوا مَا فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٦٦] . وَحَقَّقَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَصْرَهُ وَمَدَدَهُ فَلِلْاِتِّكَافِ
السَّمَاءِ عَلَى الصَّبْرِ فِي مَقَارِعَةِ الْأَعْدَاءِ ، فَقَالَ حَزَنٌ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ بَلْ إِنْ تَصَبَّرُوا وَاتَّقُوا
وَيَاتُواكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ خَمْسَةَ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾
[آل عمران : ١٢٥] : مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا : مِنْ سَاعَتِهِمْ هَذِهِ . مُسَوِّمِينَ : مُعَلِّمِينَ .

كَأَجْعَلُ سَبْحَانَهُ صَبْرَ أَوْلِيَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ شَرْطًا لِإِحْبَاطِ تَدْبِيرِ الْكَافِرِينَ وَهَشَلِ
حِطِّطِهِمْ ، وَعَدِمَ إِضْرَارِهِمْ بِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَاتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٠] . وَبِالْقَائِلِ : فَإِنَّ الْفَضْلَ قَدْ
يَكُونُ نَصِيبَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَتَخَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ حِينَ لَا يَكُونُ مِنْهُمْ الصَّبْرُ ، وَلَا سَبِيحَةُ
إِذَا وَحَدَّثَ حَوَاسِلَ أُخْرَى تَسْتَدْعِي ذَلِكَ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ
هَذِهِ فُتُوحًا وَالْاِتِّكَارَ لِلَّهِ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا
فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِجَالُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٥-٤٦] .
تَذْهَبَ رِجَالُكُمْ : تَضَعُ قُوَّتَكُمْ وَتَفْلَاحِي .

وَمَا أَكْثَرَ مَا تَقَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ - إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ ﴾ . وَبَيْنَ سَبْحَانِهِ أَنْ مِنْ شَأْنِ النَّاسِ أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى مَا يَنَالُهُمْ فِي
مِيَادِنِ الْقِتَالِ مِنْ قَتْلِ وَجَرَحٍ ، وَلَا يَضَعُفُوا وَيَذُلُّوا ، وَإِنْ هُمْ طَعِبُوا ذَلِكَ أَوَّلَاهُمْ
سَبْحَانَهُ بِحَبَّةِ وَبَصْرَةٍ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَأَيُّ مِنْ نَبِيٍِّ فَخَلَ مَعَهُ رِبُيُونَ مِمَّا وَفَّوْا
لَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل
إمran : ١١٦] .

١٧- ثمرات الصبر :

إنك تستوحى بما سبق أن من ثمرات الصبر : الرضا ، والطمأنينة ، والشعور بالسعادة ، وتحقيق الفرة والمكرمة والخير ، واستحقاق الثأيد من الله عز وجل ، والعبود والصبرة والحيمة ، وفوق هذا كله تلك الثمرة الأعزوبة ، التي تشمل بذلك الجميع المقيم ، الذي يحوذونه مؤثراً بغير حساب : ﴿ إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] في جنة عرضها السماوات والأرض ، يزينا ترحاب لللائكة الأبرار : ﴿ جَنَّاتٌ عِدْنُ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَاللَّائِكَةُ يَدْخُلُونَهَا عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَعِمَّتْ هُنَا الدَّارُ ﴾ [الرعد : ٢٣-٢٤] ويوحىها رب الفرة بالمعصرة والفضو والرضوان : ﴿ إِنْ مِنْكُمْ مِنْ فَاتِكَةٍ لَوْ أَنَّهُ فِتْنَةٌ لِنَاظِرٍ مُبِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١١١] ويشر الصابرين . الذين إنا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴿ [البقرة : ١٥٥-١٥٦] . وأعظم هذا من نصر يؤتيه الله عز وجل لعباده المؤمنين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . ولكل ما سبق كان الصبر حراً ما يعطاه الإنسان ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » مطلق عليه .

١٨- الفرج مع الكرب :

قد تنوال على الإنسان مصائب ونحن يتعرض لصوف البلاء ، ونشدد عليه الأمور وتضيق به ، حتى يصل إلى حال من شأنها أن نجعل الحزن وانغم بأحد بنفسه ، ويقع في الكرب ، كل ذلك احتبار من الله سبحانه ، وحتى يشق المؤمن طريقته إلى الجنة بجنادة ، فإذا نجح في الامتحان ، فصور واحتسب على البحر الذي علمت ، ولم يهشج ولم يئأس . وأدرك أن كل ذلك بقضاء الله تعالى وقدره ، فرضي به وأطمأنت إليه نفسه ، تداركه عناية الله تعالى ، فكشفت ما به من غم ، وأحلت من نفسه كل حزن ، وخلصته من كل حيق ، وأثقلته من كل أمي ، وكان النصر

المين والنور العظيم في الدنيا والآخرة . وعندها يستبين لهذا العبد المؤمن النقي : أن النور ينشق من باطن الظلمة ، وأن الغيث يخرج من الغيوم القاتمة ، وأن ما كان فيه من كرب إنما هو لحوق أريد به ، وأن القروح في طياته وجبته ، وأن ذلك ثم يكس إلا ليشطع العبد الصادق عن كل ما سوى الله عز وجل ، ويرتبط قلبه بحالقه وحده ، الذي استيقن أن الأمر كله بيده . وقرأ في هذه المعاني قول الله عز وجل : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَمَنْ يَأْتِيَكُمْ كَثْرَ الَّذِينَ غَفَلُوا مِنْ قَبْلِكُمْ نَسْلَكُهمُ الْآسَاءَ وَالضَّرَاءَ وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

غَفَلُوا : مضوا . الْآسَاءَ وَالضَّرَاءَ : الشدة والمرضى ، والفقر والخوف . زَلْزَلُوا : أزعجوا لإزعاجاً شديداً بأنواع البلاء ، حتى صار حالهم شيباً بالأرض تصيبها الزلزلة .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [الشورى : ٢٨] . وأعطاك تدرك هذا المعنى واضحاً في قصة كعب بن مالك وصاحبه رضي الله عنهم حين غفلوا عن عروة تنوك وأمر النبي ﷺ الناس بمقاطعتهم ، فأصابهم ما أصابهم من الكرب حتى : ﴿ خَلَقْتَ عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ بِمَا رَحِمْتَ وَضَاعَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ فكان المرح وكنت الرحمة ﴿ ثُمَّ نَابَ عَلَيْهِمْ لِيُتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨] . وفيما قصة علينا القرآن من قصص تخرج كربات أنبيائه وأوليائه ، عندما يتلقى بهم الكرب ، وما أكرم الله تعالى به نبيه محمداً ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم في مثل هذه المواقف ، ما يجعلنا نطمئن إلى رحمة الله عز وجل ونطمع في كرمه ، كلما اشتدت بنا الحطوب وأطبقت الشدة واستحكم الكرب .

١٩- العسر واليسر :

إنك لتسمع أن معاني الخلدت مترابطة ، بعضها آخذ بحجز بعض ، فإن العسر يسبب الكرب ، وإن اليسر من أبواب المرح ، وكل منهم يحتاج إلى صبر وتحمل ،

ويكون من وراء ذلك الظفر والنصر ، وكل ذلك من فضل الله تعالى ورحمته بعباده ،
 إذ جعل من سنته أن يكون العصر متبوعاً بالسر أو مفروقاً به ، قال سبحانه : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧] وقال : ﴿ فَإِنْ مَعَ الْفُسْرِ يُسْرًا .
 إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥-٦] . ولذلك لم يشرع سبحانه لعباده إلا ما
 فيه اليسر : ﴿ يريده الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : ١٨٥] وأبسط
 عنهم ما فيه عت وشدة ومشقة : ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج : ٧٨] .

روى البيهقي في مستدركه من حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال :
 « لو جاء العسر فدخل هذا الجُحْر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه » فأنزل
 الله عز وجل : ﴿ فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ . الجحر : الثقب .
 وكلامه ﷺ تأكيد : أن العسر والشدة لن تقوم إلا بآسان ، طالما أنه راض بما قدره
 الله سبحانه ، ملتزم لأمره وبنيه ، يتلجج إليه وحده ، ويحسد عليه أن يبدل عسره
 يسراً : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ [الطلاق : ٣] .

٢٠- من فقه الحديث :

إذا كانت الدابة قوية ، ويعتم راحيا أو صاحبها أنها تطيق أكثر من واحد ، له
 أن يردف ورائه واحداً أو أكثر حسب طاقتها ، وإذا كان يعلم أنها لا تطيق لم يجر
 له ذلك .

ومما يفيد الحديث :

١- يحسن للمعلم أن يلفت انتباه المتعلم ، ويذكر له أنه يريد أن يعلمه ، قبل
 أن يبدأ بإعطاء المعلومات إليه ، ليكون أوقع في نفسه ، ويشهد شوقه للعلم ويقبل
 عليه برغبة .

٢- من كان على حق ودعا إليه ، أو أمر بالمعروف ، أو نهي عن المنكر ، فإنه
 لا يضره كيد الظالمين ولا سكر أعداء الله المظلمين .

٣٠ على المسلم أن يقوم بواجبه من فعل الطاعات ، وترك المنكرات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، دون أن يهتفي لمن يخففه من العواقب ، من ضعفاء الإيمان واليقين ، لأن ما قدر له لا بد أن يهتبه .

الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ

عن أَبِي سَعْدٍ عُقَيْبَةَ بْنِ عَمْرِو الْأَنْصَارِيِّ الْبَغْدَادِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ مِمَّا أَفْزَلُ النَّاسِ مِنْ كَلَامِ الشُّبُهَةِ الْأُولَى : إِذَا لَمْ تَسْتَغْنِ فَاصْتَبَحْ مَا شِئْتَ » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

الحديث رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي أَوَّلِهِ كِتَابَ الْأَنْبِيَاءِ ، رَقْمُ /٣٢٩٦/ وَالْأَدَبُ (بَابِ إِذَا لَمْ تَسْتَغْنِ فَاصْتَبَحْ مَا شِئْتَ رَقْمُ /٥٧٦٩/ . وَلِأَبِي دَاوُدَ فِي الْأَدَبِ (بَابِ فِي الْحَيَاءِ) رَقْمُ /٩٧٩٦/ . وَابْنُ مَاجَةَ فِي الزُّهْدِ (بَابِ الْحَيَاءِ) رَقْمُ /٤٦٨٣/ .

أهمية الحديث :

إذا كان معنى الحياء امتناع النفس عن فعل ما يعاب ، والتقباضها من فعل شيء أو تركه مخافة ما يعقبه من ذم ، فإن الدعوة إلى التخلل به وملازمته إنما هي دعوة إلى الامتناع عن كل معصية وشر ، وإلى جانب ذلك فإن الحياء حلة من حلال الخير التي يحرص عليها الناس ، ويرون أن في التجرد عنها نقصاً وعبثاً ، كما أنه من كمال الإيمان ونعامة ، ويؤيد هذا ما ورد على لسان النبي ﷺ فيما رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ « الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » وَهُوَ الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ » . بَلْ إِنَّ الْإِسْلَامَ فِي مَجْمَلِ أَحْكَامِهِ وَتَوْجِيهَاتِهِ إِنَّمَا جَاءَ دَعْوَةً بِطَائِفَةِ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ ، وَدَعْوَةً حَارَّةً وَهَالِكَةً فِي تَرْكِ مَا يُذَمُّ وَمَا يُعَابُ ، وَلِلَّذَلِكَ انْتَقَى الْإِمَامُ قُتُوبِي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - هَذَا الْحَدِيثَ فِي أَرْبَعِينَ - وَقَالَ عَنْهُ : وَعَلَى هَذَا مَدَارُ الْإِسْلَامِ - أَيْ مَدَارُ أَحْكَامِهِ - وَتَوْجِيهِ ذَلِكَ : أَنَّ الْأُمُورَ بِهَا : الْوَاجِبُ وَالْمَنْتَوَبُ ، يُسْتَحْيَى مِنْ تَرْكِهَا ، وَالْمَنْهِي عَنْهَا : الْحَرَامُ وَالْمَكْرُوهُ ، يُسْتَحْيَى مِنْ فَعْلِهِ . وَأَمَّا الْمَيَاحُ ، فَالْحَيَاءُ مِنْ فَعْلِهِ جَعَلَ وَكَلَامًا مِنْ تَرْكِهَا .

فضمن الحديث الأحكام الخمسة .

لغة الحديث :

« إن مما أدرك الناس » : الناس بالرفع ، ويجوز النصب ، أي إن مما بلغ الناس من كلام الأنبياء قبلنا ، وفي حديث حليفة رضي الله عنه عند الإمام أحمد والزيور « إن آخر ما تعلق به أهل الجاهلية من كلام النبوة الأولى » .

« من كلام النبوة » : مما اتفق عليه الأنبياء ، ومما ندمب إليه الأنبياء ولم يتصحق أبداً ، وإضافة الكلام إلى النبوة لإعلام بأن الحياة من قضايا النبوة المجمع عليها . وفي رواية أبي داود وأحمد وغيرهما « النبوة الأولى » أي التي قبل نبينا محمد ﷺ .

« إذا لم تستحي » : بإسكان الحاء والياء المكسورة ، والياء الثانية المحذوفة علامة الجزم . وفي رواية : « إذا لم تستح » يقال : استحي واستحي ، والرواية الأولى أصح وأصح ، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا .. ﴾ [البقرة : ٢٦] .

« عاصم ما شئت » : صيغة الأمر هنا : إما أن تكون على معنى التهديد والوعيد ، والمعنى : إذا نزع منك الحياة فافعل ما شئت فإنك بهلزي عليه . وإما أن تكون على معنى الإباحة ، والمعنى : إذا أردت فعل شيء وكان مما لا تستحي من فعله أمام الله والناس فافعله . وفي رواية أخرى للبخاري « فافعل ما شئت » .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١- من تراث الأنبياء : الحياة أصل الأخلاق الكريمة ، وأقوى باعث على فعل الخير واجتناب الشر ، ولذا كان من تراث الأنبياء المتقدمين ، الذي لم يسخ فيما نسخ من شرائعهم ، تدلولة الناس بينهم وتوارثوه عن الرسل قرناً بعد قرن ، واشتهر ونسك البشر به حتى وصل إلى هذه الأمة المسلمة . وإذا كانت أمناً على يرث وأصح من جميع الأنبياء والمرسلين ، كما أراد الله العلي العظيم ، وكما هو واضح في القرآن الكريم ، فإن من واجبه أن تستمسك بما وهب الله تعالى من حياة ، وأن تدخل وتدخل

به ، ليبقى إرث الأبياء جميعاً طاهراً فيها ، يعمر الحياة والنفوس بالحبر والحق حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

٢- معنى الحديث : ورد عن علمائنا الأخلاء ثلاثة معان للحديث توضحها فيما يلي :

المعنى الأول : أمر بمعنى التهديد والوعيد ، فكانه ﷺ يقول : إذا لم يكن عندك حياة فاعمل ما شئت ، فإن الله سيحازيك أشد الحزاء ، وقد ورد مثل هذا الأمر في القرآن الكريم خطأً للكفار ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصلت : ٤٠] .

المعنى الثاني : أمر بمعنى الحبر ، كقوله ﷺ : « فليصوا مقعده من النار » أي نبواً . ويصبح معنى الحديث : أن من لم يستحي صنع ما شاء ، فإن المانع من فعل القبايح هو الحياء . ومن لم يكن له حياة انتهك في كل فحشاء ومكر .

المعنى الثالث : أمر بمعنى الإيلاء ، فكان معناه : إذا أنت لم تستحي من صبح أمر أو فعله لا من الله ولا من الناس فافعله ، فإنه مباح . ولأن الفعل إذا لم يكن متباً عنه شرعاً كان مباحاً .

والأرجح من هذه المعاني إنما هو الأول ، وإن كان الإيلاء النووي رحمه الله تعالى رجح المعنى الثالث ، واحتار أبو عبيد القاسم بن سلام وابن تيمية ومحمد بن نصر المروزي للمعنى الثاني .

٣- الحياء نوعان :

أ - أحدهما الحياء القطري : وهو ما كان خلقاً وجيلة غير مكتسب ، يرفع من يتصف به إلى أجل الأخلاق ، التي يمنحها الله لعبده من عباده ويفطره عليها ، والمطور على الحياء يكف عن ارتكاب المعاصي والقبايح وهذه الأخلاق ، ولذا كان الحياء مصدر خير وشعبة من شعب الإيمان ، قال ﷺ « الحياء شعبة من شعب الإيمان » . وقد كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في حدرها . وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : من استحيى احتفى ، ومن احتفى اتقى ، ومن اتقى وقي .

ب - وثانيهما الحياة المكتسب : وهو ما كان مكتسباً من معرفة الله ومعرفة عقلته وقربه من عباده ، وإطلاعه عليهم ، وعنده سبحانه الخالق الأعين وما تحيط الصنوع ، والمسلم الذي يسعى في كسب وتحصيل هذا الحياة إنما يحقق في نفسه أعلى حصول الإيمان وأعلى درجات الإحسان . وقد يتولد هذا الحياة من مطالعة نعم الله تعالى والشعور بالتقصير في شكرها . روى الإمام أحمد والترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً : « الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وأن تذكر الموت والميل ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله » . وإذا حملت نفس الإنسان من الحياة المكتسب ، وعلا قلبه من الحياة الفطري ، لم يبق له ما يمنعه من ارتكاب القبيح والبديء من الأفعال ، وأصبح كمن لا إيمان له من شياطين الإنس والجن .

٤ - ما يذم من الحياة : عندما يكون الحياة امتناع النفس عن القبيح والفتن من قوته خلق يمدح في الإنسان ، لأنه يكمل الإيمان ولا يأتي إلا بخير ، أما عندما يصح الحياة والبداء عن حده المعقول فيصير بصاحبه إلى الاضطراب والتجور ، ولتقضي نفسه من فعل الشيء الذي لا ينبغي الاستحياء منه ، فإنه خلق يذم في الإنسان ، لأنه حياة في غير موضعه ، ويجعل يحول دون تعلم العلم وتحصيل الرزق ، وقد قيل : حياة الرجل في غير موضعه ضعف . وروى من مراسيل الحسن البصري عن النبي ﷺ : « الحياة حياتان : طرف من الإيمان والآخرة عجز » . قال ابن رجب الحنبلي : ولعل هذا من كلام الحسن ، وكذلك قال بشر بن كعب العدوي لعمران بن حصين رضي الله عنه : إنا نجد في بعض الكتب أن منه سكرية ووقراً لله ، ومنه ضعف ، فليصبر عمران ، وقال : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه . والأمر كما قاله عمران رضي الله عنه ، فإن الحياة الممدوح في كلام النبي ﷺ إنما يريد به الخلق الذي يحث على فعل الجميل وترك القبيح . فأما الضعف والعجز الذي يوجب التفسير في شيء من حقوق الله أو حقوق عباده قلبه هو من الحياة ، فإنما هو ضعف وعجز .

٥- حياة المرأة المسلمة : تزين المرأة المسلمة بالحياء ، وتشارك الرجل في إعمار الأرض وثرية الأحيال بظاهرة الفطرة الأنثوية السليمة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قول الله تعالى عن إحدى ابنتي شعيب عليه السلام عندما جاءت تدعو موسى عليه السلام : ﴿ فجاثبت إحدىكما فمشى على استحياء ، قالت إن أبي يدعو ليحزبك أجز ما سفت لنا ﴾ [القصص : ٢٦] . فهي جاءت بتكليف من أبيها تمشي مشية الفتاة الطاهرة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجل . ولي غير ما لبسنا ولا ترح ولا ليجع ولا يهوء . ومع حيائها الظاهر في مشيتها الإيالة والدقة الواضحة في كلامها ، فلم تلتجج ولم تعبر ، وذلك من إتمام الفطرة السليمة النظيفة المستقيمة . فالفتاة النورية تستحي بغيرها عند لقاء طرقال والحديث معهم ، ولكنها بظهارها واستقامتها لا تضطرب ، الاضطراب الذي يطمع وبخري وييج ، إنما تحدث في وضوح بالقدر المطلوب ولا تزيد .

أما المرأة التي وصفوها في الماضي بأنها السفينة الخراجة الوالجة ، والمرأة التي توصف في زماننا بالاسرجال والسفور والبرج والاحتلاط بالرجال الأحسب من غير ضرورة شرعية ، فهذه لم تترك في مدرسة القرآن والإسلام . واستبدلت بالحياء وطاعة الله تعالى وقاحة ومعصية وطجوراً ، وفقدت ما يريد لها أعداء الله من دمار وهلاك في الدنيا والآخرة .

٦- ثمرات الحياء : من ثمرات الحياء الفضة . فمن اتصف بالحياء حتى عيب عن جميع أعماله . كان خفيفاً بالطبع لا بالاحتيال .

ومن ثمراته الوفاء ، قال الأخف من نفس : انتك لا تختصان أبداً في بشر : الكذب والخروعة . والمروة لثمرات : الصدق والوفاء والحياء والفضة .

٧- ما يقابل الحياء : ويقابل الحياء الوقاحة ، وهي صفة مذمومة . لأنها تحس صاحبها على الاعتزاز في الشر وعدم اليالة بما يحققه من الدم واللوم ، حتى يصل به الحال إلى الجاهرة ، قال عليه السلام : كل أمتي معان إلا الصامرين ، والذي لا يستحي

من الله ولا من الناس ، لا يردعه عن جهله غير العقوبة الصارمة وأخذ بالشدة ،
إذ من الناس من يخافون ولا يستحيون ، ولا عربة فالفحة تسلاخ عن الفطرة الإنسانية
السوية .

٨- واجب الآباء والمربين : إن واجب الآباء والمربين في المجتمع المسلم أن
يعملوا معاً على إحياء خلق الحياء ، وأن يسلكوا في سبيل ذلك الطرق التربوية
المدرسة ، والتي تشمل مراقبة السلوك والأعمال الصادرة من الأطفال وتقوم
ما يتفق مع فضيلة الحياء ، واختيار الرفاق الصالحين وإبعاد رفاق السوء ، والتوجيه
إلى اختيار الأطفال للكعب القعيد ، وإبعادهم عن مفاسد الأفلام والمسرحيات الخزية ،
والكلمات السوفية .

٩- وبرشدنا الحديث إلى أن الحياء خير كله ، ومن كثر حيائه كثر غيره ،
ومن قل حيائه قل غيره .

١٠- لا حياء في تعليم أحكام الدين ، ولا حياء في طلب الحق ، قال تعالى
﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأحراب : ٥٣] .

الاستقامة والإيمان

عن أبي عمرو ، وقيل : أبي عتبة ، سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً ، لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » . رواه مسلم .

الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب جامع أوصاف الإسلام) رقم / ٢٨ / . والترمذي في الزهد (باب ما جاء في حفظ اللسان) رقم / ٢٤١٢ / ، وابن ماجه في الفتن (باب كف اللسان في الفتنة) رقم / ٣٩٧٢ / .

أهمية الحديث :

هذا الحديث من يديع جوامع الكلم التي اختصر بها رسول الله ﷺ فهو مع انصراره قد جمع أصول الإسلام للسائل في كلمتين : الإيمان ، و الاستقامة . ومن المعلوم أن الإسلام توحيد وإطاعة ، فالترديد حاصل بآمت بالله ، والطاعة جالبة بالاستقامة ، إذ هي اعتزال كل مأمور واحتساب كل محذور ، ويدخل في ذلك عمل القلب والبدن من الإيمان والإحسان والإسلام ، قال تعالى : ﴿ قاسمفسوا إليه واستغفروه ﴾ [فصلت : ٦] .

لغة الحديث :

« في الإسلام » : أي في عقيدته وشرعته .
 « قولاً » : جامعاً لمعاني الدين ، واضحاً لا يحتاج إلى تفسير .
 « قل آمت بالله » : جدد إيمانك بالله متذكراً بقلبك ذاكراً بلسانك لتستحضر جميع تفاصيل أركان الإيمان .

« ثم استقم » : أي دعوتك وثبت على عمل الطاعات ، والابتعاد عن جميع المعاصيات ، والاستقامة لا تتألى مع شيء من الرغبات والأهواء .
 فله الحديث وما يرشد إليه :

١- معنى الاستقامة : إن قول النبي ﷺ « قل آمنت بالله ثم استقم » وقوله في الرواية الأخرى : « قل ربني الله ثم استقم » مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَلْبِسُوا وَلَا تُحَرِّمُوا .. ﴾ [فصلت : ٣٠] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا يَخَافُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .. ﴾ [الأحقاف : ١٣] . قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في تفسيره « ثم استقاموا » قال : لم يشركوا بالله شيئاً . وعنه قال : لم ينسلكوا إلى إله غيره . وعنه قال : لم استقاموا على أن الله بهم . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية على النبي ﷺ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴿ فقال : استقاموا على طاعته لم يروغوا وروعان القلب . والمراد من هذه الأقوال : الاستقامة على التوحيد الكامل .

وقال الفقيهي : الاستقامة درجة بها كمال الأمور ، ووجودها حصول الخيرات وطعامها ، ومن لم يكن مستقيماً في حاله صاح سعيه وخاب حده . وقيل : الاستقامة لا يطبقها إلا الأكابر ، لأنها الخروج عن اليهوديات ، ومفارقة الرسوم وطعادات ، وإتيان بين يدي الله تعالى بالصدق . وقال النواصي : هي الخصلة التي بها كملت الحسن . وقال ابن رجب : الاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم ، وهو الدين القويم من غير تعرج عنه بجملة ولا بسرة ، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة ، وترك المنهيات كلها كذلك ، فصارت هذه الوصية جامعة لحصول الخير كلها .

٢- لا بد من تقصير في الاستقامة : إذا كانت الاستقامة هي الدرجة القصوى في كمال المعارف والأحوال ، وصفاء القلوب في الأقوال والأعمال ، ونزبه العقائد من سعارف البدع والضلال ، فإن الإنسان لم يبلغ الاستقامة حتى الاستقامة ، بل

لا بد من حصول تقصير في بلوغها ، ودليل ذلك قول الله تعالى ﴿ فاستمعوا له واستمعوا بؤساً ﴾ [فصلت : ٦] إذ الأمر بالاستمطار إنما هو لحر النفس ، والتوبة والرجوع إلى الاستقامة ، وقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام أحمد ومسلم « استمعوا ولن تُظلموا » وقوله فيما رواه البخاري ومسلم « سَدَقُوا وَفَرَّقُوا » والسداد عبر حقيقة الاستقامة ، وهو الإصالة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد كالذي يرمي إلى غرض قصيصه .

٣- استقامة القلب : وأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد كما سبق في معنى الاستقامة ، ومعنى استقام القلب على معرفة الله وعلى حشيشه ، وإجلاله ومهانته وعبدته ، وإرادته ورجاله وديعائه ، واشتواكي عليه والإعراض عما سواه ، استقامت الجوارح كلها على طاعته ، لأن القلب هو ملك الأضواء وهي جوده ، فإذا استقام الملك استقامت جوده ورعاياه ، قال رسول الله ﷺ « ألا وإن في الجسد مضعة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

٤- استقامة اللسان : وأعظم ما يراعى استقامة بعد القلب من الجوارح لسان ، فإنه ترجمان القلب ولعبر عنه ، ويؤكد هذا ما ورد في رواية الترمذي : « قلت يا رسول الله : ما أخوف ما يخاف علي ؟ فأخذ لسان بيده » ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » . وما رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً : « يا أبا هريرة : إن أصدق ابن آدم فإن الأضواء كلها تُكفر اللسان تقول : الحق الله فيها ، إنما نحن بك ، فإن استقامت استقمنا ، وإن أعوججت أعوججت » . تكفر : تذل وتضع .

٥- فوائد الاستقامة : إن الاستقامة ثبات واستمرار ، ورجولة وهو . في معرفة الطاعات والأهواء والرجاءات ، وتلك مستحضر في القلب ، كما أن عمل عليهم

الملائكة في الحياة الدنيا ، ليظفروا من حياتهم الخوف والجزل ، وليشروههم بالجنة ، وليعلموا وقوفهم إلى جنابهم في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَلْحَمُوا وَلَا تَحْنَبُوا ، وَأُبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَوْنَ لِنَفْسِكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نَزَلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

٦- أهمية الاستقامة : ومما يدل على أهمية الاستقامة ، أن النبي ﷺ أمر بها ، قال الله تعالى ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود : ٦١٢] ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما أمر الله على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية ، وقال رسول الله ﷺ لأصحابه - حين قالوا له : قد أسرع إليك الشيب - « شيبتي هود وأحوالها » . وعن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية أمر رسول الله ﷺ ، لما رأى ضاحكاً . خرجه ابن أبي حاتم . وذكر القشيري عن بعضهم : أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال له : يا رسول الله ! قلت : « شيبتي هود وأحوالها » فما شيبك منها ؟ قال : قوله ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ .

٧- ويروى الحديث إلى الأمر بالاستقامة على التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده .

٨- حرص الصحابة على تعلم دينهم والمحافظة على إيمانهم .

طَرِيقُ الْجَنَّةِ

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَاهِلٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَطَالُ : لَرَأَيْتُ إِذَا صَنَيْتُ الصَّلَوَاتِ الْكَتُوبَاتِ ، وَصَنَيْتُ زَمَانًا ، وَأَخْلَيْتُ الْخَلَالَ ، وَخَرَّمْتُ الْخَرَّمَ ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا ، أَدْخُلُ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَمَعْنَى خَرَّمْتُ الْخَرَّمَ : اجْتَنَيْتُهُ ، وَمَعْنَى أَخْلَيْتُ الْخَلَالَ : فَعَلَلْتُ مُتَعَفِّفًا جِلَّةً .

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان (باب : بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة) رقم (١٥) .

أهميته :

قال الجرداني في شرحه على الأربعين : وهذا حديث عظيم الموضع ، وعليه مدار الإسلام بجمعه له ، وذلك لأن الأفعال إما قلبية أو بدنية ، وكل منهما : إما مأمون فيه وهو الحلال ، أو ممنوع منه وهو الحرام ، فإذا أحل الشخص الحلال وحرم الحرام فقد أتى بجميع وظائف الدين ، ودخل الجنة آتياً .

لغة الحديث :

« رجلاً » : هو العبدان بن نوفل الخزاعي - كما صرح به في رواية - شهد بدرًا ، وقتل يوم أحد شهيداً ، وهو القاتل يومها : أقسمت عليك رب العزة ، لا تغيب الشمس حتى أظن بمرجتي هذه عتير الجنة . فقال النبي ﷺ بعد

استشهاده : « إن النعمان على الله عز وجل خيراً ، فوجدته عند ظله ، فقد رآته
بطناً في حضرتها ما به حرج » .

« لأنت » : الصلة للاستعظام ، ورأى مأخوذة من قرأى ، والفراد : أهيولى
وأضي .

« المكتوبات » : المفروضات ، وهي الصلوات الخمس .

« رمضان » : شهر رمضان .

« أحلت الحلال » : اعتقدت حله وفعلت الواجب منه ، أما ما ليس بواجب
فلا حرج في عدم فعله ، والحلال : هو المأذون في فعله شرعاً .

« حرمت الحرام » : أبجته معتقداً حرمة ، والحرام : كل ما مع الشرع من
فعله على سبيل الختم .

« أوحى الحية ؟ » : مع السائقين ، من غير سبق غيب .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١- رسول الله ﷺ ورحمة للعالمين : لقد أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ
رحمة للناس ، يقدمهم من الضلال الذي يسوق إلى النار ، ويسلك بهم طريق الهداية
الموصلة إلى الجنة . وطريق الجنة طريق واضحة سهلة ، حد الله تعالى لها حدوداً وفرض
بها سبوكاً ، من وقف عندها والزمها فادته إلى العاية ، ومن تعداها وحالتها ساقته
إلى العقوبة ، عن أن ما حده الله تعالى وفرضه هو ضمن طاقة الإنسان وفي استطاعته ،
لأن الله تعالى يريد تبصير عباده ولا يريد بهم العسر ، وهذا ما يبدو لما وصفاً حياً
في حديثه ﷺ في حديث الباب وأمثاله من أحاديث وردت بهذا المعنى .

٢- الشوق إلى الجنة والبحث عن طريقها : بعدنا جبار ربي الله عز وجل
ذلك المومن المشاهيق إلى حنة عرسها السماوات والأرض اعتقدت للمتقين ، إذ جاء
يسأل رسول الله ﷺ عن طريقها ، ويستعديه عن عمل يسجله صريح رحابها ، فيدله
رسول الله ﷺ عن بعبه ، وتنحلق له أسببه .

وما أكثر ما كان يتكرر مثل هذا السؤال وذلك الأسروداء ، من أصحاب النبي ﷺ ، بأساليب مختلفة ومسائل متنوعة :

روى البخاري ومسلم : عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه : أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أخبرني بعمل يدخلني الجنة ؟ قال : « تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم » وعبد مسلم : دلي على عمل أفعله بدني من الجنة ويأخذ من النار . وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه مثل هذا ، وفيه « وتصوم رمضان » بدل « وتصل الرحم » .

وروى أحمد بإسناد عن ابن التفل رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يعرفات ، فقلت : ثلث أسألك عنهما : ما يدخلني من النار ، وما يدخلني الجنة ؟ فقال : « لكن كنت أوجزت في المسألة لقد أعظمت وأطولت ، فاجلس عني إذن : أعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقم الصلاة المكتوبة ، وآت الزكاة المفروضة ، وحجم رمضان ، وما تحب أن يعطه بك الناس فافهمهم ، وما تكره أن يؤتى إليك فذر الناس منه » .

أوجزت : أختلت لفظ السؤال . أعظمت وأطولت : سألت عن عظيم ، وطريق إليه طويل .

٣- التزام الفرائض وترك المفروضات أساس النجاة : لقد سأل النعمان رضي الله عنه رسول الله ﷺ : هل إذا استمر في أداء الصلاة المفروضة عليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُورًا ﴾ [طه : ١٠٢] . أي فرضاً محمداً بوقت ؟ .

ثم إذا أدرك شهر رمضان المفروض عليه صيامه بقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْعُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] . فلم يصيامه ، ملتزماً لآدابه ومراعياً لحرمة ؟ .

لم ولحق عهد حسود الله تعالى فيما أحل أو حرم ، هم يحل حراماً ولم يحرم حلالاً ،

بل اعتقد كل ما أحله الله وحرمة ما حرمه ، فاحتجب الطرام مطلقاً ، ولعل من الخلال الواجب منه ؟ .

سأل : هل إذا فعل ذلك كله ، ولم يسترد من الفضائل المستحبة والمرغوب فيها كفعل النواقل وترك المكروهات ، والتورع عن بعض الشهوات أحياناً — هل يكتفيه ذلك لتسجدة عبد الله تعالى ويدخله الجنة ، التي هي متنى أمه ومنتهاه ، مع الثقلين الأعيار والسابقين الأثرار ، دون أن يمس عذاب أو يتلق عذاب ؟ .

وبحسب رسول الله ﷺ بما يطهر نفسه ، ويشرح صدره ، ويفرح قلبه ، ويشبع رغبته ، ويحقق لطفه ، فيقول له : « نعم » . أي إن الذي ذكرناه من العمل يكفيك دليل مرادك من دخول الجنة . وكيف لا ؟ والرسول ﷺ يخبر عن الله تعالى أنه يقول : « ما تقرب إلي الثقلون مثل آدم ما اقترضته عليهم » — حديث قدسي أخرجه البخاري — بل طوى لك أيها المؤمن بيشري الله عز وجل إذ يقول : ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِعَهْدِ اللَّهِ وِشْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١١٢] .

أخرج النسائي وابن حبان والحاكم : أن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويحفظ الكبار السبع ، إلا ضمنت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء » . ثم تلا : ﴿ إِنَّ لِمَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ مِنْكُمْ مِثْرًا ﴾ [النساء : ٣١] . والأحاديث في هذا الباب كثيرة ومتوافرة .

والكبار السبع ، هي : الزنى ، وشرب الخمر ، والسحر ، والالهام بالزنى لمن عرف باللعنة ، والقتل العمد بغير ذنب ، والتعامل بالربا ، والفرار من وجه أعداء الإسلام في ميدان القتال . ووردت أحاديث بكبار أخرى غيرها ، والله اعلم .

٢- إن هذا الدين يسر : وموقف رسول الله ﷺ هذا — وعبره من المواقف أمته — يدل على يسر الإسلام ، وأن الله تعالى لم يكلف أحداً من خلقه ما فيه كلفة ومشقة ، وهو سبحانه القائل : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَ وَلَا يُزِيدَ مِنْكُمْ الْغَمَ ﴾

[البقرة : ١٨٥] والقاتل : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [البقرة : ٢٨٦]
 والقاتل : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج : ٢٨] . فالتكليف
 في الشريعة الإسلامية كلها متصف باليسر ، وصعن حدود الطاقة البشرية ، لأنها
 صادرة عن الحكيم العليم ، فما عل الإنسان العاقل إلا أن يسمع ويطيع ، لينال السعادة
 في الدنيا والآخرة .

٥- صدق المسلم وصراحته : إن شعبان رضي الله عنه كان مثال المؤمن
 الصريح بقلبه وقالبه ، فهو لا يريد أن يتظاهر بالتقوى والصلاح بما ليس في نفسه
 أن يفعله ، أو لا يقوم به فعلاً ، بل هو إنسان يريد النجاة والفلاح ، وهو على استعداد
 أن يترك كل ما من شأنه أن يوصله إلى ذلك . وتبدي صراحة هذا المؤمن أكثر فأكثر ،
 عندما يخبره ﷺ بأن ما ذكره كلف لنيل مراده فيقول : والله لا أريد على ذلك
 شيئاً . - كما ورد في إحدى روايات الحديث - طالما أن مرضاة الله تعالى تتحقق
 باليسر الذي افترضه ، وهو يسر على من يسره الله عليه من المؤمنين ، وشاق عسير
 على من حرم الله على نفسه : ﴿ واستعملوا بالصبر والصلوة وأتوا لكتوبة إلا على
 الخاشعين . الذين يطعنون أنهم غلابوا رثهم وألهم إليه راجعون ﴾
 [البقرة : ٤٦-٤٧] .

وهذا الموقف الصريح والصادق ، قد تكرر من أولئك الناس الذين دخل الإيمان
 قلوبهم ، وسيطر اليقين على نفوسهم ، فلم يعرفوا مواربة ولا تظاهر ، ولم يقاربوا أهلونا
 في شرع الله تعالى أو استخفافاً ، كما تكررت هذه المشارة من رسول الله ﷺ لهم
 مدحول الجنة ، رضي الله عنهم ولرضاهم . ففى الصحيحين : أنه ﷺ حابه أمراني
 - هو ضمام بن ثعلبة كما عبد أحمد - مرة ، فسأله عن الصلوات فقال : « خمس .
 فقال : هل على غيرها ؟ . قال : لا ، إلا أن تطوع » . ثم سأله عن عدد من الواجبات
 والمراتضى ، وهو يحبه بالواجب عليه ، فيقول السائل : هل على غيرها ؟ . فيقول :
 « لا ، إلا أن تطوع » . فقال : والله لا أتطوع شيئاً ولا أقصر بما فرض الله تعالى
 على شيئاً . فقال ﷺ : « أفلح إن صدق » . وفى رواية عبد مسلم : « إن كنت

بما أمر به دخل الجنة » وفي رواية في الصحيحين : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فليُنظر إلى هذا » .

٦- **الزكاة والحج** فريضتان محكمتان : إن الزكاة ركن من أركان الإسلام ، له شأن وأهمية ، قال تعالى : ﴿ عُدَّ مِنْ أَمُورِهِمْ صِدْقَ تَطَهُّرِهِمْ وَتَرْكِهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] . وروى البخاري ومسلم : أنه ﷺ قال لعلاء رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن : « أخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة ، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » . وكذلك شأن الحج إلى بيت الله الحرام ، قال الله تعالى : ﴿ وَفِيهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] . وروى مسلم : أنه ﷺ قال : « أيها الناس ، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا » .

فالزكاة هذين الركبتين من وجها عليه ، شرط أساسي في إيمانه من النار ودخوله الجنة دون عذاب ، وقد جاء ذلك مصححاً به في رواية عبد أحمد - عن ابن المنذر رضي الله عنه حين سأل النبي ﷺ عما يدخله الجنة ، فقال له : « اتق الله ولا تشرك به شيئاً ، واتق الصلوة ، واتق الزكاة ، والحج البيت ، وتصوم رمضان » .

ولم يذكرهما العبدان رضي الله عنه بخصوصيهما - كما ذكر الصلوة والصوم - إما لأنهما لم يفرصا بعد ، وإما لكونه غير مكلف بهما لفقره وعدم استطاعته ، أو لأنهما يدخلان في تعميده بعد بقوله : « وأحسن الحلال وحرمته الحرام » . فبذاته يستلزم فعل العرائض كلها ، لأنها من الحلال الواجب - وتركها من الحرام الميسور .

٧- **أهمية الصلوة والصيام** : إن تصدر هذا السائل سؤاله عن أداء الصلوات المفروضة ، يدل دلالة واضحة على ما استقر في نفوس الصحابة رضي الله عنهم من تعظيم أمرها والأهتمام بها ، وكيف لا ؟ وهي عماد الدين ، وعمود المسلم يؤديها في اليوم واليلة خمس مرات ، محافظاً على أركانها ووجباتها ، وسننها وأدائها .

قال رسول الله ﷺ : « رأس هذا الأمر الإسلام ، ومن أسهم سلم ، وعموده

الصلاة ، والبررة من أجل الجهاد في سبيل الله . رواه الطبراني . وقال **عبد بن حمزة** : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم ، الذي له ذمة الله وذمة رسوله » . رواه البخاري . وقال : « إنا رأيت الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » . رواه الترمذي وغيره . وقال : « لا دين لمن لا صلاة له ، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد » أخرجه الطبراني .

حكم تارك الصلاة : وردت أحاديث كثيرة في عيول أمر ترك الصلاة ، وأنه كفر أو مؤبد إلى الكفر ، منها : ما رواه مسلم وغيره : « بين الرجل والكفر ترك الصلاة » . وما رواه أحمد وأصحاب السنن : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » . وما رواه الترمذي والحاكم عن عبد الله بن شقيق العقيلي قال : كان أصحاب محمد **عليه السلام** لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة .

وأخذوا من هذه النصوص يمكن أن يحكم حكم تارك الصلاة ، وذلك يختلف حسب الاعتقاد المقارن تركها ، والباعث من ذلك :

أ - فإن تركها حداً لفرضيتها ، ومكراً لأنها عبادة من عبادات الإسلام الأساسية ، فهو كافر بإجماع المسلمين ومرئى عن الإسلام ، وإن كان يطلق بالشهادتين ويدعي الإسلام وبأنه باقٍ الأعمال ، فيستتاب حتى يرجع عن قوله واعتقاده . فإن لم ينب أقيم عليه حد الردة وهو القتل ، وتعمول معاملة المرتد ، فلا يُعسَل ولا يُصْنى عليه ، ولا يُدفن في مقابر المسلمين ، ولا توارث منه وبنيه .

ب - وإن تركها كسلاً وتساهلاً ، وهو يترك بعرضية ووجوبها ، فإنه فسق أيضاً بإجماع . وإن كان الأئمة قد اختلفوا في معاقبته :

فقال أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى : يُحبس ويُعزَّر بالصرب وغيره حتى يصل أو يتخذ في السعي ، كي لا يكون قدوة سيئة للناس ، وداعية لتهاون في شعائر الإسلام .

وقال الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى : ترك الصلاة كسلاً

يُستتاب ، فإن لم ينف ولم يصل قتل ، إلا أن مالكاً والشافعي رحمهما الله تعالى قالوا : يُقتل حداً ، فَيُغَسَّلُ وَيُكْفَنُ وَيُصَلَّى عليه وَيُدْفَنُ في مقابر المسلمين . وأما أحمد رحمه الله تعالى فقال : يُقتل كفراً ويعامل معاملة المرتد . وقول أحمد هذا هو قول عدد من الصحابة ، منهم : عمر ، وابن مسعود ، ومعاذ رضي الله عنهم ، وبه قال كثير من التابعين .

وأما الصوم : فهو في الرتبة الثانية بعد الصلاة ، وإن كان لا يقبل عنها في الفرضية ، فقد أجمعت الأمة على أنه أحد أركان الإسلام التي غُلِمت من الدين بالضرورة ، وقد مرت بك أحداث كثيرة في ذلك ، ولنا بحصة النعمان رضي الله عنه بالذكر بعد الصلاة ، ولئن كانت الصلاة تتكرر كل يوم من المسلم خمس مرات ، فإن الصوم يعاوده كل سنة شهراً كاملاً ، يتكبد فيه المسلم ألم الجوع وشدة الظمأ ، ويعرض فيه على الأخلاق الفاسدة ، من الصبر وقوة الإرادة ، والتخلص من عبودية الشهوة وسُلطان المادة ، والتحسس بمشاعر ذوي الشفقة والعوز المحرومين ، فتكون التواضع والعبود ، والتحقق المساواة والعدل ، ولذلك كان الصوم جديراً بقول الله عز وجل : « كل حمل ابن آدم له إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام جنة » حديث قديمي رواه مسلم وغيره . نعم إنه وقاية من المعاصي ووقاية من النار ، ووسيلة لتكفير الذنوب ودخول الجنة : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه البخاري وغيره . وروى أحمد وغيره : عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : مرني بعمل يدخلني الجنة قال : « عليك بالصوم فإنه لا عدل له » . ثم أتيت ثانية ، فقال : « عليك بالصيام » .

حكم ترك صيام رمضان : لقد أجمع المسلمون على أن من ترك صوم رمضان مكرراً لغرضه كافر مرتد عن الإسلام ، يعامل معاملة المرتد ، لما ثبت من أدلة قاطعة بوجوبه وفرضيته .

وأما من تركه تهاوياً ، ودون عذر شرعي مقبول ، فإنه فاسق بإجماع المسلمين

نَهَضاً ، وَرَبَّهَا شَكُّ فِي إِسْلَامِهِ ، وَحُطُّ بِهِ الزُّنْفَةُ وَالْمُرُوءُ مِنَ الدِّينِ ، وَأَدَّى بِهِ تَهْلُوكُهُ إِلَى الْكُفْرِ .

رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « عَرَى الْإِسْلَامَ وَفَوَاعِدُ الدِّينِ ثَلَاثَةٌ ، عَلَيْهِنَ أَسُسُ الْإِسْلَامِ ، مَنْ تَرَكَ وَاحِدَةً فَهُوَ بِهَا كَافِرٌ حَلَالُ الدَّمِ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَالصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ » رَوَاهُ أَبُو يَعْقُوبَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ الْقُدْسِيُّ . هَذَا ، وَخَمْسٌ مِنْ أَطْعَمَ لَقِيرَ عَشْرَ ، وَجَمَعَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي النَّهَارِ ، لِيُحْصَلَ مِنْهُ صَوْرَةُ الصِّيَامِ ، حَتَّى يَنْقُضِي رَمَضَانَ .

٨- مَرَاتِبُ الْعِبَادَةِ وَسَعَى الْمُؤْمِنِ لِحَقِّ الْأَكْمَلِ : الْإِيمَانُ مَبْدَأُ الْكَمَالِ : وَدُخُولُ الْجَنَّةِ مُطْلَقاً مُتَوَقَّفٌ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ لَا غَيْرَ ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ وَكَبِهَ وَمَلَائِكَتِهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَمَاتَ وَهُوَ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً ، قُطِعَ لَهُ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ ، وَتَرَكَ الْفَرَائِضَ وَعَمِلَ الْمَحْرَمَاتِ جَمَعَ مِنْ دُخُولِهَا مَعَ النَّاجِينَ مِنْ عَذَابِ عَذَابٍ ، وَلَا يَدْخُلُهَا مِنْ فِعْلِ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ تَقْصِيرٍ . فَفِي الصَّحِيحَيْنِ : عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » . وَفِيهَا عَنْ عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَانَتْ أُمَّهُ مَرْيَمَ وَوُجِّعَ مِنْهُ ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ ، أَدَّاهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ » .

— فِعْلُ الْوَاجِبِ وَتَرْكُ الْمَحْرَمِ وَقَائِدُ مِنَ النَّارِ : الْأَصْلُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْخَافِظَةُ عَلَى الْفَرَائِضِ مَعَ تَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ . فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَازَ بِهَا مَرَّةً وَأُفْلِحَ بِهَا مَالِحَ ، أَسْرَحَ أَحْمَدٌ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَو بْنِ مَرْثَدَةَ الْجُهَنِيِّ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، شَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَصَلَّيْتُ الْخَمْسَ ، وَأَدَيْتُ زَكَاةَ مَالِي ، وَصُمْتُ شَهْرَ رَمَضَانَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهِيدَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا » وَنَصَبَ

أصعبه - ما لم يمتلئ والديه . . . يعني من العقوق ، وهو عدم الإحسان إلى الوالدين كما أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ .

— الإتيان بالوسائل زيادة قرب من الله تعالى وكآل : يجوز للمسلم أن يترك الطواف والتطوعات مطلقاً ، وأن يفعل المباحات أو المكروهات أيضاً ، وهو لا يؤاخذ على شيء من ذلك ، طالما أنه يأتي بالواجبات ويتجنب المحرمات .

وهذا إذا كان الترك فردية ، أما إذا كان الترك جماعياً ، كما إذا تواطأ أهل قرية ، أو حتى كثير في مدينة ، على ترك سنة من السنن كلها ، فقد ذكر الفقهاء أنهم يقاتلون على تركها حتى يعودوا ، وهم مؤاخذون على هذا الترك ، لأنه يشعر بإعراضهم عن هذه السنة وعدم رغبتهم فيها .

وكذلك الترك الفردي : لا يؤاخذ عنه إذا لم يكن ناهياً عن استخفاف بالسنة أو عدم اعتقاد بفضتها وشرعيتها ، وإلا كان كفراً ومروفاً من الدين ، وردة يستتاب عليها ، ويجبر على أداء الطواف عند ذلك . هذا ، على أن تركها كسلاً باستمرار ، مع العقاد مشروعيها ، إسقاط للمروية ونوع فسوق تُردُّ به الشهادة ، لأنه يدل على نيلون في الدين وشعائره ، إلى جانب ما يُضَيِّع المسلم على نفسه في تركها من عظيم الأجر والثواب ، لا سيما وأنها شرعت لغير نقص القرائن وما يكون فيها من خلل .

والمسلم الذي يرجو الجاة ، وأطمح عهده إلى رفيع الدرجات عند الله عز وجل ، لا يترك نافذة ولا يقرب مكروهاً ، ولا يفرق فيما يطلب منه بين واجب أو مفروض أو مطلوب ، كما لا يفرق فيما نهى عنه بين محرم أو مكروه .

وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ عامة يفعلون ، لا يفرقون فيما أمروا به أو نهوا عنه ، من يلتزمون قول الله عز وجل : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : ٧] . رغبة في الثواب ، وطمعاً في فرجة والرضوان ، وإشفاقاً من المعصية والحرام .

وكذلك كان التابعون ومن بعدهم من السلف الصالح والأئمة ، وإن قرأ الفقهاء

في أفعالهم ، ويهوا ألقام الحكم الشرعي : من واجب ومشهود ومباح ومكروه ، لينبأ على ذلك حكمهم على تصرف المكلف من حيث الصحة والبطالة أو الفساد ، ومن حيث المصلحة بالإعادة وعدمها ، وغير ذلك من أحكام .

ومن إذ نرى رسول الله ﷺ يقر ذلك الصحن على إعلانه (والله لا أزيد على ذلك شيئاً) ولا ينهيه إلى فضل الزيادة والتطوع ، تعلم أنه ﷺ فعل ذلك تيسيراً عليه وتسهيلاً ، وتعليماً للقادة والهادة إلى الله عز وجل : أن ينلوا روح الأمل في نفوس ، وأن يتحلفوا بالسماحة والرفق ، وتقرروا لما جاء به الإسلام من التيسر ورفع الخرج . على أنه ﷺ يعم أن هذا التزم التقى حين بعث الله عز وجل ما افترض عليه ، وبصل به قلبه ، ينشرح صدره ، ويشعر باطمئنان نفسي ومنتعة روحية ، فيحمله كل ذلك على الشغف بالعبادة ، والرغبة في الزيادة من مرضاة الله عز وجل ، مادام التواضع وترك المكروه ، لا سيما بعد أن يسمع قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه : « وما يزال عبيدي يتقرب إليّ بالتواضع حتى أحبه ، فإذا أحبته كثرت سمعته الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ووله الذي يبطئ بها ، ورحله الذي يمشي بها ، وإن سألني لأعطيته ، وإن استعاذني لأعيذته ، وإن دعاني لأجيبه » رواه البخاري .

كثرت سمعته ... أي كثرت معيّن له وحافظاً وناصباً في كل حركة من حركاته وأمر من أموره .

وهكذا يترق المؤمن في درجات الكمال حتى تراه فارساً مقدماً في الشهادة ، راعياً عابداً متخشعاً في الليل : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ونبأ برزقناهم ينفقون ﴾ [السجدة : ١٦] .

٩ - التحليل والتحرير تشريع ، لا يكون إلا لله تعالى : علمت أن أصل الإيمان : أن يعتقد الاسم جل ما أحله الله عز وجل وحرمته ما حرمه ، سواء فعل المحرم أم ترك المحلل ، فإن راعى إنسان لنفسه أنه يستطيع أن يحرم ما ثبت حله في

شرع الله عز وجل ، أو يحل ما ثبت حرمة ، فإنه بذلك يتناول على حق الله عز وجل ، الذي له وحده سلطة التشريع ، والتحليل والتحریم ، فمن اعتقد أن له أن يشرع خلاف ما شرعه الله عز وجل ، وبینه رسول الله ﷺ ، أو يشرع بيوه دون التزام قواعد التشريع الإسلامي ، فقد خرج عن الإسلام ، ويرى منه الله تعالى ورسوله ﷺ . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا حُدُودُ اللَّهِ لَا يَجِبُ الْفَحْشَى ﴾ [المائدة : ٨٧] . ولقد ثبت أنها نزلت في بعض الصحابة الذين أرادوا أن يحرموا على أنفسهم بعض الطيبات نقلاً ورهلاً ، فقال لهم ﷺ : « لكني أصلي وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » رواه البخاري ومسلم .

١٠- الحث باليمين والبر به : من حلف أن يفعل غيراً وما فيه طاعة فالأفضل له البر بيمينه ، أي أن يفعل ما حلف على فعله لقوله تعالى : ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ [المائدة : ٨٩] أي احفظوها عن أن تحنوا فيها . ومن حلف على ترك واجب أو فعل معصية وجب عليه الحث بيمينه ، أي أن يمانف بيمينه ولا يفعل ما أقسم على فعله ، روى أبو داود وغيره ، عن النبي ﷺ قال : « من حلف على معصية فلا يمين له » .

ومن حلف على ترك غير خير واجب عليه ، فالأفضل في حقه أن يمتنع ، لأنه خير له ، روى مسلم أنه ﷺ قال : « من حلف على يمين ورأى غيرَها خيراً منها ، فليأت الذي هو خير ولا يكفر عن يمينه » .

١١- وأفراد الحديث :

أن على المسلم أن يسأل أهل العلم عن شرائع الإسلام ، وما يجب عليه وما يحل له وما يحرم ، إن كان يجهل ذلك ، ليسير على هدى في حياته : ولطمحت نفسه لسلامة عمله .

كما أفاد : أن على المعلم أن يتوسع بالتعليم : ويشره بالخير ، وبأخذه بالسير والشرطي .

كُلْ حَبْرَ صَدَقَةٍ

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطَّهَوْرُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ بِفَرْتَمَلَاءِ الْبِرِّانِ ، وَسَبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ بِفَرْتَمَلَاءِ - أَوْ تَمَلَّأْ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالصَّلَاةُ نَوْرٌ ، وَالصَّدَقَةُ بَرَاهَنٌ ، وَالصَّبْرُ حَيَاةٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، كُلُّ شَيْءٍ يَنْقُورُ ، فَيَنْتَحِقُ نَفْسُهُ ، فَمَنْعَتُهَا أَوْ مَرَبَقُهَا » رواه مسلم .

الحديث أخرجه مسلم في أول كتاب الطهارة (باب : فضل الوضوء) رقم /٢٢٣/ .

لغة الحديث :

« الطَّهَوْرُ » : فعل ما يترتب عليه رفع الحدث ، كالوضوء والغسل ، أو إزالة نجس ، كتطهير الثوب والبدن والمكان ، أو المراد الوضوء فقط .

« شَطْرُ » : نصف كما ورد في رواية عند أحمد والترمذي « الطهوير نصف الإيمان » .

« الْحَمْدُ لِلَّهِ » : الثناء الحسن على الله تعالى لما أعطى من نعم ، والمراد هنا : ثواب فقط الحمد لله .

« الْبِرِّانِ » : كلمة الخمسة من البرّان الذي تورد به أعمال العباد يوم القيامة .

« سَبْحَانَ اللَّهِ » : تعظيم الله تعالى وتزبيده عن الصفات ، والمراد هنا ثواب فقط سبحان الله .

« الصَّلَاةُ نَوْرٌ » : أي تهدي إلى فعل الخير كما تهدي النور إلى الطريق السليم .

« برهان » : دليل على صدق الإيمان .

« الصبر » : حبس النفس عما تمنى ، وتمنعها ما يشق عليها ، وثباتها على الحق رغم المصائب .

« صياء » : هو شدة البور ، أي بالصبر تنكشف الكبريات .

« حجة » : برهان ودليل ومرشد ومناقع حكمة .

« يغدو » : يذهب باكراً يسمى لنفسه ، والغدو الغياب ما بين طلوع الفجر وشرق الشمس .

« بائع نفسه » : لله تعالى بعبادته ، أو لشیطانه وهواه بمعبية الله تعالى وسخطه .

« مُعْتَقَهَا » : مخلصها من الخزي في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

« موقها » : مهلكها بارتكاب المعاصي وما يترتب عليها من الخزي والعذاب .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١- الحكمة البالغة . لقد أوتي ﷺ جوامع الكلم ، وما أكثر ما كان يوجه نصائح إلى أصحابه ، باللفاظ واضحة مختصرة ، تنطوي على كل خير وتحذر من كل شر ، دون أن يكون هناك تعليل في اللفظ أو إحلال بالمعنى ، والحديث الذي بين أيدينا يشمل على توجيهات رائعة ، وحكم نبوية بالغة ، وعظات صائفة فمن لا يبتل عن الخزي ، إن هو إلا وحى يوحى . وسنوضح هذه العظات فيما يلي إن شاء الله تعالى .

٢- الطهارة وثوابها : الطهارة شرط لصحة العبادة ، وعنوان عبة الله تعالى . فقلد بين ﷺ ، معظماً المسلمين الحاشعين ، أن ما يقوم به المؤمن من طهارة لبسته وثوبه — استعداداً لمناجاة ربه — أثر هام وبارز من آثار إيمانه ، إذ يعبر به عن بذلته لأمره ، واستجابته لندائه إذ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اصْبِرُوا رُبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١] . وقال : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ

وَأَيُّكُمْ إِلَى الْمَرْحَى وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جِبَاً فَاظْمُرُوا ﴿٦﴾ [المائدة : ٦] . وقال : ﴿وَتِيَابُكَ فَطَهِّرْ﴾ [البقرة : ١٩] . فيقوم ويحتمل الذكر ، ليفف بين يدي الله تعالى ثياباً ، جس الراتحة والمسح كما أحسن الله عطفه ، وقد رحبت له بحة الله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

أ - نصف الإيمان : لقد بين ﷺ أَنَّ أَجْرَ الطَّهَارَةِ ، من وضوء وغفوة ، يتضاعف عند الله تعالى حتى يبلغ نصف أجر الإيمان ، وذلك لأن الإيمان يحرم ما سقه من الخطايا الكبيرة والصغيرة ، والطهارة - وخاصة الوضوء - تحرم ما سقته من عظاما صغيرة ، فكانت كنصف الإيمان .

روى مسلم ، عن عثمان رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من توضأ فأحسن الوضوء غمرت عظامه من جسده ، حتى تخرج من تحت أظفاره » . وأيضاً : الإيمان تطيب القلب من الأدران العنوية ، كالشرك بالله تعالى والبدق وما أشبه ذلك ، والظهور تطيب للظاهر من الأدران الحسية ، ولذا كان علامة المؤمنين يوم القيامة ، قال ﷺ : « إِنْ أُنْتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قُرْأَ مُحَطِّينَ مِنْ أَمْرِ الْوُضُوءِ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَطْلِيَ عَرَّتَهُ فليفعل » . معق عليه . أي يسطع النور من نواصم وأيديهم وأرجلهم .

ب - الطهارة نصف الصلاة : وهناك من شرح الإيمان في الحديث بالصلاة ، مستدلاً بقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة : ١١٢] . أي صلاتكم التي صليتموها إلى بيت المقدس . وقال هؤلاء : الطهارة شرط الإيمان أي نصف الصلاة ، لأن الطهارة شرط في صحتها ، والشرط كالشرط .

ج - الوضوء مفتاح الجنة : لقد جاء في كتاب الله تعالى أن دخول الكفار النار كان سبب عدم انحرطهم في صفوف المسلمين ، قال تعالى : ﴿وَمَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُوبِينَ﴾ [البقرة : ٢٨-٢٩] . فالصلاة هي اللقذ من

النار وهي طريق العبور إلى الجنة ، والطهارة مفتاح الصلاة ، فصار مفتاح الجنة بالواسطة . وعند مسلم : « ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه » ثم يقوم فيصلي ركعتين ، يليل عليهما بقلبه ووجهه ، إلا وجبت له الجنة . وعند أبيه : « ما منكم من أحد يتوضأ ، فيبلغ - أو يسبق - الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » .

د - من حصل الإيمان : الوضوء من حصول الإيمان الحسية ، التي لا يُحافظ عليها إلا المؤمن ، قال عليه الصلاة والسلام : « لم يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن » رواه ابن ماجه والحاكم . لأنه أمر غير ظاهر ، إلى جانب ما فيه من المفكاره ، ولذا كان المحافظ عليه أسبق إلى دخول الجنة .

روى ابن عزيمة في صحيحه : أن رسول الله ﷺ أصبح يوماً فلبس ثياباً فقال : يا بلال ، يم سقتني إلى الجنة ؟ أي دخلت البارحة الجنة ، فسمعت حشيشها تلمع . فقال بلال : يا رسول الله ، ما أدركت قط إلا صليت ركعتين ، ولا أصابي حديث قط إلا توضأت بعده . فقال ﷺ : « لهذا » .

هـ - الطهارة أمانة : روى ابن ماجه ، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، وأداء الأمانة ، كفارة ما بينهن » قيل : وما أداء الأمانة ؟ قال : « القسطنطين من الخيانة . فإن نحت كمل شعرة جناة » . ومن حديث أبي الدرداء رضي الله عنه : « قال الله لم يأمن ابن آدم عن شيء من دينه غيرها » . وذلك لأنها أمر مستور حكمتي يتوهم في البدن ، لا يطلع عليها إلا الله عز وجل ، ولا يعضها إلا صاحبها ، ولا تروى إلا بفعل صاحبها وقصده . ويطلب أن لا يطلع على الفعل أحد ، كما أن القصد أمر حفي ، فذلك كانت إزالتها بالطهارة من أداء الأمانة .

و - طهارة القلب : لا قيمة لطهارة الحسية إذا لم ترافقها الطهارة المعنوية ، ولذا

لا بد أن يراخ الطهور الجسمي لدى المؤمن تطهارة القلب ، وحسن النية ، وصحة القصد ، واستقامة العمل ، بل لقد عسر قرآني الطهور في الحديث بطهارة القلب من العن والحسد والحقد وسائر أمراض القلب ، لأن الإيمان يتم بذلك ، وفسر أيضاً بترك المعاصي والذنوب ، قال تعالى ، هل نسان قوم لوط ، في وصفهم لوطاً عليه السلام وأهله ، في بعدهم عن فعل الفاحشة : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُصْطَفُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] و [النمل : ٥٦] .

٣- ذكر الله تعالى وشكره : إن التصور عن شكر الله عز وجل بالإكثار من ذكره ، ولا سيما بما ورد عن رسول الله ﷺ من صيغ وألفاظ ، بدلاً ثوابه كثرة ميزان الأعمال الصالحة يوم القيامة ، فترجح بها عن السيئات ، ويكون صاحبها من التاجين المقربين عند الله تعالى . ولا سيما إذا ضم إلى الحمد ثنويه الله عز وجل وتقديسه ، وتعظيمه وتكبيره ، وتحميده وتوحيده .

« والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله ثلاثان — أو ثلثاً — ما بين السماوات والأرض » وعند مسلم وغيره « والتسبيح والتكبير ملء السماء والأرض » وعند الترمذي « ولا إله إلا الله ليس لها عون الله حجاب حتى تصل إليه » .

ولقد وردت أحاديث كثيرة في فضل هذه الكلمات الأربع : ففي مسند أحمد رحمه الله تعالى ، عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهم ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله يصطفى من الكلام أربعاً : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، عن قال : سبحان الله كُتبت له عشرون حسنة وحُطَّت عنه عشرون سيئة ، ومن قال : الله أكبر كُتبت له مثل ذلك ، ومن قال : لا إله إلا الله كُتبت له مثل ذلك ، ومن قال : الحمد لله كُتبت له مثل ذلك ، ومن قال الحمد لله رب العالمين من قبل نفسه كُتبت له ثلاثون حسنة ، وحُطَّت عنه ثلاثون سيئة » .

فمن عبر عما قيل بلسانه ، معتقداً بما تلفظ على قلبه ونفسه ، مستحضراً لمعانيها بعكسه وعقله ، فإنه يدال حراً عظيماً ، لو كان يقاس بالساحات ويقدّر بالأحجام

لقد ما بين السماوات والأرض ، وكان له سلماً يصعد منه إلى درجات العرش ، فبعد الترمذي ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ما قال عبد لا إله إلا الله ، خلصاً ، إلا فُتحت له أبواب السماء ، حتى يقضي إلى العرش ، ما اجتهد التكثير » . يعني يصل ، والعرش سقف القردوس الأعلى من الجنة ، فمن وصل إليه فقد نزل على المارل وقال أرق الدرجات .

هذا وقد قال العلماء : هذه الجبل الأربع هي البقيات الصالحات ، والله تعالى يقول : ﴿ المأل والسود زينة الحياة الدنيا والبقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً ﴾ [التكوير : ٤٦] فهي التي يفي ثوابها عند الله عز وجل ويمنحهم ويعظم ، وهي خير من المال والأهل والولد .

— اطمئنان القلب : لا بد حال الذكر من استحضار القلب وفهم المعاني ما أمكن ، حتى يكون لذلك أثر في نفس المسلم ، فيطمئن قلبه ويستقيم سلوكه : ﴿ الذين آمنوا وطمئنت قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [الرعد : ٢٨] .

— الإكثار من الذكر : المؤمن في حاجة ماسة إلى اطمئنان نفسه واستقرار نفسه ، ولذا لا بد له أن يكثر من ذكر الله عز وجل ، حتى يكون دائماً على صلة به ، معتمداً عليه ، مستمداً لعمقه ونصرته ، طالباً لعفوه ومغفرته ، حتى يذكره الله تعالى في ملكوته ، فيشمله بفضله وبرحمته ، ويسدك مسالك الهدى والحق : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسيحوه بكرة وأصيلاً . هو الذي يصل عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالؤمنين رحيماً ﴾ [الأحزاب : ٤١-٤٣] .

بكرة وأصيلاً : عند طلوع الشمس وعند ميلها للغروب والمراد جميع الأوقات .
٤- الصلاة نور : الصلاة فريضة محكمة وركن أساسي من أركان الإسلام ، وهي — كما بين ﷺ — نور مطلق تدل صاحبها على طريق الخير ، وتنبه من

القاضي ، وهدية سبيل الاستقامة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] فهي نور محوي يستضاء به في طرق الهداية والحق ، كما يستضاء بالفضاء المادي إلى الطريق القويم والسلوك السليم ، وهي تكسب المسلم الحية والنماء في الدنيا ، كما تشع النور على وجهه يوم القيامة : ﴿ تَزُورُهُمْ بِيَسْرٍ يُدْهِمُهُمْ وَيَنَاجِيهِمْ ﴾ [التحریم : ٨] . وذلك لأن الذي يستقيم مع الله تعالى ، ويقف بين يديه خاشعاً متبتلاً كل يوم خمس مرات ، يستقيم حاله مع الناس ، ويمتيز بأخلاقه وسلوكه ، وورعه وتقواه ، ويحبل الله عز وجل في وجهه نوراً كما جعل في قلبه نوراً ، قال تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] . أخرج الطبراني عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا حافظ العبد على صلاته ، فأقام وضوئها وركوعها وسجودها والقرأة فيها ، قالت له : حفظك الله كما حفظني ، وصعد بها إلى السماء وفاق نور ، انتهى إلى الله عز وجل فتشيع لصاحبها » .

— نور الجماعة والمسجد : فإذا حافظ المسلم على الصلاة مع الجماعة كانت له نوراً على نور ، وإذا كانت في المسجد استكمل النور وكان النور والفلاح ، وسبق إلى الجنة مع المقربين الأبرار ، قال عنه الصلاة والسلام : « من صلى الصلوات الخمس في جماعة جزأ على الصراط كالبرق اللامع ، في نزل زمرة من السابقين ، وجاء يوم القيامة كالقمر ليلة البدر » . رواه الطبراني . وقال **عنه** : « نشر النشأتين في الظلم إلى المساجد بالنور اللام يوم القيامة » . رواه أبو داود والترمذي .

— لمة عين وتطريح كرمه : الصلاة صلة العبد بربه ، ومساكنة لحلقه ، ولهذا كانت لمة عين المؤمنين ، يمشون فيها الراحة والسكينة والأمن ، ويهرعون إليها كلما نزل بهم ضيق لو ألم بهم كرب ، ولا عراة فهم يهلون من منبع سيد المرسلين القائل : « شعلت قرّة عيني في الصلاة » . رواه أحمد والسنائي . قرّة عيني : ما تسر به نفسي وتستمتع به عيني . والذي كان إذا حزّنه أمر قال : « يا بلال أقم الصلاة ، وأرحنا بها » . رواه أبو داود . حزّنه أمر : نزل به ما يعضه ويهجمه .

٥- الصدقة برهان : البرهان هو الشعاع الذي يلى وجه الشمس ، قال
﴿ ١٠٠ ﴾ : « يا أيها الروح المؤمن تخرج من جسده فإبرهان كبرهان الشمس » . ومنه سميت
الصحة القاطعة برهاناً لتوضوح دلائلها على ما دلت عليه .

فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان ، وطيب النفس بها علامة على وجود
الإيمان وطيبته ، قال ﴿ ١٠١ ﴾ : « ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان : من عبد
الله وحده ، وأنه لا إله إلا الله ، وأقضى ركافة ماله طينة بها نفسه ، رغبة عليه في كل
عام » روى أبو داود . رغبة : معية ، والرغبة الإعانة والمعونة . وسبب ذلك : أن
المثل لمح النفس ويحيى به ، فإذا صححت بإحرامه قد عز وجل دل ذلك على صحة
إيمانها بالله وتصديق وعده ووعدته .

طهارة وصدق : التسم الطاهر النظيف من الأوساخ المادية ، المعبر عن شكره لله
بقوله ، مؤدياً حق الله في عبادته ، طاهر نظيف من الأوساخ المصوية ، ومن أثرها
الشع والخل ، فالتسم أنداسحي كبري ، سمح حواد ، فلا يجتمع بين الإيمان في قلب
أمرئ واحد ، قال تعالى : ﴿ ١٠٢ ﴾ ومن يؤمن بالله فأنشأه هم المفلحون ﴿ ١٠٣ ﴾
[الحشر : ٩] و [التين : ١٩] . ولذا كانت الصدقة ، وكان الإتيان في وجوه
الخير والمساعدة الفقراء والمساكين لإرضاء الله وإتفاء وجهه ، فرضاً كان أو تطوعاً .
دليلاً قاطعاً ، وعلامة واضحة على صدق الإيمان ، وأن فاعلها في عبادة المؤمنين
المفلحين ، قال تعالى : ﴿ ١٠٤ ﴾ قد أطلع المؤمنين ، الذين هم في صلاتهم حاشعون . والذين
هم عن اللغو معرضون . والذين هم للركاة فاعلون ﴿ ١٠٥ ﴾ [المؤمنون : ١٠٥] .

٦- الصبر صياء : الصياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإشراق ،
كصياء الشمس ، بخلاف القمر فإنه نور محض فيه إشراق غير إشراق ، وكان الصبر
صياء لأنه شاق عن العوس ، يحتاج إلى معاهدة النفس وحسنها وكفها عما غيرها .
الصبر طريق النصر : لا يزال المسلم على صواب ما استمر في صبره ، وذلك
أن الإنسان يعيش في الدنيا تخوفه الشدائد ، وتغيط به الصائب ، وكل ذلك يحتاج

إلى ثبات القوة ، وإلا تلاشى الإنسان وضاع ، وما أكثر ما يحتاج المسلم في حياته إلى الصبر ، فالطاعة تحتاج إلى صبر ، وترك المعصية يحتاج إلى صبر ، وتحمل المكاره والصواب يحتاج إلى صبر ، ولذلك كان التحقّق بالقصر قوة لا تساويها قوة ، ونوراً عظيماً لا يزال صاحبه مستضيئاً به ، مهتدياً إلى الحق مستحسناً على الصواب . ولذا استحقّ المؤمنون الصابرون الثناء من الله تعالى ، مع مزيد من الأجر والثوبة ، قال تعالى في الثناء على أيوب عليه السلام : ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ [ص : ٢٤] . وقال : ﴿ وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ [البقرة : ١٥٥-١٥٧] . انظر موضوع الصبر مفصلاً في شرح الحديث رقم ١٩١/ .

٧- القرآن حجة : المسلم مهتاج القرآن ، وإمامه كتاب الله تعالى : يهدي بهديه ، ويأمر بأمره ، وينهي بنهيه ، ويخلق بأخلاقه ، فمن عمل ذلك انتفع بالقرآن إذا تلاه ، وكان دليلاً له يده له على السجدة في الدنيا ، وبرهاناً يدافع عنه يوم القيامة ، ومن تسكب الطريق والحرف عن تعاليم القرآن ، كان القرآن خصمه يوم القيامة ، وكفما كثرت تلاوته دون عمل كان ذلك رياء في نفسه ، لأنه يوهن بنفسه على نفسه : أنه منحرف عن الطريق القويم : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ [الإسراء : ٩] لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً ، كتاب الله ، أخرجه مسلم . وقال ﷺ : « اقرأوا القرآن فإنه يأتي شافعاً يوم القيامة » .

شفاء المؤمن وشفاء الكافر والنافق : وللمؤمن يحد في كتاب الله تعالى شفاء له من الآواء المادية والنفسية ، كلما قرأ وتديره أشرفت روحه ، وانشرح صدره ، وسرى سر الحياة في عروقه . وغير المؤمن إذا سمع القرآن ارتعدت فقراته ، وعبت نفسه ، وطرأت الحلاكة نزل به . قال تعالى : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ [الإسراء : ٨٢] . قال بعض السلف :

ما حدثنا أحد القرآن مقام عنه سالماً - أي بلياً على حاله عندما جلس - بل : إما أن يريح أو أن يخسر ، ثم تلا هذه الآية .

في طريق الجنة : نعم ﷺ توجيهاً الرائعة وعظاته الباهرة بيان أخصاف الناس ، إذ الناس جميعاً يصبحون كل يوم ويمسون ، ولكنهم ليسوا على حالة واحدة ، فهناك من قضى ليله أو نهاره في طاعة الله سبحانه وتعالى ومرضاته ، يلتزم الصديق في معاملته مع الله عز وجل ومع الناس ، فأثقت نفسه من الهلاك وحلصها من العذاب ، فهو حر النفس ، حر الفكر والعقل ، حر الإرادة ، لم يبل قبة نفسه إلا الجنة الخالدة والنعيم الأبدي المقيم . وهناك من قضى ليله أو نهاره في معصية الله تعالى ، وعكافة أوامره في شؤونه العامة والخاصة ، مع الله تعالى ومع الخلق ، فأهلك نفسه وأوردها المخاطر ، وباعها بئس الثمن : شقاء في الدنيا وسجن في جحيم أبدي في العقبى ، إذ كان أسير شهوته وهواه ، وطوع شيطانه ونفسه : « كل الناس بقدر فباع نفسه لمعتقها أو موبقها » . كل إنسان : إما ساع في هلاك نفسه أو في نكايتها ، فمن سعى في طاعة الله فقد باع نفسه لله وأعتقها من عذابه ، ومن سعى في معصية الله لعلى فقد باع نفسه بالهوان وأولعها بالآثام الموحية للغضب الله عز وجل وعقابه . قال تعالى : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكّاهها . وقد خاب من دسّأها ﴾ [الحجر : ٢-١٠] . والعنى : قد أفلح من زكّاهها . بطاعة الله ، وخاب من دسّأها في المعاصي . فالطاعة تزيّن النفس وتطهرها وترفع بها ، والمعاصي : تسيئ النفس وتلثمها ، تحتلض وتسيئ كالذي يفس في التراب . وقال الله تعالى : ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ [الزمر : ١٥] .

شهادة مقبولة منجية : ويستعين المؤمن على عتق نفسه من النار بصقل إيمانه وتزوين يقيه بذكر الله تعالى ، قال ﷺ : « من قال حين يصبح أو يمسي : اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت

وحدك لا شريك لك ، وأني محمدٌ عبدك ورسولك . أعتق الله أربعة من النار ، فمن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار ، ومن قالها ثلاثاً أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار ، فإن قالها أربعاً أعتقه الله من النار . روي أبو داود . وذلك أن هذه الشهادة ليحس في نفسه خشية الله عز وجل ، والرغبة في طاعته والرغبة من معصيته ، فيكون سبباً في بعده عن النار وقربه من رضوان الله عز وجل . وقال ﷺ : ١ من قال إذا أصبح : سبحان الله وبحمده ألف مرة فقد اشترى نفسه من الله ، وكان من آخر يومه عتقاً من النار .

لا يبيع إلا لله تعالى : إن المؤمن عزيز كريم ، ربيع القدر نفيس الثمن ، ولذلك يأتي أن يبيع نفسه إلا لله عز وجل ، لأنه لا يجد من الخلق من يعطيه الثمن المناسب للثمن به ، وكيف وقد تمت الصلقة بين المؤمن وخالقه حل وحلا من الأزل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [التوبة : ١١١] . ولذلك هم يسعون في مرضاة الله تعالى ويعرضون عن كل ما يسخطه ، حتى يخلصوا أنفسهم كاملاً موطراً ، لا تقريهم دنيا ، ولا يقدحهم مال ، ولا يبتليهم تهديد ، ولا يبعدهم خوف لقاء الموت ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [البقرة : ٢٠٧] ويقول : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن لَفِئَ نَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مَن يَتُخَّرُ وَمَا يَدْلُوا تَدْبِيحاً ﴾ [الأحزاب : ٢٣] . فبقي نحوه : مات شهيداً .

٨- وما يرشد إليه الحديث :

١- الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، تزيد الأعمال الصالحة وتقلع ، وتنقصه للعاصي والآثم .

٢- أن الأعمال توزن ، ولها حفة وثقل ، دل على ذلك نصوح الكتاب والسنة ، وعليه إجماع الأمة .

قال **عليه السلام** : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، ثقيلتان في الميزان ، حفيظتان على اللسان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » رواه البخاري ومسلم . وقال : « أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن » .

٣- المحافظة على الصلوات بأوقاتها ، ولذاتها كاملة بأركانها وواجباتها ومستها وآدابها ، بعد تحقق شروطها كاملة .

٤- الإكثار من الإنفاق في وجوه الخير ، والمصارعة إلى سد حاجة الفقراء والمفقرين ، والبحث عن الأرمال واليتامى والفقراء المتعاقين والإنفاق عليهم ، لتكون الصدقة خالصة لوجهه تعالى .

٥- الصبر على الشدائد ، وعصاة على ما يتل المسلم نتيجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ [النجم : ١٧] . وقال : ﴿ قَاصِرٌ كَمَا صَبَرَ لَوْلَا الْعَزْمُ مِنَ الرَّسْلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

٦- القرآن دستور المسلم ، فعليه الإقبال على تلاوته مع تفهم معناه والعمل بمقتضاه .

٧- المسلم يسعى لأن يستفيد من وقته وعصره في طاعة الله عز وجل ، ولا يشغل نفسه إلا بمرأاه سبحانه ، وما يعود عليه بالخير في معاشه ومعاده .

تحريم الظلم

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وحرمت عليكم مكرهاً فلا تظالموا .

يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلا من هدَّيته ، فاستقبلوني بغيركم .

يا عبادي كلُّكم جاهلٌ إلا من أهدَّيته ، فاستقبلوني بأعينكم .

يا عبادي كلُّكم غارٍ إلا من كنتُ له ، فاستكسبوني أكنسكم .

يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم .

يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني .

يا عبادي لو أن أولكم وآبائكم وإنسكم وجنكم كانوا على أفقٍ قلب رجلٍ واحدٍ بكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادي لو أن أولكم وآبائكم وإنسكم وجنكم كانوا على أفقٍ قلب واحدٍ بكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً .

يا عبادي لو أن أولكم وآبائكم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ ، فسألوني ، فأعطيت كل واحدٍ مسأله ما نقص ذلك بشيءٍ مني ولا كما ينقص المحيط إذا أُضيف البحر .

يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيتكم بها ، فمن وجد غيراً

فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومُنْ إِلَّا نَفْسَهُ ، رواه مسلم .

الحديث رواه مسلم في كتاب البر (باب تحريم الظلم) رقم /٢٥٧٢/ .

أهمية الحديث :

هذا حديث قدسي عظيم رباني مبارك ، اشتمل على فوائد عظيمة في أصول الإسلام وفروعه وآدابه ، وذكر التنوي - رحمه الله تعالى - في كتابه « الأذكار » أن أبا إدريس الخولاني - رآه عن أبي هر - كان إذا حدث به جثا على ركبتيه تعظيماً وإجلالاً له ، ورجال إسناده دمشقيون ، قال أحمد بن حنبل : ليس لأعمل الضام حديث أشرف منه .

لغة الحديث :

« حرمت الظلم » : الظلم لغة : وصح الشيء في غير محله . وهو مجاوزة الحد أو التصرف في حق الناس بغير حق . وهو مستحيل على الله تعالى . ومعنى حرمت الظلم على نفسي : أي لا يقع علي ، بل تعاليت عنه وتقدست .

« ضال » : غافل عن الشرائع قبل إرسال الرسل .

« إلا من هديته » : أوحى له إلى ما جاء به الرسل ووظفته إليه .

« فاستهدوني » : اطلبوا مني الهداية .

« صعيد واحد » : أرض واحدة ومقام واحد ، وأصل الصعيد : وجه الأرض ،

قال تعالى : ﴿ فليصموا صعيداً طيباً ﴾ [النساء : ١٢٤] و [المائدة : ٦] .

« البيطيط » : بكسر اليم وسكون الخاء ، الإمرة .

« أحصيا لكم » : أضيفها لكم يعلمي وملائكتي الحفظة .

« أوفيكم إياها » : أوفيكم جزاءها في الآخرة .

فقه الحديث وما يورثه إليه :

١ - تعريف الحديث القدسي : الحديث القدسي هو ما يرويه الرسول ﷺ عن ربه عز وجل ثلثة بواسطة جبريل عليه السلام ، وثلاثة يلوحي أو الإلهام أو المنام ، مفوضاً إليه التعبير بأي عبارة شاء من أنواع الكلام . ولا يختلف الحديث القدسي عن الحديث النبوي إلا في إسناد الرسول له عن ربه ، ولذلك يضاف إلى الله تعالى وهو الأعظم ، ويسمى إليه حيث قد نسي إنشاء لأنه سبحانه هو المتكلم به أولاً ، وقد يضاف إلى النبي ﷺ لأنه المخبر به عن ربه .

ومن تعريف الحديث القدسي تبيح الاختلافات للمعدة به وبين القرآن الكريم :

أ - فالقرآن الكريم معجز بنطقه ومعناه ، والحديث القدسي ليس بمعجز .
 ب - والقرآن الكريم تصح به الصلاة ، بينما الحديث القدسي لا تصح به الصلاة ، بل تبطل .

ج - منكر القرآن الكريم كافر ، ومنكر الحديث القدسي فاسق .

د - القرآن الكريم لفظه ومعناه من عند الله ، والحديث القدسي لفظه من كلام رسول الله ﷺ ، ومعناه وحى من عند الله تعالى .

هـ - القرآن الكريم لا يحور روايته بالمعنى ، بخلاف الحديث القدسي فتحور روايته بالمعنى .

و - القرآن الكريم لا يحسه إلا المطهرون ، والحديث القدسي لا يشترط في حسه الطهارة .

ز - لا يحور للحطب أن يقرأ القرآن أو أن يحمله ، ويحوز له أن يحمل الحديث القدسي أو أن يقرأه .

ح - من قرأ حرفاً من كتاب الله فيه أهر عشر حسات ، والحديث القدسي لا أهر على مجرد قرائته .

ط - القرآن الكريم لا يصح بيعه (في رواية عبد أحمد) ، أو يكره بيعه (عند الشافعية) بخلاف الحديث القدسي فلا يبيع بيعه ولا يكرهه اتفاقاً .

والأحاديث القدسية ، وتسمى الإلهية ، أكثر من مائة حديث ، وقد جمعها بعض الأئمة منهم : علي بن إيليا في كتابه التسمي : « المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية »^(١) جمع فيه مائة حديث .

٢- تحريم الظلم على الله : ولفظ الحديث صريح في أن الله عز وجل منع نفسه من الظلم لعباده ، إلى حرمت الظلم على نفسه ، وهو صريح في القرآن الكريم أيضاً ، قال تعالى : ﴿ وما أنا بظالم للعبيد ﴾ وقال سبحانه : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ ﴿ إن الله لا يظلم بشئ ذرة ﴾ .

٣- تحريم الظلم على العباد : حرم الله عز وجل الظلم على عباده ، وبما هم أن يتظالموا فيما بينهم ، فحرم على كل إنسان أن يظلم غيره ، مع أن الظلم في نفسه محرم مطلقاً ، وهو نوعان :

الأول : ظلم النفس ، وأعظمه الإشراف بالله ، قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ، لأن الشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق وعنده مع الله تعالى المنزه عن الشريك .

وبل ظلم الإشراف بالله للعاصي والآثم الصعوبة والكثرة ، فإن فيها ظلماً للنفس بإيرادها موارد العذاب والحلاك في الدنيا والآخرة .

الثاني : ظلم الإنسان لغيره ، وقد تكرر تحريمه والتحذير منه في أحاديث النبي ﷺ ، على الصحيحين ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة » وفيهما عن أبي موسى الأشعري ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله يملأ لمظالم حتى إذا أحلله لم يبق له » ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ

(١) انظر في كتب المؤرخين آخر الكتاب .

رَبُّكَ إِذَا أَتَى الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَصْلَهُ لَكَبِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ .

ولا ريب أن إقامة العدل في التعامل بين الناس ، وتحريم الظلم فيما بينهم ، من أهم مقاصد وأهداف الإسلام ، ذلك لأن العدل أساس في تشييد صرح أي حكم أو حضارة ، كما أن الظلم سبب في الخطأ الأثم والتدمير الحضارات وفقدان السعادة في هذه الحياة . كما أنه سبب في ليل سحق الله في الآخرة .

٤- الاقتدار إلى الله : والخلق كلهم منتقرون إلى الله في جلب المصالح ودفع المضار في الدنيا والآخرة ، فهم في حاجة ماسة إلى هداية الله ورزقه في الدنيا وهم بحاجة إلى رحمة الله ومنفrote في الآخرة ، والمسلم يتقرب إلى الله عز وجل بإظهار الحاجة والاقتدار ، وتتنجى عبوديته الحققة لله رب العالمين في إحدى الصور الثلاث التالية :

أولاً : بالسؤال ، والله سبحانه وتعالى يحب أن يظهر الناس حاجتهم لله وأن يسألوه جميع مصالحهم الدينية والدنيوية : من الطعام والشراب والكسوة ، كما يسألونه الهداية والمعونة ، وفي الحديث « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى تسع نعله إذا انقطع » .

ثانياً : بطلب الهداية .

ثالثاً : بالامتثال الكامل ، وذلك باحتساب كل ما نهي الله تعالى عنه ، وفعل كل ما أمر الله تعالى به .

فَضَلَ اللهُ تَعَالَى وَسِعَةَ وَحْمَتِهِ

عن أبي ذر رضي الله عنه : « أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ ، يُصَلُّونَ كَمَا تُصَلِّي ، وَيُصُومُونَ كَمَا تُصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِمُضْطَرَأَتِهِمْ . قَالَ : « أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تُصَدَّقُونَ ؟ إِنْ لَكُمْ بِكُلِّ لَسِيخَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَحْمِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٍ عَنِ مَنكَرٍ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُطْنِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّهُنَّ أَخَذْنَا شَهَادَتَهُ وَيَتَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي خُرَاسٍ ، أَمْكَانَ عَلِيٍّ وَرَزٍّ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْخِلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ » . رواه مسلم .

الحديث أخرجه مسلم في الزكاة (باب : بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) رقم / ١٠٠٦ . وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، بعبر هذا اللفظ ، فقد أخرجه البخاري في صفة الصلاة (باب : الذكر بعد الصلاة) رقم / ٨٠٧ . وفي الدعوات (باب : الدعاء بعد الصلاة) رقم / ٥٩٧٠ . وأخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (باب : استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفة) رقم / ٥٩٥ .

أحمد :

قال ابن حجر الميمني في شرحه على الأربعين : وهو حديث عظيم ، لا يشذبه على قواعد تقيسة من قواعد الدين .

لغة الحديث :

- « أن أناساً » : الأناس والناس بمعنى واحد ، وهؤلاء أناس هم فقراء المهاجرين .
- « من أصحاب » : جمع صاحب بمعنى الصحابي ، وهو : كل من اجتمع بالنبي ﷺ بعد البعثة وقبل وفاته ، مؤمناً به ، ومات على الإسلام .
- « القلور » : جمع قَلَر ، وهو المال الكثير .
- « فضل أموالهم » : أموالهم الزائدة عن احتياجاتهم وحاجاتهم .
- « تصدقون » : تصدقون به .
- « نسيحة » : أي قول : سبحان الله .
- « تكبير » : قول : الله أكبر .
- « تحميدة » : قول : الحمد لله .
- « تهليل » : قول : لا إله إلا الله .
- « صدقة » : أجر كآجر الصدقة .
- « بضع » : البضع الجماع ، أو الفرج نفسه .
- « شهوته » : لذته .
- « وزر » : إثم وعقاب .

لغة الحديث وما يروى إليه :

- ١- ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [الطغين : ٢٦] : التنافس في طلب المزيد من الخير ، والحرص على الأعمال الصالحة أمر مشروع ومرغوب فيه ، وعلى المسلم أن يسعى إليه ، فهذا أبو هر رضي الله عنه ، يفتشنا عن مشهد حضره أيام رسول الله ﷺ ، ورأى موقف رسول الله ﷺ ونصرته الحكيم فيه ، ورحمة الإسلام وسعة أبواب الخير فيه ، ببيان من أنزل عليه القرآن لينبئ للناس ما نزل إليهم .
- هذا المشهد هو : أن الفقراء من المهاجرين خاصة ، وربما شاركهم أنصارهم من الأنصار ، رأوا أن ما عندهم القليلة من فضل الحيات والإكثار من الثبات ، حيث إليهم

لا يملكون المال ليصدقوا به ، ويرجعوا عن صدق إيمانهم وحسن إسلامهم ، والله سمعوا من رسول الله ﷺ أن : « الصدقة برهان » وقرؤوا وسمعوا آيات الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ لحث على الإنفاق ، والتي عن المؤمنين ، وتعلمهم جهات عرضها السموات والأرض ، ورأوا أصحابهم وإخوانهم من ذوي الثراء والغنى يسارعون إلى إنفاق المال بعمد وسجاء ، فهذا يأتي بماله ، والآخر بشطره ، وثالث بالألاف المؤلفة ، وآخر يضع المال بين يدي رسول الله ﷺ أكوناً ، حتى يطلق لسان رسول الله ﷺ بالدعاء له ، والرضى عنه ، وطلب العفوة له والرضوان من الله تعالى ، وهنا تحركت نفوس هؤلاء ، وطلعت قلوبهم إلى ذلك الفضل ، وتلك الثروة ، التي يتبوؤها إخوانهم ، لا حسداً على المال ولا طمعاً في الثراء ، وإنما هو تنافس وتساوق في ميادين الخير والقرى من الله تعالى . فجمعوا أنفسهم ، وجأؤوا إلى رسول الله ﷺ يشكون حالهم ، ويعتنون بإصلاحهم ، وأنهم تقيض من الدعم جزئاً ألا يمدوا ما ينفقون : « يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأثور » . لقد حاز أصحاب الأموال والغنى كل خير وثواب ، واستأنفوا بذلك قوتنا ، وذلك أنهم « يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم » . فمن وإيمانهم في ذلك سواء ، ولا ميزة لنا عليهم ، ولكنهم يفضلونا ويميزون علينا ، فإنهم « يتصدقون بفضول أموالهم » ولا تملك نحن ما نتصدق به لسرك مرتبتهم ، ونفوسنا ترغب أن تكون في مرتبتهم عند الله تعالى ، فبماذا نفعل ؟ .

٢- الحكمة البالغة وأبواب الخير الواسعة : يدرك المصطفى ﷺ خفة هؤلاء وشوقهم إلى الدرجات العلى عند ربه ، ويدأوي نفوسهم بما آتاه الله تعالى من حكمة ، فيطرب عاظرهم ويبفت أنظارهم إلى أن أبواب الخير واسعة ، وأن هناك من الأعمال ما يساوي ثوابه لو أن كل واحد صدق ، وثلاثي مرتبة فاعله مرتبة الملق ، إن لم ترد عنها في بعض الأحيان ، ولكن كل إنسان على حسبه ، ﴿ لا يكلف الله عبداً إلا وسعها ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه ﴾ [التلاق : ٧] . أوليس لقد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ بل إن أنواع الصدقات

بالنسبة إليكم كثيرة ، منها ما هو اتفاق على الأهل ، ومنها ما هو ليس باتفاق ، وكل منها لا يقل أجره عن أجر الإتفاق في سبيل الله عز وجل .

٣- ذكر الله عز وجل غير صدقة على النفس : فإننا لم يكن لديكم فضل مال ، فسيحوا الله عز وجل وكرهوا واحملوه وحملوه ، فلي كل لفظ من ذلك أجر صدقة ، وأي أجر ؟ وكيف لا ، وقد علمنا أنها الباقيات الصالحات ، والله تعالى يقول : ﴿ والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ مملاً ﴾ [الكهف : ٤٦] . ويقول سبحانه : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ [العنكبوت : ١٨] . أي : أعظم أجراً وثواباً . وهذا رسول الله ﷺ ، يقول : ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا فيها صدقة بين يدي من يشاء من عباده ، وما من الله تعالى على عبده مثل أن يلهيه ذكره ، أخرجه ابن ماجه .

وروى أحمد والترمذي : أن رسول الله ﷺ سئل : أي العباد أفضل عند الله يوم القيامة ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً » .

٤- دعوة الخير صدقة على الجميع : وكذلككم : باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واسع ومفتوح ، وأجر من يلوم هذا الغرض التكفائي لا يقل عن أجر المتفق للصدق ، بل ربما يفوقه مراتب كثيرة : « كل معروف صدقة » رواه مسلم . وكيف لا ؟ وهذه الأمة كانت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خير أمة أخرجت للناس : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

• سعة فضل الله عز وجل : وأيضاً فقد جعل الله عز وجل لكم أجراً وثواباً تدلونه كل يوم وليلة إلا أحلصتم الثبة وأحسستم القصد : أي أحدكم ينفق على أهله وعياله : « وخلفه الرجل على أهله وزوجه وعياله صدقة » رواه مسلم وغيره . وإنك لن تنفق نفقة ترضي بها وجه الله تعالى إلا أحررت عبداً ، حتى النفقة ترضيها إلى في امرأتك ، تنفق عليه ، أي تطعمها بها . بل أي أحدكم يعاشر زوجته ويقوم

بواجبه نحوها ، ليحفظ نفسه ويكفها عن الحرام ، ويحفظ طهره ويتف عند حدود الله ، ويحجب عرماته التي لو اترفها كان عليه إثم وعقاب ؟ فكذلك له أسر ولؤب ، حتى ولو ظن أنه يحصل لذته ويشبع شهوته ، طالما أنه يخلص النية في ذلك ، ولا يقارب إلا ما أحل الله تعالى له .

٦- « إنما الأعمال بالنيات » : ومن عظيم فضل الله عز وجل على السمع : أن عادته تنقلب بالنية إلى عبادة يؤجر عليها ، ويصور فعله وتركه فربة تقرب بها من ربه جل وعلا ، فإذا تناول الطعام والشراب لماح بقصد الحفاظ على جسمه والتقوي على طاعة ربه ، كان ذلك عبادة يثاب عليها ، ولا سيما إذا قارن ذلك ذكر الله تعالى في بدء العمل ونهايته ، فسمى الله تعالى في البدء ، وحده وشكوه في الختام ، كما ورد في السنة ، وإذا جامع زوجته بقصد إعفاف نفسه وزوجته عن الرنا ومقدماته ، أو بقصد قضاء حق الزوجة في المعاشرة بالمعروف ، أو بقصد طلب ولد صالح بعدد الله تعالى ويوحده ، إذا حصل هذا القصد عند قضاء الوطر كان ذلك عبادة ، تكتب في سجل حسناته ، ولا سيما إذا لم يغفل في تلك اللحظات عن فضل الله تعالى الذي آباح له هذه اللذة ، واستل أمر رسوله ﷺ ، وذكر الله تعالى ودعاه بما أرشده إليه إذ يقول : « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم حَبِّبْنَا لِلشَّيْطَانِ وَجَبِّ الشَّيْطَانُ مَا رَزَقْنَا ، فَقَصَى بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَحْزَرْهُ » متفق عليه . أي لم يضر الشيطان هذا الولد .

وكذلك : يبرو الأسير وينمو عند الله عز وجل للمسلم الذي يكف عن محرم الله عز وجل ، ولا سيما إذا حدد العهد في كل حين ، واستحضر في نفسه أنه يكف عن معصية الله تبارك وتعالى امتثالاً لأمره واجتناباً لما نهى عنه ، طمعاً في ثوابه ونحوها من عقابه ، وتعلق فيه وصف عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعَجُوزًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، ووصف المؤمنين الصادقين : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ هَانُوا وَعَلَى رُءُوسِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٣] .

٧- أبواب الخير مكتوبة : ولا تقتصر أبواب الخير والصدقات على ما ذكر في الحديث ، فهناك أعمال أخرى يستطيع المسلم القيام بها وتحتسب له فيها أجر الصدقة . أخرج ابن حبان في صحيحه [موارد القصد - رقم ٨٦٢] : عن أبي ذر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طاعت فيه الشمس » . قيل يا رسول الله ، من أين لنا صدقة تصدق بها ؟ قال : « إن أبواب الخير المكتوبة : التسبيح ، والتمجيد ، والشكر ، والتبليغ ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتبسط الأذى عن الطريق ، وتسمع الأصم ، ويهدي الأعمى ، وتقبل الاستئذان من حاجته ، وتسعى بشدة ساقبك مع اللهبان المستطيت ، وتحمل بشدة دراعيك مع الضعيف ، فهذا كله صدقة منك على نفسك » . وفي الصحيحين : « تكف شرك عن الناس فإنها صدقة » وعند الترمذي : « تسلمك في وجه أخيك لك صدقة » . وإفراغك دلوك في دلو أخيك لك صدقة » .

٨- وما يرشد إليه الحديث :

١- استعمال الحكمة في معالجة المواقف ، وإدخال البشري على العيوس ، وتطبيب الخواطر .

٢- فصيحة الألفاظ للشار إليها في الحديث ، وأن أجراها بسلاوي أخر الصدقة من لا يملك مالا يتصدق به ولا سيما بعد الصلوات الغروبية ، فقد جاء في رواية الصحيحين : « ألا حدثكم بأمر : إذا أعطتم به لركبكم من سبقكم ولم يترككم أحد بعدكم ، وركبكم سحر من أتم بين ظهرايه ، إلا من حمل مثله ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون تحلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » .

٣- استحباب الصدقة لتفقير إذا كان لا يضيئ على عياله ونفسه ، والتذكير بنفس ولو أكثر من الإنفاق ، استزادة في الخير والثواب .

٤- الصدق بما يحتاج الإنسان إليه للشفقة على نفسه أو أهله وحياله مكروه ، وقد يكون محرماً إذا أدى إلى ضياع من تحب عليه حفظهم ، قال عليه الصلاة والسلام : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » . أخرجه البخاري وغيره .

٥- الصدقة للقادر عليها ومن يملك مالا أفضل من الذكر ، لأن الصدقة نعمها أعم ويتعدى إلى غيره ، بينما الذكر تقفه على وقاصر على الذكر وحده ، فإذا جمع الغنى بين الصدقة والذكر كان أجره عظيماً عند الله عز وجل ، فقد جاء في رواية الصحيحين عند مسلم : فرجع هؤلاء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : سمعنا إسماعيلاً أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

٦- فضل الغني الشاكر للفقير والفقر الصابر المحتسب .

٧- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع المسلم ، وهو من مروض الكفالية التي إذا لم يتم بها أحد أهم الجميع ، وإذا قام بها بعض المسلمين سقط الإثم عن الباقين ، ولا يختص ذلك بصفة دون أخرى من المسلمين .

٨- حسن معاشرة الزوجة والقيام بحملها بما يحقق سكن نفسها ورغد عيشها ، وكذلك حسن معاشرة الزوج احتراماً بفضله وشكراً لإحسانه .

٩- الحث على السؤال عما يتفجع به المسلم ويترقب به في مراتب الكمال .

١٠- للمستعني أن يسأل عما خفي عليه من الدليل ، إذا علم من حال المسؤول أنه لا يكره ذلك ، ولم يكن فيه سوء أدب .

١١- بيان الدليل للمتعلم ، ولا سيما فيما خفي عليه ، ليكون ذلك ثمت في قلبه وأدهى إلى أمثاله .

١٢- مشروعية القيام وترتيب الحكم إلتزاماً للأمر بما يشابهه أو يناظره .

الإصلاح بين الناس

والعدل لهم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ سُلَاحَةٍ مِنْ الْأَسْرِ عَلَيْهِ صَلَافَةٌ ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ : تُعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَلَافَةٌ ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي ذَنْبِهِ فَنَحِيلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ مَنَافِعَهُ صَلَافَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَلَافَةٌ ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ تُشْبِهُهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَلَافَةٌ ، وَلَيَبِطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَلَافَةٌ » رواه البخاري ومسلم .

الحديث رواه البخاري في كتاب الصلح (باب فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم) وفي كتاب الجهاد (باب فصل من حمل متاع صاعبه في السفر) و (باب من أخذ بالركاب ونحوه) رقم / ٢٨٢٧ . ورواه مسلم في كتاب الزكاة (باب اسم الصدقة يقع على كل نوع من المروءات) رقم / ١٠٠٧ و / ١٠٠٩ .

أهمية الحديث :

من أعظم أهداف الإسلام وغايته جمع قلوب المسلمين واتصالها ، وإقامة كلمة الحق بينهم وتقوية شوكتهم ، وظهرهم على عدو الله وعدوهم ، وهذه الأهداف والغايات لا تتحقق إلا بالنصر والتعاون والتكافل ، وهذا الحديث النبوي الشريف يسهم في ذلك بما يدعو إليه من القول والعمل ، ولتلقى أحكامه مع قول الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] وقول النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد »

الواحد ، إذا اشكى منه عضو لدعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه البخاري
ومسلم .

لغة الحديث :

« سلامي » : السلامي : عظام الكف والأصابع والأرجل ، والمراد في هذا
الحديث جميع أعضاء جسم الإنسان ومفاصله ، وهي ثلاثمائة وستون عضواً ، لما رواه
مسلم « خلق الإنسان على ستون وثلاثمائة مفصل ، ففي كل مفصل صدقة » .

« تعدل بين اثنين » : تحكم بالعدل بين متخاصمين .

« وتعين الرجل في دابته » : وفي معنى الدابة السفينة والسيارة وسائر ما يحمل
عليه ، وفي معنى ذلك إعاملته فيما يحمله بيديه أو على ظهره .

« فتحمله عليها » : أي تحمله ، أو تعبته في الركوب ، أو في إصلاحها .

« وكل خطوة » : الخطوة : بفتح الخاء : المرة من المشي ، وبضمها : بعد
ما بين القدمين .

« وتخط الأذى » : بفتح التاء وضمها : تزيل ، من ساط وأساط : أزال .
والأذى : كل ما يؤدي الضرر من حجر أو شوك أو قذر .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١ - القدرة الإلهية في خلق عظام الإنسان ومفاصله : خلق الله الإنسان في
أحسن تقويم ، وجعل أعضائه ومفاصله في غاية الإبداع والتظيم ، وطلب منه أن
ينظر في حياها نفسه ، وأن يشكر في دقيق عواصمه وعظامه ، وعلايا جسمه وكبريات
دعاه ، ليتعرف على آيات الخالق المبدع القدير ، قال تعالى : ﴿ سرِّبهم آياتنا في الآفاق
وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [فصلت . ٥٣] وقال سبحانه ﴿ وفي
أنفُسِكُمْ أَفْلا تُنصِّرون ﴾ [الذاريات : ٢١] .

وقد خص النبي ﷺ الصلوات بالذكر في حديثه : لما فيها من تنظيم وحمل ، ومرونة وتغذية ، ولما هدد الله عز وجل وتوعد كل معاند وكافر بالخرمان منها بقوله : ﴿ على القادرين على أن نسوي بينه ﴾ [القيامة : ٤] أي أن يجعل أصابع يديه ورجليه مستوية شيئاً واحداً ، كخشب العمود وحافر الخمار ، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئاً ، كما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفصلات من قنود وأصابع .

وقد آمن ذلك المهندس العربي — الذي يعمل مهتدداً في مصنع الأطراف الصناعية — بقدرة الله ، ورجع إلى حظيرة الدين والإيمان بوجود الله ، بعد أن جلس في أحد الأيام يفتق النظر في كنف ابنته الصغيرة ، ويخارن بين الصعقة الربانية وأحدث ما توصلت إليه الصنعة البشرية في صناعة الأطراف ، ويكشف الفارق العظيم الذي هداه إلى الله^(١) .

٢ — الشكر على سلامة الأعضاء : إن سلامة أعضاء جسم الإنسان ، وسلامة حواسه وعظامه ومفاصله ، نعمة كبيرة تستحق مراد الشكر لله تعالى النعم للتفضل عن عباده . قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ [الانشطار : ٦-٨] ، وقال سبحانه : ﴿ ثم نسألن يومئذ عن النعيم ﴾ [النكاثر : ٨] قال ابن عباس : النعيم : صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد : فبم استعملوها ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ إذ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

وقال ابن مسعود : النعيم الأمن والصحة . وأخرج الترمذي وابن ماجه ، أن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة فيقول الله : ألم تصيخ لك جسمك ونزولك من الماء البارد ، وقال أبو الدرداء : الصحة نساء الخسد . وقال وهب بن منبه : مكتوب في صحيفة آل داود : العافية الملك الحفي . أي فهي النعيم المسؤول عنه يوم القيامة .

(١) انظر القصة في كتاب : العلم بدمع الإيمان .

ومع هذا فإن كثيراً من الناس يغفلون عن هذه النعم العظيمة ، ويتناسون ما هم عليه من سلامة وصحة وعافية ، ويجهلون النظر والتأمل في أنفسهم ، ومن ثم يقتصرون في شكر خالقهم .

٣- أنواع الشكر : إن شكر الله تعالى على ما أعطى وأنعم يزيد في النعم ويجعلها دائمة مستمرة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأْتِيَن رَّبُّكُمْ لِنَ شِكْرِكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] ولا يكفي أن يكون الإنسان شاكراً بلسانه ، بل لا بد مع القول من العمل ، والشكر المطلوب واجب ومندوب :

أ - فالشكر الواجب : هو أن يأتي بجميع الواجبات ، وأن يترك جميع المحرمات ، وهو كاف في شكر نعمة الصحة وسلامة الأعضاء وغيرها من النعم ، ويدل على ذلك ما رواه أبو داود ، عن أبي الأسود الدبلي قال : « كنا عند أبي ذر فقال : يصح على كل سلامي من أحدكم في كل يوم صدقة : فله بكل صلاة صدقة ، وصيام صدقة ، وحج صدقة ، وسبيح صدقة ، وتكبير صدقة ... » وروى البخاري ومسلم ، عن أبي موسى الأشعري ، عن رسول الله ﷺ قال : « فإن لم يفعل فليحسك من الشر فإنه له صدقة » . وهذا يدل على أن العبد يكتبه ليكون شاكراً أن لا يفعل شيئاً من الشر ، وإنما يكون مجتنباً للشر إذا قام بالفرائض واجتنب المحرم . فإن أعظم الشر ترك الفرائض ، ولذلك قال بعض السلف : الشكر ترك المعاصي . وقال بعضهم : الشكر أن لا يستعان بشيء من النعم على معصيته .

ب - والشكر المستحب : هو أن يعمل العبد بعد أداء الفرائض واجتناب المحرم بوافي الطاعات ، وهذه درجة السابقين الثقلين في شكر الخالق عز وجل ، وهي التي ترشد إليها أكثر الأحاديث الواردة في الحث على الأعمال وأنواع القربات ، وهي حال النبي ﷺ ، فقد كان يجهد في الصلاة ويقوم حتى تنفطر قدماء ، فإذا قيل : لم تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيقول : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

١- أنواع الصدقات المذكورة في الحديث وحكمها : إن من مزيد لطف الله تعالى بعباده وتفضل عليه تسمية الشكر فواجب عليهم والمستحب صدقة ، وراى سبحانه في ذلك التفصيل فوجب ذلك الشكر لهم صدقة عليهم ، فكانه قال : اجعل شكر نعمتي في أعطائك أن تمنى بها عبادي ، وأن تصدق بها عليهم . مع ملاحظة أن الصدقة لا تنحصر في المال ، وأن هذه الصدقات منها ما يعده متعدي ، كالإصلاح وإعانة الرجل على دينه ، ومنها ما هو قاصر النفع ، كالتضي إلى الصلاة .

والصدقات المذكورة في الحديث هي :

١- العدل بين المتخاصمين والمتهاجرين : ويكون ذلك بالحكم العادل ، وبالصالح بينهما صلحاً جازماً لا يحل حراماً ولا يجرم حلالاً ، وهو من أفضل القربات وأكمل العبادات ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَعْيُنِكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] وقال سبحانه : ﴿ لَا غَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ عَوَالِمِهِمْ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِصَدَقَةِ نُو مَرْيُومَ أَوْ إِصْلَاحِ ﴾ [النساء : ١٦٤] . وقال ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قَالُوا : بَلَى . قال : إِصْلَاحُ ذَاتِ الْيَمِينِ » . والإصلاح بين المتخاصمين أو المتهاجرين صدقة عليهما ، لوقايتهما لما يترتب على الخصام من فيح الأموال والأفعال ، ولذلك كان واجباً على الكفاية ، وجاز الكلي

فيه مبالغة في وقوع الألفة بين المسلمين .

٢- إعانة الرجل في دابته : وذلك بمساعدته في شأن ما يركب ، فتحمله أو نعيه في الركوب ، أو ترفيع له منابه ، وهذا العمل الإنساني فيه صدقة وشكر ، لما فيه من العلون والبروة ، روى الخطيب عن أنس رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَنْ حَمَلَ أَمْلَهُ عَلَى شَيْءٍ فَكَأَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى دَابَّةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » . على شئ : الشئ أحد سبور العنل ، وهو الذي يدخل بين الأصبعين .

٣- الكلمة الطيبة : وتشمل : تشييت العاطس ، والبدء بالسلام ورده ، واليات الصالحات : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾

[قاطع : ١٠] والكلام الطيب في رد السائل ، قال الله تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ [البقر : ٢٦٣] وحسن الكلام مع الناس ، لأنه مما يفرح به قلب المؤمن ، ويدخل فيه السرور ، وهو من أعظم الأجر .

وكلمة التوحيد ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِثْلُ نَسْتِ كُنْهُ طِبَّةٌ كَشَجَرَةٍ طِبَّةٌ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ .. ﴾ [إبراهيم : ٢٤] .

والكلمة الطيبة بالتالي تشمل الذكر والدعاء ، والثناء على المسلم بحل ، والشفاعة له عند حاكم ، والنصح والإرشاد على الطريق ، وكل ما يسر السامع ويجمع القلوب ويؤلفها .

١- المشي إلى الصلاة : وفي ذلك مزيد الحث والتأكيد على حضور صلاة الجماعة والمشي إليها لإعمار المساجد بالصلوات والطاعات ، كالأعتكاف والطواف ، وحضور دروس العلم والوعظ ، روى البخاري ومسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له غداً أو راح » . وروى مسلم وغيره ، عن جابر رضي الله عنه قال : دخلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سُلَيمَةَ أن يتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لهم : « بلغني أنكم تريدون أن تتقلوا قرب المسجد ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله ، قد أردنا ذلك . فقال : « يا بني سلم ، دياركم للكتب آثاركم ، دياركم للكتب آثاركم » فقالوا : ما يسرنا أنما كنا نحولنا . في رواية لمسلم بمعناه وفي آخره « إن لكم بكل خطوة درجة » . ويزداد الأجر أيضاً كلما كان في المشي إلى المسجد مشقة ، وخاصة إلى حضور صلاة العشاء والصبح جماعة ، روى أبو داود والترمذي ، عن تريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يسر للشاكرين في الظلم إلى المساجد بالنور تمام يوم القيامة » .

٢- إعاطة الأذى عن الطريق : وهي تحية كل ما يؤدي المسلمون في طريقهم من حجر أو شوك أو لحاسة ، وهذه الصدقة أقل مما فيها من الصلوات في الأجر

والغراب ، الحديث : الإيمان بضئ وسبعون شعبة : أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . - قيل : ولئن كلمة التوحيد عند إزالة الأذى ، ليجمع بين أصل شعب الإيمان وأدائها . ولو التزم كل مسلم هذه الإرشاد النبوي ، فلم يرم القمامة والأوساخ في غير مكانها المخصص ، ولزُل من طريق المسلمين ما يؤذيهم ، لأصبحت البلاد الإسلامية أنظف بقاع الأرض وأجملها على الإطلاق .

٥- صلاة الضحى تجزئ في شكر سلامة الأعضاء : روى مسلم من رواية أبي الأسود الدؤلي ، عن أبي ذر ، عن النبي ﷺ قال : « أصبح على كل سلامي أحدكم صدقة ، مكل تسيحة صدقة ، وكل تحسنة صدقة ، وكل هيلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، ويجزئ من ذلك ركعتا الضحى بركعتيهما » وأقل صلاة الضحى ركعتان ، وأكثرها ثمان ، ويسن أن يسلم من كل ركعتين ، ووقتها يتندى به ارتفاع الشمس قدر ربح ، ويمشي حين الزوال . وخصت بهذا الفضل ، لأنها لم تشرع جارية لنقص غيرها ، بخلاف سائر الروائب ، فإنها جارية لنقص متبوعها من الصلوات المفروضة ، فلم يتمحض بها القيام بشكر تلك النعم الباهرة ، والضحى تمحضت بالقيام بذلك . وإذا كان طلب الشكر يتكرر بطلوع الشمس في كل يوم ، فإن أفضل العبادات التي تجعل المسلم متيقظاً شاكراً بعد طلوعها هي صلاة الضحى . ولكن الحفاظ العراقي يرى أن هذا الاختصاص بصلاة الضحى لخصوصية فيها وسر لا يعلمه إلا الله تعالى .

٦- حمد الله تعالى على نعمه شكر : روى أبو داود والبيهقي ، عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين أصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك حمدك وحمداً لا شريك لك ، غفلك الحمد وتلك الشكر . فقد أوى شكر ذلك اليوم ، ومن قال حين يمسي : فقد أوى شكر ليلته » . وروى ابن ماجه عن رسول الله ﷺ قوله : « ما أكرم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله . إلا كان الذي أعطى أفضل مما أهد » وأخذ بعض العلماء من هذا الحديث أن الحمد أفضل من النعم :

لأن المراد بالنعم الدينية ، كالعاقبة والرفق . والحمد من النعم الدينية ، وكلاهما نعمة من الله تعالى ، لكن نعمة الله على عبده بهدايته لشكر نعمة بالحمد عليها أفضل من نعمة الدينية على عبده ، فإن هذه النعم إن لم يقرن بها شكر كانت بلية ، فإذا وفق الله تعالى عبده للشكر عليها بالحمد وغيره ، كانت نعمة الشكر أتم وأكمل .

٧- إخلاص النية لله تعالى في جميع الصدقات : إن علوم النية لله تعالى وحده في جميع أعمال البر والصدقات المذكورة في هذا الحديث وغيره شرط في الأجر والثواب عليها ، قال الله تعالى : ﴿ لا غير في كثير من أحوالهم إلا من أسر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ [النساء : ١١٤] - وروى ابن حبان حديثاً في صحيحه : أن رسول الله ﷺ ذكر فيه عسلاً ، كالصدق ، وقول المعروف ، وإعانة الضعيف ، وترك الأذى ثم قال : « والذي نفسي بيده ما من عبد يعمل بتفصلة منها يريد بها ما عند الله إلا أخذت بيده يوم القيامة حتى يدخل الجنة » .

وقد روي عن الحسن البصري وابن سيرين : أن فعل المعروف يؤجر عليه وإن لم يكن فيه نية . وسئل الحسن عن الرجل يسأله آخر حاجة وهو يفتنه ، فيعطيه حياء ، هل له فيه أجر ؟ فقال : إن ذلك لمن العروف ، وإن في المعروف لأجرأ . أخرجه حميد بن زنجويه . وسئل ابن سيرين : عن الرجل يبيع الجمارة ، لا يبيعها حسية ، يبيعها حياء من أهلها ، أه في ذلك أجر ؟ فقال : أجر واحد ؟ بل له أبران : أسر الصلاة عن أخيه ، وآخر لصقة الخبي ، أخرجه أبو نعيم في الحلية .

٨- ليس المراد من الحديث حصر أنواع الصدقة بالمعنى الأعم فيما ذكر فيه ، بل تشبيه على ما بقي منها ، وجمعها كل ما فيه يقع للنفس أو غيرها من خلق الله ، قال ﷺ : « في كل كبد رطبة أجر » وقال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء » . وقال : « الخلق عيال الله تعالى ، وأحب الناس إلى الله تعالى أشقاهم على عياله » .

٩- وعظاماً فإن هذا الحديث يُفيد إنعام الله تعالى على الإنسان بصحة بدنه ولحم أعضائه ، وأن عليه شكر الله كل يوم على كل عضو منها ، وأن من الشكر : حمل المعروف ، وإشاعة الإحسان ، ومعاونة المصطر ، وحسن المعاملة ، وإسداء الخير ، ودفع الأذى ، وبذل كل خير إلى كل إنسان ، بل إلى كل مخلوق ، وهذا كله من الصدقات المتعددة .

ومن الصدقات المفصلة : أنواع الذكر والتسبيح والتكبير والتحميد والتلهيل والاستغفار ، والصلاة على النبي ﷺ ، وللاؤة القرآن ، والمشي إلى المساجد ، والجلوس فيها لانتظار الصلاة أو لأستماع العلم والذكر ، ومن ذلك : التواضع في اللباس والمشي ، والبذل في المهنة ، واكتساب الحلال والتحري فيه ، وإحامية النفس عن ما سلف من أفعالها ، والندم والخوبة من الذنوب السابقة ، والحزن عليها ، والبكاء من خشية الله عز وجل ، والتفكير في ملكوت السموات والأرض ، وفي أمور الآخرة وما فيها من الجنة والنار والوعيد والوعيد .

البر والإثم

عن الثوري بن سفيان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك وكفرت أن تعلم عليه الناس » رواه مسلم .
وعن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال : أتت رسول الله ﷺ فقالت : « جئت تسأل عن البر » . قلت : نعم . فقالت : « استقبت قلبك ، أوبر ما أطعناك إليه النفس وأطعناك إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفلحت الناس وأفقرت » .

حديث حسن رويته في مستندي الإمامين : أحمد بن حنبل ، والدارمي بإسناد حسن .

حديث الثوري بن سفيان رواه مسلم في البر والعصاة (باب تفسير البر والإثم) رقم [٢٥٥٣] . وحديث وابصة من معبد رواه الإمام أحمد في المسند ٢٢٨/٤ والدارمي ٢١٦/٢ .

أهمية الحديث :

قال ابن حجر العسقلاني : هذا الحديث من حواميع كلمة ﷺ ، بل من أوجزها ، يد البر كلمة جامعة لجميع أفعال الخير وحصل المعروف ، والإثم كلمة جامعة لجميع أفعال الشر وطبائع كبرها وصغيرها ، ولها النسب فإل النبي ﷺ بهما وجعلهما خطين .

« البِرُّ » : بكسر الراء ، اسم جامع للخير وكل فعل مرضي .

« حسن الخلق » : المخلوق : يضم الخاء . وضم اللام وسكونها : المصنوع بالأخلاق الشريفة . والتأنيب تأديب الله التي شرعها لعباده من امتثال أمره ولحجب
سيئه .

« والإثم » : الذنب بمساوئ أنواعه .

« ما حاك في النفس » : تردد واضطرب في النفس اضطراباً وثقلها وفوراً ، فلم
يتشرح له الصدر ولم يطمئن إليه القلب .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١ - تفسير البِرِّ : فسر النبي ﷺ البِرَّ في حديث الترمذي بن سمعان رضي الله
عنه بحسن الخلق ، وفسره في حديث والدة عما أطمأنت إليه النفس والقلب ، وتعليل
هذا الاختلاف الوارد في تفسير البِرِّ : أنه يطلق ويراد منه أحد اعتبارين معينين^(١) :
أ - أن يراد بالبِرِّ معاملة الخلق بالإحسان إليهم ، وربما تضمن بالإحسان إلى
الوالدين ، فيقال بر الوالدين ، ويطلق كثيراً على الإحسان إلى الخلق عموماً ، ففي
حديث يمز بين حكيم عن أبيه عن جده أنه قال : « يا رسول الله من أبرُّ ؟ قال :
« أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك . قال : ثم من ؟ قال : الأكرم فالأقرب » .
وفي مسند الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ سئل عن بر الخلق فقال : « إطعام
الطعام ، وإهداء السلام » وفي رواية « وطيب الكلام » . وكان عبد الله بن عمر
يقول : البر شيء هين : وحه طلق وكلام لين .

وإذا قرن البِرُّ بالتقوى ، فقد يكون المراد بالبِرِّ : معاملة الخلق بالإحسان ،
والتقوى : معاملة الحق بفعل طاعته واجتناب محرماته . وقد يكون أريد بالبِرِّ : فعل

(١) جامع العلوم والفكر ص ٢٦٠-٢٦١ بصرف سير .

الواجبات ، والتقوى : اجتناب الحرمات ، قال الله تعالى : ﴿ وتعالوا على امر والتقوى ﴾ [المائدة : ٢] .

ب ... أن يراد بالمر فعل جميع الطاعات الطاهرة وطائفة ، قال الله تعالى : ﴿ ولكن المر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، واللائكة ، والكتاب ، والرسول ، وآتى المال على حبه ذوي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والمستأنين ، وفي الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء ، وحين الناس ، أولئك الذين صدقوا ، أولئك هم المتقون ﴾ [البقرة : ١٧٧] فالمر بهذا المعنى يدخل فيه جميع الطاعات الطاهرة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والطاعات الطاهرة : كإتقان الأموال فيما يحبه الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والوفاء بالعهد ، والصبر على الأقدار كالتقوى والخير ، وعمل الطاعات كالصبر على لقاء العدو .

٢ - معرفة الحق من الفطرة : إن قول النبي ﷺ : « المر ما أطمان إليه القلب ، وأطمأنت إليه النفس » دليل على أن الله سبحانه وتعالى فطر عباده على معرفة الحق والمسكون إليه وقوله « وركز في الطباع عبته » قال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة » قال أبو هريرة روى الحديث : فرددوا إن شتم ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ [الروم : ٣٠] وأخبر الله تعالى أن قلب المؤمن يطمئن بذكره ويسكن إليه لما أنه الشرح والفسح بمر الإيمان ، فلذا رجع إليه عند الاشياء فما سكن إليه فهو المر ، وما لا فهو الإثم . قال الله تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [الرعد : ٢٨] .

٣ - علامة الإثم : للإثم علامتان : علامة داخلية ، وهي ما يتركه في النفس من اضطراب وغلق ونفور وكراهة ، لعدم طمأنيتها إليه ، قال ﷺ : « الإثم ما حاك في النفس » . وصح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : الإثم حزل القلوب . وعلامة خارجية ، وهي كراهية اطلاع وجوه الناس وأمانتهم الذين يستحي

منهم ، بشرط أن تكون هذه الكراهية دينية ، لا الكراهية العادية .

فإذا اجتمعت العلامتان وكان الإثم مستمكراً من فاعله ومن غيره لو اطلعوا عليه ؛ كان هذا أعلى مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه .

٤- ترك الفتوى والالتزام بها : يجب على المسلم أن يترك الفتوى إذا كانت بخلاف ما حاك في نفسه وتردد في صدره ؛ لأن الفتوى غير الفتوى والورع ؛ ولأن المفتي ينظر للظاهر ، والإنسان يعلم من نفسه ما لا يعلمه المفتي ، أو أن المستمكر كان ممن شرح الله صدره ، وأتاه غيره بمجرد ظن أو ميل إلى عوى من غير دليل شرعي ، قال النووي : الخدية إذا جاءتك من شخص غالب ماله حرام وترددت النفس في حلها ، وأفتاك المفتي بحل الأكل ، فإن الفتوى لا تزيل الشبهة . وكذلك إذا أخبرته امرأة بأنه ارتضع مع فلانة ، فإن المفتي إذا أفتاه بجواز نكاحها ؛ لعدم استكمال النصاب ، لا تكون الفتوى مزالة للشبهة ، بل ينفي الورع وإن أفتاه الناس .

أما إذا كانت الفتوى مدعومة بالدلائل الشرعية ، فالواجب على المسلم أن يأخذ بالفتوى وأن يلزمها ؛ وإن لم ينتزع صدره لها ، ومثال ذلك الرخصة الشرعية ؛ مثل التطهر في السفر والمريض ، وقصر الصلاة في السفر .. وقد كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بما لا تشرح له صدور بعضهم ، فيمتنعون أو يترددون في تنفيذ أمره ، ومثال ذلك لما أمرهم بنحر هديهم والنحل من عمرة الخديعة ، وكذلك التفاوض مع غريبيش وأن يرجعوا من عامهم .. وكان هذا من زيادة إيمانهم وإصلاحهم . ولكن ما ورد النص به فليس للمؤمن إلا طاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الشبهة من أمرهم ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . وينبغي أن يلقى ذلك بالشرح الصدر والرضا والتسليم ؛ قال الله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى نحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [النساء : ٦٥] .

٥- معجزة الرسول ﷺ : في حديث وابصة معجزة كبيرة لرسول الله ﷺ

حيث أخبره بما في نفسه قبل أن يتكلم به ، فقال له : « جئت لسأل عن البر ؟ »
 ونورد أبو نعيم في الحلية عن وابصة رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ وأنا
 أريد أن لا أزع شيئاً من البر والإثم إلا سألته عنه ، فحطت أخطئي ، فقلوا : إليك
 يا وابصة عن رسول الله ﷺ ، فقلت : دعوني أدبر عنه ، فإنه من أحب الناس إلي
 أن أدبر عنه . فقال : « إذن يا وابصة . فدنوت منه حتى مست ركبتي وركبتي ،
 فقال : يا وابصة ! أخبرك عما حثت تسألني ؟ فقلت : أخبرني يا رسول الله . قال :
 حثت تسألني عن البر والإثم . قلت : نعم . قال : فجمع أصابعه فجعل يثبث بها
 في صدري ويقول : يا وابصة استغث قلبك ، استغث نفسك ، البر ما أطمان إليه
 القلب ، وأطمأنت إليه النفس . والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن
 أفتاك الناس وأفتوك . »

٦- إنزال الناس منازلهم : فقد أحال النبي ﷺ وابصة على إدراكه النفسي ،
 وعلم أنه يدرك ذلك من نفسه ، إذ لا يدرك إلا من كان متين المهتم قوي الذكاء
 نير القلب ، أما غلب الطمع الضعيف الإدراك فلا يهاب بذلك ، لأنه لا يتحصل منه
 حل شيء ، وإنما يهاب بالتفصيل عما يحتاج إليه من الأوامر وقنواهي الشرعية . وهذا
 من جميل تربيته ﷺ لأصحابه ، فقد كان يخطبهم على قدر عقولهم ، ويأمر بأن يوزل
 الناس منازلهم .

٧- أحسن الأخلاق : إن أخلاق رسول الله ﷺ هي أحسن الأخلاق
 وأشرها وأجلها ، لأنها تمثل أخلاق الشريعة ، واتحد التأديب بأداب الله التي أدب
 بها عباده في كتابه العزيز ، ولذلك مدح الله رسوله الكريم بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خَلْقٍ
 عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وقالت عائشة رضي الله عنها : « كان خلقه ﷺ القرآن »
 بتأديب بآدابه ، فيعمل بأوامره ويحجب بواحيه ، فصار العمل بالقرآن له خلقاً كالخلق
 والطبيعة لا ينفقه .

٨- ويرشد الحديث إلى التخلق بمكارم الأخلاق ؛ لأن حسن الخلق من أعظم
حصول البر .

٩- قيمة القلب في الإسلام واستغنائه قبل العمل .

١٠- أن الدين وزع ومراقب داخلي ، بخلاف القوانين الوضعية ، فإن القوانين
فيها خارجي .

١١- إن الدين يمنع من انحراف الإثم ؛ لأنه يجعل النفس رقية على كل إنسان
مع ربه ، بخلاف القانون فإنه يحكم النفس من خارجها فقط ، ويحتاج إلى المراقبة
التي قد يتمكن من التخلص منها والتحايل عليها وما إلى ذلك .

لزوم السنة واجتناب البدع

عن أبي نعيم الأصبهاني بن سارية رضي الله عنه قال : **وَعَظَّمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْجِئَةً وَجَلَّتْ بِهَا الْقُلُوبُ ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَأَنَّهَا مَوْجِئَةُ مَوْءِجٍ ، فَأَوْصِينَا . قَالَ : « أَوْصِيكُمْ بِقَوْلِي أَفْرَعَزَّ وَجَلَّ ، وَاسْتَمِعْ وَالطَّاعَةِ ، وَإِنْ أَمَرْتُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ، فَإِنَّهُ مِنْ يَمِينِي فَتَسِرُّ الْخِيَلَانُ خَبِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، غَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ ، وَإِنَّا كُنْمْ وَمُخَذَّنَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنْ كُنَّ بِدْعَةٌ ضَلَالَةٌ »** رواه أبو داود والترمذي وقال : **حديث حسن صحيح .**

الحديث رواه أبو داود في السنة (باب لزوم السنة) رقم /٤٦٠٢/ والترمذي في العلم (باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع) رقم /٢٦٧٨/ ، وهو في المسند /٤/ ١٢٦-١٢٧ ، وابن ماجه في المقدمة رقم /٤٢/ .

أهمية الحديث :

هذا الحديث اختل على وصية أوصاها الرسول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه وللمسلمين عامة من بعده ، وجمع فيها الوصية بالطوى فـ عز وجل ، والسمع والطاعة لتحكام المسلمين ، وفي هذا تحصيل سعادة الدنيا والآخرة . كما أوصى الأمة بما يكفل لها النجاة والهدى إذا اختصمت بالسنة ولزمت الجادة ، وتباعدت عن الضلالات والبدع .

لغة الحديث :

« مَوْجِئَةٌ » : من الموجة ، وهو التذكير بالمواقف ، والتوسين بها لتطهير ، أي

موعظة طيبة ، وكان ذلك بعد صلاة الصبح كما في رواية أحمد .

« وَجَلَّتْ » : يكسر الجيم عادت .

« فَرَفَّتْ » : سالت .

« موعظة مودع » : فهم الصحابة ذلك من مزيد مبالغة التي **عَفَّتْ** في تغويزهم وتغديرهم ، فإن المودع يستقصي ما لا يستقصي غيره .

« المرشدون » : جمع راشد ، وهو من حرف الحق واتبعه .

« الواحد » : جمع واحد ، وهو آخر الأضراس الذي يدل ظهوره على العقل ، والأمر بالمعنى على السنة والنواجز كناية عن شدة التمسك بها .

« محدثات الأمور » : الأمور المحدثّة في الدين ، وليس لها أصل في الشريعة ، وهي مذمومة . أما الأمور الجديدة التي لها أصل فليست بمذمومة .

« بدعة » : البدعة لغة : ما كان مخترعاً على غير مثال سابق ، وشرعاً : ما أحدث على خلاف أمر الشرع ودليله .

« ضلالة » : بعد عن الحق ، لأن الحق ما جاء به الشرع ، فما لا يرجع إليه يكون ابتداعاً وضلالاً .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١ - صلوات الموعظة القولية : والموعظة هي النصيح والتذكير بالعواقب ، وحتى تكون الموعظة مؤثرة ، تدخل إلى القلوب ، وتؤثر في النفوس ، يجب أن تتوفر فيها شروط :

أ - انتقاء الموضوع : فينبغي أن يعط الناس ، ويذكّرهم ويخوفهم بما يفهمهم في دينهم ودنياهم ، ولا يقتصر هم على مجرد تعليمهم الأحكام والحدود ، بل يتقن الموضوع بحكمة وحداثة مما يحتاج إليه الناس في واقع حياتهم ، ولا شك أن الانفصال على خطب الجمع والأعياد ، كان له تأثير كبير في إغراض كثير من المسلمين عن

حقيقة دينهم ، وروح العزة والجهاد في نفوسهم ، وخاصة عندما تصبح خطب الجمع والأعياد وظيفية تؤدي لا دعوة تعلن وتنصر ، وصفحات تنيل من خطب سرية كنت منذ قرون حلت ففسهم من غير قصد في ريادة تنويم المسلمين ، وليجاد حاحز كتيف بين منيع الإسلام ، وواقع الحياة ومشاكل العصر .

وهذا رسول الله ﷺ الأموة الحسنة لنا إن أردنا النجاح والفلاح ، كان كثيراً ما يعظ أصحابه في غير الخطب الراتية ، وكانت مواعظه المؤثرة تنفيذاً لأمر الله تعالى له : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

ب - البلاغة في الموعظة : والبلاغة في التوصل إلى إقناع العباد المقصودة وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها ، وأفضلها وأحلاها لدى الأسماح وأوقعتها في القلوب : قال الله تعالى : ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا نَبِيًّا ﴾ [النساء : ٦٣] . وفي رواية الإمام أحمد وأبي داود والترمذي « وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة » .

ج - عدم التطويل : لأن تطويل الموعظة يؤدي بالسامعين إلى الملل والضمح ، وضباب القائدة المرجوة ، وقد كان النبي ﷺ يفصر خطبه ومواعظه ولا يطيلها ، بل كان يبلغ ويبرز ، علي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : « كنت أصل مع النبي ﷺ فكانت صلاحته قصداً ، وخطبته قصداً » وفي سنن أبي داود « كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة ، إنما هي كلمات يسيرات » .

د - اختيار الفرصة المناسبة والوقت الملائم : ولذلك كان ﷺ لا يمدم وعظهم ، بل كان يتخولم بها أحياناً ، روى البخاري ومسلم عن أبي وائل قال : « كان عبد الله بن مسعود يذكرنا كل يوم خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، إنما يحب حديثك ونشيتي ، ولودعنا أنك تحدثنا كل يوم ، فقال : ما يعني أن أحدثكم كل يوم إلا كراهة أن أملككم ، إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا » .

٢- صفات الواعظ الناجح : وحتى تكون الموعظة مؤثرة توقظ النفوس
اللامية والضمائر الحية ؛ لا بد أن تصدر من واعظ ناجح تتوفر في شخصه وكلامه
وسلوكه شروط :

أ- أن يكون مؤثراً بكلامه ، متأثراً به ، متحرراً إلى إبعاده إلى نفوس سامعيه
وقناعتهم القائمة به ، ويظهر هذا في لحيته ونبرات صوته ، وفي حالته وأخبر ملامح
وجهه ؛ وهذه سنة رسول الله ﷺ ، فقد كان يغير حاله عند الموعظة ، قال جابر
ابن عبد الله رضي الله عنهما : كان النبي ﷺ إذا خطب وذكر الساعة ، اشتد غضبه ،
وعلا صوته ، واحمرت عيناه ، كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم .

ب - أن يكون ذا قلب ناصح سليم من الأدناس ، يخرج كلامه من قلبه
الصادق فيلأس شفاف القلوب . أما مريض القلب والفس ، فإن كلامه يخرج من
فيه ليدخل في إحدى أذني سامعه ويخرج من الأخرى ، ويروى أن الحسن البصري
سمع واعظاً يعظ الناس في مسجد البصرة فلم يأتُر بكلامه ، فقال له بعد انصراف
الناس : يا هذا ، إما أن في قلبك مرضاً أو في قلبي .

ج - أن يطابق قوله فعله ، لأن السامعين لموعظته ، المعجبين بصفاحته
وبلاغته ، سريون أصداء وأفعال ؛ فإن طابعت أفعاله أقواله تبعوه وقلدوه ، وإن
وجدوه مخالفاً أو مقصراً فيما يقول شهبوا به وأعرضوا عنه ، وقد قيل : من وعظ
بقوله ضاع كلامه ، ومن وعظ بفعله نفذت سهامه . ويكتفي زاجراً عما هو فيه
من ضلالة قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَثِيرٌ مِمَّا
عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف : ٢-٣) .

٣- فضل الصحابة وصلاح قلوبهم : إن الخوف الذي اعتري قلوب
الصحابة ، والدموع التي سالت من عيونهم عند سماع موعظة النبي ﷺ ، دليل
على فضل وصلاح ، وعلو وزدياد في مراقب الفلاح ومراتب الإيمان ، حتى أصبحوا
بحق نجوم هداية ورشاد ، واستحقوا المدح من رسولهم ومعلمهم ﷺ ، ومن خلائقهم

عز وجل : **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾** [المائدة : ٨٣] وقال سبحانه في مدح المؤمنين عامة : **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾** [الأنفال : ٢] .

١ - الوصية بالتقوى : التقوى هي امتثال الأوامر ، واحْتِساب النواهي ، من تكاليف الشروع ، والوصية بها اعتناء كثير من النبي ﷺ ، لأن في التمسك بها سعادة الدنيا والآخرة ، وهي وصية الله تعالى للأولين والآخرين ، قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَوَلَّوْا كِتَابَهُ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْخَالِفِينَ ﴾ [النساء : ١٣١] .

٥- الوصية بالسمع والطاعة : والسمع والطاعة لولاة الأمور من المسلمين في المعروف وأحب أوصيه الله تعالى في قرآنه ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] ولذلك أفرد النبي ﷺ الوصية بذلك مع أنه داخل في تقوى الله عز وجل ، فغطى الخواص على العام لمزيد التأكيد والاعتناء بشأته ، وفي تلك المسلمين بهذه الوصية النبوية سعادة الدنيا ، وتنظيم مصالحهم في حياتهم ومعاشهم ، وقوة توحيدهم ، وإظهار عبادتهم ، وطاعة ربه ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن الناس لا يصلحهم إلا إمام بر أو فاجر ، إن كان فاجراً عيبت المؤمن فيه ربه وحمل الفاجر فيها إلى أجله . وإن مما أضعف المسلمين وأذهب ريحهم تفككهم من السمع والطاعة لأمر الله ، وميلهم إلى الفوضى والمخالفة ، مما أدى إلى وقوع الفتن ، وكثرة الاختلافات والفرق ، وظهور الزلذلة والمعاصي والأهواء .

وقول النبي ﷺ : « وإن تأمر عليكم عبد » وفي رواية البخاري عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زينة » فهم من العلماء أحد أئمة :

أولاً - أن يكون كلامه عليه السلام إيجابياً بالغلب عن احتلال أحوال المسلمين ، واضطراب تطبيق أحكام الشرع ، حتى توضع الولايات في غير أهلها ، والأمر بالطاعة

حيث لا بد لأهول الضررين ، إذ الصبر على ولاية العبد الذي لا تجوز ولايته أهون من إثارة الفتن .

ثانياً - أن يكون الكلام من باب ضرب مثل غير الواقع على طريق التقدير والقرض ، وإلا فالعبد لا تصح ولايته ، وتظهر حديث « من بنى مسجداً ولو كتمفحص قطلة بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة » ، فإن مفحص قطلة لا يكون مسجداً .

٦- لزوم التمسك بالسنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين : والسنة هي الطريق المسلوك ، فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال . وقد قرن النبي ﷺ سنة الخلفاء الراشدين بسنته ، لعلمه أن طريقهم التي يستخرجونها من الكتاب والسنة مأمونة من الخطأ . وقد أجمع المسلمون على إطلاق لقب الخلفاء الراشدين المهديين على الخلفاء الأربعة : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، رضي الله عنهم أجمعين .

ولا شك في أن التمسك بسنة النبي الأعظم ، وسنة خلفائه الأربعة من بعده الفوز والنجاة ، وخاصة عند كثرة الاختلاف والافتراق .

٧- التحذير من البدع : وقد ورد مثل هذا التحذير في الحديث الخاص « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » . وعرفنا في شرحه أن هذا أصل عظيم في الدين ، فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو محدث مبدع ، وبدعة ضالة ، والدين يرى منه .

والبدعة معيان شرعي ولغوي : فالبدعة في الشرع : ما أحدث على خلاف أمر الشارع ودليله الخاص والعام . وعليه ورد التحذير في قول النبي الجامع « كل بدعة ضلالة .. » .

أما البدعة في اللغة : فهي ما كان غرضاً على غير مثال سابق ، وبهذا المعنى تقسم ما ورد من استحسان بعض البدع على لسان عدد من الصحابة رضي الله عنهم ،

فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد ، وخرج ورآهم يصلون كذلك ، فقال : نعمت البدعة هذه . وروي عن أبي بن كعب أنه قال له :

إن هذا لم يكن ، فقال عمر : قد علمت ، ولكنه حسن . ومراعاة أن هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت ، ولكن له أصل في الشريعة يرجع إليه .

ومن ذلك جمع المصحف في زمن أبي بكر ، وفصل ما في الركعة ، وجمع الناس على مصحف واحد ، وإرسال نسخ منه إلى عدد من الأمصار في زمن عثمان ، وغيرها من البدع التي استحسناها الصالحة ، ووجدوا لها أصولاً في السنة .

وقد روي عن الشافعي أنه قال : البدعة بدعتان : بدعة محمودة وبدعة مذمومة ، فما وافق السنة فهو محمود ، وما خالف السنة فهو مذموم . واحتج بقول عمر رضي الله عنه : نعمت البدعة هي .

وروي عنه أنه قال : المحدثات ضربان : ما أحدثت بما يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً أو إجماعاً فهذه البدعة الطلالة ، وما أحدثت فيه من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا ، وهذه محدثة غير مذمومة ، وكثير من الأمور التي أحدثت ولم يكن قد اختلف العلماء في أنها بدعة حسنة حتى ترجع إلى السنة أم لا .

٨- ويرشد الحديث إلى سنة الوصية عند الوداع بما فيه الصلحة ، وسعادة الدنيا والآخرة .

٩- النبي عينا أحدث في الدين بما ليس له أصل يستمد منه .

أبواب الخير وممالك الهدى

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أخبرني بقول يَدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُخْرِجُنِي مِنَ النَّارِ . قال : « لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ غُفِيرٍ ، وَإِنَّهُ لَيَسِّرُ عَلَى مَنْ يَسْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ : لَعَنَهُ اللَّهُ لَا يَشْرُكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلَقِيمُ الصَّلَاةِ ، وَتَوْقِي الرُّكَاةِ ، وَالصُّوْمِ وَرَمَضَانَ ، وَشُحِّ الثَّيْتِ » .

ثُمَّ قَالَ : « أَلَا أُنْذِرُكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ : الصُّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ طُفْيَةٌ الْخَطِيئَةِ كَمَا يُطْفِئُ النَّارَ الْمَاءُ ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي خَوْفِ اللَّيْلِ ، ثُمَّ لَا : ﴿ تَجْعَلُنِي جُودِيئَهُمْ عَنِ الْمُضَاجِعِ - حَتَّى يُلَاحَظَ - يَحْتَلُونَ ﴾ » .

ثُمَّ قَالَ : « أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَغَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سِتَابِهِ » ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ ، وَغَمُودُهُ الصَّلَاةُ ، وَذُرْوَةُ سِتَابِهِ الْجِهَادُ » .

ثُمَّ قَالَ : « أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَمْلَكَةٍ ذَلِكَ كَلِّهِ » . قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَخْبِدْ بِمَسَائِدِهِ وَقَالَ : « كُنْتُ عَلَيْكَ هَذَا » . قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، وَإِنَّا لَنُؤَاجِلُونَ بِنَا تَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : « نَكَيْتُكَ أَمَّا نَكَيْتُ النَّاسَ فِي نَارٍ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ : عَلَى مَنَابِرِهِمْ - إِلَّا خَصَائِدُ السَّيِّئِينَ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

الحديث رواه الترمذي في أبواب الإيمان (باب ما جاء في حرمة الصلاة) رحمه الله (٢٦٦٩/) وفي رواية عن معاذ رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر ،

فأصبحت يوماً قريباً منه ونعى نسر ، فقلت : يا رسول الله : أخبرني بعمل يدخلني الجنة .. الخ .

أهمية الحديث :

هذا الحديث تضمن الأعمال الصالحة التي تدخل الجنة وأبعد عن النار ، وهذا أمر عظيم جداً ، لأن من أجل دعوى الجنة والنار أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب . ولذلك قال النبي ﷺ لعاذ : « لقد سألت عن عظيم » وقال لرجل سأله عن مثل هذا : « نحن كنا نأرجو المسألة لقد أعظمتم وأطولت » .

لغة الحديث :

- « الصوم نجاة » : الصوم وقاية من النار .
- « الصدقة تطفيء الخطيئة » : أي تطفيء الصدقة أثر الخطيئة ، فلا يبقى لها أثر .
- « جوف الليل » : وسطه ، أو آخره .
- « تتجافى » : ترتفع وتبعد .
- « عن المضاجع » : عن القروش والمراقد .
- « ذروة سنامه » : السنام : ما ارتفع من ظهر الجمل ، والذروة : أعلى الشيء ، وذروة سنام الأمر : كناية عن أعلاه .
- « نكلك أهلك » : هذا دعاء يلقون على ظاهره ، ولا يُراد وقوعه ، بل هو تنبيه من الغفلة والتسبب للأمر .
- « يَنقُبُ » : يفتني في النار .

« حصائد ألسنتهم » : ما تكلمت به ألسنتهم من الإثم ، جمع حصيدة بمعنى محصودة ، شبه ما تنكسه الألسنة من الكلام الحرام بحصائد الزرع بجمع الكتب والجمع ، وشبهه اللسان في تكلمه بذلك بمعد التجهيل الذي يحصد به الناس الزرع .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١- شدة اعتناء معاذ بالأعمال الصالحة : إن سؤال معاذ رضي الله عنه يدل على شدة اعتناؤه بالأعمال الصالحة واعتناؤه بمعرفة ما من رسول الله ﷺ ، كما يدل على فصاحته وبلاغته ، فإنه سأل سؤالاً وجيزاً ولبقاً ، وقد مدح النبي ﷺ سؤاله وعجب من فصاحته حيث قال له : « لقد سألت عن عظيم » . فذلك لأن دخول الجنة والتباعد من النار أمر عظيم سببه امتثال كل ما أمر واجتناب كل محذور ، وهو ما سأل عنه معاذ رضي الله عنه .

٢- الأعمال سبب لدخول الجنة : وقد دل على ذلك قول معاذ « أخبرني بعمل يدخلني الجنة » . وفي كتاب الله عز وجل ﴿ وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون ﴾ [الأعراف : ٤٣] وأما قول النبي عليه الصلاة والسلام « لن يدخل الجنة أحدكم بعمله » : فمعناه أن العمل بنفسه لا يستحق به أحد الجنة ، وإنما لا بد مع العمل من القبول ، وهذا يكون بفضل ورحمة من الله تعالى على عباده . والتوفيق إلى العمل الصالح في هذه الدنيا بيد الله تعالى ، فمن يسر الله عليه الهداية اعتدى وعمل ، ومن لم يسر عليه ذلك ضل ولم يعمل ، قال الله تعالى ﴿ فأما من أعطى وثقى . وحسبني بالحسنى . فسيبسه للسرى . وأما من تجللى واستغنى . وكذبت بالحسنى . فسيبسه للعسرى ﴾ [الليل : ٥-١٠] .

٣- الإيمان بأركان الإسلام : أجاب النبي ﷺ معاذاً عن سؤاله : بأن توحيد الله عز وجل وأداء فرضي الإسلام : الصلاة والزكاة والصيام والحج ، هي العمل الصالح الذي جعله الله واجباته ورحمته سبباً لدخول الجنة ، وقد مر في شرح الحديث الثالث أن هذه الأركان الخمس هي دعائم الإسلام التي بني عليها .

٤- أبواب الخير : وفي رواية ابن ماجه : أبواب الجنة . وقد دل النبي ﷺ معاذاً على أداء التوابع بعد استيفاء أداء الفرائض ، ليفتح بمحبة الله فمن رسول الله ﷺ ، عن ربه عز وجل أنه قال : « وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي

فما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه . وأما أبواب القبول وأسبابه الموصلة إليه فهي :

أ - الصوم جنة : والمراد به هنا صيام الفقل لا صيام رمضان ، لأنه تقدم ، وهو وقاية من النار في الآخرة ؛ لأن المسلم يمتنع فيه عن الشهوات امتثالاً لأمر الله ، وهذا يعود التزام الحدود ، وبقره من التقوى التي هي فعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه ، كما أن هذا الامتناع يضعف لحكم القوى الشهوانية في الإنسان ، فلا تسيطر عليه ، ويصبح بالصوم تقياً نقياً طاهراً من الذنوب .

ب - الصدقة تطفيء الخطيئة : والمراد بالصدقة هنا غير الزكاة ؛ لتقدم ذكرها ، والخطيئة التي تطفيئها وتحوثرها إنما هي الصدقة المتعلقة بحق الله تعالى ؛ لأن الكبار لا يحرمها إلا التوبة ، والخطايا المتعلقة بحق آدمي لا يحرمها إلا رضا صاحبه . وحصلت الصدقة بهذا المعنى نفعها ؛ وقد روى الترمذي وابن حبان في صحيحه عن أنس رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن الصدقة تطفيء غضب الرب وتطفئ ميتة السوء » . وإطفاء الخطايا يعظم الأمل ، ويستقر القلب ، وتصفو الأعمال ، فتكون الصدقة بذلك باباً عظيماً لغزرها من الأعمال الصالحة .

ج - صلاة الليل : وهي صلاة التطوع في الليل بعد النوم ، ولا مفهوم للذكر الرجل في الحديث ؛ لأن المقصود به جنس المكلف ، وقد تضاعفت الآيات والأحاديث في بيان الفضل العظيم لصلاة الليل ، ولذلك استشهد النبي ﷺ بالآية ﴿ تَجَاءلِ خُتُونَهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ .. ﴾ [السجدة : ١٦] وفيها فضل صلاة الليل والإنفاق تأكيداً لقوله الكريم واستدلالاً عليه بقول الرب الرحيم . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّافِقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَغُرُوفٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات ١٥-١٨] . وروى مسلم في صحيحه ، عن رسول الله ﷺ قال : « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل » . وفي سنن الترمذي من حديث بلال رضي الله عنه ،

عن النبي ﷺ قال : « عليكم بليام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وإن قيام الليل قربة إلى الله عز وجل ، ومنهارة عن الإثم ، وتكثير السيئات ، ومطرقة للنساء عن الجسد » . وأفضل أوقات التهجّد بالليل هو جوف الليل ، لقول النبي ﷺ : « وصلاة الرجل في جوف الليل » . والمراد بجوفه عند الإطلاق وسطه .

هـ - رأس الدين الإسلامي وعموده وذروره ستامة : وكأنّي بالرسول المعلم ﷺ رأى في عيني صاحبه معاذ حبّ الأسرادة من علم النبوة ، فزاده معرفة واضحة على طريقة التشبيه والتخيل ، ولم يسمعه هذه المعارف إلا بعد صيغة السؤال : ألا أنبئك ؟ وهي طريقة تربوية ناجحة تزيد من اشتياق المتعلم ، وتجهّزه سائلاً متلهفاً لمعرفة الجواب ، لا مجرد سامع ومطلي . كما هذه المعارف النبوية فهي :

أ - رأس الأمر الإسلام : وقد ورد تفسير هذا في حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد ، عن النبي ﷺ قال : « إن رأس هذا الأمر أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله » أي أن رأس هذا الدين الشهادتان ، فمن لم يتر بها باطلاً وظاهراً فليس من الإسلام في شيء . وقيل : إن رأس الدين الذي يث به ﷺ هو الإسلام بأركانه الخمسة جميعاً .

ب - وعموده الصلاة : أي إن الصلاة عماد الدين ، وقوامه الذي يقوم به ، كما يقوم القسطنطين على عموده . وكذا أن العمود يرفع البيت ويجهه للارتفاع ، فكذلك الصلاة ترفع الدين وتظهره ، وهيء فاعلمها بمعالى القرب من الله ، والاستغراق في صلة الصمد الضعيف بمخالقة العزيز الخليع الرحيم .

ج - وذروره ستامة الجهاد : أي أعلى ما في الإسلام وأرفعه الجهاد ، لأن به إعلاء كلمة الله ، فيظهر الإسلام ويعلم على سائر الأديان ، وليس ذلك لغیره من العبادات ، فهو أملاها بهذا الاعتبار . وقد وردت أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ تدل على أن الجهاد هو أفضل الأعمال بعد الفرائض ، منها ما رواه البخاري ومسلم

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : « قلت يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله ، ثم جهاد في سبيل الله . »

وروجه إشار الإبل بالذكر - في تشبيه مكافحة الجهاد بذروة السنام - أنها خيل المؤمنين ، ومن ثم كانوا يشبهون بها رؤسائهم .

٦ - ملاك الأمر كله حفظ اللسان : وخبر النبي ﷺ تعليمه لعائذ ، فين له ما يملك تلك الأعمال السابقة ويضبطها ، ويحميها على غاية من الكمال ، وهو كلف اللسان وحسنه عن الشر . وقد بينا أهمية حفظ اللسان وضبطه في شرح حديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » . وقد روى البيهقي في مسنده عن أبي اليسر : « أن رجلاً قال : يا رسول الله قلني على عمل يدخلني الجنة ، قال : أمسك هذا . وأشار إلى لسانه ، فأعلمها عليه ، فقال : تكنتك أملك ، هل يكب الناس على ما حرمهم في النار إلا حصاد ألسنتهم » . قال ابن رجب الحنبلي : والمراد بحصاد الألسنة حواء الكلام المحرم وحقوقها ، فإن الإنسان يزرع بقوله وعمده الحسنات والسيئات ، ثم يحصد يوم القيامة ما زرع ، فمن زرع خيراً من قول وعمل حصد الكرامة ، ومن زرع شراً من قول أو عمل حصد غداً الندمة . وظاهر حديث معاذ رضي الله عنه يدل على أن أكثر ما يدخل الناس به النار الطلق بألسنتهم ، فإن معصية الطلق يدخل فيها الشرك ، وهي أعظم الذنوب عند الله عز وجل ، ويدخل فيها القول على الله بغير علم ، وهو قرين الشرك ، ويدخل فيها شهادة الزور التي عدلت الإشراف بالله عز وجل ، ويدخل فيها السحر والقذف ، وغير ذلك من الكبائر والصغائر ، كالكذب والغيبة والهمة ...

روى الإمام أحمد والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « أكثر ما يدخل النار الأجوفان : الفم والفرج » . وروى مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه : أن عمر دخل على أبي بكر رضي الله عنهما وهو يحمد لسانه ، فقال عمر : ما غفر الله لك ، فقال أبو بكر : هذا الذي أوردني الموت . وقال من بعده :

وأبى ابن عباس رضي الله عنهما أخذ بلسانه وهو يقول : ويحك قل عيراً تغتم ، أو اسكت عن سوء تسلّم ، وإلا فاعلم أنك ستندم . قال : فقيل له : يا أبا عباس لم تقول هذا ؟ قال : إنه بلغني أنّ الإنسان — لراه قال — ليس على شيء من جسده أشدّ حسناً أو غيظاً يوم القيامة منه على لسانه ، إلا من قال به عيراً أو أسلم به عيراً . وكان ابن مسعود رضي الله عنه يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما على الأرض شيء أخرج إلى طول سجن من لسان . وقال الحسي البصري : اللسان أمير البدن ، فإذا جنى على الأعضاء شيئاً جهنم ، وإذا عفّ عطف .

٧- أفضل أعمال البر بعد الفرائض : ذهب مالك وأبو حنيفة إلى أن أفضل أعمال البر بعد الفرائض العلم ثم الجهاد . وذهب الشافعي إلى أن أفضل الأعمال الصلاة فرضاً وعلاً . وقال الإمام أحمد : الجهاد في سبيل الله .

وقد ورد أنه ﷺ سئل أي الأعمال أفضل ؟ فقال ثارة : الصلاة لأول وهبها ، وثارة : الجهاد ، وثارة : بر الوالدين ، وتحوّل ذلك على اختلاف أحوال السائلين ، أو اختلاف الأزمان .

٨- وفي الحديث الشريف استرشد الصحابة بالنبي ﷺ وعظّمته لهم ، كما يرشد إلى أن أداء الفرائض الخمس أول ما يعمل به العبد وأنها سبب لدخول الجنة واليعد عن النار .

٩- فضل الجهاد في حفظ الإسلام ، وإعلاء كلمة الله .

١٠- خطر اللسان ، والتواخذه على عبئه ، وأنه يورث النار بمحادثه .

حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى وَحُرْمَاتِهِ

عن أبي ثعلبة الخشني جُرُومُ بْنُ نَاشِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَرَضَ فَرَائِضَ قَلَّا تُضَيِّعُوهَا ، وَحُدُ حُلُودًا قَلَّا تُغْتَلُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ قَلَّا تُنْتَهَكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ - رَحْمَةً لَكُمْ فَتَرَبَّسُوا - فَلَا تَبْخُلُوا عَنْهَا » حديث حسن رواه الدارقطني وغيره .

الحديث رواه الدارقطني ص ١٠٢ ، ورواه أبو نعيم في الحلية ١٧/٩ عن أبي الدرداء . وهو عند الدارقطني من رواية مكحول عن أبي ثعلبة الخشني ، وفي مسنده انقطاع بين مكحول وأبي ثعلبة ، لأن مكحولاً لم يسمع من أبي ثعلبة ، ولذهب ابن معين إلى أنه سمع ، ومع ذلك فللهديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن . ولذلك اعتمد النووي رحمه الله تعالى في كتاب « الأذكار » تحصيله ، وسيفه إلى ذلك السمعاني في أماليه ، ووافقه عليه الحافظ العراقي ، والحافظ ابن حجر ، بل صححه ابن الصلاح . الفتوحات الربانية ٣٩٥/٧ .

أهمية الحديث :

هذا الحديث من جوامع الكلم التي انعم الله تعالى بها نبياً ﷺ ، فهو وحيز بليغ ، بل قال بعضهم : ليس في الأحاديث حديث واحد أجمع بالفراغ لأصول الدين ومروعه منه ، ذلك لأن النبي ﷺ قَسَمَ أحكامَ الله إلى أربعة أقسام : فرائض ، ومحارم ، وحدود ، ومسكوت عنه . قال ابن السمعاني : من عمل به فقد حاز الثواب وأمن العقاب ، لأن من أدى الفرائض ، واجتنب المحارم ، ووقف عند الحدود ، وترك البحث عما سكت عنه ، فقد استوى أقسام الفضل ، وأوفى حقوق الدين ، لأن الشريعة

لا تخرج عن هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث .

لغة الحديث :

« فرض الفرائض » : أوجبها وحتم العمل بها .

« فلا تطعموها » : فلا تتركوها أو تتناولوا فيها حتى تخرج وقتها ، بل قوموا بها كما فرضها الله عليكم .

« وحد حلوتاً » : الحدود جمع حد ، وهو لغة : الحاجز بين الشيئين ، وشرعاً : خطوة مقطرة من الشارع ترجرر عن المعصية .

« فلا تحتلوها » لا تتركبوا فيها عما أمر به الشرع ، أو لا تتجاوزوها وقللوا عندها .

« فلا تشكروها » : لا تقموا فيها ولا تقرّبوها .

« سكنت عن أشياء » : أي لم يحكم فيها بوجوب أو حرمة ، فهي شرعاً على الإباحة الأصلية .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١- وجوب المحافظة على الفرائض والواجبات : والفرائض هي ما فرضه الله على عباده ، وألزمهم بالقيام بها ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وذهب الشافعية أن كل ما وجب بدليل شرعي من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو غيرها من أدلة الشرع فهو فرض ، فالفرض والواجب عندهم مترادفان إلا في الحج : فإن الفرض فيه ، كطواف الإفاضة مثلاً ، ما لا ينجز بالدم ، والواجب ، كطواف التوداع مثلاً ، ما ينجز به . أما الحنفية ففرقوا بينهما : بأن الفرض ما ثبت بدليل قطعي ، كالصلاة والزكاة ، والواجب ما ثبت بدليل ظني ، كالثابت بالقياس وحبر الواحد ، كصدقة الفطر .

وتنقسم الفرائض إلى قسمين : فرائض أعيان ، تلزم على كل مكلف بعينه ؛

كالمصلاوات الخمس والركعة والصوم . ومراضى كفاية إذا قام بها بعض المسلمين سقط الإثم عن الجميع ، وإذا لم يقم بها أحد ، أثم الجميع ، كصلاة الجنازة ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٢- الوقوف عند حدود الله تعالى : وهي العقوبات المفصلة الرابعة عن المحرم ، كحد الزنا ، وحد السرقة ، وحد شرب الخمر . قال رسول الله ﷺ لأسماء ابن زيد حين كلمه في المرأة المخزومية التي سرقت : « أتشفع في حد من حدود الله » يعني في القطع في السرقة ، فهذه الحدود عقوبات مقدرة من الله الخالق سبحانه وتعالى ، يجب الوقوف عندها بلا زيادة ولا نقص . وأما الزيادة في حد الخمر من جلد أربعين إلى ثمانين مخطوطة ، وإن اقتصر رسول الله ﷺ وأبو بكر على جلد أربعين ، لأن الناس لما أكثروا من الشرب زمن عمر رضي الله عنه ما لم يكثروا قلبه ، استحقوا أن يزيد في جلدهم تنكيلاً ورجزاً ، فكانت الزيادة اجتنباً منه معنى صحيح مسوخ لها ، ومن لم قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « إن كلاً من الزيادة وعدمها سنة » ، لأنه ﷺ أمر بالاعتدال بعمر خصوصاً بقوله : « اعتدوا بالبلدين من بعدي أبي بكر وعمر » وعموماً بقوله : « عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين المهديين » . وقد أجمع الصحابة على هذه الزيادة ، والشرحت سننهم لها عندما قال علي لعمر : يا أمير المؤمنين : من شرب الخمر فقد هدى ، ومن هدى فقد قذف ، وعقوبة القذف في كتاب الله ثمانين جلدة .. قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُصَلَّاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٤] .

٣- المنع من قربان المحرمات وإرتكابها : وهي المحرمات المقطوع بحرمتها ، المذكورة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وقد حماها الله تعالى ومنع من قربانها وإرتكابها وانهاكها كشهادة الزور . وأكل مال اليتيم . والزنا . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعام : ١٥١] وقال

ﷺ : « كل مسكر حرام » وقال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام .. »

ومن يدقق النظر في هذه الحرمات ، ويبحث عن علة التحريم بعقل بئر وعين صافية فإنه يجدها محدودة ومعدودة ، وكلها حييات ، وكل ما عليها فهو مانع على الحل ، وهو من الطيبات ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٧] .

٤- **رحمة الله تعالى بعباده** : مخرج النبي عليه الصلاة والسلام أن سكوت الله عن ذكر حكم أشياء ، ظم بعض على وجوبها ولا حلها ولا تحريمها ، إنما كان رحمة بعباده ورفقاً بهم ، فجعلها عفواً ، إن فعلوها فلا حرج عليهم ، وإن تركوها فلا حرج عليهم أيضاً . ولم يكن هذا السكوت منه سبحانه وتعالى عن خطأ أو نسيان ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَبِيحاً ﴾ [مريم : ٦٤] وقال عز وجل : ﴿ فِي كِتَابٍ لَا تَغْضِبُ رَبِّي وَلَا أَنْسَى ﴾ [طه : ٥٢] .

٥- **النهي عن كثرة البحث والسؤال** : ويحتمل أن يكون النهي الواردة في الحديث عن كثرة البحث والسؤال خاصاً بمن النبي ﷺ ، لأن كثرة البحث والسؤال عما لم يذكر قد يكون سبباً لنزول التشديد فيه بإيجاب أو تحريم ، قال تعالى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُكَلِّمُكُمْ لِتُشْكِرُوا ﴾ [المائدة : ١٠١] . ويحتمل بقاء الحديث حتى عمومته ، ويكون النهي فيه لما فيه من التعمق في الدين ، قال ﷺ : « ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » وقال ﷺ : « هلك المتنطعون » والمتنطع : الباحث عما لا يعنيه ، أو الذي يدقق نظره في الفروغ البعيدة ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « إياكم والتنطع ، إياكم والتعمق ، وعليكم بالحق » يعني ما كان عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

التعمق : التشديد في الأمر حتى يتجاوز الحد فيه .

ولقد كشف الصحابة رضوان الله عليهم عن إكثار الأسئلة عليه ﷺ حتى كان بعضهم أن يأتي الأعراب يسألونه فيحييهم ، فيسمعون ويعون .

ومن البحث عما لا يعني البحث عن أمور الغيب التي أمرنا بالإيمان بها ولم تبين كيفيةها ؛ لأنه قد يوجب الحيرة والشك ، وربما يصل إلى التكذيب ، فقال ابن إسحاق : « لا يجوز التفكر في الخلق ولا في المخلوق بما لم يسمعه فيه ؛ كأن يقال في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْمِعُ بَعْدَهُ ﴾ [الإسراء : ٢٤] كيف يسمع الخلق ؟ لأنه تعالى أخبر به ، فيجعله كيف شاء كما شاء » .

ولقد روى البخاري عن رسول الله ﷺ قوله : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله وليته » .

وأخرج مسلم : « لا يزال الناس يسألون حتى يقال هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله » .

٦- ويغيب الحديث الأمر بتأجيل الفرائض والتمتع بالمتنوع ، واجتناب المناهي ، وعدم الاستقصاء عما عدا ذلك رحمة بالناس .

حقيقة الزهد وثمراته

عن أبي الثَّامِرِ سَهْلٍ بنِ سَعْدٍ السَّاجِدِيِّ رضي الله عنه قال : جاء رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقال : يا رسولَ الله ، قُلْني على غَسَلٍ إِذَا غُيِّقْتُ أَخْبَنِي اللهُ وَأَخْبَنِي النَّاسُ . فقال : « لَزُخْدٍ في الدُّنْيا يُجِبُّكَ اللهُ ، وَلَزُخْدٍ لِيَما بَينَ النَّاسِ يُجِبُّكَ النَّاسُ » حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة .

الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد (باب الزهد في الدنيا) رقم / ٤٦٠٦ /
ولما من رواه غير ابن ماجه فقد ذكر ابن علان منهم : الطبراني في معجمه الكبير ،
وابن حبان في « روضة العقلاء » له ، والحاكم في المرفئ من مستدركه ٤ / ٣١٣ ،
وأبو نعيم في « الحلية » ١٣٦ / ٧ ، والبيهقي في « شعب الإيمان » فالحديث حسن بشواهد .

أهمية الحديث :

اشتمل هذا الحديث على وصيتين عظيمتين من وصايا النبي ﷺ :
الأولى : الزهد في الدنيا وأنه سبب في نيل محبة الله تعالى لعبده .
والثانية : في الزهد فيما في أيدي الناس ، وأنه سبب في الحصول على محبة الناس وتقديرهم .

ومن التؤكد في الإسلام أن الإنسان لا يكون من السعداء القادرين في الدارين إلا بعد التحقق من محبة الله له بعد أن أثر ما عده من الآخرة الباقية على الدنيا القانية ، ومحبة الناس له بعد أن ترفعت نفسه عما في أيديهم من حطام ، وتطلع بحرة وإباء إلى تحصيل الباقيات الصالحات ، لأنها في الآخرة خير وأبقى . ولذلك يقول من حجر

المختص من هذا الحديث : « وهو أحد الأحاديث الأربعة التي عليها مدار الإسلام » .

لغة الحديث :

« أحبني الله وأحبني الناس » أحبني الله : بزيادة الثواب والإحسان . وأحبني الناس : مالوا إلي ميلاً طبعياً ، لأن محبتهم تابعة لمحبة الله ، فإذا أحبه الله أتى محبه في قلوب خلقه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ صُلُوبُهُمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمُ الرَّحْمَنَ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] .

« ازهد » : من الزهد ، وهو لغة : الإعراض عن الشيء احتقاراً له ، من قولهم : شيء زهيد أي قليل . وشرعاً : أخذ قدر الضرورة من خلال الشيفن الحل .

« في الدنيا » : باستصغار شأنها واحتقارها ، لتصغير الله لها وتقديرها ، وتغذيره من الاغترار بها ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَفْرَحُوا بِالدُّنْيَا ﴾ [لقمان : ٢٣] وقال سبحانه : ﴿ احْشَرُوا أَنَّمَا أُخِيتُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الحديد : ٢٠] .

« يحبك الله » : يفتح الباب للشدة ، وأصله يحبك بالجزم في جواب الأمر ، فلما أريد الإدغام نقلت كسرة الباء الأولى إلى الحاء وضحت الثانية تخلصاً من الساكنين والتقيفاً . ومحبة الله للعبد لرضاه عنه وإحسانه إليه ، لأن المحبة ميل طبيعي ، وهو في حق الله محال ، فالمراد غايته .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١ معنى الزهد : تنوعت عبارات السلف والعلماء الذين حازوا عليهم في تفسير الزهد في الدنيا ، وكلها ترجع إلى ما رواه الإمام أحمد عن أبي إدريس الخولاني رضي الله عنه أنه قال : « ليس الزهادة في الدنيا بتحرير الحلال ولا إسباحة الحلال ، إنما الزهادة في قلب أن تكون بما في يد الله نواصي منك عما في يدك . وإذا أصبحت مصيبة كنت أشد رجاء لأحمرها ودمعها من إهدأ نواصيت لك » .

وفي هذا القول تفسير الزهد ثلاثة أمور كلها من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح ، ولذلك كان أبو سليمان الداراني يقول : لا تشهد لأحد بالزهد ، فإن الزهد في القلب . وهذه الأمور الثلاثة هي :

١- أن يكون العبد بما في يده لله نواتي مه بما في يده نفسه . وهذا ينشأ من صحة اليقين ، والوثوق بما ضمنه الله تعالى من ثواب عبادته ، قال الله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [هود : ٦] وقال سبحانه : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ [الماريات : ٢٢] .

٢- أن يكون العبد إذا أصيب بمصيبة في دنياه ، كذهاب مال أو ولد ، أرحب في ثواب ذلك مما ذهب منه من الدنيا أن يلقى له . وينشأ هذا أيضاً من كمال اليقين ، ويدل على الزهد في الدنيا وقلة الرغبة فيها .

روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول في دعائه : اللهم قسم لنا من حيثك ما تحول بيننا وبين مصائبك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون علينا مصائب الدنيا .

٣- أن يستوي عند العبد حامده وداهيه في الحق . وهذا من علامات الزهد في الدنيا واحترافها وقلة الرغبة فيها ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله .

ومن الأمارات التي وردت في تفسير الزهد قول الحسن البصري : الزاهد الذي إذا رأى أحداً قال هو أفضل مني .

وقول وهب بن الورد رحمه الله : الزهد في الدنيا أن لا تأمن على ما فات منها ، ولا تغرح بما أتاك منها .

وقول الزهري عندما سئل عن الزهد فقال : من لم يعلب الحرام صبره ولم يشغل الحلال شكره .

وقول سليمان بن عيينة : الزهد في الدنيا إذا أضعف عليه شكر ، وإذا أهمل صبر .
 وقول ربيعة : رأس الزهادة جمع الأشياء بحقها ووضعها في حقها .
 وقول سفيان الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا بلبس
 العباء .

وقول الإمام أحمد : الزهد في الدنيا قصر الأمل واليأس بما في أيدي الناس .

٢- أقسام الزهد : قسم بعض السلف الزهد إلى ثلاثة أقسام :

١- الزهد في الشرك وفي عبادة ما عدا من دون الله .

٢- زهد في الحرام كله من المعاصي .

٣- زهد في الحلال .

والتقسيم الأول والثاني من هذا الزهد كلاهما واجب ، والتقسيم الثالث ليس
 بواجب .

وقال ابن المبارك : قال سهل بن أبي مطيع : الزهد على ثلاثة وجوه :

أحدها : أن يخلص العبد لله عز وجل والقول ، ولا يراود بشيء منه الدنيا .

والثاني : ترك ما لا يصلح والعمل بما يصلح .

والثالث : الحلال أن يزهد فيه ، وهو التطوع ، وهو أدناها .

وقال إبراهيم بن أدهم : الزهد ثلاثة أصناف : زهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد
 سلامة :

فأما الزهد الفرض : فالزهد في الحرام ، والزهد الفضل : الزهد في الحلال ،
 والزهد السلامة : الزهد في الشهوات .

وروي عن الإمام أحمد أن الزهد ثلاثة وجوه :

الأول : ترك الحرام ، وهو زهد العوام .

والثاني : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص .

والثالث : ترك ما يشغل عن الله ، وهو زهد العارفين .

٣- الخامل على الزهد : والذي يحمل الإنسان على الزهد أمور منها :

١- استحضار الآخرة ، ووقوفه بين يدي محاسبه في يوم الحساب والجزاء ، فحينئذ يعلب شيطانه وهواه ، ويصرف نفسه عن لذات الدنيا ومتعتها الفانية ، ودليل هذا أن حارثة رضي الله عنه لما قال لنبينا ﷺ : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال له : « إن لكل مؤمن حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : صرفت نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي حجرها ومدبرها ، وكأنني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأنني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يندعمون ، وإلى أهل النار في النار يعذبون . قال : يا حارثة ، عرفت فالزم .

٢- استحضار أن الذات الدنيا شائخة لملوك من الله تعالى ، ومنقصة للمرجات عنده ، وموجبة لطول الحبس والوقوف في ذلك اليوم العصيب ، ليسأل عن شكر نعمها ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُ يَوْمَئِذٍ عَنْهُمْ ﴾ [التكوير : ٨] .

٣- كثرة التعب والكدل في تحصيل الدنيا ، وكثرة غيبتها ، وسرعة تقلبها وفنائها ، ومزاحمة الأرائل في طلبها ، وحقدارها عند الله تعالى ، قال ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » (١) .

٤- استحضار أن الدنيا ملعونة ، كما في الحديث الحسن الذي رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى وما والاه ، أو عالم أو متعلم » وفي رواية : « إلا ما اتقى به وجه الله تعالى » . أي أنها وما فيها بعيد عن الله تعالى إلا العلم النافع الدال على معرفته وطلب قربه ، وذكر الله وما والاه مما يقرب إليه تعالى .

٥- تخليص شأن الدنيا والتخليص من غرورها : والزاهد في الدنيا يريد مولفه

(١) رواه أحمد بن حنبل في مسنده استأذني رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح . انظر الصحيح الصغير للسيوطي ١/١٢١ .

صلابة وقوة عندما ينظر آيات ربه عز وجل ، ويقرأ أحاديث نبيه ﷺ ، فيجد فيها تحف شأن الدنيا والتحذير من ضرورها وبعيدتها ، قال الله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴾ [الأهل : ١٦-١٧] . وقال سبحانه : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا خَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النساء : ٧٧] وقال عز وجل : ﴿ فَلَا تَعْرِكْكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرِكْكُمْ بَالُ الْآخِرَةِ ﴾ [لقمان : ٢٢] وقال : ﴿ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الزمرد : ٢٦] .

وروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : « أن النبي ﷺ مر بالسوق والناس كفيه ، فمر بجدي أسك ميت ، فتأوله ، فأخذ بأذنه ، فقال : أيكم يحب هذا له يفرهم ، فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : أنهبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً لما رغبنا فيه لأنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : والله للدنيا أعون على الله من هذا حليكم » . وروى مسلم أيضاً عن المستورد القهري ، عن النبي ﷺ قال : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في التيم غليظ يما يرجع » . [أسك : منقطع الأذنين من أصلهما] .

« الذم الوارد للدنيا ليس للزمان ولا للمكان : وهذا الذم الوارد في القرآن الكريم والسنة النبوية للدنيا ، لا يرجع إلى زمانها الذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة ، فإن الله جعلهما حلقة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً .

ولا يرجع الذم للدنيا إلى مكانها الذي هو الأرض فتي جعلها الله مهلاً ومسكناً ، ولا إلى ما أنته فيها من الزرع والشجر ولا إلى ما بث فيها من الطفوفات ، فإن ذلك كله من نعم الله على عباده ، ولم يفي هذه النعم الشائع والقوائد ، والاستدلال بها على قدرة الله عز وجل ووجوده .

بل الذم الوارد يرجع إلى أعمال الناس الواقعة في هذه الحياة الدنيا ، لأن غالبها يخالف لما جاء به الرسل ، ومضّر لا تنفع عاقبته ، قال الله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْبٍ

أعجب الكفار نياته ، ثم يبيح فراقه مُصَفَّرًا ﴿ [الحديد : ٢٠] .

قال ابن رجب الحلي رحمه الله تعالى : والقسم بنو آدم في الدنيا إلى قسمين : أحدهما : من أكر أن يكون لنعاد دار بعد الدنيا للثواب والعقاب ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَحِمُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَا وَلَعَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : ٧] . وهؤلاء همهم التمتع في الدنيا واقتسام لذاتها قبل الموت ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَعْرِفُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَاللَّهُ مُشَوِّعٌ لَهُمْ ﴾ [محمد : ١٦] . ومن هؤلاء من كان يأمر بالزهد في الدنيا ، لأنه يرى أن الاستكثار منها موجب لهم والغم ، ويقول : كلما كثر التعلق بها تأملت النفس بفراقها عند الموت ، فكان هذا غاية زهدهم في الدنيا .

والقسم الثاني : من يقر بدار بعد الموت للثواب والعقاب ، وهم المستبشرون إلى شرائع المرسلين . وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات بإذن الله .

فالأول : وهم الأكثرون ، الذين وقفوا مع زهرة الدنيا بأغلبها من غير وجهها واستعمالها في غير وجهها ، فصارت أكبر همهم ، وهؤلاء هم أهل الشهو واللعب والريبة والتفاخر والتكاثر ، وكل هؤلاء لم يعرف المقصود منها ، ولا أنها منزل سفر تزود منها إلى دار الإقامة ، وإن آمن ، ، جهلاً .

والثاني : أحدها من وجهها ، لكنه توسع في مباحاتها ، وتلذذ بشهواتها المباحة ، وهو وإن لم يعاقب عليها ، لكنه ينقص من درجاته في الآخرة بقدر توسعه في الدنيا ، وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « لا يصيب أحد من الدنيا شيئاً إلا ينقص من درجاته في الآخرة عند الله وإن كان عليه كريماً » وروى الترمذي عن قتادة بن العيمان ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله إذا أحب عبداً حمده من الدنيا كما ينقل أحدكم بحمي من الماء » ورواه الحاكم بلفظ « إن الله يحب من حمده من الدنيا وهو يحبه كما تحبون مريضكم الطعام والشراب تحافون عليه » .

وروى مسلم عن عبد الله بن عمر ، عن النبي ﷺ قال : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » .

والثالث : هم الذين فهموا المراد من الدنيا ، وأن الله سبحانه إنما أسكن عباده فيها وأظهر لهم لذاتها واضربها ، ليلوهم أيهم أحسن عملاً في غير آية ، قال بعض السلف : يعني من هو زاهد في الدنيا ورغب في الآخرة ، ولما بين تعالى أنه جعل ما على الأرض زينة لها ليلوهم أيهم أحسن عملاً ، بين انقطاع ذلك ونفاذه بقوله : ﴿ إِنَّا لَنَاطِقُونَ مَا عَلَيْهَا صُوبَةٌ خُزٌّ ﴾ [الكهف : ٨] فمن فهم أن هذا هو مآلها جعل منه التزود منها لدار القرار ، واكتفى من الدنيا بما يكفي به للسفر في سفره ، كما كان ﷺ يقول : « ما لي والدنيا ، إنما مثل ومثل الدنيا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها » . ثم من أفل هذا القسم من القصر من الدنيا على سد رمقه فقط ، وهو حال كثير من الزهاد ، ومنهم من فسح لنفسه أحياناً في تناول بعض مباحاتها ، لتقوى النفس به وتلشظ للعمل ، فقد روى أحمد والنسائي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حُب إلي من دنياكم النساء والطيب » وروى أحمد عن عائشة : كان ﷺ يحب من الدنيا النساء والطيب والطعام ، فأصاب من النساء والطيب ، ولم يُصب من الطعام . وتناول الشهوات لمباحة بقصد التقوى على الطاعة بصورها طاعات فلا تكون من الدنيا . وروى الحاكم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته حتى يرضى ربه ، ونعمت الدار لمن صبرت به عن آخرته ونصرت به عن رضا ربه » .

٦- كيف نكتسب محبة الله تعالى : نستطيع أن نكتسب محبة الله تعالى بالزهد في الدنيا ، لأنه سبحانه وتعالى يحب من أطاعه ، وعينه مع عبدة الدنيا بما لا يجمع كما دلت عليه النصوص والشجرة وقبور ، ولذلك قال ﷺ : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » والله لا يحب الخطايا ولا أهلها ، ولأنها هو والعيب ، والله لا يحبها ، ولأن القصد بيت الرب لا شريك له فلا يحب أن يشركه في عبادة دينا ولا غيره ، ومحبتها للمسوغة هي إظهارها قبل الشهوات والذات وكل ما يشغل عن الله تعالى .

أما محبها لفعل الخير والتقرب به إلى الله فهو محمود ، الحديث « نعم المال الصالح للرجل الصالح يصل به رجلاً ، ويصنع به معروفاً » رواه الإمام أحمد .

٧- كيف نكتسب محبة الناس : وبطلنا الحديث كيف تنال محبة الناس ، وذلك بالزهد فيما في أيديهم ، لأنهم إذا تركنا لهم ما أحبوه أحبوا ، وقلوب أكثرهم بهولة مطبوعة على حب الدنيا ، ومن تازع إنساناً في محبته كرهه وقلقه ، ومن لم يعارضه فيه أحبه واصطفاه . قال الحسن البصري : لا يزال الرجل كرهياً على الناس ما لم يعطهم فيما في أيديهم ، فحيث يستخفون به ويكرهون حديثه ويعصونه . وقال أنس بن مالك لأهل البصرة : من سيدكم ؟ قالوا : الحسن . قال : ثم سيدكم ؟ قالوا : أحتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دينهم . فقال : ما أحسن هذا .

وأحق الناس بالكتساب هذه الخطة الحكام والعلماء ، لأن الحكام إذا رعدوا أحبهم الناس واتبعوا نهجهم ورعدهم ، وإذا رعد العلماء أحبهم الناس واحترموا أقوالهم وأطاعوا ما يعظون به وما يرشدون إليه ، سأل ابن سلام كعباً بمحبرة عمر رضي الله عنهم : ما يشعب العلم من قلوب العلماء بعد أن علموه وحفظوه ؟ قال : يدهبه الطمع وشربه الخس وتطلب المحامات إلى الناس . قال : صدقت .

٨- زهد رسول الله ﷺ وزهد أصحابه الكرام : وإذا كنا نبحث عن القلوة في حياة الرافدين ، فلإننا نجد ذلك متمثلاً في حياة رسول الله ﷺ عبداً وسلوكاً ، بعد أن وجدناه لصالحاً لأمنه وأقوالاً ، وقد كانت أقواله وأفعاله ﷺ في تفصيل نعم الآخرة ثمرة لربية إنية رياء الله عز وجل بما ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْنَدْ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَلَغَتْهُ أَرْوَاحُ مِنْهُمْ زهرة الحياة الدنيا لفتنتهم فيه ووراثتُك خيرٌ وأبقى ﴾ [طه : ٦٣٦] فعاش النبي ﷺ قبل الهجرة وبعدنها ، وفي أيام الشدة والرخاء زاهداً في منافع الدنيا ، طالباً للآخرة ، جاداً في العيلة . وقد تأسي به أصحابه الكرام ، فكانوا سادة الرعاة وأسوة للراغبين ، سمع ابن عمر رجلاً يقول : أين الراغبون في الدنيا المراعون في الآخرة ؟ فأراه غير النبي ﷺ وأبي بكر وعمر . فقال : عن هؤلاء

تسأل . وقال ابن مسعود رضي الله عنه لأصحابه : أتم أكثر صلاة وصوماً وجهاداً من أصحاب محمد ﷺ ، وهم كانوا أكثر حياءً منكم . قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : كانوا أرعد منكم في الدنيا وأرغبكم في الآخرة . لقد حاربهم الدنيا بالأموال الحلال فأمسكوها تقريباً لله تعالى وألقوها في خدمة دينه وإعلاء كلمته . قال أبو سليمان : كان عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما عزيمين من حزين الله في أرضه ، ينفقان في طاعته ، وكانت معاملتهما لله بقلوبهما وعقولهما

٩- الزهد الأعجمي : إن الزهد بمعناه الإسلامي هو ما يساه في التقويات السابقة ، أما الزهد الأعجمي فهو الإعراض الكامل عن نعم الله والتحقيق لها ، والحرمان من الاستمتاع بشيء منها ، وقد تأثر بعض المسلمون بهذا المفهوم الأعجمي للزهد ، فأصبحوا غداً لئالاً في عصر ضعف الدولة العباسية وما بعده ، يلتمسون الرقعات ويقبلون عن العمل والكسب ، ويعيشون على الإحسان والصدقات ، ويدعون أنهم زاهدون .

مع أن روح الإسلام تأتي هذه السلبية القتالة ، وترفض هذا العجز المميت ، وتذكر هذا اللذال والتمركز .

والمسلمون اليوم أصحاب من مثل هذه العقلية المريضة ، يتدفقون إلى العمل والكسب الحلال ، ويتنافسون في تحصيل الربح وإعمار الأرض ، حتى أصبحنا نحاف على أنفسنا الخلفة عن الآخرة ، ونبحث عن الهدايا التي نذكرنا بالله تعالى وتدفعنا إلى الرشد في الدنيا ، فنخفف من الاندفاع ، ونضع التعثر والسقوط في حائل الشيطان والأهترار بمناع الدنيا وشهواتها العارمة .

تفني الضرر في الإسلام

عن أبي سعيدٍ مَعْقِلٍ بنِ سَهَابٍ المَخْزُومِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ » .

حديث حسن ، رواه ابنُ ماجه والدارقطني وغيرهما مستنداً . ورواه مالك في الموطأ مرسلاً : عن عمرو بن يحيى ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ . فأستفاد لها سعيد . وَلَمْ يَكُنْ يَقْوَى بَعْضُهَا بَعْضاً .

الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الأحكام (باب : من بنى في حقه ما يضر بجاره) رقم / ٢٣٤٠ / و / ٢٣٤١ / من حديث عباد بن الصامت وابن عباس ، رضي الله عنهم .

ورواه مالك في الموطأ : في كتاب الأفضية (باب : القضاء في المرفق) رقم / ٣١ / .

وحديث أبي سعيد رضي الله عنه أخرجه الحاكم والبيهقي ، وقال الحاكم عنه : صحيح الإسناد على شرط مسلم .

وقال ابن رجب : وقد استدلل الإمام أحمد بهذا الحديث . وقال أبو عمرو ابن الصلاح : هذا الحديث أسنده الدارقطني من وجوه ، وبمجموعها يقوي الحديث ويحسنه ، وقد تليقه جماعه أهل العلم واحتجوا به . وقال : وقول أبي داود : إنه من الأحاديث التي بدور الفقه عليها ، يشعر بكونه غير ضعيف ، والله أعلم .
أهمية الحديث :

قد مر لك قول أبي داود : إنه من الأحاديث التي بدور الفقه عليها .

اختلف العلماء في معنى الضرر والضرار في الحديث : هل هما بمعنى واحد ، أم بينهما فرق ؟ والشهور أن بينهما فرقاً ، وقيل في معنى كل منهما أقوال ، ولعل أرجحها : أن الضرر أن يلحق أذى بمن لم يؤذ ، والضرار أن يلحق أذى بمن قد آذاه على وجه غير مشروع .

وكلا المعين مجموع وغير جائز في شرع الله عز وجل ، واستعلم تفصيل ذلك لهما على من بحث .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١- المظني هو الضرر لا العقوبة والتقصاص : المراد بالضرر في الحديث هو ما كان بغير حق ، أما إدخال الأذى على أحد يستحقه — كمن تعدى حدود الله تعالى لعوقب على حرمة ، أو ظلم أحداً فعمل بالعدل ولوحد على ظلمه — فهو غير مراد في الحديث لأنه قصاص شرعه الله عز وجل ، وجعل فيه حقيقة الحياة للناس ، قال سبحانه : ﴿ وَالَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ١٧٩] . وقال : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَاتَلُوهُمَا عَصِمُوا مِنْ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » متفق عليه . أي : إلا إذا فعلوا حيلة يستحقون عليها عقوبة مالية أو بدنية ، فإنهم يؤاخذون بذلك .

هل من ظني الضرر أن يعاقب المجرم بجرمه ويؤخذ الجاني بجنايته ، لأن في ذلك دفعاً لضرر يخطر على الأفراد والمجتمعات .

٢- لا تكليف في الإسلام بما فيه ضرر ، ولا نهي عما فيه نفع : إن الله تعالى لم يكلف عباده فعل ما يضرهم أو كبت ، كما أنه سبحانه لم ينههم عن شيء فيه نفع لهم ، فبيد أمرهم به عين صلاحهم في دينهم ودنياهم ، وفيما نهاهم عنه عين فساد معاشهم ومعادهم . قال تعالى : ﴿ قُلْ أَمُرُّنِّي بِالْقِسْطِ ﴾ [الأعراف : ٢٩] وقال : ﴿ قُلْ

إنما حُرِّمَ رَمِيُّ الفواحشِ ما ظهرَ منها وما بطنُ ﴿ [الأعراف : ٣٣] . ولا شك أن في القسط - وهو العدل - كلَّ خيرٍ ونفع ، وفي الفواحش كلَّ شرٍّ وفساد ، وواضح لكل ذي عقلٍ ينظر في شرع الله عز وجل : أن الله تعالى أباح للعبد كلَّ ما فيه سلامةٌ عقولهم وصحةُ أبدانهم ، ولم يحظر عليهم إلا ما فيه الإخلالُ بحواسهم وطرانيمهم وملكاتهم ، والإفسادُ والصبرُ بصحتهم وأبدانهم . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

أي : إن زينة الدنيا وطيبتها يشترك فيها المؤمنون وغيرهم ، فيما لا يشاركهم فيها أحدٌ في الآخرة .

وقد تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ مِمَّا أَوْحَى إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ غَنَمٌ بِعِزْرِ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُعْلِيَ لَعْنُ اللَّهِ بِهِ ﴾ [الأكلام : ١٤٥] .

طاعم يطمعه : أكل يأكله . دماً مسفوحاً : مائلاً مصبوحاً . رجس : نجس . فسقاً . : ما ذبح على غير اسم الله تعالى ، أي رفع الصوت عند ذبحه بغير اسم الله تعالى ، وسي فسقاً لخروج دمه عن طاعة الله عز وجل

٣- رفع الحرج : من نصي الضرر في الإسلام رفع الحرج عن المكلف ، والتخفيف عنه عندما يوقعه ما كلف به في مشقة غير معادة ، ولا غرامة في ذلك فإن هذا الدين يسر ، قال الله تعالى : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج : ٧٨] وقال : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . وقال ﷺ : « بُعِثْتُ بِالْحَقِيقَةِ الْمُسَمَّحَةِ » رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قول : قيل لرسول الله ﷺ . أي الأدبَانِ أحسب إلى الله ؟ قال : « الحقيقة المسماة » رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ ، ورواه البخاري تعليقاً . أي : دين التوحيد الخالص الذي لا شعبة فيه ولا حرج ، ولو بلى التكليف على حاله - على

الاعتلاف الأحوال والظروف - لنزل في التكلف ضرر بالغ .

ومن أمثلة التبعيف عن التكلف عند حصول المشقة :

أ - اتهم المريض وعهد عصر الحصول على الماء : قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْمَاءِ فَلَسْتُمْ بِالْأَلَمَاءِ عَلَيْهِمْ إِصْعَاقٌ بِهِمْ لَبِإٌ لَّهُ يَجْعَلُ عَلَيْكُمْ مِنْ غَيْرِهِ مَسْئَلَهُمْ إِذَا أُلْمُوا فِي شَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [المائدة : ٦] .

الماء : المكان المنخفض الذي تضيق فيه حاجتكم . لاسم : لاسم ، أو جامع . فتمسوا : اتصدوا للطهارة . صعيداً طيباً : تراباً طاهراً ، أو ما كان من جنس الأرض .

ب - القطر للمسافر والمريض : قال تعالى : ﴿ شَهْرٌ رَّمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

ج - عدم الإثم بالارتكاب محظورات الإحرام لمن وقع في مشقة بالتزامها : قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَن كَانَ مِنْكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة : ١٩٦] . محله : مكان ذبحه وهو الحرم ، ووقته : وهو العاشر من ذي الحجة .

د - انتظار الدين المعسر : من استدان في مباح لأجل ولم يتمكن من الوفاء ، وحب على دأبه تأخير مطالبته إلى حال يساره ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرٍ فَعُصْرٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] وقرر الفقهاء هنا : أنه لا يُرْمى بقضاء ما عليه مما في عروجه من ملكه ضرر عليه ، كتيابه ومسكنه وخادمه احتاج إليه ، وكذلك ما يحتاج للتجارة به ليحصل على نفقة نفسه وعياله .

هـ - عدم لزوم المشي لمن نذر أن يمشي ماشياً : روى البخاري ومسلم ، عن أنس رضي الله عنه : أن النبي ﷺ رأى شيخاً يُهاذي بين يديه ، قال : « ما بال هذا ؟ » قالوا : نذر أن يمشي ، قال : « إن الله عن تعذيب هذا عبته لغني » . وأمره أن يركب .

وفي الصحيحين أيضاً من حديث علي بن عامر رضي الله عنه قال : نذرت أنحي أن نمشي إلى بيت الله ، وأمرني أن أستغني لما النبي ﷺ فاستغنيته ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تمشوا ولتركب » .

وقد اختلف العلماء فيها يلزم من نذر ذلك :

— ففي رواية عن أحمد رحمه الله تعالى : لا يلزمه المشي وله الركوب بكل حال ولا شيء عليه ، وفي رواية عنه : يصوم ثلاثة أيام ، وفي رواية : يرمه كفارة بين .

— وقال مالك رحمه الله تعالى : لا يجره الركوب ، فإن ركب وجب عليه قضاء سجدة ، لو ركب ما مشى ، ويمشي ما ركب ، وإن كان ما ركبه أكثر لزمه هدي مع القضاء .

— والمشهور : أنه يرمه الشيء إن أطاعه ، فإن عجز عنه ركب ولا شيء عليه ، وهو مدغم الشافعي رحمه الله تعالى . وقيل : بل عليه مع ذلك كفارة يمين .

٤ - مظاهر الضرر . قد ينحصر قصد الضرر في نوعين من التصرفات :

— تصرفات ليس للمكلف فيها غرض سوى إحقاق الضرر بغيره ، وهذا النوع لا ريب في قبحه وتحرمة .

— تصرفات يكون للمكلف فيها غرض صحيح مشروع ، ولكن يرتفق بغيره ، لو ترتب عليه إحقاق ضرر بغيره .

النوع الأول من التصرفات . لقد ورد المشرع في الشيء عن كثير من التصرفات التي لا يقصد منها عالة إلا إحقاق الضرر ، منها :

١- المضاربة في البيع : ويتناول صوراً عدة ، منها :

أ- بيع المضطر : وهو أن يكون الرجل محتاجاً تسليعة ولا يجد لها ، فيأخذها من بائعها بزيادة فاحشة عن ثمنها المعتاد ، كأن يشتريها بعشرة وهي تساوي خمسة . وقد ورد النبي عن ذلك ، أخرج أبو داود من حديث علي رضي الله عنه : أنه عذب الناس فقال : سيأتي على الناس زمان عضوض ، ينقض الموض على ما في يديه ، ولم يؤمر بذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْأَلُوا النَّفْسَ بِكُم ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . ويبيع المضطرون ، وقد نبى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر . عضوض : فيه عسف وعظم . زاد الإسماعيلي : قال رسول الله ﷺ : « إن كان عندك خير لعود به على أميك ، وإلا فلا تزدته هلاكاً إلى هلاكه » . أي للناس هنا أن يعطيه حاجته ترفعاً ، لا أن يزيد عسره عسراً . قال عبد الله بن معقل : بيع الضرورة ربا . وقال حرب : سئل أحمد عن بيع المضطر فكرهه .

ب- بيع ما اشترى إلى أجل بأقل من ثمنه نقداً : وذلك بأن يكون محتاجاً إلى نقد فلم يجد من يقرضه ، فاشتري سلعة بثلث في دفعه إلى أجل ، ومقصوده أن يبيعها ليأخذ ثمنها .

فإن باعها لغير بائعها الأول قال أحمد : أحسنى أن يكون مضطراً .

وإن باعها لبائعها الأول : فقد ذهب الجمهور إلى تحريم ذلك البيع وبطلانه ، واعتبروه ذريعة لأخذ الربا ، وهو قول مالك وأحمد وأبي حنيفة رحمهم الله تعالى . واحتجوا له أيضاً بما رواه الدارقطني : أن امرأة قالت لعائشة رضي الله عنها : إني بعت من زيد بن أرقم خادماً بثمانمائة درهم إلى العطاء ، فاحتاج إلى ثمنه ، فاشتريه منه قبل محل الأجل بسبائة . فقالت عائشة رضي الله عنها : بئس ما شريت واشتريت ، أبلغني زيد بن أرقم أن الله تعالى ليطل جهاده ووجهه مع رسول الله ﷺ إن لم يصب ، فأثأها زيد محتلراً فقلت قوله تعالى : ﴿ لَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَلْيُصْلِحْ فَلَ مَا سَبَّحَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] أي له ماله الذي دفعه . قالوا : وقولها ذلك

وزجرها دليل سماها هذا من رسول الله ﷺ .

وواقع الشافعي رحمه الله تعالى الأئمة الثلاثة في قولهم ، إن كان في العقد ما يدل على قصد الاحتيال للوصول إلى الربا ، أما إذا جرى العقد مجرداً عن ذلك فإنه صحيح ، لأنه بيع تام الأركان ، ولا يهتم الناس في تصرفاتهم والله تعالى يحاسبهم على نياتهم .

٣- العين الفاحش : إذا كان المشتري لا يضمن الماكسة (المتأصلة) فاشترى بغير كثير ، لم يكر للبائع ذلك . ومذهب مالك وأحمد رحمهما الله تعالى أنه يثبت له خيار القسح . روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رجلاً ذكر للنبي ﷺ أنه يمدح في البيع ، فقال : « إذا باهت ققل : لا غلالة » رجلاً : هو حبان بن سفيان رضي الله عنه ، باهت : باهت واشترت . قال أحمد : الغلالة القباح ، وهو أن يشتبه فيما لا يتفان الناس في مثله ، يبعه ما يساوي درهماً بخمسة . وقال المالكية : إذا بلغ العين ثلث القيمة فله خيار القسح .

٤- الوصية : والإضرار بالوصية على حالين :

١- أن يخص بعض الورثة بزيادة على فرضه الذي فرضه الله له ، فيتضرر بقية الورثة تخصيصه ، ولذا منع الشارع من ذلك إذا لم يرخص باقي الورثة ، قال ﷺ : « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لورث » .

٢- أن يوصي لأجنبي لينقص حقوق الورثة ، ولذا منع الشارع من ذلك فيما زاد عن الثلث سواء قصد المضارة أم لا ، إلا إذا أجاز الورثة ، قال ﷺ : « الثلث والثلث كثير » . متفق عليه .

وأحضرها في حدود الثلث ليعتدرك المكلف بعض ما فاتته من الخيرات في حياته ، وما قصر فيه عن وجوه الإنفاق . وهذا إذا لم يقصد الوصي بذلك إدخال الضرر على الورثة ، وإلا فإنه يأثم بوصيته عند الله عز وجل . قال تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصي بها تو دين غير مضار ﴾ [النساء : ١٢] وإذا كان إضراره بالوصية سبباً

لأن يحبط عمله ويذهب أجره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل ليعمل والمرأة تطاعة الله ستين سنة ، ثم يمصرهما الموت ، فيضربان في الوصية ، فتجب لها الدار ، ثم قرأ أبو هريرة : ﴿ من بعد وصية ... ﴾ رَوَاهُ الترمذي وغيره . قال ابن عباس : الإضرار في الوصية من الكبائر .

وهل ترد وصيته إذا كنت قصده بإقراره أم تنفذ ؟ قال الجمهور : إنها تنفذ ، وحكي عن مالك ردّها . قال ابن وجب : وقيل : إنه قياس مذهب أحمد .

٣- الرجعة في النكاح : أي إرجاع زوجته إلى عصمته في فترة العدة من الطلاق الرجعي ، قال تعالى : ﴿ فأنسكوهن بمعروف أو سرّوهن بمعروف ولا لمسكوهن ميّراً لعلنّ يفتدنّوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ [البقرة : ٢٣١] وقال : ﴿ وتعتلّهنّ أحقّ بردهنّ في ذلك إن أوفوا بإصلاحاً ﴾ [البقرة : ٢٢٨] . فدل ذلك على أن من قصد بالرحمة إدخال الضرر على الزوجة فإنه آثم بذلك ، وصورته : أن يطلق زوجته ويتركها إلى ما قبل انتهاء عدتها ، ثم يراجعها وليس له رغبة فيها ، وإنما ليعطي عليها العدة ويمنعها من الزواج إلى حين ، ولذلك لا يعاشرها معاشرة الأزواج ، وربما تكرّر ذلك منه ، ولذا ذهب الإمام مالك إلى أن من رجع زوجته قبل انقضاء عدتها لم يطلقها من غير مسيس ، أي جماع ، وقصد بذلك مضاررتها بتطويل العدة عليها ، فإنها لا تستأنف العدة من جديد ، وإنما تبنى على ما مضى منها قبل أن يراجعها .

وفي رواية عن أحمد : تبنى مطلقاً ، سواء قصد المضارة أم لا . والجمهور : أنها تستأنف عدة جديدة ، سواء قصد المضارة أم لا ، وهو آثم إن قصد المضارة .

٤- المضارة في الإيلاء : هو أن يختلف الرجل ألا يشرب روحه - أي لا يبايعها - مدة من الزمن أو مطلقاً ، فإن وطئها قبل مضي أربعة أشهر من ميثه - ترك الوطاء - كان ذلك رجعة منه وتوبة له ولمره كفارة بين - وإن مضت

أربعة أشهر وفي مصر على ترك الوطء فإنه يمنع من ذلك ، قال تعالى : ﴿ لَسِينَ يُؤْزِلُونَ مِنْ تَنَائِهِمْ لَرْبَعُ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاتُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٦-٢٢٧] .

واختلف العلماء في كيفية منعه من المضارة فيه على قولين :

فقال الجمهور : يوقف لدى القاضي ويؤمر بالبيعة أو الطلاق ، فإن أبى طلق عليه القاضي طلقة رجعية .

وقال الحنفية : تطلق عليه بائة بمجرد مضي أربعة أشهر على إيلائه .

ونهى على الإيلاء ما هو في معناه ، ومن ذلك :

١- إذا ترك الوطء بقصد الإضرار مدة أربعة أشهر من غير عيب : طاهر كلام أحمد : أن حكمه حكم المولي .

٢- وطء الزوجة وأحب - عند الحابلة - مرة على الأقل في مدة أربعة أشهر ، ولو ترك ذلك لغير عذر ، وطليت الزوجة الثفرين فرق بينهما عند جهالة منبهم ، وهل يعتبر في ذلك قصد الإضرار أم لا ؟ فيه خلاف .

وقال مالك وأصحابه : إذا ترك الوطء من غير عذر فإنه يفسخ نكاحه ، مع احتلالهم في تقدير اللدة .

٣- لو أطال السفر من غير عذر ، وطليت امرأته فندومه فأبى ، فقال مالك وأحمد : يفرق الحاكم بينهما .

٤- لقضارة في الإرضاع : قال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُدْعِيَ الرِّضَاعَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِضْعُهُنَّ وَمَنْسُوبٌ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكْذِبُ نَفْسٌ إِلَّا وَسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةً يُولِئُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولِئُهَا ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

تشمل الآية منع الإضرار بالوالدة ومنع الإضرار بالوالد ، فالوالدة الحق في إرضاع ولدها ، فإن كانت روجة ومنعها الزوج من أن يرضع ولدها يقصد توطئها للاستمتاع

بها جاز له ذلك ، فإن قصد أن يحرقها بهذا لم يحز ومنع منه وكان أكثراً . وهذا إن
أمكن أن يرضع الولد من غيرها ، فإن لم يمكن ذلك بأن لم يوجد غيرها ، أو وجد
ولم يقبل غير لديها ، لم يحز منعها مطلقاً ، لما فيه من إحقاق الضرر بالولد .

وإن لم تكن الوالدة روضة ، بل كانت مطلقة أو متولى عنها زوجها ، وطليت
أن ترضع ولدها بأجرة مثلها ، فهي أحق بذلك ، ويلزم الأب أو وارثه بإجابتها ودفع
ولدها إليها . فإن طليت زيادة كبيرة على أجرة مثلها ، ووجد الأب أو الوارث من
يرضعه بأجرة مثل ، لم يلزمه إجابة الأم إلى ما طليت ، لأنها تقصد المضارة بالزيادة .
فإن لم يوجد أحد يرضعه أجرت على إرضاعه بأجرة مثل ، كي لا يلحق الضرر
به وبأبيه بحزنه عليه .

النوع الثاني من التصرفات : وهي التي يكون للتصرف فيها عرق صحيح
ومشروع ، ولكن قد يرافقتها أو يترتب عليها ضرر بخبره . وذلك : بأن يتصرف
في ملكه بما يتعدى ضرره إلى غيره ، أو يمنع غيره من الانتفاع بملكه ، فينصرع الممنوع
بذلك .

النوع الأول : وهو التصرف في ملكه بما يتعدى ضرره ، وهو على حالتين :

١ - أن يتصرف على وجه غير معتاد ولا مأثوف ، فلا يسمع له به ، وإن
تصرف وتضرر غيره ضمن ما حصل من ضرر ، وذلك كأن يؤجح ناراً في أرضه
في يوم حاريف ، يهترق ما يليه ، فإنه متعد بذلك وعليه الصمان .

٢ - أن يتصرف على الوجه المعتاد ، وفي ذلك مسائل تختلف فيها وجهات النظر
الفقهية ، منها :

١ - أن يحفر حراً بالقرب من بحر حاره فيذهب ماؤها : فذهب مالك وأحمد
رحمهما الله تعالى : إلى أنه يمنع من ذلك ، وإن حضرها طمست ، لأنه من المضارة
به ، روى أبو داود في المراسيل من حديث أبي قلابة رضي الله عنه قال : قال رسول

الله ﷻ : « لا تضاروا في الحفر ، وذلك أن يحفر الرجل إلى جنب الرجل ليذهب بملكه » . وقال غيرهما يجوز ذلك .

٢- ضح الكوفة والباء العالي : فإنما ضح كوفة في بئرها تشرف على جوارها ، أو على أرضها بناءً عالياً يشرف على جوارها ولا يستريح ، أو يمتد الشمس والقصور ، فإنه يمنع من ذلك ، وخاصة إذا ظهر لتحاكم أنه يقصد الفساد والسوء . أخرج الحرطلي : أنه ﷻ قال في حل الجار : « ولا يستطير بالبناء ، فيحجب عنه الريح إلا بإذنه » . وهذا مذهب أحمد رحمه الله تعالى ، ووافقته عليه بعض الشافعية .

٣- من يحدث في ملكه ما يضر بجوارحه ، من هر أو حف أو نحوهما ، أو يضع ما له رائحة كريهة ، فإنه يمنع منه . وهذا ظاهر مذهب مالك وأحمد رحمهما الله تعالى ، وقال الشافعية : إذا أضر هذا بملك غيره منع منه .

٤- إزالة ما يضر به يعوضه إن كان له عوض : إذا كان له حق في ملك غيره . كحفره في دار ، أو حمام مشترك ، أو نحو ذلك ، وكان في استطاعته بحقه ضرر لغيره ، فإنه يجوز على إزالة حقه ، أو أخذ عوضه أو شيء ، ليندفع الضرر عن غيره . أخرج أبو داود : عن سمرة بن جندب رضي الله عنه : « أنه كان له غنم من نخل في حائط رجل من الأنصار ، وكان مع الرجل أهله ، فكان سمرة يدخل إلى غلته ، فيأذي به ويشق عليه ، فطلب إليه أن يبعه فأبى ، فطلب إليه أن يملكه فأبى ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فطلب إليه النبي ﷺ أن يبعه فأبى ، فطلب إليه أن يملكه فأبى ، قال : فيه له ولك كما وكذا سأمراً رغبة فيه . فأبى ، فقال : أنت مضار ، فقال رسول الله ﷺ للأنصاري : اذهب فقللغ غلته » . عصف : على لم يسق ولم يطل . بواقته : يأخذ بدل غلته في مكان آخر . قال أحمد بعد أن ذكر له الحديث : كل ما كان على هذه الجهة وفيه ضرر يمنع من ذلك ، فإن أوجب وإلا أجبره السلطان ، ولا يضر بأخيه في ذلك وفيه مرفق له . أي منفعة لأخيه لا يضره تحصيلها .

ومثل هذا إيجاب الشريك على العمارة إذا امتنع منها وكان في امتناعه ضرر
بشريكه . وكذلك إيجاب الشريك على البيع فيما تغلظ قسمته ، كسيارة مشتركة
أو مرتفع لا يمكن الانضاع إلا بكتله ، إذا طلب شريكه ذلك .

النوع الثاني : وهو مع غيره من التصرف في ملكه وتصرف غيره بهذا الشئ ، وفيه
مسائل :

أ - أن يمنع جاره من الانضاع بملكه والاتفاق به : فإن كان يضر من انضاع
ملكه فله الشئ ، كمن له جدار واد ، لا يحصل أكثر مما هو عليه ، فله أن يمنع جاره
من وضع خشبة عليه . وإن كان لا يضر به :

فقال الشافعي وأبو حنيفة ومالك رحمهم الله تعالى : له الشئ من التصرف في ملكه
بغير إذنه ، لأنه قد يكون في تصرفه ضرر يلحق به ، وقوله عليه السلام : « لا يحمل لمسلم
أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفس منه » قال : ذلك لفظة ما حرم الله من مال
المسلم على المسلم . رواه ابن حبان .

وقال أحمد رحمه الله تعالى : لا يجوز له المنع ، وفي إيجابه على ذلك رواه ابن
نفسى الصحيحون : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يمنع
أحدكم جاره أن يفرغ خشبة على جداره » . قال أبو هريرة رضي الله عنه : ما لي
أراكم عنها معرضين ، والله لأرmeen بها بين أكفانكم . وقضى عمر بن الخطاب رضي
الله عنه على محمد بن مسلمة أن يخرق ماء جاره في أرضه ، وقال : لئن به ولو على
بطشك .

ب - منع الماء والكلاء والملح والغاز : روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي
الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تمنعوا فضل ماء تمعوا به الكلاء » . وذلك بأن
يكون الكلاء - وهو الغلب المباح - لا يتوصل إليه إلا بالمرور على الماء والشرب
منه ، فيمنع من الماء فيكون سبأ في منع الكلاء . روى أبو داود أن رجلاً قال : يا سي

الله ، ما الشيء الذي لا يحمل منعه ؟ قال : الماء ، قال : يا نبي الله ، ما الشيء الذي لا يحمل منعه ؟ قال : الملح ، قال : يا رسول الله ، ما الشيء الذي لا يحمل منعه ؟ قال : أن تفعل الخير غير لك .

وروى أبو داود أيضاً : أن النبي ﷺ قال : « المسلمون شركاء في ثلاث : في المال والماء والنار » .

وبذلك بيان حكم هذه الأشياء الأربع على ضوء هذه الأحاديث :

١- الماء : قال أبو حنيفة والشافعي رحمهما الله تعالى : لا يمنع فضل الماء الحلوي والساقي ولو كان ملكاً لأرضه ، ولكن لا يجب بذله مجاًناً للزرع .

وقال أحمد رحمه الله تعالى : يجب بذله مجاًناً للشرب وسقي البهائم والزرع . وفي كلامه ما يدل على اختصاص الملح بالمقرب من الكلاً ، بحيث يقتضي منعه إلى منع الكلاً .

وقال مالك رحمه الله تعالى : لا يجب بذل فضل الماء المملوك الذي يملك منعه ومجرأه إلا للمضطر ، ويجب بذل فضل غير المملوك .

٢- الكلاً : قال الشافعي رحمه الله : يمنع فصل ما يملك إلا في أرض الموات . وقال أبو حنيفة وأحمد رحمهما الله تعالى : لا يمنع مطلقاً .

٣- الملح : فإنه لا يمنع منه إذا كان في أرض مباحة ، أي ليست مملوكة لأحد ، ولم يتكلف أحد باستخراجه .

٤- النار : لا يجوز للمع من أحد قبس منها لوقود منه ، كما لا يجوز منع الاستضاءة والاستدفاء وإضجاع الطعام بما فضل عن الحاجة . وأما أحيان ما توقد به النار إن كان مملوكاً جاز منعه ، وإن كان الأول أن لا يمنع .

٥- ربيع الفلحة : ذكر السيوطي في كتابه « الأشياء والنظائر » أن مرد مذهب الشافعي رحمه الله تعالى إلى أربع قواعد :

— الأولى : « اليقين لا يزول بالشك » . وأصل ذلك ما رواه البخاري ومسلم أنه ﷺ شكى له الرجل يُخيل إليه أنه يجد الشيء في الصلاة ، قال : « لا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً » . وذلك أنه على يقين من طهارته ، فلا يرفع ذلك اليقين بالشك الذي طرأ عليه : أنه أحدث .

— الثانية : « الشقة تجلب التيسر » . وأصل فيها قوله تعالى : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج : ٢٨] . وقوله ﷺ : « بعثت بالحنيفية السمحة » رواه أحمد في مسنده .

— الثالثة : « الضرر يزال » وأصلها قوله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار » .

— الرابعة : « العادة محكمة » . لقوله ﷺ : « فمأزى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » (١) .

وبناء على ما سبق يختار هنا الحديث ربع الفقه الإسلامي ، ولقد اعتبره الفقهاء قاعدة أصلية من القواعد الفقهية ، وفرعوا عنها فروعاً عدة ، منها القاعدة الثالثة المذكورة سابقاً ، وإليك بيان هذه القواعد مع الأمثلة عليها :

القاعدة الأصلية : [لا ضرر ولا ضرار] .

ومن فروعها الفقهية : أنه لو أُلغى مال غيره لا يجوز أن يقابل بالإلحاق ماله ، لأن ذلك توسيع للضرر بغير قاعدة ، وهو ضرر . ويضمن المظلم قيمة ما أُلغى دفعاً للضرر عن صاحب المال .

القواعد الفرعية :

١- [الضرر يدفع بقدر الإمكان] .

أي يجب دفع الضرر قبل وقوعه والحيلولة دون حدوثه ما أمكن ، لأن الدفع

(١) الصحيح أنه هذا من كلام ابن مسعود رضي الله عنه رواه أحمد في مسنده

أسهل من الرفع ، والوقاية خير من العلاج ، والتكليف الشرعي يكون بحسب طاقة الإنسان .

ومن فروعها الفقهية : يجوز حبس المشهورين بالدعارة والفساد حتى تظهر نوبتهم ، ولو لم يثبت عليهم جرم قضائي معين ، دفعاً لضررهم المتوقع عن المجتمع .
٢- [الضرر يزال] .

أي يجب رفع الضرر الذي وقع ، وترميم ما تروى عليه من آثار .
ومن فروعها الفقهية : ما إذا سلب أحد مزاياه عن الطريق فأحدث ضرراً للعارفة ، أزيل الخراب ، وحُسن صاحبه ما نتج عنه من إخلال إن حصل .
٣- [الضرر لا يزال بمثله] .

أي لا يجوز إزالة الضرر الواقع بإحداث ضرر آخر مثله أو أكثر منه .
ومن فروعها الفقهية : أنه لا يجوز الشريك على قسمة المال المشترك إذا كان غير قابل للقسمة ، لأن في قسمته ضرراً أعظم من ضرر الشركة .
٤- [الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف] .

أي يجوز أن يرتكب ما فيه ضرر إذا كان في ارتكابه دفع لضرر أشد منه .
ومن فروعها الفقهية : أنه يجوز للحاكم المسلم العادل أن يأخذ من أموال الأغنياء أكثر من فرض الزكاة ، إذا كانت أموال الزكاة لا تسد حاجة الفقراء ، لأن ضرر الأغنياء بأخذ ذلك منهم أخف من الضرر الذي يلحق الفقراء إذا لم تسد حاجتهم .
ومعنى هذه القاعدة قاعدتان :

أولاهما : [يختار أهون الشرين] .

ثانيتهما : [إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً] .

٥- [يحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام] .

أي إذا تعارض ضرر خاص وضرر عام روعي الضرر العام ، ووجب دفعه ، وإن وقع بسبب ذلك ضرر خاص ببعض الناس .

ومن فروعها الفقهية : أنه يجوز للحاكم المسلم العدل إيجاب التحريم على بيع ما احتكروه بسمر السوق ، وإن أضر بهم ذلك ، لأن فيه دفع ضرر عام عن الناس .

٦- [ذره لقاسد مقدم على جلب المصالح] .

أي إذا تعارضت مصلحة ومصلحة ووجب دفع المصلحة وإن أدى ذلك إلى ضياع المصلحة .

ومن فروعها الفقهية : منع التجارة بالمخدرات والمسكرات ونحوها ، ولو كان في ذلك أرباح ومنافع اقتصادية ، لما فيها من مقاسد اجتماعية وعائلية وصحية وغير ذلك .

٧- [إذا تعارض المانع والمقتضي يقدم المانع] أي إذا كان لأمر ما محالير تقتضي مفعه ، ودواع تقتضي تسويفه وقساح به ، يرجح منعه .

ومن فروعها الفقهية . منع الشريك من التصرف في المال المشترك بصورة تضر بشريكه ، لأن حق شريكه مانع ، وإن كان حقه مقتضياً لصحة تصرفه وحوازه .

٨- [الضرر لا يكون قديماً] .

أي إن كل شيء فيه ضرر يزول ، ولا فرق بين قديم وحديث ، فلا يعتبر لقدمه ما دام غير مشروع في الأصل لما فيه من ضرر .

ومن فروعها الفقهية : ما لو كان لإنسان المذلة في جدار تطل على أرض غير مينة ، ثم بني في تلك الأرض ، وأصبحت الماذلة تطل على الساء المتواتر يسكن البناء ، وجب إزالتها ولا عبوة لقدمها .

وهذه القاعدة تعتبر قديماً لقاعدة أخرى وهي :

[القديم بترك على قدمه] أي : ما كان في أيدي الناس وتحت تصرفهم من أشياء ومنافع يلقى لهم كما هو ، ويعتبر قدمه في أيديهم دليلاً على أنه حق لهم ثابت بطريق مشروع ، ما لم يوجد دليل على خلاف ذلك .

ومن مروعها الفقهية : ما إذا وجد جدع الجار ، محمول على جدار جاره ، فلا يجوز لهذا الجار إزالته ، لأن قدمه دليل على أنه موضوع بحق وإلقاء عوض .

٥ - وقد أفاد الحديث : أنه إذا نساب رجلان أو قاتلها لم يحصل التقاضي ، بل كل واحد منهما يؤخذ بدنه ، ويأخذ منه الحاكم الحق لصاحبه .

أُسُسُ الْقَضَاءِ فِي الْإِسْلَامِ

عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : « لو يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادْعَى رَجُلٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ وَدِمَائِهِمْ ، لَكِنَّ الشَّكَّةَ عَلَى الْمُدْعَى وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ » . حديث حسن ، رواه الألباني وغيره هكذا ، ويُعْضَفُ فِي الصَّوَحِيحِينَ .

رواه البيهقي بهذا اللفظ ، وأخرجه البحاري في تفسيره سورة آل عمران (باب : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ بَعْدَ اللَّهِ ﴾) ، رقم / ٤٢١٩/ . وأخرجه مسلم في الأقضية (باب : اليمين على المدعي) ، رقم / ١٧١١/ ولفظه عند مسلم : « لو يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادْعَى نَاسٌ دِمَاءَ رَجُلٍ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدْعَى عَلَيْهِ » . ولفظ البحاري : « لَتَدْعِبُ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُمْ » . وفي رواية عندهما : أن رسول الله ﷺ قضى باليمين على المدعي عليه . وأخرجه أصحاب السنن : أبو داود رقم / ٣٦١٩/ ، والسنن ٢٤٨/٨ ، والترمذي / ١٣٤٣/ وابن ماجه وغيرهم ، باختلاف في بعض الألفاظ .

أهمية الحديث :

قال النووي رحمه الله تعالى : وهذا الحديث قاعدة كبيرة من قواعد أحكام الشرع . وقال شيخ الإسلام ابن دقيق العيد : وهذا الحديث أصل من أصول الأحكام ، وأعظم مرجع عند النزاع والمخاصم .

لغة الحديث :

« يعطى الناس : ما ادعوا أنه حقهم وطلبوا به .

« يدعواهم » : مجرد قولهم وطلبهم دون ما ثبت ذلك لهم ، مشتقة من الدعاء وهو الطلب ، وهي في اصطلاح الفقهاء : قول مقبول عند القاضي ، يقصد به طلب الحق قبل حيزه ، أو دفع غيره عن حق نفسه .

« لا ادعى رجلا » : أي لاستباح بعض الناس دعاء غيرهم وأموالهم وطلبوها دون حق .

« البينة » : هي الشهود ، مأخوذة من البيان وهو الكشف والإظهار ، أو إقرار المدعي عليه وإصديقه للمدعي .

« على المدعي » : يطالب بها المدعي ، وهو من يدعي الحق على غيره ويطلبه به .

« اليمين » : الحلف على نفي ما ادعى به عليه .

« على من أنكر » : يطالب بالخلف منكر الدعوى وهو المدعي عليه .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١- نحو التشريع الإسلامي : الإسلام مهيح متكامل للحياة ، فيه العقيدة الصالحة ، والعبادة الخالصة ، والأخلاق الكريمة ، والتشريع الرافع ، الذي يضمن لكل ذي حق حقه ، ويصون لكل فرد دمه وماله وعرضه ، ولما كان القضاء هو المرجع والأساس في فصل المنازعات وإنهاء الخصومات ، والحكم الفصل في إظهار الحقوق وضمائها لأصحابها ، وضيع له الإسلام القواعد والقنوات التي تمنع ذوي النفوس المريضة من التنازول والتسلط ، وتحفظ الأمة من العت والظلم ، وحو مثل على ذلك حديث الباب ، الذي يشترط ظهور الصحيح لصحة الدعوى ومضائها ، ويقرر ما هي حجة كل من المتدعين للناسه له ، والتي يعتمد عليها القاضي في تعرف الحق وإصدار الحكم على وفقه .

٢- البينة وأنواعها : أجمع العلماء على أن المراد بالبينة الشهادة ، لأنها تكشف

الحق وتظهر صدق المدعي غالباً ، والشهادة هي طريق هذا الكشف والإظهار ، لأنها تعتمد على المعاينة والحضور .

وتختلف البينة ، وهي الشهادة حسب موضوع الدعوى وآثارها المترتبة عليها .
والثابت في شرع الله عز وجل أنواع أربعة للشهادات :

أ- الشهادة على الزنا : وهذه يشترط فيها أربعة رجال ولا يقبل فيها قول النساء ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّائِي بِإَثْنَيْنِ الْعَاصِيَةُ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ١٥] وقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِسُوهُمْ ﴾ [النور : ٤] .

٢- الشهادة على القتل والجرائم التي لها عقوبات محددة ما عدا الزنا : كالسرقة وشرب الخمر والفساد ، وتسمى في الفقه بالحدود ، ويشترط فيها رجلان ، ولا يقبل فيها قول النساء أيضاً ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا ذَوْيَ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ [الطلاق : ٢] . وأثنى بعض الفقهاء - كالشافعية - في هذا القسم الشهادة على الحقوق غير المالية ، كالنكاح والطلاق ونحوهما ، فقالوا : لا بد فيها من شهادة رجلين حتى تثبت .

٣- الشهادة لإثبات الحقوق المالية : كالبيع والقرض والإجارة ونحو ذلك ، فإنها يقبل فيها شهادة رجلين أو رجل وامرأتين ، قال الله تعالى في آية الدين : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ لِرِضْوَانٍ مِنَ الشَّهَادَةِ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . واحترز بعض الفقهاء - كالحنفية - من هذا القسم الشهادة على سائر الحقوق ما عدا الحدود والتقصاص على ما مر .

٤- الشهادة على ما لا يتعلق عليه الرجال عالياً من شؤون النساء : كالولادة والكتابة والرضاع ونحوها ، وهذا النوع تقبل فيه شهادة النساء وإن اختلفن عن الرجال ، وربما قبلت فيه شهادة المرأة الواحدة كما هو مذهب الحنفية ، روى البحاري : عن عتبة بن الحرث رضي الله عنه أنه تزوج ابنة أبي إعباد بن عزيز ، فأثنت امرأته

قالت : إلى قد أَرْضعت عقبة والتي تزوج بها ، فقال لها عقبة : ما أعلم أنك أَرْضعتي ولا أَسِيرَتِي ؟ فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فسأله ، فقال رسول الله ﷺ : « كيف وقد قيل .. ففلوقها عقبة وتكلمت زوجاً غيره . أي كيف لبقها عندك كزوجة ، وقد قيل إنها أحلتك من الرضاع ؟ ولم يقل بذلك إلا تلك المرأة .

وقال غير الحنفية : لا بد من تعدد النساء حتى تقبل شهادتهن ، وحملوا مفارقة عقبة لزوجته على الورع والتزبه ، وقالوا : إن رسول الله ﷺ لم يأمره بذلك .

٣- البيعة حجة للمدعي واليمين حجة للمدعي عليه : القاضي المسلم مأمور بالقضاء لمن قامت الحجة على صدقه ، سواء أكان مدعياً أم مدعى عليه ، وقد جعل الشرع الحكيم البيعة حجة للمدعي إذا أقامها استمع بها ما ادعاه ، كما جعل اليمين حجة للمدعي عليه فإذا حلف برىء مما ادعى عليه . ودليل ذلك ما صرح به بعض روايات الحديث من قوله ﷺ : « البيعة على المدعي واليمين على المدعى عليه » رواه الترمذي . ولست أن رسول الله ﷺ قال للمدعي : « شاهداك أو يمينه » رواه مسلم . والحكمة في هذا التوزيع : أن المدعي يدعي أمراً عتياً ، فهو بحاجة إلى حجة قوية لإظهاره ، والبيعة حجة قوية لأنها قول من ليس خصمه ، فجعلت في جانب المدعي . وأما اليمين فهي أهل قوة ، لأنها كلام أحد الخصمين ، والمدعى عليه لا يدعي أمراً عتياً ، وإنما يتمسك بالأصل واستمرار الحال ، فصلحت له الحجة الأضعف وهي اليمين ، فجعلت في جانبه .

٤- حجة المدعي مقدسة على حجة المدعى عليه : إذا توفرت شروط الدعوى لدى القضاء سمعها القاضي . ثم سأل المدعى عليه عنها : فإذا كفر بها قضى عليه ، لأن الإقرار حجة يلزم بها المقر . وإن أنكر طلب القاضي من المدعي البيعة ، فإن أتى بها قضى له ، ولم يفتت إلى قول المدعى عليه أو إنكاره وإن غلط الأيمان . فإن عجز المدعي عن إقامة البيعة ، وطلب يمين خصمه ، استحلله القاضي ، فإن حلف برىء وانتهت الدعوى .

ودليل هذا قوله ﷺ للمدعي : « ألتك بينة ؟ قال : لا ، قال : فلتك بيمينه » رواه مسلم . فقد سأل ﷺ المدعي عن البينة أولاً ، ورتب استحقاق اليمين على فقدانها ، فظهر أن حجة المدعي قبل حجة المدعى عليه .

٥- رد اليمين على المدعي : إذا توجهت اليمين على المدعي عليه فأنى أن يخلف ، وطلب من القاضي أن يخلف المدعي وبأخذ مدعاه ، فهل يجاب إلى طلبه ؟ .

ذهب بعض الفقهاء ، ومنهم الشافعية ، إلى أنه يجاب إلى ذلك ، لأنه من حقه أن يخلف ويرأ ، فإذا رضي أن يقضى عليه بيمين خصمه كان هو الحاكم على نفسه . ودفع بعضهم ، ومنهم الحنفية ، إلى أنه لا ترد اليمين على المدعي ، لأن رسول الله ﷺ قال للمدعي : « شاعبدك أو يمينه » ليس لك منه إلا ذلك » - البخاري ومسلم واللفظ له - يدل على أنه لا يقضى للمدعي بيمينه . وأيضاً : فقد ورد ﷺ الصحيح بين المتداعين عندما قال : « البينة على المدعي ، واليمين على المدعى عليه » - الرمذي - لجعل حسم اليمين حجة المدعى عليه ، وهذا يدل على حصر اليمين في جانبه ، فلو ردت اليمين على المدعي لكان بعض الأيمان ليس في جانب المدعى عليه ، وهذا بخلاف ما دل عليه النص من الحصر .

٦- القضاء بالكنول : إذا توجهت اليمين على المدعي عليه فكل عنها أي رفض أن يخلف وامتنع عن اليمين ، قضى عليه بالكنول الذي ادعاه المدعي لدى الحفنة والمحاكمة ، على تفصيل عندكم فيما يقضى فيه بالكنول من الحقوق وما لا يقضى فيه . وحيثهم في هذا : أن رسول الله ﷺ قال : « واليمين على من أنكر » . وهو المدعى عليه ، وكلمة على للوجوب ، والمعلق ذو الدين لا يصح عن أداء الواجب عليه ، فكنوله عن اليمين يدل على كونه مقرأ بالحق لادعاه عليه أو راضياً بذلك للمدعي ، والمكلف له أن يدل ما هو حقه لغيره ، فيقتضى عليه بذلك .

وقال المالكية والشافعية : لا يقضى عليه بالكنول ، وإنما ترد اليمين على المدعي ، فإن حلف أحد ما ادعاه ، وإلا فلا . وحيثهم في هذا : أن الأصل براءة دمة المدعي

عليه ، فلا يلزمه شيء حتى يقوم الدليل على شغلها بحق غيره ، والكول لا يصلح دليلاً على ذلك ، لأنه — كما يحصل أن يكون قرعاً عن اليمين الكاذبة — يحصل أن يكون تورعاً عن اليمين الصادقة ، ولا قضاء مع وجود الاحتمال .

٧- متى يخلف المدعي عليه : قال الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة والشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى : يخلف كل مدعي عليه إذا توجهت عليه اليمين ، ولا يفرق بين مدعي عليه وآخر . وسببهم في هذا : عموم الأحاديث الواردة في تخلف المدعي عليه .

وقال مالك رحمه الله تعالى : لا يخلف المدعي عليه إلا إذا ثبت أن يمينه وبين المدعي بمعاملة ومداينة ونحو ذلك ، أو كان المدعي عليه ممن يحصل أن يمينه يمثل ما ادعاه المدعي . وحيثه في هذا : النظر إلى المصلحة ، حتى لا يتخذ الناس الدعاوى ذريعة إلى إلقاء بعضهم بعضاً ، يجرهم إلى القضاء دون مرء ، وحتى لا يتطاول السفهاء على ذوي الفضل والشرف ، لينقلوهم بمطوعم أمام القضاء وتخلفهم ، أو يستبوا أموالهم دون حق .

٨- بم تكون اليمين : إذا توجهت اليمين على أحد من الشخصات من حلقه القاضي بالله تعالى ، ولا يجوز أن يخلفه بغير ذلك ، سواء كان الخالف مسلماً أم غير مسلم . روى البخاري ومسلم وغيرهما : عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآلاتكم ، فمن كان حاثلاً فليخلف بالله أو ليصمت » . وللقاضى أن يغلظ اليمين بذكر أوصاف الله عز وجل ، كأن يقول : قل : والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم ، وغير ذلك من الأوصاف التي تجعل اليمين أعظم في نفس الخالف ، وتكفه عن الخلف إن كان يعلم من نفسه الكذب . ومن هذا : إحصار المصحف والحقيقة عليه إن كان الخالف مسلماً ، مع مراعاة شروط مس القرآن وحيته وآداه ، وأن يخلف بالله تعالى الذي أنزل التوراة على موسى إن كان يهودياً ، وبالله الذي أنزل الإنجيل على عيسى إن كان نصرانياً ،

وبالله تعالى الذي خلقه وصوره إن كان وثياً ، ونحو ذلك .

٩- آداب اليمين : إذا توجهت اليمين على الخلف فيستحب للقاضي ونحوه أن يعظه قبل الخلف ، ويخبره من اليمين الكاذبة ، ويقرأ عليه ما ورد في إثباتها من آيات وأخبار . روى البخاري ومسلم : أن المرأتين كانتا غرزاني بيت أو حجرة ، فخرجت إحداهما وقد أفتد بإثفا في كفها ، أي أدخلت آلة الخرز في كفها ، فادعت على الأخرى ، فرفع إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، فقال : ذكروها بالله ، وارقروا عليها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْعُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٧٧] . فذكروها ، فأعترفت .

فإن كان من توجهت عليه اليمين يعلم من نفسه الكذب وجب عليه أن يعترف بالحق الذي عليه ، ويتورع عن الخلف ، حتى لا يقع في غضب الله تعالى والحرمان من رحمته . روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف على بين صير ، لينقطع بها مال امرئ مسلم ، لقي الله وهو عليه غضبان » . صير : هي التي يلزم بها ويحس عليها وترتب عليها حكمها .

وإن كان يعلم من نفسه الصدق كان الأولى في حقه أن يخلف ، وربما وجب عليه ذلك كما علمت ، لأن الله تعالى شرع اليمين في هذه الحالة حتى يعصم المسلم حقه من الظباغ ، وكفي لا يتخذ السفهاء الدعاوى ذريعة لأكل أموال الناس بالباطل ، فيدعون عليهم ما ليس بحق ، لعلمهم أنهم يتورعون عن الخلف ، فيقتضي لهم بما ادعوه .

١٠- القضاء بشاهد ويمين : إذا لم تستكمل بينة المدعي ، بأن أتى بشاهد واحد ، ودعواه لا تثبت إلا بشاهدين ، فهل يقبل بينه بدل الشاهد الآخر ويتضمن له ؟ .

قال الحنفية : لا يقتضي بشاهد ويمين في شيء من الأحكام ، ولا بد في كل دعوى

عن إثارة التهم والشبهات ، عندما لا يوافق القضاء رغبات المتخاصمين ، فيتهمون القاضي بالاحاباط والبل ، وأخذ الرشوة ، وما إلى ذلك .

هذا هو الراجع في الققه ، ولدى المذاهب تفصيلات في هذا تراجع في مواضعها .

١٣- القضاء لا يحل حراماً ولا يحرّم حلالاً : إذا توفرت لدى القاضي وسائل الإثبات أو التقى من الحجج الظاهرة كالبينة أو اليمين قضى بها ، لأنه مأمور باتباع ما ظهر له من الأدلة كما علمنا ، فيلزم للقاضي عليه جفيدة ما قضى به . ولكن هذا القضاء قد يكون على خلاف الحق من حيث الواقع ، كما لو أكل المدعي بشاهدي زور ، أو حلف المدعي عليه يمناً كاذبة ، ففي هذه الحالة لا يحل للمقضي له ما قضى به ، وهو يعلم من نفسه أنه ليس بحل له ، كما لا يحرّم على المقضي عليه ما يعلم من نفسه أنه حلال له وحق .

ومثال ذلك : ما لو شهد شاهدان طلاق امرأة زوراً ، وأنكر الزوج تطبيقها ، وحكم القاضي بالفراق ، فإنه لا يحل لهذه المرأة أن تتزوج بأحد غير زوجها الأول ، لأنها ما زالت زوجة في شرع الله عز وجل ، كما لا يحرّم على زوجها معاشرتها ، لأنها في الحقيقة لم تطلق منه .

والأصل في هذا : ما جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها السابق : أنه ﷺ قال : « فمن قضيت له في حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » . فقد سئى ﷺ للقاضي له أن يأخذ ما علم أنه ليس بحقه وأخبره أنه قطعة من النار ، فعدل على أن القضاء له به لم يحله له ، وبالتالي لا يحرّم على خصمه وهذا هو المنفي به لدى جميع المذاهب المعبرة .

١٤- أجزأ القاضي العادل : إن واجب القاضي أن يعدل جهده للتعرف على حوائج الدعوى ، وينبغي بحسب ما توصل إليه لعباده أنه الحق ، وظن أنه الصواب ، لقوله ﷺ - فيما رواه البخاري من حديث أم سلمة رضي الله عنها -

« فأحسب أنه صدق ، فأقضي له بذلك » . فإذا فعل هذا كان قضاءه بالعدل وألجب عن فعله ، سواء أصاب الحق وواقع الأمر ثم أخطأ ، لأنه أتى بالذي عليه من تحري الحق ، وقضى بما كلف به من الصحيح الظاهرة ، روى البخاري ومسلم وغيرهما ، من حديث عمرو بن شعيب رضي الله عنه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإن حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » .

١٥ - **فأضرب في الحجة وقاضيان في النار** . من شروط تولي منصب القضاء أن يكون من يتولاه عالماً بالخلال والحرم في شرع الله عز وجل ، ولديه القدرة على الرجوع إلى مصادر التشريع الإسلامي ، واستنباط الأحكام الشرعية للمعونات التي تعرض له . ثم هو مكلف - كما علمنا - بالاجتهاد والتحري لقضايا والقضاء بما ظن أنه الحق ، فإن أقدم عن القضاء دون روية وبدل جهده ، أو كان جاهلاً بشرع الله عز وجل ، كان آثماً وإن وظن لقضاء الحق وواقع الأمر ، لأن موافقته كانت عن غير قصد ، وإن هو أصاب الحق مرة فسوف يخطئه في كل مرة . والتويل كل التويل لنفاصي الذي عرف الحق وقضى بخلافه لقاء عرض من الدنيا قليل ، أو يدفع الخوى والشمعي والظلم .

روى أبو داود وغيره : عن النبي ﷺ قال : « القضاء ثلاثة : واحد في الحجة واثان في النار : فأما الذي في الحجة : فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فحار في الحكم فهو في النار ، ورجل قصى الناس على جهن فهو في النار » .

إِزَالَةُ الْمُشْكِرِ فَرِيضَةً إِسْلَامِيَّةً

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« مَنْ زَانَى بَشْرًا فَتَبَيَّنَتْهُ يَدِي ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قِيْلَاسِي ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَقَبْلِي ، وَذَلِكَ أَصْنَفُ الْإِيمَانِ » . رواه مسلم .

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان ، (باب بيان تكون النبي عن الشكر من الإيمان ،
وأن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب)
رقم : / ٤٩ / .

لغة الحديث :

« منكم » : أي من المسلمين الكافرين ، فهو خطاب لجميع الأمة .

« منكراً » : وهو ترك واجب أو فعل حرام ولو كان صغيرة .

« فليخبر » : طريقته ويخبره ويخبره إلى طاعة .

« يده » : إن توقف تغييره عليها كنكسر آلات اللهو وإزالة الخمر ومنع ظالم
عن ضرب ولحقه .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١- مناسبة رواية أبي سعيد رضي الله عنه للحديث : روى مسلم : عن
طارق بن شهاب قال : أول من بدأ بالحطية يوم العيد مروان ، فقام إليه رجل فقال :
الصلاة قبل الحطية ، فقال : قد ترك ما هناك ، فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى
ما عليه - أي أدى الواجب عليه من إنكار مخالفة رسول الله ﷺ - ثم قال

سمعت .. الحديث . ترك ما هالك : أي ترك ما كنت تعلمه من تقديم الصلاة على الخليفة .

وعند البخاري ومسلم : أن أبا سعيد رضي الله عنه هو الذي حذبه من يده وقال له ما قيل ، ورد عليه مروان بن الحارث ، فلعل الرجل أنكر بلسانه أولاً ، ثم حاول أن يسيء رضي الله عنه ليعبر المكر بيده ثانياً ، والله تعالى أعلم .

٢- معالجة أهل الباطل : إن الحق والباطل متفرقان على وجه البسيطة مع وجود البشر ، وكلما تحمدت حذوة الإيمان في النفوس بعث الله عز وجل من يذكرها ويؤججها ، وهما الحق رجالاً يهضون به ويتألمون عنه ، فيقضي أهل الباطل والضلال خائعين ، فإذا سمحت لهم فرصة نشطوا ليعيثوا في الأرض الفساد ، وعندها تصبح المهمة شاقة على من تعاطت مشاةة الإيمان قلوبهم ، ليقفوا في وجه الشر يصفعونه بالفعل والقول ، وسخط النفس ومقت القلب . ولا يطمئن للطفة الأشرار ويرضى بعلومهم ويتضع لهم إلا أولئك الذين تطفأ نور الإيمان في قلوبهم ، ورضوا لأنفسهم الحزني في الدنيا والعذاب المهيئ في الآخرة .

أخرج مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ما من نبي بعثه الله في أمة قط إلا كانت له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنة ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدكم بدينه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » . حواريون : غلصاء أصفياء ، تخلف : تحدث . خلوف : جمع تخلف وهو الذي يخلف بشر . خردل : نبت صغير الحبة يضرب به المثل في القلة .

٣- إنكار المنكر : فقد أجمعت الأمة على وجوب إنكار المنكر ، فوجب على المسلم أن ينكر المنكر حسب طاقته ، وأن يعبره حسب قدرته على التعبير ، بالفعل أو القول ، بيده أو بلسانه أو بقلبه :

أ - الإنكار بالقلب : معرفة المعروف والمنكر ، وإنكار المنكر في القلب ، من المعروف العيبة التي يكلف بها كل مسلم ، ولا تسقط عن أحد في حال من الأحوال ، فمن لم يعرف المعروف والمنكر في قلبه هلك ، ومن لم ينكر المنكر في قلبه دل على دعاب الإيمان منه . روى أبو حنيفة رضي الله عنه ، عن علي رضي الله عنه قال : إن أول ما تغيبون عليه من الجهاد جهاد بأيديكم ، ثم الجهاد بألستكم ، ثم الجهاد بقلوبكم ، فمضى لم يعرف قلبه المعروف وينكر قلبه المنكر بكس ، فجعل أفعاله أسطه . وسمع ابن مسعود رضي الله عنه رجلاً يقول : هلك من لم يأمر بالمعروف ولم يه عن المنكر ، فقال ابن مسعود : هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر .

ب - إنكار القلب عند العجز : إنكار القلب بخلص المسلم من المسؤولية إذا كان عاجزاً عن الإنكار باليد أو اللسان . قال ابن مسعود رضي الله عنه : يرثك من عاش منكم أن يرى منكراً لا يستطيع له عير أن يعلم الله من قلبه أنه له نكراه . والعجز أن يخاف إلحاق ضرر بدنه أو ماله ، ولا طاقة له على تحمل ذلك ، فإذا لم يملك على طه حصول شيء من هذا لا يسقط عنه الواجب بإنكار قلبه ، بل لا بد له من الإنكار باليد أو اللسان حسب القدرة . أخرج أحمد وابن ماجه : من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقن الله عهداً حننه قال : يا رب رجوتك ومرت من الناس » أي رجوت الطوبى منك والمغفرة ، وعشيت أن يصيبني أدى من الناس في نفسي أو مالي .

ج - الرضا بالخطيئة - المعصية - كبيرة . من علم بالخطيئة ورضي بها فقد ارتكب دماً كبيراً ، وأتى أفحح المحرمات ، سواء شاعده فعلها أم غلب عنه ، وكان الله كائناً من شاعدها ولم ينكرها . روى أبو داود عن القرض بن عمرو رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إذا عميت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهاها وقال مرة : أنكرها . كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرفضها كمن

شهادتها . . وذلك لأن الرضا بالخطيئة يعوت به إنكار القلب ، وقد علمنا أنه فرض عين ، وترك فرض طبعين من أكثر . وقوله **عَلَيْكُمْ** : « كلمة من شهادتها فكرها كمن عاب عنها » أي من حيث عدم الإثم ، وذلك إذا كان عاجزاً عن الإنكار باليد أو اللسان ، كما علمت .

2 - الإنكار باليد أو اللسان له حكمان .

١ - فرض كفاية . إذا رأى المكرك أو علمه أكثر من واحد من المسلمين واجب إنكاره وتعميره عن مجموعهم ، فإذا قام به بعضهم ولو واحداً كفى وسقط العيب عن البقية ، وإذا لم يقم به أحد أثم كل من كان يتمكن منه بلا عذر ولا خوف ، وعن على الطحطاوي على الكفاية قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْفُتُورِ وَيَجْهَرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَهْوُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] . والأمة جماعة ، وهي بعض المسلمين .

٢ - فرض عين : وإذا رأى المكرك أو علمه واحد ، وهو قادر على إنكاره أو تغييره ، فقد تعين عليه ذلك . وكملت إذا رآه أو علمه جماعة ، وكان لا يتمكن من إنكاره إلا واحد منهم ، فربما يعين عليه ، فإن لم يقم به أثم . دل على هذا عموم قوله **عَلَيْكُمْ** : « من رأى منكم منكراً » أي ولم يره غيره ، وعلى الرأية العلم أو التمكن .

٣ - عاقبة ترك إزالة المكرك مع القدرة عليها . إذا ترك النبي عن المكرك استشرى الفسق في الأرض ، وشاعت الفحشاء والمنكر ، وتسلطوا على الأخيار والمهروء ، وأحمر هؤلاء عن دينهم بعد أن كانوا قاندين عديهم ، فتطمس معالم النبوة ، ونعم الرذيلة ، وأخذوا يستحلون جميع عصب الله تعالى وإدلاله واستقامه . قال الله تعالى : ﴿ لَمَّا نَسُوا مَا كُفِّرُوا عَنْهُمْ لَيْسَ لَهُمْ تَعْوِيلٌ ﴾ [آل عمران : ٧٨] . لا يأتون عن مكرك قتلوه ليس ما كانوا يقتلون ﴿ [المائدة : ٧٨ - ٧٩] لا يأتون . لا يأتون بعضهم بعضاً إذا رآه عن المكرك . والأحاديث في هذا كثيرة ، منها :

أخرج أبو داود : عن أبي بكر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، ثم يقترون على أن يعفروا ثم لا يعفروا ، إلا يوشك أن يعذبهم الله منه بعقاب » . وفي لفظ : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، هم أكثر ممن يعمل » . وخرج أيضاً من حديث جرير رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول : « ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، يقترون على أن يعفروا عليه فلا يعفروا ، إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا » . وعبد أحمد بلفظ : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، هم أكثر وأكثر من يعمل ، فلم يعفروا ، إلا عذبهم الله بعقاب » .

وخرج من حديث عدي بن حمير رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا الشكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة » . وفي رواية : « ولكن إذا عمل المشرك جهاراً استحقوا العقوبة كلهم » . العامة : عامة الناس . الخاصة : هم الذين يقومون بارتكاب الذنوب . جهاراً : أي مستعلنين به بحيث يطلع عليه عامة الناس .

وحسبنا في هذا ذلك المثل الرائع الذي صرحه لنا رسول الله ﷺ بروعة بيانه وجوامع كله إذ قال : « مثل القمام في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استمعوا على سفينة ، قصار بعضهم أطلامها وبعضهم أسعفلها ، وكان الذين في أسعفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤد من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » . رواه البخاري .

القمام في حدود الله : المشرك لفعل ما نهى الله تعالى عنه ، والبادل جهده في دفعه وإزالته . الواقع فيها : مرتكبها . استمعوا : افرغوا . أسعدوا على أيديهم : منعوهم وكفروهم عما أرادوا من ثوب السفينة .

قد دل الحديث : أن كل مكر يرتكبه الإنسان في مجتمعه إنما هو حرق خطير في سلامة ذلك المجتمع .

٥- تصحيح للفهم خاطيء : يخطئ الكثير من المسلمين حين يرغبون في تبرير انحرافهم وتقصيرهم في إنكار الشكر ، فيحتملون بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلُّ إِذَا اعْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥] . عل أن الآية نفسها توجب القيام بإنكار الشكر إذا فهمت الفهم الصحيح ، فقد روى أبو داود وغيره عن أبي بكر رضي الله عنه قال : يا أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلُّ إِذَا اعْتَدَيْتُمْ ﴾ وإذا سمعنا النبي ﷺ يقول : (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعذبهم بعقاب) .

قال النووي رحمه الله في شرح مسلم : المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية : إنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم نقص غيركم ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام : ١٦٤] وإذا كان كذلك : فمما كلف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإننا فعله ولم يمثل الخاطب ، فلا يجب بعد ذلك على القائل ، لكونه أدى ما عليه ، فإنما عليه الأمر والنهي ، لا القبول ، والله أعلم .

٦- ترك الإنكار محضية وقروح مفسدة : إذا كان التكليف قادراً على إنكار المنكر الذي رآه أو علمه ، لكنه غلب على ظنه أن تحدث نتيجة إنكاره مفسدة ويرتب عليه شر ، هو أكبر من المنكر الذي أنكره أو عجز ، فإنه في هذه الحالة يسقط وجوب الإنكار ، عملاً بالأصل العقلي : يرتكب أخف الضررين تفادياً لأشدّها .

عل أنه ينبغي أن يدرك هنا إلى أن الذي يسقط وجوب الإنكار غالبية الظن ، لا الوهم والاحتمال الذي قد يتعرض به الكثير من المسلمين ، ليبرروا لأنفسهم ترك هذا الواجب العظيم من شرع الله عز وجل .

٧- الأمر والشيء لمن علم أو غلب على الثقل عدم قبوله : ذهب العلماء إلى القول بوجوب الأمر والشيء لمن علم أنه لا يقبل منه ، ليكون في هذا معذرة للمسلم الأمر بالشيء ، ولأن المطلوب منه هو الإنكار لا القبول ، كما صرح به النووي رحمه الله تعالى في كلامه السابق ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ مَذْكُرٌ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : ٢١] ويقول : ﴿ إِنْ حِبِبْتَ إِلَّا إِسْلَاحٌ ﴾ [الشورى : ٤٨] . ويقول : ﴿ وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] . وهو ما قصده أبو سعيد رضي الله عنه حين قال : أما هذا فقد قضى ما عليه . ولقد أحرر الله تعالى عن النبي أشكروا أهل المحدثين في سبب وقد علموا أنه لا فائدة من وعظهم والإنكار عليهم . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا أَلْفَ مِائَةٍ مِنْهُمْ مَعْذِرَةً إِذْ ظَلَمُوا أَعْلَى دِينِكُمْ وَالْعَظِيمُ ﴾ [الأعراف : ١٦٤] .

وفي ذلك رد صريح على أولئك الذين يجهلون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويريدون أن يصلوا غيرهم عن القيام بواجبه ، فيقولون : لا تنعب نفسك ، ودع الأمور ، لا فائدة من الكلام ، وربما احتجوا بحديثين بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : ١٧] . ويجب عن ذهنهم أنها نزلت في شأن أبي طالب ، الذي ما زال رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام ، وبأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ، حتى لفظ الأنفاس الأخيرة وهو على شركه ، نزلت الآية تواسي النبي ﷺ لحزنه على عمه الذي دافع عنه وناصره ، مبيته له : أنه لا يستطيع أن يجعل الهداية في قلب من أحب ، لا أنها تنهيه عن الأمر والنهي . وكيف ؟ والله تعالى يقول : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] ويقول له : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر : ٩٤] .

٨- قول الحق دون خوف أو رهبة : على المسلم أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر دون أن يلتفت إلى شأن من يأمره أو ينهيه ، من منصب أو جاه أو غنى ، ودون أن يلتفت إلى لوم الناس وعيبتهم وتحذيرهم ، ودون أن يأبه بما قد ياله من

أذى مادي أو معنوي يقدر على تحمل في طاقته ، على أن يستعمل الحكمة في ذلك ، ويخاطب كلاً بما ياسبه في كل موقف ما يلائمه . أخرج الترمذي وابن ماجه ، من حديث أبي سعيد الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في خطبة : « ألا لا يمنع رجلاً هبة الناس أن »
 عنه وقال : قد والله رأيت أنباء عهد الحق إذا علمه « وبكى أبو سعيد رضي الله عنهما من أجل ولا يبعد من روى أن يوجه الإمام أحمد وزاد فيه : « فإنه لا يقرب وابن ماجه ، من حديث أبي سعيد أو يذكر بعظيم » . وكذلك أخرج أحمد أحدكم نفسه ، قالوا : يا رسول الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لا يحقر عليه فيه مقال ، ثم لا يقول فيه ، يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمر الله فيقول : عشت الناس ، فيقول الله له : ما منعك أن تقول في كذا وكذا ؟ أي يتوجب عنه فيه أن يقول قوله له : كنت أحق أن تحشى » . عليه فيه مقال : قال العلماء : والخديفان معاً .

عن الخوف للسقط للإتكار ، أي .
 أو أذى لا يطقه في نفسه أو ماله أن يكون المانع له من الإتكاف مجرد الهبة ،
 ٩ - أمر الأمراء ونهيم : أي مر ذكره ، والذي يحشى منه شر أكبر ، كما أنه حق لها . والأمة رئيس وم

الرحمة كذلك يجب على الأمة أن
 وقد مر بك حديث مسلم « فسوف والنبي عن المنكر واجب على الأمة ، ما فسوه من الشكرات ، بأن يرمي فكما يجب على الأمراء أن يأمرؤا وينهؤا ويظلم يده ما أمرؤا به من معصي أمراءها ، قياماً بالواجب وأداءً للحق .
 قال سعيد بن مسهر : قلت لأبي

قال : إن خفت أن يقتلك فلا ، ثم عدت فقال لي مثل ذلك ، ثم عدت فقال لي مثل ذلك ، وقال : إن كنت لا بد فاعلاً فليما بينك وبينه . قال طلوس : أي رجل

ابن عباس فقال : ألا أقوم إلى هذا السلطان فأمره وأنهاه ؟ قال : لا تكن له فتنة ، قال : أترأيت إن أمرني بمعصية الله ؟ قال : ذلك الذي تريد ؟ فكان حينئذ رجلاً . قال إمام الحرمين : وإذا جار وإلى الوقت وظهر ظلمه ، ولم يترجر عن سوء صنيعه بالقول ، فلأهل الخلل والعقد التواطؤ على خلعه . قال النووي : وهذا معمول على ما إذا لم يخلف منه إثارة مفسدة أعظم منه .

ورضى الله عن أبي بكر ، إذ وقف عقب استخلافه ليضع للنهج السوي الذي يستقيم عليه أمر الراعي والرعية ، فقال : وليت عليكم وليت عليكم ، إن أحسنت فأعبدوني وإن أسأت ظلموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم . ورضي الله تعالى عن فاروقه عمر ، إذ أكد واجب الرعية في الصبح ، وواجب الرعاة في القبول ، فقال — وقد قال له قتال : اتق الله يا عمر ، وأغلظ له بالقول ، واختصمها من يرغب أن يتزلف إلى السلطان ويكسب وده ، فقال : عطف على أمير المؤمنين — فقال عمر رضي الله عنه : لا خير فيكم إن لم تقولوها — أي كلمة النصيح — ولا خير فيها — أي معاشر الحكام — إن لم قبلها . وعن الله تعالى ولادة أمور المسلمين للاقتداء بولاء السادة الأئمة .

٦٠ - مباحبة لا فتنة : ليس تغير المنكر بالسيف والسلاح الذي يخشى منه الفتن ويؤدي إلى سفك دماء المسلمين هو المطلوب ، ولكن المباحبة التي هي حقيقة الدين كما علمت فيما سبق عن الخلفيتين الراشدين ، قال عليه الصلاة والسلام : الدين النصيحة ، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، رواه مسلم . والنصح لكتاب الله تعالى العمل به ، والنصح لرسوله ﷺ بالتزام سنته ، والنصح للمسلمين أئمة وعامة بالتأمر بهم بالمعروف والنهي عن المنكر . قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ لَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُعِظُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] .

١١- الغلظة واللين في الأمر والنهي : ينبغي أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحكمة ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] . وتختلف الحكمة حسب حال الأمور والنهي ، وما يؤمر به أو ينهى عنه ، وما يكون أنفع وأبلغ في الزجر ، فتارة ينبغي استعمال اللين في القول والمعاملة والمداواة ، وتارة لا تصلح إلا القسوة والغلظة ، قال تعالى ، مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام : ﴿ ادعيا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ [طه : ٤١-٤٣] وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جامع الكفار والمنافقين واغلق عليهم ﴾ [التوبة : ٧٣] وقال : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ [الحجر : ٩١] .

ولذلك كان من يأمر وينهى لا بد فيه من صفات ، أهمها : الرفق ، والعدل ، والعقل ، والعلم . قال سفيان الثوري : لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال : رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى ، عدل بما يأمر وعدل بما ينهى ، عالم بما يأمر عالم بما ينهى . قال الإمام أحمد رحمه الله : الناس يحتاجون إلى مداراة ورفق ، والأمر بالمعروف بلا غلظة ، إلا رجل معلن بالفسق ، فلا حرمة له . قال أحمد : يأمر بالرفق والتخوض . فإن أصغره ما يكره لا يفتضب ، فيكون يريد أن ينتصر لنفسه . وقال : وكان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون يقولون : مهلاً رحمكم الله ، مهلاً رحمكم الله .

١٢- المصابرة والعمل الأذى في الأمر والنهي : قال ابن شبرمة ، ونص عليه أحمد : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالجهاد ، يجب على الواحد أن يصابر فيه الاثنين ، ويحرم عليه الفرار منهما ، ولا يجب عليه مصابرة أكثر من ذلك ، وإن احتمل الأذى ولقوي عليه فهو أفضل ، قال تعالى : ﴿ وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأصرّ على ما أصابك ﴾ [لقمان : ١٧] . فإن خاف نسب أو سماع الكلام السيء ، لم يسقط عنه الإنكار بتل هذا .

١٢- كرامة لا ذلة : ليس فيما ينال المسلم من أذى في سبيل أمره وسببه ذلة أو مهانة ، وإنما هي عزة وشرف ورفعة في الدنيا والآخرة ، وشهادة في سبيل الله عز وجل ، بل أعظم شهادة . قيل لأحد : أليس قد جاء عن النبي ﷺ أنه قال : ليس للمؤمن أن يذل نفسه ، أي يعرضها من البلاء ما لا طاقة له به ؟ قال : ليس هذا من ذلك . أي إنه إذا علم أنه لا يطيق الأذى ولا يصبر عليه ، والكلام فيمن علم من نفسه التصبر على ذلك . فالأول ينكر بقلبه ويسلم ، وإن أنكر بيده كان أفضل . ويذل على ما قاله ما خرج أبو داود والترمذي وابن ماجه ، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » . وأخرج الحاكم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره وجاهه ، فقتله » . وفي مسند الهزلي ، عن أبي حمزة بن الجراح رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أي الشهداء أكرم على الله ؟ قال : « رجل قام إلى إمام جائر ، فأمره بمعروف ونهاه عن منكر ، فقتله » . سيد الشهداء حمزة ... أي أكثر أجراً وقراباً من الله تعالى .

١٤- إنكار منكر ظاهر أو معلوم ، لا نجس على خفي متوهم مستور : يجب على المسلم أن ينكر المنكر إذا كان ظاهراً وشاهدته ورآه ، دل على ذلك قوله ﷺ : « من رأى منكم منكراً » . فإذا داخله ريبه وشك في منكر خفي مستور عنه ، فإنه لا يتعرض له ولا يفتش عنه ، لأن هذا النوع من التجسس المنهي عنه . ويقوم مقام الرؤية علمه بالمنكر ، وتخلقه عن وفوجه ومعرفة موضعه ، كما إذا أخبره لقة بذلك ، أو كانت هناك قرائن تجعل الظن غالباً بوجود المنكر ، ففي هذه الحالة يجب عليه الإنكار بالطريقة المناسبة التي تكفل القضاء على المنكر ، واستقصاء جفوره فشر واقتصاد من التفتحات . وهل له أن يتصور الجدران ، ويداهم البيوت ، ويقدم على الكشف والبحث والتحقيق ؟ بطل ، فإن كان المنكر الذي عذب على ظنه الاستمرار به انتهاك حرمة ، بفوت استدراكها بالتمهل ومرور الوقت ، كالزنا والقتل ،

قَدْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ، بَلْ لَهُ أَنْ يَتَجَسَّسَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ عَلَى الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَتَارَ حَوْلَهَا الشُّبُهَةُ وَالشُّكُوكُ وَتُكْتَفَتِهَا الْقُلُوبُ ، حَتَّى لَا تَنْشَطَّ حَرَائِمُ الرِّذِيلَةِ فِي بُؤْسِ الدُّنْيَا وَالْإِثْمِ . أَمَّا إِنَّمَا لَمْ تُكُنِ الْمُنْكَرَاتُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ فَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ ، وَلَقَدْ قَبِلَ لِأَيِّنْ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنْ فَلَانًا تَلَطَّطَ بِخَبْرِهِ خَيْرًا ، فَقَالَ : نَهَانَا اللَّهُ عَنِ التَّجَسُّسِ .

١٥- لَا إِنْكَارَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ : أَقْدَقَ قَرَرِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْإِنْكَارَ يَكُونُ لِفَعْلٍ مَا أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَحْرِيمِهِ أَوْ تَرْكِ مَا أَجْمَعُوا عَلَى وَجُوبِهِ ، كَشُرْبِ الْخَمْرِ وَالتَّعَامُلِ بِالرِّبَا وَمَقْصُورِ النِّسَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، أَوْ تَرْكِ الصَّلَاةِ أَوْ الْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ أَيْضًا .

أَمَّا مَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَحْرِيمِهِ أَوْ وَجُوبِهِ فَلَا يَنْكَرُ عَلَى فَعْلِهِ أَوْ تَرْكِهِ ، شَرِيعَةً أَوْ يَكُونُ هَذَا الْاِخْتِلَافُ مِنْ بَعْدِ بَعْضِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَأَنْ يَكُونَ نَاشِئًا عَنْ دَلِيلٍ ، فَلَا يَحْتَاجُ الْاِخْتِلَافُ الْمُبْتَدِعُ وَالْمُرْتَقِ الْمُطَالِقَةُ لِنِسَةِ كَالْمُتَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا لَا يَحْتَاجُ فِيمَا كَانَ الْاِخْتِلَافُ فِيهِ ضَعِيفًا لِكُونِهِ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ ، أَوْ لِقِيَامِ أُدْلَةٍ صَحِيحَةٍ عَلَى خِلَافِهِ ، وَذَلِكَ كَتَشْكِيحِ النِّسَةِ ، وَهُوَ الزَّوْجُ الْمُبْدَعُ بَرَقَتْ ، فَهُوَ بِأَمَلٍ وَيَنْكَرُ عَلَى فَعْلِهِ ، بَلْ يَحْتَرِ زَانِيًا وَيَقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ ، وَإِنْ قَالَتْ بِهِ بَعْضُ طَوَائِفِ الْمُسْلِمِينَ ، لِقِيَامِ الْأَدْلَةِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ عَلَى تَحْرِيمِهِ وَنَسِيخِ حَلِّهِ .

١٦- عَمُومُ الْمَسْئُولِيَّةِ وَمَحْصُوصُهَا : إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبُ الْأُمَّةِ جَمْعًا ، فَكُلُّ مُسْلِمٍ عَالِمٍ بِالْمُنْكَرِ وَاقِفٍ عَلَى إِتْكَارِهِ وَجِبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي عَلِمَتْ ، لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ حَاكِمٍ وَمَحْكُومٍ ، أَوْ عَالِمٍ وَعَامِيٍّ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَكُنْ مِنْ حِزْبِ آيَةِ الْأَعْرَاجِ لِلنَّاسِ بِأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ١١] . وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَالتَّوَّابُونَ وَالْمُتَزَكِّينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ بِأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التَّوْبَةِ : ٧١] . وَكُلُّ مِنَ الْخَطَايَا لِلْأُمَّةِ عَامَّةٍ ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ نصوصِ نِسَةِ الْخُطَابِ فِيهَا عَامٌ لِجَمِيعِ الْأَفْرَادِ : « تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّوَّابُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ » مِنْ رَأْيِ مُسْلِمٍ مُتَكَرِّرٍ عَلَيْهِمْ . وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةُ تَنَاسَكَ عَلَى صِلَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ ، وَهُمَا : الْعُمَّاءُ وَالْأُمَرَاءُ .

أ - أما العلماء : فلا أنهم يعرفون من شرع الله تعالى ما لا يعرفه غيرهم من الأمة ، ولما لهم من هبة في النفوس واحترام في القلوب ، مما يجعل أمرهم وبهم أقرب إلى الامتثال وأدعى إلى القبول ، ولما أعطاهم الله تعالى من الحكمة والموهبة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [المجادلة : ١٩] .

والخطر الكبير عندما يتساهل علماء الأمة بهذه الأمانة التي وضعها الله تعالى في أعناقهم ، روى أبو داود والترمذي واللفظ له ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : رسول الله ﷺ : « ما وقعت جز إسرائيل في المعاصي نهيم علماءهم فلم يبنوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً ، فقال : « لا والذي نفسي بيده ، حتى تأطروهم على الحق أطراً » . أي تعملوهم عليه وتحبسوهم وتعطفوهم وتردوهم إليه .

ب - وأما الأمراء : أي الحكام ، فإن مسؤوليتهم أعظم ، وخطورهم إن قصروا في الأمر والنهي أكثر ، لأن الحكام لهم ولاية وسلطان ، ولديهم قدرة على تنفيذ ما يأمرون به وينهون عنه وحمل الناس على الامتثال ، ولا يمتنع من إنكارهم مفسدة ، لأن القوة والسلاح في أيديهم والناس ما زالوا يحسون حساباً لأمر الحاكم ونهيه . ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « من بزع السلطان أكثر ممن بزع القرآن » ذكره ابن الأثير في النهاية . أي إن هناك أئمة لا يتأثرون بالموهبة والإرشاد فيردعوا عن الخائفة ويدعوا للحق ، بينما يرددعون ويتزعمون حين يلوح لهم الحاكم بعضاً أو برصم يرين سيقه .

فإذا قصر الحاكم في الأمر والنهي طمع أهل المعاصي والمجور ، ولشغلوا بشر الشر والفساد ، دون أن يراعوا حرمة أو يقدموا شرعاً ، ولذا كان من الصفات الأساسية للحاكم الذي يتولى الله تأييده ونصرته ، ويثبت ملكه ويسدد خطته ، أن

بأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، قال تعالى : ﴿ وَلْيُصِرَّتْ لَكَ الْفِتْنَىٰ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقْبَلُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ اللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤٠-٤١] . مكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ : جعلنا لهم السلطان والحكم .

فإذا أهل الحكم هذا الواجب العظيم فقد عموا الأمانة التي وضعها الله تعالى في أفعالهم ، وضعوا الرعية التي استرعاهم الله تعالى عليها .

والبلية كل البلية أن يفسد هؤلاء الحكماء في الممالك ولا يعمروا أوطاناً صالحة لناصح أو مرشد ، وأسوأ من هذا أن يأمرُوا بالمنكر ونهى عن المعروف ويعملوا بغير شرح الله عز وجل ، فبغير بولاة المسلمين أن يعمروا شرح الله تبارك وتعالى ، ويستمطروا الجمالية منه والعموم بإقامة شرعه وأمر الناس بالمعروف والعمل على نشره ونهيهم عن المنكر والعمل على استئصاله من المجتمعات ، ويعلموا أن يكونوا بمن قال الله عز وجل فيهم : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْبَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص : ٤١] .

١٧- من آداب الأمر والنهي : أن يكون منفصلاً لما يأمر به ، مجتنباً لما ينهى عنه ، حتى يكون لأمره ونهيه أثر في نفس من يأمره وينهى ، ويكون لفعله قبول عند الله عز وجل ، فلا يكون تصرفه حجة عليه لوقوعه في نار جهنم يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ . كَثُرَ مَثَلًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصف : ٢-٣] كثير مثلاً : عظم مثله له سبحانه أي أشد غضبه لذلك . وروى البخاري ومسلم ، عن أنسمة بن زيد رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤقى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فسئلوا آداب بطله ، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحما ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ، مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتبه ، وأسى عن المنكر وآتبه » . كذلك : نخرج . آداب بطله : أمثاله وأحشائه .

١٨ - من حصل الإيمان : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حصول الإيمان ، وتفاوتت درجة الأمر والنهي في الفضل حسب درجة أمره ونهيه ، فالذي يغير يده أفضل ممن يغير بلسانه ، والذي يغير بلسانه أفضل ممن يقتصر على الإنكار في قلبه وإن كان عاجزاً عما قبله ، يدل على ذلك قوله ﷺ : « ذلك أضعف الإيمان » . كما يدل عليه قوله ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » .

١٩ - النية والقصد في الأمر والنهي : ينبغي أن يكون الحامل على الأمر والنهي هو ابتغاء رضوان الله تعالى وإشغال أمره ، لا حب الشهرة والعلو وغير ذلك من الأغراض الدنيوية . فالؤمن يأمر وينهى غضباً لله تعالى إذا انتهكت محارمه ، ونصيحة للمسلمين ورحمة بهم إذا رأى منهم ما يعرضهم لغضب الله عز وجل وعطوته في الدنيا والآخرة ، وإنقاذاً لهم من شر الويلات والمصائب عندما يتخسسون في المخالفات ويتقادون للأهواء والشهوات . ينبغي من وراء ذلك كله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونهي نفسه من أن يتأله عذاب جهنم إن هو قصر في أداء الواجب ، وترك الأمر والنهي . روى البخاري ومسلم : عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : بعثت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم .

٢٠ - العبودية الحقة : قد يكون الباحث لدى المؤمن على الأمر والنهي إجلاله البالغ لمظمة الله سبحانه ، وشعوره أنه أهل لأن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . ويذكر في ذلك في نفسه محبة الصائفة لله عز وجل ، التي فككت من قلبه وسرت في آفاق روحه سر بان الدم في العروق ، ولذلك تجده يزور أن يستقيم الخلق ويلتزموا طاعة الحق ، وأن يفندي ذلك بكل غال ونفيس يملكه ، بل حتى ولو ناله الأذى وحصل له الضرر ، يتقبل ذلك بصدور رحب ، وربما تضرب إلى الله عز وجل أن يتغفر لمن أساء إليه ويهديه سواء السبيل . وهذه مرتبة لا يصل إليها إلا من تحققت في نفسه العبودية الخالصة لله عز وجل ، وانظر إليه ﷺ وقد

آذاه قومه وصبروه ، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . وقال بعض السلف : وددت أن الخلق كلهم أطاعوا الله وأن لمسي فرض بالقاريض . وكان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز يقول لأبيه : وددت أني غلت لي وبتك القصور في الله تعالى . وما ذاك كله إلا لأن من كمال الإيمان أن يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير ، كما علمت .

٢١- محلاصة التوجيه من عالم رباني : لقد تكلم الإمام شنودي رحمه الله تعالى — هذا العالم الرباني الذي جعل الله البركة في حياته ، والفتح بعلمه — تكلم بكلام في شرح مسلم ، يكاد يكون صفوة القول ومنهياً كاملاً في هذا الباب ، أحببنا أن نجته لك ها هنا . قال رحمه الله تعالى :

وأعلم أن هذا الباب ، أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قد ضيع أكثره من أزمان متطوالة ، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً ، وهو باب عظيم به تقوم الأمر وملاكة ، وإذا كثرت الخسائر عم العقاب الصالح والطالح ، وإذا لم يأمنوا على يد الظالم أوشكت أن يصيبهم الله بظلمة : ﴿ فليحذر الذين يُحالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [البور : ٦٢] . فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل أن يعنى بهذا الباب ، فإن فلاحه عظيم ، لا سيما وقد ذهب معظمه ، وتخصت نيته . ولا يباين من ينكر عليه لارتفاع مرتبته ، فإن الله تعالى قال : ﴿ وليصرون الله من ينصرون ﴾ [الحج : ٤٠] . وقال تعالى : ﴿ ومن يعصم الله فقد جددني إلى صراط مستقيم ﴾ [آل عمران : ١٠٦] . وقال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فبنا لهم جنتهم سكناً ﴾ [العنكبوت : ٦٩] . وقال تعالى : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [العنكبوت : ٢-٣] . وأعلم أن الأمر على قدر النصب . ولا يتركه أيضاً لصداقه ومودته ومداينته ، وحسب المواجهة عند دوام الدلالة لديه ، فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحققاً ،

ومن حقه أن تصححه ويهديه إلى مصالح آخرته ، وينقذه من مضارها ، وصديق الإنسان وصيه هو من سعى في عبارة آخرته ، وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه ، وعطوه من يسعى في ذهاب أو نقص آخرته ، وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه ، وإنما كان إبليس عدواً لنا لهذا ، وكانت الأنبياء — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — أولياء للمؤمنين لمسيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها ، ونسأل الله الكريم توفيقنا وأحيانا وسائر المسلمين لرضائه ، وأن يعنا بمجوده ورحمته ، والله أعلم .

قال : ويهدي للآمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يرقى ليكون أقرب إلى تفصيل المطلوب ، فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : من وعظ أخاه سرّاً فقد تصححه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه . ومما يساهل الناس فيه من هذا الباب : ما إذا رأى إنساناً يبيع متاعاً مبيعاً أو نعوه ، فإيهم لا ينكرون ذلك ، ولا يعرّفون المشتري بميله ، وهذا خطأ ظاهر ، وقد نص العلماء على أنه يجب على من علم ذلك أن ينكر على البائع ، وأن يعلم المشتري به ، والله أعلم .

أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَحُقُوقُ الْمُسْلِمِ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسنوا ، ولا تتأجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تذايروا ، ولا تبغ بعضكم على تبع بعض ، وكونوا بعبادة الله إخوة ، المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يكرهه ، ولا يخذله ، ولا يخذله ، الثقلان فيهما - ويُعيرُ إلى صلبه ثلاث مرّات - بحسب أثرى من الشر أن يقرّ أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » رواه مسلم .

الحديث رواه مسلم في كتاب البر والصلة (باب تحريم الظن والتحسس والتماس) رقم /٢٥٦٤/ .

أهمية الحديث :

لا يقتصر الرسول الكريم ﷺ بتأكيد الأخوة الإسلامية على رفعها كشعار ، بل يجعلها بأوامر ولوازم تجعلها حقيقة ملموسة بين أفراد المجتمع المسلم ، وهذا الحديث اشتمل على أحكام كثيرة وفوائد عظيمة ليلوغ هذه الغاية الإسلامية السليمة ، وحمايتها من كل عيب أو خلل ، حتى لا تصبح الأخوة كلاماً يلف به الناس ، وغيباً يحلمون به ولا يلمسون له في واقع حياتهم أي أثر ، ولذلك قال النووي في الأذكار عن هذا الحديث : وما أعظم نفعه ، وما أكبر موائده .

وقال ابن حجر العسقي : هو حديث كثير الفوائد ، مشر إلى حل المبادئ والمقاصد ، بل هو عند تأمل معناه وفهم مغزاه حار لجميع أحكام الإسلام منظومةً ومفهوماً ، وشتمل على جميع الأدب أيضاً إلهاماً وعميقاً .

لغة الحديث :

« لا تخاسدوا » : أصله لا تتحاسدوا ، حدثت إحدى القاتلتين نكصاً ، أي لا تمنى بعضكم زوال نعمة بعض .

« لا تاجشوا » : والتجش في اللغة : الخجل وهو الخداع أو الارتفاع والزيادة . وفي الشرع : أن يزيد في ثمن سلعة ينادى عليها في السوق ونحوه ، ولا رغبة له في شرائها ، بل يقصد أن يضر غيره .

« لا تياغضوا » : لا تتعاطوا أسباب التياغض .

« لا تداروا » : لا تتدابروا ، والتدابير : المصارمة والمجبران ، مأخوذ من أن يولي الرجل صاحبه دبره ويعرض عنه بوجهه ، وهو التقاطع .

« لا يبدله » : لا يترك نصرته عند قيامه بالأمر والمعروف أو غيره عن المنكر ، أو عند مطالبة بحق من الحقوق ، بل يصبره ويعينه ويدفع عنه الأذى ما استطاع .

« لا يكذبه » : لا يخونه بأمر على خلاف الواقع .

« لا يخفزه » : لا يستصغر شأنه ويضع من قدره .

« بحسب امرئ من الشر » : يكفيه من الشر أن يحقر أحده ، يعني أن هذا شر عظيم يكفي فاعله عقوبة هذا الذنب .

« وعرضه » : العرض هو موضع اللدج والذم من الإنسان .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١- النبي عن الحسد :

أ - تعريفه : الحسد لغة وشرعاً : تمنى زوال نعمة المصنوع ، وعودها إلى المصنوع أو إلى غيره . وهو خلق دميم مكرور في طابع البشر ، لأن الإنسان يكره أن يفوق أحد من جنسه في شيء من الفضائل .

ب - حكمه : ألحق الناس من الشرعيين وغيرهم على تحريم الجسد وقلبه ، ونصوص الشرع الواردة بذلك كثيرة في الكتاب والسنة ، منها قول الله تعالى في ذم اليهود : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرَوْنَكُمْ مِنْ يَدٍ يُخَالِفُوا عَنْكُمْ كَيْدًا مَنْ عِنْدَ آبَائِهِمْ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنْ نَنْسَى مَا أَنْعَمَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٥٤] .

وعرج الإمام أحمد والترمذي من حديث الزبير بن العوام ، عن النبي ﷺ : « داب إليكم داء الأمم قبلكم الجسد والبغضاء ، والبغضاء هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر ، والذي نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تلجأوا ، أولاً أنفسكم بفساد ، إذا فعلتموه فاعلموا ؟ أفشوا السلام بينكم » .

وعرج الإمام أبو داود من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « إياكم والجسد ، فإن الجسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الخشب . لو قال : العيب » .

وعرج الحاكم وغيره من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « سيصيب أمتي داء الأمم ، قالوا : يا سي الله ، وما داء الأمم ؟ قال : الأشر والبطر ، والتكاثر والطمع في الدنيا ، والفاخض والتحاسد ، حتى يكون البغي ثم المرح » .

ج - حكمه تحريمه : أنه اعترض على الله تعالى ومعاندة له ، حيث أعمى على غيره ، مع محاولته يقض فعله تعالى وإزالة فضله ، قال أبو الطيب :

وَنُظِمَ أَهْلُ الْأَرْضِ مِنْ كَانَ حَاسِماً
لَنْ يَسُتَ فِي نَعَائِجِهِ يَنْقَلَبُ
وَمَا يُوَضِّحُ ظِلْمَهُ أَنَّهُ يُلْزَمُ أَنْ يَحِبَّ مَحْسُودَهُ مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ ، وَهُوَ لَا يَحِبُّ لَهَا
زَوَالِ لَعْنَتِهَا ، فَقَدْ اسْتَقَطَّ حَقُّ مَحْسُودِهِ .

وفي الجسد لعب النفس وحزنها من غير فائدة بطريق حرم ، فهو تصرف رديء .

د - أقسام أهل الجسد :

أ - قسم يسعى في زوال عمة المحسود بالبغي عليه بالقول والفعل ، ثم منهم

من يسعى في نقل ذلك إلى نفسه ، ومنهم من يسعى في إزالة النعمة عن المحسود فقط من غير نقل إلى نفسه ، وهو شرهما وأخبثهما .

٢- وقسم آخر من الناس ، إذا حسد غيره لم يعمل بمقتضى حسده ، ولم يبع على المحسود بقول ولا فعل . وقد روي عن الحسن البصري أنه لا يأثم بذلك . وروي مرفوعاً من وجوه ضعيفة . وهذا على نوعين :

أ . أن لا يمكنه إزالة ذلك الحسد عن نفسه ، ويكون مغلوباً على ذلك فلا يأثم به .

ب . الذي يحدث نفسه بذلك اختياراً ، ويعيده ويبدله في نفسه مستروحاً إلى تفني زوال نعمة أخيه ، فهذا شبه بالعرم المصمم على معصية ، وفي العقاب على ذلك الاختلاف بين العلماء ، لكن هذا يعد أن يسلم من البغي على المحسود بالقول بآثم ، بل يسعى في اكتساب مثل فضائله ، كما قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيدُونَ الْخَيْفَةَ الدُّنْيَا بِأَلْبَتٍ لَّيْسَ لَهَا مِثْلُ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ [القصص : ٢٩] . وإن كانت فضائل دينية فهو حسن ، وقد لحق النبي ﷺ الشهادة في سبيل الله ، وفي البحاري ومسلم : قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا في شيئين : رجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آتاء القليل والثيران ، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آتاء القليل وآتاء الثيران » وهذا هو الخطيئة ، وصحاح حسداً من باب الاستعارة .

٣- وقسم ثالث إذا وجد في نفسه الحسد سعى في إزالته ، وفي الإحسان إلى المحسود بإهداء الإحسان إليه والدعاء له وبشر فضائله ، وفي إزالة ما وجد له في نفسه من الحسد حتى يبدله بمحبة أن يكون المسلم عبداً له وأفضل ، وهذا من أعلى درجات الإيمان ، وصاحبه هو المؤمن الكامل الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

٢- النهي عن التحش :

أ - تعريفه : تضمن الحديث النهي عن التحش ، وهو أن يبرء في ثمن سلعة ينادى عليها في السوق ويحرمه ، ولا رعة له في شرائها ، بل يقصد أن يضر غيره

ب - وحكمه : حرام إجماعاً على العالم بالنبي ، سواء كان بمواطأة البائع أم لا ، لأنه غش وخديعة ، ومما محرمان ، ولأنه ترك للمصالح الواجب ، قال رسول الله ﷺ : « من غشنا فليس منا » وفي رواية « من غش » وفي البخاري ومسلم عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ : أنه نهى عن النجش . وقال ابن أبي أوفى : النجش أكل ربا خائن .

وقال ابن عبد البر : أجمعوا على أن فاحشه عاصي لله تعالى إذا كان بالنبي عالماً .

ج - أما حكم عقد البيع مع النجش : فقد اختلف فيه العلماء ، فمنهم من قال : إنه فاسد ، وهو رواية عن أحمد اختارها طائفة من أصحابه .

ومنهم من قال : إن كان النجاش هو البائع أو من واطأه البائع على النجش فقد فسد ، لأن النبي هنا يعود إلى العاقد نفسه ، وإن لم يكن كذلك لم يفسد لأنه يعود إلى أحدهما ، وكذا حكى عن الشافعي أنه على صحة البيع بأن البائع غش النجاش ، وأكثر الفقهاء على أن البيع صحيح مطلقاً ، وهو قول أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد في رواية عنه ، إلا أن مالكا وأحمد أثبتا للمشتري الخيار إذا لم يعلم بالخل وغش قبل فاحشاً فخرج عن العادة ، وقد رواه مالك وبعض أصحاب أحمد بثلاث الثمن ، فإن اختار المشتري حيثما أفسخ فله ذلك ، وإن أراد الإمساك فله به ما غش به من الثمن .

د - تفسير أعم للنجش : ويصح أن يفسر النجش في حديث النبي ﷺ بما هو أعم مما سبق ، لأن من معاني النجش في اللغة إثارة الشيء بالكر والحيلة والخدعة ، وحيثه فالعنى : لا يتخذوا ولا يعامل بعضهم بعضاً بالكر والاحتيال ، وإلصال الأذى إليه ، قال الله تعالى : ﴿ ولا يبيعن المنكر شيئا ولا بأعنه ﴾ [فاطر : ٤٣] وفي الحديث : « والمنكر والخداع في النار » وروى الترمذي : « ملعون من ضار مسلماً أو مكر به » .

فيدخل مع النجاش المنهى عنه هنا جميع أنواع المعاملات بالغش ونحوه ، كدليس

العبود ونحوها ، ولعلط الحيد بالرديء ، وما أحسن قول أبي العطاءية :

ليس ديباً إلا يدين وليس قيد يس إلا مكسرم الأعتلاق

إلما المكسر والمخدعة في السا رهما من حصالي أهل التلحاق

ويجوز الذكر بمن يحمل أده وهو الحربي ، لقوله عليه السلام : « الحرب حدة » .

٣ - النبي عن التبايض :

أ - تعريفه : البيض هو البقرة من الشيء ، بمعنى فيه مستطبع ، ويرادفه الكراهة . وقد نهي النبي صلى الله عليه وسلم المسلمون عن التبايض بينهم في غير الله تعالى ، بل على أعواء القوس ، فإن المسلمين إخوان متحابون ، قال الله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [المحجرات : ١٠] ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا .. » .

ب - حكمه : يكون التبايض بين النبي ، إما من جانبها أو من جانب أحدهما ، وهو لعن الله حرم ، وله واجب أو مندوب ، قال الله تعالى : ﴿ لا تحلدوا على ذي وعدوكم تولياء ﴾ [الممتحنة : ١] وقال صلى الله عليه وسلم : « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله فقد استكمل الإيمان » .

والواجب على المؤمن أن يتصحب نفسه ، وأن يحذر البغض غرض الحوى أو الألفة أو العادة ، فإن هذا يقدح في أن يكون هذا البغض لله ، ويجعله من البغض المحرم .

ج - تحريم ما يوقع العداوة والبغضاء : حرم الله على المؤمنين ما يوقع بينهم العداوة والبغضاء ، فحرم الخمر واليسر ، قال تعالى : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر واليسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متنبهون ﴾ [المائدة : ٩١] وحرم الله المشي بالجمعة كما فيها من إيقاع العداوة والبغضاء ورحص في الكذب في الإصلاح بين الناس ، ورغب في الإصلاح وبعد العزفة ، فقال تعالى : ﴿ لا يحز في كتبه من خباياهم إلا من أمر بصديق أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ [النساء : ٩٥]

د - مكانة الأئمة في الإسلام : ولشرف الأئمة والحقبة امن الله بها على حياته ، فقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إلهيواً ﴾ [آل عمران : ١٠٣] . وقال سبحانه : ﴿ هو الذي جعلكم جملة واحدة فكل من ظلم ينافسكم عليه ويغلبه على الغلبة ويغلبه على الضعف ولقد نفخ في الصور نفخة واحدة ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

هـ - النهي عن المضار : المضار هو المضارمة والمحران ، مأخوذ من تولية الرجل صاحبه دبره وإعراضه عنه بوجهه ، وهو التقاطع . وهو حرام إذا كان من أجل الأمور الدينية ، وهو المراد بقوله ﷺ - في البخاري ومسلم عن أبي أيوب - : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا ، وغيرهما الذي يبدأ بالسلم . وفي سنن أبي داود عن أبي حنيفة السلمي ، عن النبي ﷺ : « من هجر أخاه سنة أيام فهو كسيفك دمه » .

أما المحران في الله ، فيجوز أكثر من ثلاثة أيام إذا كان من أجل أمر ديني ، وقد نص عليه الإمام أحمد ، ودليله قصة الثلاثة الذين حلقوا في غزوة تبوك ، وأمر النبي ﷺ بهجرانهم خمسين يوماً ، تأديباً لهم على تخلفهم ، وحقاً عليهم من الفراق . كما يجوز هجران أهل الدع المغلظة والدعاة إلى الأهواء والمبادئ الفسالة . وذكر الخطابي حواشي هجران الواحد لولده ، والزوج لزوجته ، وما كان في معنى ذلك تأديباً ، وتحجور فيه الزيادة على الثلاثة أيام ، لأن النبي ﷺ هجر نسائه شهراً .

و - النهي عن البيع على البيع : وقد ورد النهي عنه كثيراً في الحديث ، ففي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « لا يبيع المؤمن على بيع أخيه » . وصورته أن يقول الرجل لمن اشترى سلعة في زمن عيار المجلس أو عيار الشرط : افسح لأبيك حبراً منها عثل ثمنها ، أو مثلها بأنقص ، ومثل ذلك الشراء على الشراء ، كأن يقول للبائع : افسح ليح لأشترى منك ما أكثر ، وقد أجمع العلماء على أن البيع على البيع والشراء على الشراء حرام .

قال النووي : وهذا الصنيع في حالة البيع والشراء ، صحت آلم ، منهي عنه ، ولكن لو أقدم عليه بعض الناس وباع أو اشترى يتعقد البيع والشراء عند الشافعية وأبي حنيفة وآخرين من الفقهاء . ولا يتعقد عند داود الظاهري ، وروى عن مالك وروايان . أما السوم على السوم : فهو أن يتفق صاحب السلعة والراغب فيها على البيع ، وقبل أن يتفاه يقول آخر لصاحبه : أنا أشتريها بأكثر ، أو لأراغب : أنا أبيعك حراً منها بأقل ثمناً ، فهو حرام كالبيع على البيع والشراء على الشراء ، ولا فرق في هذا بين الكفار والمؤمنين ، لأنه من باب الوفاء بالثقة والعهد .

والحكمة في تحريم هذه الصورة ما فيها من الإيذاء والإضرار ، وأما بيع المايعة وهو البيع ممن يزيد فليس من المسي عنه ، لأنه قبل الاتفاق والاستقرار ، ولست أن رسول الله ﷺ عرض بعض السلع وكان يقول : « من يريد ؟ » .

٦- الأحرار ينشرون التآخي : يأمر النبي ﷺ بنشر التآخي بين المسلمين فيقول : « وكونوا عيالاً لله إخواناً ، أي اكتسبوا ما تصوبون به إخواناً من ترك التحاسد والتعاضد والباغض والقدير ومع بعضكم على بعض ، وتعاملوا فيما بينكم معاملة الإخوة ومعاشرتهم في المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير مع صفاء القلوب . ولا تسوا أنفسكم عداً لله ، ومن صفة العبد إطاعة أمر سيدهم بأن يكونوا كالإخوان متعاونين في إقامة دينه وإظهار شعائره ، وهذا لا يتم بغير التلاصق القلوب وتراض الصلوف ، قال تعالى : ﴿ هو الذي أبدك بقصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

ولا بد في اكتساب الأخوة من أداء حقوق المسلم على المسلم ، كالسلام عليه ، وتشجيعه إذا عطس ، وعيادته إذا مرض ، وتشجيعه عند فراقه ، وإجابة دعوته ، والنصح له .

ومما يزيد الأخوة حبة ومودة المحبة والمصافحة ، ففي الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ينادوا فإن المحبة تذهب وحر الصدر » أي تشبه وحلته

ووسلوه ، وفي رواية : « باعدوا تحابوا » وفي مسند الزرار : « باعدوا » ، فإن الهدية تنهب السخيمة . وروي عن عمر بن عبد العزيز يرفع الحديث : « تصاحبوا فإنه يذهب الشحاء وعبادوا » . قال الحسن البصري : المصافحة تزيد في المودة .

٧- واجبات المسلم نحو أخيه : إن المسلم مأمور أن يعامل إخوته في الإسلام بما يوجب تألف القلوب واجتماعها ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَعْيُنِكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

وممن عما يسب تنافر القلوب واختلافها ، ومن أشد أسباب التنافر والاختلاف هذه الأمور الأربعة : الظلم ، والخذلان ، والكذب والتكليب ، والاحتقار . بل إن المسلم لا يحسن إسلامه ولا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ومن ذلك أن يسعى في كف الأذى ودفع الضرر عنه ، وليس بعد هذه الأمور المذكورة من ضرر يجب دفعه أو أذى يتعمد كفه عن الأخ المسلم .

وإن الخلق الرفيع في الإسلام لم يكن قاصراً على المسلمين فحسب ، بل يتعدى محبة ودفعه إلى الإنسانية جمعاء ، ولذلك كانت هذه الأمور محرمة في حق كل واحد من بني البشر ، وإذا عومل الكافر بشيء منها ، فإنما يعامل بذلك بسبب كفره لا لشخصه :

١- تحريم ظلمه : فلا يدخل عليه ضرراً في نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله بغير إذن شرعي ، لأن ذلك ظلم وقطيعة محرمة تنافي أخوة الإسلام ، وقد سبق الكلام عن الظلم مستوفى في حديث أبي ذر : « يا عبادي إلى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » .

٢- تحريم خذلانه : الخذلان للمسلم محرم شديد التحريم لا سيما مع الاحتياج والاضطرار قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ اسْتَفْضَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْر ﴾ [الأنفال : ٧٢] وروى أبو داود : « ما من امرئ مسلم يخلد امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة ويتقص من عرضه إلا خذله الله في موضع يجب نصرته »

وروى الإمام أحمد : ١ من أدل حده مؤمن فم نصره ، وهو يقدر على أن نصره .
أذله الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة . ١ . وروى الترمذ : ١ من نصر أخاه بالحب
وهو يستطيع نصره ، نصره الله في الدنيا والآخرة . ١ .

والخلافة المحرم يكون دينياً ، كأن يقدر على نصره مظلوم ودفع ظالمه فلا يفعل .
ودنياً ، كأن يقدر على نصره عن عبه يسخر وعط فلا يفعل .

٣- تحريم الكذب عليه أو تكذيبه : ومن حق المسلم على المسلم أن يصدق معه
إذا حدثه ، وأن يصدقه إذا سمع حديثه ، وما يخل بالأمانة الإسلامية أن يخبره بخلاف
الواقع ، أو يحدث بما يتناقض مع الحقيقة ، ولا سيما إذا ظهرت على من يتحدث إليه
أمارات الثقة والتصديق ، وفي مسند الإمام أحمد عن الترمذ بن سمعان ، عن النبي
ﷺ : « كبرت حياء أن تحدث أحاك حديثاً هو لك مصدق وأنت به كاذب » .

والكذب لغو مصلحة تألف وحياة نفس أو مال غش وحياة ، روى الترمذ
عن رسول الله ﷺ : « إذا كذب العبد كذبة تعاود الملك عنه ميلاً من ثمن ما جاء
به » .

٤- تحريم تخفيفه : يحرم على المسلم أن يستعصر شأن أخيه المسلم وأن يضع
من قدره ، لأن الله تعالى لما خلقه لم يختره من كرمه ورفعته وعاملته وكفنه ، فاحتقاره
تجاوز الحد الربوي في الكبرياء ، وهو ذنب عظيم .

ولذلك قال ﷺ : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » . والاحتقار
ناشئ من الكبر ، لا رواد مسلم عن رسول الله ﷺ قال : « الكبر يضر الحق ويمنع
الناس » . وفي رواية الإمام أحمد في المسند : « الكبر يضر الحق ويرد الناس » وفي
رواية : « لا يعد الناس فلا يراهم شيئاً » . وذلك لأن الكبر يضر النفس بعين الكمال
ولغيره بعين القس فيحقرهم ويؤذيهم .

والكبر من أعظم حصال الشر : لأنه يدخل صاحبه النار ويبعده عن الجنة ، يعني
صحيح مسلم : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » . وفي البخاري

ومسلم عن حارثة بن وهب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » . [عتل : غلبت جفاف . جواظ : هو الجموع الموع المتجال] .

٨- التقوى مقياس التفاضل وميزان الرجال : التقوى هي اجتناب عذاب الله بفعل الأمور وترك المضور ، والله سبحانه ولعالي إنما يكرم الإنسان تقواه وحسن طاعته ، لا بشخصه أو كثرة أمواله ، ورب إنسان يحقره الناس لصغفه وقتة حظه من الدنيا ، وهو أعظم قدرأ عند الله تعالى ممن يعظمه الناس ويقدرونه لما يملك من جاه زائف ، أو سلطة معصوبة ، أو متاع حرام . فالتاس يتفاوتون عند الله في منازلهم حسب أعمالهم ، وبمقتدر ما لديهم من التقوى ، لا بأحسانهم وأسابهم ، ولا بأشكالهم وألوانهم ، ولا بكثرة مالهم أو متاعهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ [المبررات : ١٣] وسئل رسول الله ﷺ : من أكرم الناس ؟ قال : « أتقاهم لله تعالى » .

ومكان التقوى : القلب قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] وقال ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » . وإذا كانت التقوى في القلوب فلا يطلع أحد على حقيقتها إلا الله . كما أن الأعمال الظاهرة لا تحصل بها التقوى ، إنما تحصل بما يقع في القلب من عظيم خشية الله ومراقبته ، ومن ثم كان نظر الله بمعى عازاله ومحاسبته على ما في القلب من خير وشر دون الصور الظاهرة . وحيلة فقد يكون كثير ممن له صورة حسنة أو مال أو جاه أو رئاسة في الدنيا فيه غراب من التقوى ، ويكون من ليس له شيء من ذلك فيه مملوء من التقوى ، فيكون أكرم عند الله تعالى بل ذلك هو الأكثر وقوعاً . ولذلك كان التحقير حرمة كبرى ، لأنه استتلال في ميزان التفاضل وعظم فادح في اجتناب المنظر ، وإسقاط التقوى التي بها يوزن المرحال .

٩- حرمة المسلم : للمسلم حرمة في دمه وماله وعرضه ، وهي بما كان النبي

ﷺ يخطب بها في الجامع العظيمة ، فإنه يخطب بها في حجة الوداع : يوم النحر ، ويوم عرفة ، ويوم الثاني من أيام التشريق وقال : « إن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ... » .

وهذه هي الحقوق الإنسانية العامة التي يقوم عليها بناء المجتمع المسلم الآمن ، حيث يشعر المسلم بالطمأنينة على ماله ، فلا يسطو عليه لص أو يقتضيه عاصب ، والطمأنينة على عرضه ، فلا يعتدي عليه أحد ، وحفاظاً على ذلك كله شرع الله تعالى القصاص في النفس والأطراف ، وشرع قطع اليد للسارق ، والرجم أو الجلد للزاني الأثيم .

ومن كمال الحفاظ على حرمة المسلم عدم إحاقته أو ترويعه ، على من أتى دأود : أصل بعض الصحابة حين أخبر قنزع ، فقال ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً » وروى أحمد وأبو داود والترمذي : « لا يأخذ أحدكم عصا أخيه لاعتباً حداً » . وفي البخاري ومسلم : « لا يتأذى لثان حزن الثالث فإنه يؤذيه » وفي رواية : « فإن ذلك يؤذي المؤمن والله يكره لأذى المؤمن » .

١٠- ويهدد الخلفيت :

- ١- أن الإسلام ليس عقيدة وعبادة لمصعب ، بل هو أفعال ومعاملة أيضاً .
- ٢- الأخلاق المدبورة في شريعة الإسلام جريمة مخفونة .
- ٣- التبه والعمل هي الخيالات الدافقة الذي يزن الله به عباد ، ويحكم عليهم بمقتضاه .
- ٤- القلب هو خشية الله والخوف منه .

(١) يعني أن يأخذ شيئاً لا يريد سرقة ، إنما يريد إدخال فلفظ عليه ، فهو لا يحب أن يذهب السرقة ، حدة في إدخال فروع والآذى عليه . وعنه أبي داود وبعض نسخ الترمذي [لأمة ٦٦ حداً]

جَوَامِعُ الْخَيْرِ

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « مَنْ لَفَسَ غُرْمُؤِينَ كُفْرَةً مِنْ كُزْبِ الدُّنْيَا لَفَسَ اللَّهُ غَنَةً كُفْرَةً مِنْ كُزْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ نَسَرَ عَلَى مُعْصِرِ نَسْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَعْمَرِهِ . وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ جَلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ . وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ ، يَقُولُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتْلُونَ سُورَةَ يُنَافِقُهُمْ ، إِلَّا تَرَكْتُ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةَ ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ ، وَخَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ جَنَّتِهِ . وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرَعْ بِهِ لِسَتُهُ » رواه بهذا اللفظ مسلم .

الحديث أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر) رقم / ٢٦٩٩ .

وأخرج بعض جملة — من حديث ابن عمر رضي الله عنهما — البخاري في كتاب المظالم (باب : لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه) ، رقم / ٢٣١٠ ، وفي كتاب الإكراه (باب : بين الرجل لصاحبه إنه أعمى ...) رقم / ٦٥٥١ . ومسلم في كتاب النور والصلوة والآداب (باب : لحرم الظلم) رقم / ٢٥٨٠ .

أهمية الحديث :

قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم : وهو حديث عظيم ، جامع لأنواع من العظوم والقواعد والآداب . زاد ابن علاء : والفضائل والنوائد والأحكام .

لغة الحديث :

« لَفَسَ » : ورواية الصحيحين « فَرَجَ » والمعنى : خفف أو أزال ما في نفسه

من أثرها . وانفس من النفس وهو أن يخفف عنه منها ، مأخوذ من نفس الخلق وهو إرحاؤه حتى يأخذ نفساً . وفرج من الفرج ، وهو أبلغ من النفس وهو أن يزيل عنه أثر الكربة بحيث يزول عنه وعنه .

« والكربة » : الشدة العظيمة التي توقع من نزلت فيه بعم شديد ، بحيث يصيح وكأنه يقتل على حنقه حين يكاد يعطل مجال نفسه ، ويضرب أن يرهق نفسه .

« يسر على معسر » : التيسر من أثقلت الديون وعجز عن وفائها ، والتيسر عليه مساعدته على إبراء ذمته من تلك الديون ، إما مباشرة من الدائن ، وإما بالوساطة من قبل غيره .

« يسر الله عليه » : أموره وشؤونه .

« ستر مسلماً » : بأن رآه على فعل قبيح شرعاً فلم يظهر أمره للناس .

« ستره الله » : حفظه من الزلات في الدنيا ، وإن فرط منه شيء لم يفضحه في الدنيا ولم يؤاخذ به في الآخرة .

« عون العبد » : إغاثته وتسيده لقضاء شؤونه البالغة .

« ما كان العبد » : مدة دوام كونه كذلك .

« عون أخيه » : مساعدته للمادية أو المعنوية لئلا يغايته وقضاء حاجته .

« سلك » : مشى ، أو أخذ بالأسباب .

« طريقاً » : مادية كالتمشي إلى مجالس العلم وقطع المسافات بينه وبينها . أو معنوية كالكتابة والحفظ والعلم والمطالعة والذاكرة وما إلى ذلك ، مما يتوصل به إلى تحصيل العلم .

« يتشمس » : يطلب .

« فيه » : في غايته وما يؤدي إليه .

« حلياً » : ناضجاً .

« له » : لطالب العلم .

« به » : بسبب سلوكه الطريق المذكورة .

« طريقاً إلى الجنة » : أي يكشف له طرق الجنة ويهيء له أسباب الطاعة في الدنيا ، فيسهل عليه دخول الجنة في الآخرة ، فلا يرى من مشاق الموقف ما يراه غيره ، بسبب ما يستحقه من الأجر والثوبة .

« قوم » : ثلاثة فأكثر من الرجال خاصة ، وقد يطلق ويراد به النساء والرجال ، وهو المراد هنا .

« يموت الله » : الساجد .

« ينداسونه بينهم » : يقرأ كل منهم جزءاً منه ، بتدبر وخشوع ، ويحللون فهم معانيه وإدراك مراميها .

« السكينة » : ما يطمئن به القلب وتسكن له النفس ويظفي الهبة والوقار ويبحث الخشية والخشوع .

« غشيتهم » : غطيتهم وعتمتهم .

« الرحمة » : الإحسان من الله تبارك وتعالى والفصل والرضوان .

« حفيتهم » : أحاطت بهم من كل جهة .

« الملائكة » : المتمسكون بالذكر ، والذين يزلون بالركة والرحمة إلى الأرض .

« ذكرهم الله فحسن عنده » : باهى بهم ملائكة السماء وأثنى عليهم ، وقبل عملهم ورفع شأنهم .

« بطاً به عمله » : كان عمله الصالح ناقصاً قليلاً فقصّر عن رتبة الكمال .

« لم يسرع به نسب » : لا يعمل من شأنه شرف النسب ، ولا تبلغه حاجة الآباء ما فاته وقصّر عنه من المنازل العالية ، التي يستحقها أصحاب الأعمال الكاملة عند الله عز وجل .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١- المسلمون جسد واحد : إن أفراد مجتمع الإيمان والإسلام أعضاء من جسد واحد ، يتحسس كل منهم مشاعر الآخرين وتتبع فيه أحاسيسهم ، فيشاركهم أفراحهم وأحزانهم : يسر لما يحظون به من فرح وسرور وبهجة ، وما يستعانون به من آسئ وصحة وسعادة . ويألم لما يبالغ من آذى ، وما يصيبهم من مرض ، وما يقع بهم من فاقة وفقر وحسب وعيش وكرب ، وحسد رسول الله ﷺ ، إذ يقول : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » متفق عليه . اشتكى : مرض . تداعى : دعا بعضه بعضاً إلى المشاركة فيما حصل . سائر : باقي . الحمى : الألم وما يصاحبه من ارتفاع حرارة الجسم ونحو ذلك . ومن أهم ما يجب على المسلم تجاه أخيه المسلم أن يسارع في تفرج كربهِ وإزالة ما يقع فيه من هم أو غم .

٢- كرب الدنيا عبدة وطرق تنفيسها متروحة : إن الحياة ملأى بالثأب والأحقاد ، وكثيراً ما يتعرض المسلم لما يوقعه في غم وهم وحسب وحسب ، مما يوجب على المسلمين أن يخلصوه منه ، ومن ذلك :

أ - نصرته وتخليصه من الظلم : ومن شأن المسلم أن لا يوقع ظلماً في أخيه المسلم ، ولكن هذا لا يكفي لئلا ربما الله عز وجل إذا لم يسع جهده في تخليصه أيضاً مما يقع فيه من ظلم غيره ، قال عليه الصلاة والسلام : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلطه » متفق عليه . وفي رواية عند مسلم : « ولا يظلمه » . أي لا يتركه للظلم ولا يترك نصرته ، كما قال ﷺ : « نصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنصره إذا كان مظلوماً ، أنصرت إذا كان ظالماً ، كيف أنصره ؟ قال : نصروه ، أو : نكحه ، من الظلم فإن ذلك نصره » متفق عليه . ولا سيما إذا كان الظلم الذي يوقع عليه بسبب دينه ونسكه بإسلامه ، من قبل قوم كافرين أو فاسقين مارقين . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ اسْتَفْرَضُوا بِكَ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وتجب لصرة المسلم في كل حال ، سواء وقع عليه ظلم مادي أو معنوي ، في نفسه أو عرضه أو ماله ، روى الإمام أحمد في مسنده عن سهل بن حنيف رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « من أُوْلٍ عنده مؤمنٌ ظلمَ بتصره ، وهو قادر على أن يتصره ، أذله الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة » .

ب - تخليصه من الأسر : إذا وقع المسلم أسيراً في قبضة العدو كان على المسلمين أن يسارعوا في تخليصه من الأيدي الأتمة ، التي قد نسمي في فتنه عن دينه . عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أطعموا الجائع ، وعودوا المريض ، وفكوا العاني » أخرجه البخاري وأبو داود . عودوا المريض : زوروه ، والعيادة زيارة المريض خاصة . العاني : الأسير .

ج - إرضائه المال إن احتاج إلى المال : قد يقع المسلم في ضائقة مالية ، فيحتاج إلى النفقة في حوائجه الأصلية من طعام وشراب ومسكن وعلاج ونحو ذلك ، فينبغي على المسلمين أن يسارعوا لمحوته ، وعلى الأقل أن يقرضوه المال قرضاً حسناً ، بدل أن يتخذوا حوزة وسبلة للغير أموالهم ، وزيانها ، كما هو الحال في محضعات الربا والاستغلال . قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ [الزمل : ٢٠] . وهذا يحقق للمسلم المجتمع التكامل ، فينال الأحرار والمهنة عند الله عز وجل ، وقال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لِيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيراً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

وقال ﷺ : « من أقرض مسلماً درهماً مرتين كان له مثل أجر أحدهما لو تصدَّق به » رواه ابن حبان . بل قد يفوق أجر القرض أجر الصدقة ، حسب حال المقرض والمصدق عليه ، فقد روى ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « رأيت مكتوباً على باب الجنة ليلة أسري بي : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بعشرة عشر ، قلت : يا جبريل ، ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل قد يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

٣- كرب يوم القيامة والحلالي منها : ما أكثر كربات يوم القيامة ، وما أشد أهوالها وأفظع عواقبها ، وما أحوج المسلم لأن يجد لنفسه عملاً صالحاً في ذلك اليوم يتخلص من شيء منها ، ويتكشف له متعباً للشفاعة ، ويبر طريق الفوز بالجنة أمامه ، قال عليه الصلاة والسلام : « يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي ، ويتفحصهم البصر ، وتدنو الشمس منهم ، فيبلغ الناس من الكرب والغم ما لا يظفون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض : ألا ترون ما بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم عند ربكم ؟ . عرجاء ينادي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة غرلاً ، قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعاً ، ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » متفق عليه ولفظ البخاري : « الأمر أشد من أن يسمهم ذلك » غرلاً : جمع الغرل ، وهو الذي لم يخش وتقيت معه غرله ، وهي الجلدة التي تقطع في الختان . وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ [الطهرون : ٦] . قال : « يقوم أحدكم في ريشه إلى أنصاف أذنيه » متفق عليه .

وفي عضم هذه الأحوال يتدارك المؤمن عدل الله عز وجل ، فيكافئه على صنيعه في الدنيا ، إذ كان يسعى في تفرغ كربات المؤمنين ، فيخرج عنه أضعاف أضعاف ما أزال عنهم من غم وكرب : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة » .

٤- التيسر على المعسر : علما أن المعسر - غالباً - هو من أثقلت الديون وجز عن وفائها عند حلول أجلها ، وقد يكون الإحصار تراكم التلقيات عليه وليس لديه ما ينفقه ، وعمل كل حال المطلوب من المسلمين أن يسروا على هذا المعسر ، ويكون التيسر عليه بأمريين :

١- أن ينظر الدائن مدينه إلى وقت يملك به ما يلي دينه ويصح دا يسار ، وهذا التيسير واجب ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنُقِطَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] .

٢- أن يرى الدائن مدينه من الدين ، أو يصح جزأ منه ، أو يعطيه غير الدائن ما يزول به إحصاره ، من تراكم دين أو قفلة . فهذا التيسير مندوب إليه ، وله فضل عظيم عند الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنُقِطَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] . وقال ﷺ : « من أنظر مِعْصراً أو وضع عنه أظله الله في ظله » رواه مسلم . وقال ﷺ : « من سره أن ينجي الله من كرب يوم القيامة فليقل من معسر أو يضع عنه » رواه مسلم . بل إن الله تعالى يكافئ كل ذلك في الدنيا ، قال ﷺ : « من أراد أن يستجاب دعوته وتكشف كربته فليخرج عن معسر » رواه أحمد .

٣- الله تعالى أولى بالتيسير : إن الإنسان مقبل على الله عز وجل لا محالة ، في يوم لا يقع فيه مال ولا بنون : ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ » وكان يوماً على الكافرين عسراً ﴿ [الفرقان : ٢٦] . ﴿ فَاذْكُرْ فِي الْفَقْرِ » . فذلكت يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير ﴿ [المدثر : ٨-١٠] . ﴿ تَقَرَّى الْآفُورُ : فتح في الصور النخلة الثانية . لا شك أنه يوم عسير على أولئك الذين كفروا بأنعم الله عز وجل ، فلم يعبوه ولم يشكروه ، ولم يلفظوا إلى خلق الله عز وجل بغير أو إحسان ، أما أولئك الذين آمنوا بالله تعالى فعبوه حتى عبادته ، وشكروا له نعمه وآلائه ، فوسعوا على الناس ويسروا عليهم اعترافاً بفضل الله سبحانه عليهم ، هؤلاء لا شك أن الله تعالى سوف يكافئهم على إحسانهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويجعل ذلك اليوم عليهم يسراً . روى البخاري ومسلم - واللفظ له - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كان رجل يدين الناس ، فكان يقول للناس : إذا آتيت مِعْصراً فتجاوز عنه ، لعل الله يتجاوز عني ، ظني الله فتجاوز عنه » . وفي رواية لمسلم :

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حوسب رجل من كان قبلكم ، فلم يوجد له من الخير شيء ، إلا أنه كان يعاطي الناس ، وكان موسراً ، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن العصر ، قال : قال الله عز وجل : « من أحق بذلك منه ، تتجاوزوا عنه » من الخير شيء : يطلب على خفائه ويستحق به دخول الجنة .

٦- في ظل الله عز وجل : روى الإمام أحمد عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعان مجلداً في سبيل الله ، أو غلاماً في عسره ، أو مكاتباً في رقبته أمته الله يوم لا ظل إلا ظله » غلاماً : من عليه ديون لا يستطيع وقايعا . مكاتباً : هو العبد الذي يتعاهد مع سيده على مبلغ من المال إذا أداه أصبح حراً . في رقبته : في أثناء ما يمرر به رقبته من الرق .

٧- مخارج الجنة في الطاعة والامتنان : لمن كان ذلك المثل فيمن قبلنا ، فقد كان في أصحاب رسول الله ﷺ مخارج الجنة ، أدركت عن الله عز وجل : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ [النور : ٥١] .

وكان لها باع طويل فيما نحن فيه من التيسير على المعسر ، كشمرة للثقل المتخلق بأخلاق النبوة ، ونتيجة لتلك الطاعة وذاك الامتنان .

أ - فهذا كعب بن مالك رضي الله عنه ، تقاضى ابن أبي حنود ديناً كان له عليه ، في المسجد ، فارتفعت أصواتهما حتى سمعهما رسول الله ﷺ وهو في بيته ، فخرج إليهما حتى كشف مسجد حجرته ، فنادى : « يا كعب » . قال : إليك يا رسول الله ، قال : « ضع من دينك هذا » وأومأ إليه : أي الشطر ، قال : لقد فعلت يا رسول الله ، قال : « قم فاقطعه » ففزع عليه . تقاضى : طلب منه أن يقضيه دينه . مسجد حجرته : ستر غرفته أو بابها . أومأ : أشار . الشطر : النصف .

ب - وهذه عائشة رضي الله عنها تقول : سمع رسول الله ﷺ صوت حصوم بالباب عالية أصواتهما ، وإذا أحدهما يستوضح الآخر ويسترققه في شيء ، وهو يقول :

والله لا أقول ، فخرج عليهما رسول الله ﷺ فقال : « أين المتأني على الله لا يفعل المعروف » ؟ قال : أنا يا رسول الله ، وله أي ذلك أحب . متفق عليه . يستوضح : يطلب أن يخط عنه شيئاً من الدين . المتأني : الخائف المبالغ في اليقين . وله : لم يخصني ما رغب من الخط أو الرفق .

فرضي الله تعالى عن أولئك الذين لم يكونوا يحتاجون أكثر من إشارة حتى يكون منهم السلوك الأمثل والمطلق الأقوم ، ويكون منهم المعروف والبر والإحسان .

٨- ستر المسلم : لقد كثرت النصوص التي نحت على ستر المسلم ، وتعلم من تتبع عورته وزلاته ليفضح بين الناس ، منها حديثنا الذي نحن في صدد شرحه ، ومنها : ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة » ، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته » .

وروي عن بعض السلف أنه قال : أدركت قوماً لم يكن لهم عيوب ، فذكروا عيوب الناس فذكر الناس لهم عيوباً ، وأدركت قوماً كانت لهم عيوب ، فكفوا عن عيوب الناس فسيت . لم يكن لهم عيوب : أي لم تظهر عيوبهم للناس فظهرت . بل إن تتبع عورات المسلمين علامة من علامات التفاق ، ودليل على أن الإيمان لم يستقر في قلب ذلك الإنسان الذي همه أن يطلب عن مساوئيه الناس ليعتيا بين الخلا . روى الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر ، فنادى بصوت رفيع فقال : « يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ، لا تزفوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته . ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله » . أي منزله الذي ينزل فيه .

ورواه أبو داود وأحمد عن أبي برة الأسلمي رضي الله عنه وفيه : « لا تفتابروا المسلمين » .

٩- الستر على من وقع في معصية : إذا اطلع المسلم على زلة المسلم ، فهل يسترها عليه أم يعلنها ؟ فإن هذا يختلف باختلاف أعمال الناس ، والناس في هذا على حالتين :

أ- من كان مستور الحال : أي لا يعرف بين الناس بشيء من المعاصي ، مثل هذا إذا وقعت منه عورة أو زلة وجب الستر عليه ، ولا يجوز كشف حاله ولا التحدث بما وقع منه ، لأن ذلك غيبة محرمة ، وإشاعة للفاحشة ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَنْ نَشِيعَ الْفَاحِشَةَ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ عَذَابُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور : ١٩] .

قال العلماء : المراد : إشاعة الفاحشة على المؤمن فيما فرط منه ، أو اتهم به مما هو بريء منه . وقال بعضهم : اجتهد أن تستر العصاة ، فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام ، وأول الأمر ستر العيوب .

والمراد بالعصاة هنا المستورون الذين لم يستعملوا بمعاصيهم ، وعلى هذا تحمل النصوص الواردة في اخت على ستر المسلم .

وهذا لا يعني أن لا يعظه ولا يأمره بالمعروف وينهيه عن المنكر ، ويحبه على الاستقامة والبعد عن المخالفة ، بل ذلك كله مطلوب منه ، لأنها من حق المسلم على المسلم .

٢- من كان مشهوراً بالمعصية ، مستغنياً بها بين الناس : من لا يبالي بما يرتكب ، ولا يكثر له لئال عنه ، فهذا عاجز مستعصي بفسقه ، فلا عية له ، بل يندب كشف حاله للناس ، وربما يحب ، حتى يتوقوه ويحذروا شره ، وإن اشد فسقه ، ولم يرتدع من الناس ، وجب رفع حاله إلى ولي الأمر حتى يؤديه بما يترتب على فسقه من عقوبة شرعية ، لأن الستر عليه يجعله وأمثاله يطعمون في مزيد من المخالفة ، فيعمتون في الأرض فساداً ، ويجرون على الأمة الشر المستطير ، بل مثل هذا يبحث عنه ويتبع ، لتستأصل جذور الفسقة من مجتمع المسلمين ، واستبدال لهذا بقوله

ﷺ : « وأخذ بها أنيس على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » متفق عليه . وذلك حين احتكم إليهم رجلان ، قد زنى ولد أحدهما بامرأة الثاني .

١٠- رفع الأمر إلى الحاكم : يندب للمسلم إذا وقعت منه زلة أن يستر على نفسه ، ويخبر به بين يديه جل وعلا . روى البخاري ومسلم — واللفظ له — عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إني عالجيت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أنسها ، فأنا هذا ، فاقض لي ما شئت ، فقال له عمر : لقد شربك الله لو سترت حل عسك » . عالجيت امرأة : فلولها واستمتع بها ، وجاء في رواية : أنه قبلها أو مسها بيده . ما دون أن أنسها : أي لم يجمعا .

فإذا رفع أمره إلى الحاكم معلماً توبته ، ولم يفسر الدنب الذي لفرقه ، ندب للحاكم أن لا يستعصره ، بل أمره بالستر على نفسه ، ويصرفه عن إقراره ما أمكن .

ثم روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه ، قال : كنت عند رسول الله ﷺ ، فجاءه رجل ، فقال : يا رسول الله ، أصبت حداً فأقمه علي ، قال : ولم يسأله عنه ، قال : وحضرت الصلاة ، فصلت مع النبي ﷺ ، فلما قضى النبي ﷺ الصلاة ، قام إليه الرجل فقال : يا رسول الله ، إني أصبت حداً ، فأقم لي كتاب الله ، قال : « أليس قد صليت معي ؟ » قال : نعم ، قال : « فإن الله قد غفر لك ذنبك ، أو قال : حدك » .

وروى البخاري أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : أتى رسول الله ﷺ رجل من الناس وهو في المسعد ، فداه : يا رسول الله ، إني ريت ، يريد نفسه ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، فداه لشق وجه النبي ﷺ ، الذي أعرض عنه ، فداه شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبي ﷺ ، فقال : « أهدت جنون » ، قال : لا يا رسول الله ، فقال : « أحصيت » قال : نعم يا رسول الله ، قال : « انزهوا به فارجموه » . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أتى معاوية بن مالك النبي ﷺ قال له :

« لعنك قبلت أو عصمت أو نظرت » .

وهذا بالنسبة لتفاعل المعصية نفسه ، أما غيره فقد علمنا أنه : إن كان مستور الحال تدب سره بل قد يجب ، وعليه فلا يرفع أمره إلى الحاكم ، وربما كره ذلك أو حرم ، وإن كان مستعظاً بالمعصية وجب رفع أمره إلى الحاكم ليقع عليه العقوبة المناسبة ، حتى يستتب الأمن ، ويظوم الصلاح في المجتمعات .

١١- إذا رآه يظلي بالمعصية : ما سبق من القول إنما هو فيما علم أنه فعل معصية أو ارتكب ذنباً وانقضى الأمر ، أما إذا شاهد إنساناً يظلي بالمعصية فلا يجوز له سره والسكوت عنه ، بل تلزمه المبادرة إلى منعه بنفسه إن قدر ، وإلا فيرفع أمره للحاكم فوراً ، عملاً بقوله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ... » النظر الحديث ٣٤ .

١٢- الشفاعة لمن وقعت منه معصية : إذا وقعت من المسلم زلة ، وكان مستور الحال ، معروفاً بين الناس بالاستقامة والصلاح ، تدب الناس أن يسروه ولا يعزروه على ما صدر منه ، وأن يشفقوا له ويتوسطوا له لدى من تعلق زلته به إن كانت تتعلق بأحد ، فقد قال ﷺ : « أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم » رواه أبو داود . أي تفاضوا عن زلات من عرفوا بالاستقامة والرشد .

وأما إن كان معصياً بنفسه ، معروفاً بالشر والأذى بين الناس ، فقد علمت أنه يكره السر عليه وقد يحرم ، وبالتالي فلا يشفع له ، بل يترك حتى يقام عليه الحد ، ليكشف حاله ويرتدع به أمثاله ، قال مالك رحمه الله تعالى : وأما من عرف بشر أو فساد فلا أحب أن يشفع له أحد ، ولكن يترك حتى يقام عليه الحد .

١٣- لا شفاعة لدى أولي الأمر : وما ذكرناه من الشفاعة إنما هو فيما لم يرفع أمره إلى الحاكم ، فإذا رفع الأمر إلى الحاكم حرمت الشفاعة ، وكانت الوساطة معصية بأنهم كل من يشارك فيها أو يسعى إليها .

قال مالك رحمه الله تعالى : من لم يعرف منه أذى للناس ، وإنما كانت عنه زالة ، فلا بأس أن يشفع له ما لم يبلغ الإمام .

والأصل في هذا : ما رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن عائشة رضي الله عنها : أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية ، التي سرقت ، فقالوا : ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ قالوا : ومن يجريء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ؟ فكلّمه أسامة ، فقال رسول الله ﷺ : « تشفع في حد من حدود الله ؟ » ثم قام فاعتط ، ثم قال : « إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا : إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . أهمهم : أحزنهم . يكلم فيها : حتى لا يقطع يدها وقد رفع إليه أمرها . حب : محبوب . وأيم الله : صيغة من صيغ القسم ، أصلها : يمين الله قسمي .

ولما سرق رداء صفوان بن أمية رضي الله عنه ، وأمر رسول الله ﷺ بقطع يد السارق ، قال له صفوان : إني لم أجد هذا يا رسول الله ، هو عليه صلقة ، فقال رسول الله ﷺ : « فهلا قبل أن تأتي بي به » النسائي وابن ماجه ومالك مرسلًا .

وروى مالك رحمه الله تعالى في الموطأ : أن الزبير بن العوام رضي الله عنه لقي رجلاً قد أخذ سارقاً وهو يريد أن يذهب به إلى السلطان . فشفع له الزبير ، فقال : لا ، حتى أبلغ به السلطان ، فقال الزبير : إذا بلغت به السلطان فلعن الله الشافع والشفيع .

وذلك لأنه إذا حصلت الشفاعة لدى السلطان ، وأخذت الوساطة مأخذها لديه ، عمت الفوضى وساد الفساد في المجتمعات ، فضاعت الحقوق ، واستشرى الشر ، وتغلب أهل المعاصي والفجور ، وطغوا بالخطوة لدى الحاكم ، وضعت هيئته من نفوسهم ، وغاب أمل المصلحين ، وأصبحت الأمة على حافة الانهيار والدمار ، ولذا كان على الحكام أن يأخذوا بالحزم في هذا الأمر ، ففتن رسول الله ﷺ ،

في موافقه كما سبق ، غير مخالفين له في هديه ، والله تعالى يقول : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تحصيهم فتنةً لَوْ بَصِيحُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٤] .

١٤ - معنى طريف : ذكر ابن حجر العسقلاني معنى طريفاً مقبولاً للمسار فقال : لو المراد بالمسار ستر عورته الحسية أو النفسية ، بإخافته على ستر دينه : كأن يكون محتاجاً لتكاح فيوصل له في التزوج ، أو الكسب فيوصل له إلى بضاعة يصجر فيها ، أو نحو ذلك .

وحذا لو لمترك المسلمون - ولا سيما في هذه الأيام - هذا للنصي ، إذأ لأراحوا المجتمع من كثير من الويلات ، ولجبهوه الكثير من ألوان الشر والفساد ، وخاصة ما تراه من ثلث الشباب والشابات بسبب عدم التحكك من الزواج ، وكثرة العراقيل التي يعجزها الجيل في طريق تخصي نفسه ، والمسلمون في عمرة ساعون ، تحكم بهم العادات المستوردة ، والتقاليد البالية ، التي ليست من الإسلام في شيء ، ويسيطر عليهم حب التباهي والتفاخر والظهور ، ويذهب صحة ذلك كله شباب الأمة الطاهر الذي أوصى به رسول الله ﷺ ، فعلى الأمة أن تسعى لتوفر لأبنائها السكن المادي والمعوي ، حتى تضمن السلامة لدينها والأمن لمجتمعها ، والحياة عند ربها جل وعلا .

١٥ - التعاون بين المسلمين وعون الله عز وجل لهم : إن المجتمع لن يكون سوية قومية ، ولن يكون قوماً متناسكاً إلا إذا قام على أساس من التعاون والتضامن والدخايل فيما بين أفرادها ، فسمى كل منهم في حاجة عزمه ، نفسه وماله وجاهه ، حتى يشعر الجميع أنهم كالجسد الواحد ، وهذا ما دعا إليه الإسلام وأمر به القرآن ، وجعلته السنة للظهرة عنواناً لمجتمع الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ [المائدة : ٢] . وقال ﷺ : « إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » متفق عليه .

ولما كان التعاون له أثر كبير في بناء المجتمعات ، وحياة الأمم والأفراد كان من

أفضل الأعمال عند الله عز وجل ، وكان عبادة لها من الأجر والثواب مثل ما للصلاة والصيام والصدقة ونحو ذلك أو يزيد ، قال عليه الصلاة والسلام : « وتعين الرجل في دابته : فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة » متفق عليه .

وروى البخاري ومسلم والمحقق له ، عن أس رضي الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فصام بعض وأفطر بعض ، فحرم المفطرون وعملوا - وفي رواية : ففرضوا الأثنية وسفوا الركاب - وضعف الصوم عن بعض العمل ، فقال في ذلك : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر » . أي حازوه واستصحبوه ومضوا به ، ولم يتركوا لغيوهم شيئاً منه ، وهذا على البالغة ، والمراد : أنهم لم من الأجر مثل ما للصوم أو أكثر ، لأنهم بعملهم أعانوا الصوم على صومهم .

وفي مراسيل أبي داود : عن أبي قلابة رضي الله عنه : أن ناماً من أصحاب رسول الله ﷺ ، قدموا يشون على صاحب لهم خيراً ، قالوا : ما رأينا مثل فلان قط : ما كان في مسير إلا وكان في قراصة ، ولا نزلنا منزلاً إلا كان في صلاة . قال : « فعن كان يكتبه طبيعة ؟ .. حتى ذكر : من كان يظف جهته ، أو دابته » . قالوا : نحن ، قال : « فكلكنكم خير منه » . أي كان له من الأجر مثل أجر قراصته وصلاته ، أو أكثر . طبيعة : أمور معاشه .

وروى الطبراني عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن : كسوت عورته ، أو أشبعته جوعه ، أو قضيت حاجته » (١) .

ولا شك أن أعظم ثمرة يجنيها المسلم من إعانة أخيه هي ذلك العون والمدة من الله تبارك وتعالى : « والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » وكيف لا ولا حول للإنسان ولا قوة إلا بالله عز وجل ؟ وهو سبحانه المحرك الحقيقي لهذا الكون ، وهو المعطي والمانع ، منه الصحة والمرض ، ومنه القوة والضعف ، والغنى والفقر ،

(١) انظر في هذا الحديثين : ٢٥ و ٢٦ من هذا الكتاب .

ويده جل وعلا قلوب العباد بقلوبها كيف يشاء ، فلهم الناس ليسرّوا إلى معونة من يذلّ العون لغفوه ، ويسرّوا في خدمته ، وقضاء حوائجه ، والاهتمام بشؤونهم ، والفضل منه وإليه سبحانه ، ولكن سرّ الناس بعضهم لبعض ، ونسب الفعل إليهم ليجزيهم عليه ، كرمأ منه : ﴿ وما بكم من نعمتي فمن الله ﴾ [النحل : ٥٣] .

١٦ - القدوة الحسنة والسلف الصالح : لقد كان رسول الله ﷺ القدوة الحسنة في كل ما دعا إليه ، فكان خير مثال في يذلّ العون لأصحابه ، ولا سيما أصحاب الحاجة منهم .

روى الإمام أحمد من حديث بنت الخياط بن الأوت ، رضي الله عنها ، قالت : خرج الخياط في سرية ، فكان النبي ﷺ يتعاهدنا ، حتى يطلب حزة لنا في جفنة لنا ، فتمتلئ حتى تفيض ، فلما قدم خياب حلبا ، فعدا حلايبا إلى ما كان .
ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ للاستقامة نجاة وأماناً أبدياً ، فالتفتوا به وساروا على نهجه ، وكذلك خلقهم الذين ابغروهم بإحسان ، فرضى الله عنهم ورضوا عنه :

— فكان أبو بكر رضي الله عنه يطلب اللحم — الذين غاب عنهم رجالهم — أغنامهم ، فلما استخلف على المسلمين ، قالت حارثة منهم : الآن لا نأكلها ، فبلغه ذلك ، فقال : بلى ، وإنّي لأرجو أن لا يفتروني ما دخلت فيه عن شيء كنت أفعله .
— وكان عمر رضي الله عنه يتعاهد الأرملة ، فيسقي من الماء في الليل ، ورأه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه مرة في الليل يدخل بيت امرأة ، فدخل عليها طلحة نهاراً ، فإذا هي عجوز عمياء مقعدة ، فسألها : ما يصنع هذا الرجل عندك ؟ قالت : هذا منذ كنا وكنا يتعاهدني ، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى ، فقال طلحة : نكلك أمك يا طلحة ، أعورات عمر تبع ؟

— وكان أبو وائل رضي الله عنه يطوف على نساء النبي وعجائزهن كل يوم ، فيشتري من حوائجهن وما يصلحهن .

— وقال بجاهد رحمه الله تعالى : صحبت ابن عمر رضي الله عنهما في السفر لأعلمه ، فكان يفتني .

— وبعث الحسن البصري رحمه الله تعالى بعض أصحابه في قضاء حاجة لرجل ، وقال لهم : مروا بشارب الباني فاحلبوه معكم ، فأتوا ثابتاً قتال : أنا معكف ، فرجعوا إلى الحسن فأخبروه ، فقال : قولوا له : يا أعشى ، أما تعلم أن مشبك في حاجة أميئك المسلم خير لك من حجة بعد حجة ، فرجعوا إلى ثابت ، فترك احتكافه وذهب معهم .

١٧ — استشفعوا فزجروا : وليس التعلون قاصراً على العلون المادي في عمل ونحوه ، بل يشمل العلون المادي بالمال من تنليس كربة ونيسر على معسر على ما مر ، كما يشمل العلون المعنوي كأن يسعى بجاهده لدى سلطان أو غيره في قضاء حاجة أمية ، روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طليت إليه حاجة قال : استشفعوا فزجروا ، ويخض الله على لسان نبيه — ﷺ — ما شاء . أي إذا عرض المحتاج حاجته علي فاستشفعوا له إلي ، فإنكم إن شفعتم حصل لكم الأجر ، سواء قبلت شفاعتكم أم لا ، ويجري الله على لسان نبيه ما شاء من موجبات قضاء الحاجة أو عدمها ، فإن ذلك بقضاء الله وقدره .

قال ابن حجر في فتح الباري : وفي الحديث الخوض على الخير بالفعل وبالنسب إليه بكل وجه ، والشفاعة إلى الكبير في كشف كربة ومعونة ضعيف ، إذ ليس كل أحد يقدر على الوصول إلى الرئيس ولا يمكن منه ليلج عليه ، أو يوضح له مراده ليعرف حاله على وجهه ، ولهذا فقد كان رسول الله ﷺ لا يمتنع .

وهذا كله في غير حدود الله عز وجل كما علمت مما سبق .

١٨ — طريق الجنة : إن الإسلام شرط النجاة عند الله عز وجل ، والإسلام لا يقوم ولا يكون إلا بالعلم ، فلا طريق إلى معرفة الله تعالى والوصول إليه إلا بالعلم ،

فهو الذي يدل على الله سبحانه من أقرب طريق ، فمن سلك طريقه ولم يعوج عنه بلغ القاية المشودة ، فلا عجب إذن أن يجعل رسول الله ﷺ طلب العلم طريق الجنة ، ويمن أن كل طريق يسلكه المسلم يطلب فيه العلم يثب به طريقاً سالكة توصله إلى الجنة : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » . وليس أدل على ما نقول من أن الله تعالى جعل قناعة الرضي إلى رسوله ﷺ أمراً بالعلم وبوسائل العلم ، وتنبهاً إلى نعمة العلم وشره ، وأهميته في التعرف على عظمة الخالق جل وعلا وإدراك أسرار الخلق ، وإشارة إلى حقائق علمية ثابتة ، فقال سبحانه : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق : ١ - ٥] .

١٩ - مكانة العلم في الإسلام : لما كان العلم طريق الجنة كان له في الإسلام مكانة وشأن ، وكان للعلماء منزلة عند الله تبارك وتعالى تقارب منزلة الأنبياء ، قال سبحانه : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [المجادلة : ١١] . وقال عليه الصلاة والسلام : ﴿ إن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » الترمذي وغيره .

٢٠ - حكم طلب العلم في الإسلام : طلب العلم في الإسلام فريضة ، وهو على درجتين من الوجوب والفريضة :

أ - فرض عين : يتوجب على كل مسلم طلبه ، وهو مالا بد لكل مسلم من معرفته : لتسلم عقيدته ، وتصحيح حياته وتستقيم معاملته على وفق شرع الله عز وجل . وهذا ما أمر الله تعالى به إذ قال : ﴿ اعلموا أنه لا إله إلا الله ﴾ [محمد : ١٩] وهو المراد بقوله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه ابن ماجه . أي : ذكراً كان أم أنثى .

ب - فرض كفاية : يتوجب على المسلمين بمجموعهم تحصيله ، فإذا قام به بعضهم سقط الطلب عن الباقين ، وإن لم يقم به أحد أتم الجميع ، وهو التوسع في

علوم الشريعة درساً وحفظاً وبحقاً ، والتخصص في كل علم يحتاج إليه الجماعة المسلمة ، لتحفظ كتابها ، وتقيم دعائم دولة الحق والعمل على الأرض قوية متينة ، مهية الجانب ، لا يطمع فيها عدو ولا يجرؤ عليها مارق أو طاهر . وهذا ما دعانا إليه القرآن بقوله : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [التوبة : ١٢٢] . ويناس على التفقه في الدين ما ذكرنا من العلوم التي تختصها الأمة .

وهذا التفقه والتخصص مطلوب في حق كل مسلم ، عملاً بقوله سبحانه : ﴿ قل رب زدني علماً ﴾ [طه : ١١٤] . ويقول عليه السلام : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » متفق عليه .

٢٦ - العلم نور والعلماء منارات هدى : علمنا أنه لا طريق إلى معرفة الله تعالى والوصول إلى رضوانه والتمتع بقرنه يوم القيامة إلا بالعلم ، فهو النور الذي بعث الله تعالى به رسله وأنزل به كتبه ، به يهتدى في ظلمات الجهل ، وبه يتخلص من الشكوك والشبه والأوهام ، قال تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من أتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ [البقرة : ١٧٥ - ١٧٦] . وقال سبحانه : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه وصبروه وألعموا النور الذي أترك منه أولئك هم المفلحون ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وإذا برز العلم السوي العلماء العاملون المخلصون : « إن الأشياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ، وإنما ورثوا العلم » رواه الترمذي وغيره . فهم حلام الحق ومنارات الهدى التي يهتدى بها الأمة في مسالك حياتها ، وتقضي بهم وتسير وراءهم في شدائدها وأزماتها ، فيشقون لها طريق السعادة والفلاح ، ويصرونها معالي العزة والكرامة والسؤدد . قال عليه الصلاة والسلام : « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم انوشك أن

تفضل الخلاء ، رواه أحمد في مسنده .

فما دام العلم باقياً في الأمة قالوا في هدى وغيره ، وحضارة ورق ، واستقامة وعقل . وإنما يبقى العلم بقاء حملته العلماء ، فإذا ذهب العلماء وفقدوا من بين ظهراني الناس انحطت الأمور ، وانحرفت الأمة عن الجادة القويمة ، وسلكت مسالك الضلال ، والعدورت في مهالوي الرذيلة والفساد ، وألقت بنفسها إلى الضياع والدمار . وصلى رسول الله ﷺ إذ يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم قبض العلماء ، حتى إذا لم يبق علماً أثبت الناس رؤوساً جهالاً ، فاستولوا ، فأنتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » متفق عليه .

٢٢ - ﴿ وقال رب زدني علماً ﴾ [طه : ١١٤] : إن المسلم لا يقف عند حد من الكمال ، بل هو لا يزال يسعى في الرقي في مراتب الفضل ، وإذا كان العلم النافع هو عنوان الفضل فإن المسلم لا يشبع منه ، وكيف لا ورسول الله ﷺ قدوته ، وهو الذي استجاب لأمر ربه سبحانه حيث قال له : ﴿ وقال رب زدني علماً ﴾ . فقال ﷺ : « لا يبرك لي بطلوع خمس يوم لا أزداد فيه علماً يقربني من الله عز وجل » ولا سيما وأن لفظة العلم تحمل صياحه على طلب المزيد منه ، وهذه حقيقة أخبر بها من علمه ربه فأحسن تعليمه ، وأذبه فأحسن تأديبه ، صلوات الله وسلامه عليه ، إذ يقول : « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب دنيا » رواه البيهقي وغيره . وهذا المزيد من العلم مرتبط بتوفيق الله تعالى ، فإذا صبح القصد من طالب العلم ، وأخلص الية ، وكان قصيده ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، ليحفظ دينه ويتبع عقله ، سهل الله عز وجل تحصيله ، وهياً له أسبابه ، فإذا ما تناول موضوعاً بالبحث انكشفت له آفاق مواضيع أخرى ، وإذا ما تمرس في علم فصحت له آفاق علوم أخرى . قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ [القمر : ١٧] .

٢٣ - من عمل بما علم أورثه الله تعالى علم ما لم يعلم : وتبلغ العناية الإلهية أوجها ، والتوفيق الرباني غاية ، حين ينضم إلى العلم العمل ، ويتزعم العمل بالقول ،

قال تعالى : ﴿ واتقوا الله وعلِّمواكم الله والله بكل شيء عليم ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .
 فكلمنا تعلم المسلم علماً وعمل به شق بذلك طريقاً إلى الجنة والزيادة قرباً من الله تبارك
 وتعالى ، وزيادة قربة من الله عز وجل تزيد توفيقاً في طلب العلم والمزيد منه ، والمزيد
 من العلم مع العمل يزيد في الهداية والتقوى ، وهكذا ، لا يزال يترق العلماء العاملون
 في مراتب الفضل والعلم حتى يهزوا الهداية كاملة موفورة ، ويهزوا بمقعد صدق
 عند مليك مقتدر : ﴿ ويزيد الله الذين اعتدوا هدى والياتها الصالحات غيراً عند
 ربك ثواباً وخيراً مرداً ﴾ [مريم : ٧٦] . ﴿ والذين اعتدوا زانهم هدى وآناهم
 لقوامهم ﴾ [محمد : ١٧] .

٢٤ - التحذير من ترك العمل بالعلم : علماً أن العلماء هم منار الهدى في
 الأمة ، فإذا قلدوا ضلّت الأمة طريقها السوي ، والأشدّ سراً من فقد العلماء أن
 ينحرف هؤلاء عن الطريق التي أمرهم الله تعالى ورسوله ﷺ بسلوكها ، فلا يعملوا
 بعلمهم الذي ورثوه عن الجبابرة النوي ، فيخالف فعلهم قورهم ، ويكونوا قدوة سيئة
 للأمة في معصية الله عز وجل وترك طاعته ، وقيل المنكر وترك المعروف . ولقد حذر
 شرع الله عز وجل من هذا المسلك وأنكره أيها إنكار ، وبين عاقبته الوخيمة لمن
 انتهجه . قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تعملون . كثر مقناً
 عند الله أن تقولوا مالا تعملون ﴾ [الصف : ٢ - ٣] . وقال سبحانه :
 ﴿ أقامرون الآثام بالمر ويسبون أنفسهم وأنهم يتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ [البقرة :
 ٤٤] .

وروى البخاري ومسلم : عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : سمعت رسول
 الله ﷺ يقول : « يؤق بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فمدان أقداب بطنه ،
 فيدور بها كابدور الحمير في الرحى ، فيحتمج إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟
 ألم نك تأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ؟ فيقول : طي ، كنت أمر بالمعروف ولا
 آتبه ، وأنسى عن المنكر وآتبه » .

تدلق : فخرج أمامه بسرعة . فكتاب بطنه : أعتاقه وأحشاه .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مررت ليلة أُسري بي بأقوام تفرس شفاهم بشارض من نار ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : عطاء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون » (١) .

وفي رواية عبد الله بن مسعود : « يقرؤون كتاب الله ولا يعملون به » .

وقال عليه السلام : « لا تقول قديما عند حتى يسأل عن عمره فيم أخاه ، وعن علمه فيم عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقته ، وعن جسمه فيم أبلاه » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٢٥ - نشر العلم : لقد حث الإسلام على تعلم العلم وتعليمه ، قال تعالى : ﴿ فلولوا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

وقال عليه السلام : « نشر الله امرأً مبيع من شئنا قبله كما سمعه ، قرب مبيع لوعى من صامع » رواه الترمذي وغيره .

وعبر عمل يقوم به المسلم وينمو له أجره وثوابه عند ربه حتى بعد موته : أن يعلم الناس العلم الذي أكرمه الله تعالى به ومن عليه بتحصيله . قال عليه الصلاة والسلام : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم وغيره . وقال عليه السلام : « أفضل الصدقة أن تعلم امرء المسلم علماً ، ثم يعلمه أخاه المسلم » رواه ابن ماجه .

٢٦ - الإخلاص في طلب العلم وترك المباحة والمصارفة به : على طالب العلم والعالم أن يخلص في طلبه وعلمه لله تعالى ، ولا يقصد من ذلك إلا حفظ دينه وتعليمه

(١) ذكر البخاري في التاريخ والطريق هذا الحديث عقب الحديث الذي قبله كونه له . وقال يدهما : رواه البخاري ومسلم واللفظ له . ولم يجد هذه طريقة في الصحيحين ، وإنما وجدنا هذا الحديث في مسند أحمد عن أنس رضي الله عنه ، مع الاختلاف في بعض الألفاظ .

للناس ولرفعهم به ، فلا يكون غرضه من تعلم العلم وتعليمه ليل منصب أو مال أو سمعة أو جاه ، أو ليقال عنه إنه عالم ، أو ليعلم يعلمه على خلق الله عز وجل ، ويجادل به أقرانه ويهاجمهم ، فكل ذلك مذموم يحبط عمله ، ويوقعه في سخط الله تبارك وتعالى .

روى أبو داود وغيره : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم علماً مما يبتلى به وجه الله تعالى ، لا يعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » يعني ربحها .

وروى الترمذي وغيره : عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من طلب العلم ليحاري به العلماء ، أو يحاري به السفهاء ، ويصرف به وجهه الناس إليه ، أدخله الله النار » .

وجاء عن رسول الله ﷺ : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ... رجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأُتي به ، فعرف نفسه عرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أقي في النار » رواه مسلم وغيره .

٢٧ - لا أفري نصف العلم : من علام الإخلاص في طلب العلم وتعليمه أن لا يأنف طالب العلم من أن يقول : لا أفري ، فيما لا علم له به ، وكثيراً ما كان العلماء يسأل أحدهم عن عديد من المسائل ، فيجيب عن بعضها بما يعلم ، ويجب عن أكثرها بلا أفري ، حتى قيل : لا أفري نصف العلم ، لأنها علامة على أن قائلها متثبت بما يقول . وهذا رسول الله ﷺ - على علو مرتبته - يسأل عن أمور فيقول : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » متفق عليه . ولا غيباضة في ذلك والله تعالى يقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

٢٨ - ومن آداب طالب العلم : أن يسعى إلى العلماء ، ويسحث عنهم ، فيلزمهم في سفرهم وإقامتهم ، ليختمهم ويأخذ عنهم العلم والآداب .
قال تعالى ، حاكياً عن موسى قصته مع الخضر ، عليهما السلام : ﴿ هل أتيتك على أن تعلمن مما علمت رشداً ﴾ [الكهف : ٦٦] .

٢٩ - ذكر الله عز وجل : إن ذكر الله عز وجل من أعظم العبادات ، قال تعالى : ﴿ اتقوا ما أوحى إليكم من الكتاب وأتوا الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ [العنكبوت : ٤٥] . وذلك أن ذكر الله عز وجل يجعل الإنسان على التزام شرعه في كل شأن من شؤونه ، ويشعره برقابة الله تعالى عليه فيكون له رقيب من نفسه ، فيستقيم سلوكه ويصلح حاله مع الله تعالى ومع الخلق ، ولذا أمر المسلم بذكر الله تبارك وتعالى في كل أحيانه وأحواله ، قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسيؤخروكم الله وأصلياً ﴾ [النور : ٤١ - ٤٢] . أي صباحاً ومساءً ، والفراد : في كل الأوقات . وقال سبحانه : ﴿ ما إذا قضيتُم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾ [النساء : ١٠٣] أي : في جميع أحوالكم .

٣٠ - عمو ذكر كتاب الله تعالى : وغير ما يذكّر به الله عز وجل كلامه للترسل على المصطفى ﷺ ، لما فيه - إلى جانب الذكر - من بيان لشرع الله تعالى ، وما يجب على المسلم التزامه ، وما ينبغي عليه اجتنابه ، فيأخذ منه المنهج الذي يقوم عليه سلوكه ويأخذ به إلى الفوز والسعادة . قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر يتبين للناس ما لَزَّى إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ [النحل : ٤٤] . وقال سبحانه : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ [ص : ٦٩] . وقال : ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ [ص : ٤٩] . وقال : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ [القدر : ١٧] .

٣١ - عمارة المساجد : وغير الأماكن لذكر الله عز وجل وتلاوة القرآن

وتعلم العلم إنما هي الساجد بيوت الله سبحانه ، يصرها في أرضه المؤمنون ، وعصاها الحقيقية إنما تكون بالعلم والذكر إلى جانب العبادة من صلاة واعتكاف ونحوها ، قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمِ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رَجُلًا لَا لَّهُمْ فِيهِ قَلْبٌ وَلَا يَمِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَيَقَامُ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ يَخْشَوْنَ يَوْمًا تَغْلِبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَرْبِّدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مِنْ بَشَاءٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور : ٣٦ - ٣٨] .

٣٢ - عبادة مطردة وشافع مشفع : ولما سبق كانت تلاوة القرآن بذاتها عبادة مأموراً بها ، ويناب عليها المسلم ، وتكون وسيلة لنجاته يوم القيامة وتبيل مرضاة ربه جل وعلا ، حيث يشفع القرآن لخالقه عبد ربه . قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ [الكهف : ٢٧] وقال : ﴿ وَأَمَّا مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الصَّلَاةِ ﴾ [المائدة : ١٥] . وقال على لسان نبيه ﷺ : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّيَ فِي هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اعْتَصَى بِمَا فِي يَدَيَّ شَفَعْتُ وَمَنْ ضَلَّ قُلُوبُهَا إِنَّمَا أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [الترمذي : ٩١ - ٩٢] .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ : « مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام ، ومثل الذي يقرأ وهو يتعاهده ، وهو عليه شديد ، فله أجران » .

وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول : الم حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

وروى مسلم عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اقرأوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » .

ولا يقل فضل السماع للقرآن عن فضل تلاوته ، بل إن الاستماع والإنصات

لقراءته سبب لئيل مغفرة الله تعالى ورحمته . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٠٤] .

وروى الإمام أحمد في مسنده : أن رسول الله ﷺ قال : « من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة » .
والذا كان المصطفى ﷺ يجب أن يستمع إلى قراءة القرآن من أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله : « اقرأ على . قال : قلت : اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أشتي أن أسمعه من غيري . قال : فقرأت النساء حتى بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَاءَا مِنْ كُلِّ أُمَةٍ شَهِيدٌ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء : ٤١] . قال لي : كف ، أو : أسكت . فرأيت حينه تدرفان » .

٢٢ - نور على نور : ويزداد الأجر ويعظم الثواب ويكثر الفضل إذا ضم إلى التلاوة والاستماع الفهم والتدبر والخشوع ، فيجتمع نور على نور ، ومكرمة إلى مكرمة ، ويكون ذلك عنوان العقل ورمز الرفعة عند الله عز وجل . قال الله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدُّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَذْكُرُوا لَوَلَوِ الْأَكْبَابِ ﴾ [ص : ٢٩] .
وعندما يدل عليه قوله ﷺ : « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ... » .
عل أنه لحصل فضيلة الذكر وتلاوة القرآن المذكورة في الحديث لقوم فعلوا ذلك في أي مكان ، ولا سيما النساء اللواتي يندب في حقهن البقاء في البيوت ، وعدم الخروج إلى الأماكن التي يغشاهن الرجال ، وإن كان الذكر في المساجد للرجال أفضل ، لأن في ذلك عمارتها كما علمنا ، ولأنها بعيدة عما يشغل عن ذكر الله تعالى ويشوش الذهن ، إلى جانب أنها مصونة عن الأنجاس والأقطار ، لقادسية والمعنوية .

٢٤ - فضل من الله تعالى ورضوان : لقد كان فضل الله عز وجل عظيماً على أولئك الذين جلسوا يتلون كتابه ، إذ حياهم بمكرمات أربع ، كل منها دليل على علو شأنهم ورفعة منزلتهم ، وكفيل لهم برضوان الله ببارك وتعالى ومغفرته وعلونه :

أ - « نزلت عليهم السكينة » : روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قرأ رجل الكهف ولي الدار دابة ، فجعلت تنفر ، فظهر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيت ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « هرا فلا ، فإنيها السكينة نزلت للقرآن » .

ويجوز السكينة بطمئن القلب ، وهدأ النفس ، وبشرح الصدر ، وبسفر البال والفكر ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

والخسارة كل الخسارة لأولئك الذين حوت قلوبهم فغلوا عن الله تعالى وذكره ، فعاشوا في ملل وكرب وضباب في ديارهم ، وكان لهم الخلاك والخلود في جهنم في آخرهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَمْرٌ مِنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مِهْشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه : ١٢٤] . وقال سبحانه : ﴿ قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ ﴾ [الزمر : ٢٢] .

ب - « غشيتهم الرحمة » : أخرج الحاكم عن سليمان رضي الله عنه : أنه كان في عصاة يذكرون الله تعالى ، فمر بهم رسول الله ﷺ فقال : « ما كنتم تقولون ؟ » فإني رأيت الرحمة نزل عليكم ، فأردت أن أشرككم فيها . هذه الرحمة التي هي أعظم ما يعطى به المؤمن وغير ما يملكه المسلم كثيرة لجهده في هذه الحياة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ ضَعِظْ لِي بِرَحْمَةِ اللَّهِ فَإِنَّكَ ظَلِمْتَ وَأَنْتَ تَعْتَدِلُ ﴾ [يونس : ٥٨] .

فعلوا هؤلاء الذين قربت منهم الرحمة فكانت تلاوتهم للكتاب الله عز وجل ومدارستهم له عموماً على أنهم من المحسنين : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] وبشارة لهم أنهم من المؤمنين الصادقين والمحقين المقربين الناجين من عذاب الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ قُلْ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتَسِبُهَا الَّذِينَ يَشْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

ج - « حفظهم الملائكة » : روى البخاري ومسلم عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال : « بينا هو يقرأ من الليل سورة البقرة وقمره مربوطة عنقه ، إذ حالت الغرس ، فسكت فسكت ، فقرأ فجدت الغرس ، فسكت وسكنت الغرس ، ثم قرأ فجدت الغرس ، فأنصرف . وكان ابنه يحيى قريباً منها ، فأشغل أن نصيبه ، فلما استمره رفع رأسه إلى السماء حتى ما أراها ، فلما أصبح حدث النبي ﷺ ، فقال : « قرأ يحيى حضير ، فقرأ يحيى حضير » قال : فأشغلت يا رسول الله ، أن تطأ يحيى ، وكان منها قريباً ، فرفعت رأسي فأنصرفت إليه ، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال الصايح ، فخرجت حتى لا أراها . قال : « ولدي ما ذاك ؟ » . قال : لا ، قل : « تلك الملائكة دلت لصولك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها ، لا تنواري منهم » .

وهكذا كلما ذكر القارئون كثرت الملائكة حتى تحيط بهم من كل جانب . وماذا يحيى نزول هؤلاء الملائكة ، وما هي ثمره وجودهم وإحاطتهم ؟ إن هذا يحيى أن هؤلاء القارئ الملتزمين في أمن وسلام ، وإن ثمره وجودهم يحفظهم عن كل أذى ، وصيبتهم من أن يصل إليهم شيء يكرهونه ، قال تعالى : ﴿ لَهُ مَعْيَاثُ مَن بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُوهُ مَن أَمَرَ اللَّهُ بِ﴿ [فرعد : ٦١] : أي يأمر من الله تعالى وإن منه .

ولعل خير ثمره لهذه الملائكة : أن يكون هؤلاء الملائكة سفراء بين عباد الرحمن هؤلاء وبين خالقهم جل وعلا ، يرفعون إليه سبحانه ما يقوم به هؤلاء المؤمنون من ذكر الله عز وجل ومدارسة لكتابه ، وما انطوت عليه نفوسهم من رغبة في نعيم الله عز وجل ورضوانه ، ورغبة من سخطه وإشفاق من عقابه ، فيكون ذلك سبباً للمغفرة ، وباباً للفوز والنجاح . روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإن وحدوا قوماً يذكرون الله نادوا : هلموا إلى حاجتكم . قال : فيحفظونهم

بأجحتهم إلى السماء الدنيا . قال : فيسألهم ربهم — وهو أعظم منهم — : ما يقول عبادي ؟ قال : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك^(١) . قال : فيقول : هل رأوني ؟ قال : يقولون : لا والله ما رأوك . قال : فيقول : وكيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً وأكثر تسبيحاً . قال : يقول : فما يسألوني ؟ قال : يسألونك الجنة . قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها . قال : يقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد حرصاً عليها وأشد غا طلباً وأعظم فيها رغبة . قال : منهم يتعرفون ؟ قال : يقولون : من النار . قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها . قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها قراراً وأشد غا هاققة . قال : فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة : معهم فلاي ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ؟ قال : هم الجلساء لا يلقى هم جلسهم .

د - ذكرهم الله فيمن عبده : قال عز وجل : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ [البقرة : ١٥٢] . فإذا ذكر العبد لقوم ربه ، بتلاوة كتابه وسماع آياته ، قاله الله عز وجل على فعله من جسسه فذكره سبحانه في حياته ، وشتان ما بين المذكورين . فلي ذكر الله تعالى لعبده الرفعة ، والمفخرة والرحمة ، والقبول والرضوان .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ :
 « يقول الله تعالى : أنا عبد ظن عبيدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني : فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ غير منهم . وإن تقرب إلي مشعر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي قراعاً تقربت إليه يامعاً ، وإن أناني يحشى جنبه

(١) وكل ذلك حاصل بتلاوة القرآن وسارسته .

هروكاس . وكل ذلك يعني : قبول الله عز وجل ورضوانه وسرعته ثوابه لتلك الذي
 أقبل على الله تبارك وتعالى ، ولزم شرعه ، فامتثل أمره واجتنب نهيه ، ولبت على
 طاعته .

وبخلاصة القول : لقد ربحت تجارة هؤلاء الذين أقبلوا على كتاب الله عز وجل
 تلاوة ودرسا وتعلما وعملا وفراشا ، وصدى الله العظيم إذ يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ
 كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ،
 لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيُرِيَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [قاطر : ٢٩ - ٣٠] .
 وحسب هؤلاء فخرا أن قدومهم في عملهم خير الخلق على الإطلاق محمد بن
 عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وغير ملائكة السماء جبريل عليه السلام ، حيث
 كانوا يدارسان القرآن .

فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول
 الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان
 يلقاه في كل ليلة من رمضان يدارسه القرآن ، فرسول الله ﷺ أجود بالخير من
 الريح المرسلة . أي المطلقة التي يتوهم هويها ويعم نفعها .

عل أن هذا الربح حاصل أيضا لكل من يتصنع على ذكر الله تعالى مطلقا ، وروى
 مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما : أنهما شهدا على النبي ﷺ
 أنه قال : « لا يفقد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ،
 ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . وكفى الذاكر شرفا أن يذكره
 الله عز وجل في الألف الأعلى .

٣٣ - إنسانية الإسلام وعدالته (التقوى والعمل الصالح طريق الوصول إلى
 الله عز وجل) : لقد نمر الإسلام وحدة الإنسانية ، ورسخ المساواة بين أفراده البشرية

(١) ملا . حمامة . هروكاس . متبا سريعا . دائما : خارج مسافة ما بين الكعبين إلا مسطحة يديا ومباراة

من حيث المولد ، فالجميع مخلوقون من نفس واحدة ، ولا فرق بين أبيض وأسود ، ولا فضل لعربي على أعجمي ، ولا اعتبار لشريف على وضيع في أصل الخلقة والنسب : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ فِيهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] . وكانت العدالة الإلهية في الإسلام حيث جعل التفاضل بين الناس بالعمل الصالح ، وطريق القرب من الله تعالى تقواه ، دون النظر إلى من انحدر منهم من الآباء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] . فلا يضير الإنسان عند الله عز وجل خبثة نسبه ، فإن الله تعالى رتب الجلاء على الأعمال لا على الأنساب ، قال سبحانه : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ عَمَلُهَا ﴾ [الأنعام : ١٣٢] . فلا يبلغ العبد الدرجات العلا عند ربه إلا بالعمل الصالح ، بل إن الأنساب تلاشي يوم القيامة ، حيث تقف الخلائق على صعيد واحد ، ولا يلتفت أحد منهم إلى سواه : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] .

ولذا نجد القرآن الكريم يحذر الناس من أن يعتمدوا على الأنساب ، فيأمر النبي ﷺ : أن يبدأ في تبليغ الناس دعوة الله تعالى بإنداد أقرب الناس إليه نسباً فيقول : ﴿ وَأَنْزَلَ عَشْرَ تِوَالِيٍّ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] . ونجد المصطفى ﷺ - وهو الشفوق الرحيم ، وأولى الناس بشفقته ورحمته عشيرته وذوو قرابه - نجدته يسارع لتبليغ أمر ربه ، فيصعد الصفا وينادي : « يا معشر قريش ، اشترُوا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس أغني عنك من الله شيئاً ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، وبها صفة حمة رسول الله ، لا أغني عنك من الله شيئاً . وبها فاطمة بنت محمد - ﷺ - سبني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً » متفق عليه .

٣٤ - ولاية الإيمان والعمل ، لا ولاية الدم والنسب : لقد كان الناس يتناصرون ويتول بعضهم بعضاً بالعصبية والقرابة النسبية ، فجاء الإسلام ليقطع كل

صلة بين الإنسان والإنسان إلا صلة الإيمان ، وليطعن كل ولايتوصيرة إلا ولاية الدين والعمل ، ونصرة العقيدة والهدى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وإذا كانت الولاية بين المؤمنين على أساس العقيدة والدين كانت لهم ولاية الله تعالى ونصرته ، وولاية نبيه المصطفى ﷺ وشفاعته ، فمن كان أكمل إيماناً كان أعظم ولاية منهما ، ومن كان أكثر حبلاً كان أكثر فرى من الله تعالى وأعطى شفاعته . قال الله تعالى ليه المصطفى ﷺ : ﴿ إِنْ وَلِيَ اللَّهُ شَيْئاً فَذَلِكَ الْكِتَابُ وَهُوَ يُنْزِلُ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] . وقال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المجادلة : ١٩] . وقال : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٨] . وقال جل وعلا : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد : ١١] . وقال ﷺ : إِنْ آتَى آلَ اللَّهِ لِمَا وَلِيَ بَأُولِيَاءِهِ ، وَإِنَّمَا وَلِيَ اللَّهُ وَصَالِحُو الْمُؤْمِنِينَ متفق عليه .

وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

لمسرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك تقوى المكالات على حسب
تقد رفيع الإسلام سلطان فارمر وقد وضع الشرك الصيت أيا هب

٣٥ طريق السعادة والنصر والنجاة : وإذا كان الأمر كما عدا من أركان الدرجات لا تنال إلا بالأعمال ، وأن ولاية الله تعالى ونصرته مرتبطة بالتقوى ، وشفاعة المصطفى ﷺ وولايته مترتبة على كل الإيمان فإن المسلم الذي اختار بالعقل وصلاح الفكر ، وكان أساساً قوياً متوازياً واقعياً لا محرفاً مضطرباً فلفاً ، فإن هذا المسلم يشمر عن ساعد الجهد ويسارع إلى العمل الصالح ، غير معتمد على أمانة أئويته وشرف أجداده ، موثقاً : ﴿ تَرَى لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم : ٣٩] . فيتحقق له وعد ربه جل وعلا بعد أن يحقق شرطه . ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحاً مِمَّا دُكِرَ

لَوْ أَنِّي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَحُصْتُ حَيَاةَ طَلِيَّةٍ وَأُنْجِزَتْهُمْ أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ [النحل : ٩٧] .

وَكَلِمَتِكَ فَإِنَّ هَذَا الْمُسْلِمَ لَا يَرْضَى وَلِيًّا إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَيَتَعَالَى فَإِنَّهُ يَتَحَلَّى مِنْ كُلِّ وَلايَةٍ لَا تَرْفَعُ إِلَى هَذَا الْمَسْتَوَى ، وَيَقْطَعُ كُلَّ صِلَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَأَعْلَى وَالْفُسُوقِ وَحَزْبِهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَخْذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ كُنُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٢٨] . فَيَكُونُ لَهُ النُّصْرُ وَالْغَلْبَةُ عَلَى كُلِّ قَوِيٍّ الْبَاطِلِ وَالطُّغْيَانِ فِي الْأَرْضِ : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٥ - ٥٦] . يَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٠] .

٣٥ - وَلَمَّا يَرْشُدْ إِلَيْهِ الْحَدِيثُ :

١ - أَنَّ الْخِزَاءَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ جَنَسٍ مَا قَدَّمَ الْعِيدَ مِنْ عَمَلٍ ، فَجَزَاءُ التَّنْفِيسِ ، وَجَزَاءُ التَّفْرِيجِ التَّفْرِيجِ ، وَالْعَوْنُ بِالْعَوْنِ ، وَالنَّصْرُ بِالنَّصْرِ ، وَالتَّهْنِيطُ بِالتَّهْنِيطِ : رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمَّا مُؤْمِنٌ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا مُؤْمِنٌ سَقَى مُؤْمِنًا عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْغَثِثِ ، وَأَمَّا مُؤْمِنٌ كَسَا مُؤْمِنًا عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خَضِرِ الْجَنَّةِ » . الرَّحِيقُ الْغَثِثُ : هُوَ شَرَابُ الْجَنَّةِ الَّذِي خُمَ عَلَيْهِ بِالْمَسْكِ . خَضِرُ الْجَنَّةِ : ثِيَابُهَا الْخَضْرَاءُ . وَقَالَ ﷺ : « إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِيَّاهُ الرَّحْمَاءُ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

٢ - الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ طَرِيقُ عِمَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لِأَنَّ : « الْخَلْقُ عِمَالُ اللَّهِ - أَيِ هُوَ التَّكْفِيلُ بِرِزْقِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ - وَأَحِبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفُسُهُمْ لِعِمَالِهِ » رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَغَيْرُهُ . وَالْعَادَةُ أَنَّ السَّيِّدَ الْمَالِكَ يَحِبُّ الْإِحْسَانَ لِعِمَالِهِ ، وَمَا ذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ تَهْنِيطٍ وَغَيْرِهِ إِحْسَانٌ إِلَى الْخَلْقِ وَنَفْعٌ ، مَهْوٍ طَرِيقٌ لِلصَّحَةِ .

٣ — بشارة ووعد — بإعمار الصادق عليه الصلاة والسلام — لمن كان من خلقه التفتيس عن غيره والعون والتيسير أن يحتم له يخبر ويموت على الإيمان والإسلام ، لأن غير المسلم لا يرحم في الآخرة ، فلا ياله تيسير ولا عون أو تفتيس ككرب .

٤ — ما ذكر من التفتيس وغيره عام في المسلم وغيره الذي لا يتناسب للمسلمين العدل ، فالإحسان إليه مطلوب ، بل ربما تعدى ذلك لكل مخلوق ذي روح ، قال **عليه السلام** : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء » رواه مسلم .

وقال : « في كل كبد رطبة أجر » مضاف عليه .

٥ — الخلق من لطرق الرباء في طلب العلم ، لأن تطرقه في ذلك أكثر من تطرقه في سائر الأعمال ، فيبغي تصحيح الية فيه والإخلاص كي لا يحيط الآخر ويضيع الجهد .

٦ — طلب العون من الله تعالى والتيسير ، لأن الهداية بيده ، ولا تكون طاعة إلا بتسهيله ولطفه ، ودون ذلك لا يجمع علم ولا غيره .

٧ — ملازمة تلاوة القرآن والاجتهاد لذلك ، والإقبال على تعليمه وتعلمه والعمل به ، وأن لا يترك ليقرأ في هذه الاحتفالات والمناسبات ، وفي المآثم وعلى الأموات .

٨ — المبادرة إلى التوبة والاستغفار والمسيل الصالح ، قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَحِفْظٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُجِلَتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُتْلُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَاقِلِينَ عَنِ الْقَامِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢ - ١٣٣] في السراء والصراء : في جميع الأحوال من السر والسر والشدة والرخاء . الكاظمين الغيظ : يمسونه في نهمهم ولا يظهرونه .

عَدُلَ اللهُ تَعَالَى وَفَضَّلَهُ وَقَدَّرَهُ

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن زبارة بن مالك قال : « إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ نَزَلَ : فَمَنْ هُمْ بِحَسَنَاتِهِ فَلَمْ يُعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عَنْهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هُمْ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَنْهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سِتِّمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَلْفِ ضِعْفٍ كَثِيرَةٍ ، وَإِنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يُعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عَنْهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هُمْ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سِتَّةً وَاحِدَةً » رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما بهذه الحروف .

فَانْظُرْ يَا أَحْمِي وَأَفْقَتْ اللهُ وَإِلَّاكَ إِلَى عَظِيمِ لُطْفِ اللهِ تَعَالَى ، وَتَأَمَّلْ خَلْقَهُ الْكَافَّةَ .

وقوله : « حَسَنَةً » إشارة إلى الاختيار بها .

وقوله : « كَامِلَةً » للتأكيد وشيئاً الاختيار بها .

وقال في السجدة التي هُمُّ بها ، ثُمَّ تَرَكَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَنْهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَأَكْثَرَهَا بِكَامِلَةٍ . وَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سِتَّةً وَاحِدَةً ، فَأَكْثَرَهَا تَقْلِيلَهَا بِوَاحِدَةٍ ، وَلَمْ يُؤَكِّدْهَا بِكَامِلَةٍ ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْبُيُوتُ ، سُبْحَانَهُ لَا تُحْصَى ثَنَاءٌ عَلَيْهِ ، وَبِاللهِ التَّوَكُّلُ .

الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب من هم بحسنة أو سيئة) رقم /٦١٢٦/ وفي التوحيد . ورواه مسلم في كتاب الإيمان (باب إذا هم العبد بحسنة كتب ، وإذا هم بسيئة لم تكتب) رقم /١٣١/ .

أهمية الحديث :

هذا الحديث القدسي فيه بشارة كبرى ، وأمل عظيم في فضل الله العظيم ، ورحمته الغامرة التي وسعت كل شيء ، إنه يبعث في النفس الأمل المشرق ، ويوطئها على العمل والكسح ضمن مراقبة الله وعلمه ، وأتمت سلطاته وحيثته وعنايته ولطفه .

لغة الحديث :

« كتب الحسنات والسيئات » : أمر بالكتابة الحفظية بكتابتها - كما في علمه - على وفق الواقع .

« هم » : أراد والقصد ، والهم ترسيخ قصد الفعل ، تقول : هممت بكذا أي قصصته بهيئتي ، وهو فوق مجرد انحطاط الشيء بالقلب .

« بحسنة » : بطاعة مفروضة أو مطلوبة .

« ضعف » : مثل . قال الأزهري : الضعف في كلام العرب مثل ، هذا هو الأصل ، ثم استعمل الضعف في مثل وما زاد ، وليس للزيادة حد .

« بسيطة » : بمعصية صغيرة كانت أو كبيرة .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

تهديد :

تضمن الحديث كتابة الحسنات والسيئات ، والهم بالحسنة والبسطة ، وفيما يلي الأنواع الأربعة :

١ - عمل الحسنات : كل حسنة عملها العبد المؤمن له بها عشر حسنات ، وذلك لأنه لم يلف بها عند الحزم والعزم ، بل أخرجها إلى ميدان العمل ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : ١٦٠] . وأما التضاعفة على العشر لمن شاء الله أن يضاعف له ، فدليله قول الله تعالى : ﴿ مثل الذين

يُفْتَنُونَ أَمْوَالُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا تَلَى حَتَّى أَنْتَ سَبْعَ سَنَاقِلٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِائَةُ نَحْوَ
وَاللَّهُ يُضَافُ لِي بِشَاءُ اللَّهِ وَاسْمُ عَلِيٍّ ﴿ [البقرة : ٢٦٦] . وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ
ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : « جَاءَ رَجُلٌ بِمِائَةِ مِطْلُومَةٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
فَقَالَ : لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ » .

وَمِصَافَةُ الْحَسَنَاتِ زِيَادَةٌ عَلَى الْعَشْرِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ بِحَسَبِ حَسَنِ الْإِسْلَامِ ، وَبِحَسَبِ
كَمَالِ الْإِحْلَاصِ ، وَبِحَسَبِ فَضْلِ الْعَمَلِ وَإِقْلَاقِهِ فِي مَحَلِّ الْمَلَامِ .

٢ - عَمَلُ السَّيِّئَاتِ : وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَلْتَرَفُّهَا الْعَبْدُ تَكُوبُ سَيِّئَةً مِنْ غَيْرِ مِصَافَةٍ ،
قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُحْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الْأَنْعَامُ :
١٦٠] لَكِنِ السَّيِّئَةُ تَعْظُمُ أحياناً بِسَبَبِ شَرَفِ الزَّمَانِ أَوْ الْمَكَانِ أَوْ الْقَاعِلِ :

أ - فَالسَّيِّئَةُ أَعْظَمُ تَعْزِيباً عِنْدَ اللَّهِ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ ، لِشَرَفِهَا عِنْدَ اللَّهِ ، قَالَ
تَعَالَى : ﴿ إِنَّ جَدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ تَحْكُمُ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلَمُونَ فِيهِ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [التَّوْبَةِ :
٣٦] . قَالَ قَتَادَةُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : اعْلَمُوا أَنَّ الظُّلْمَ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ أَعْظَمُ مِظْلَمَةٍ
وَوِزْراً فِيمَا سِوَى ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ الظُّلْمُ فِي كُلِّ حَالٍ غَيْرِ طَائِلٍ ، وَلَكِنْ اللَّهُ تَعَالَى
يَعْظُمُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ .

ب - وَالْمِظْلَمَةُ فِي الْحَرَمِ أَعْظَمُ لِشَرَفِ الْمَكَانِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ الْحَيْجُ أَشْهُرُ
مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِ الْحَيْجُ فَلَا رَفْعَ وَلَا أَسْفَلَ وَلَا يَحْدَالُ فِي الْحَيْجِ ﴾ [الْبَقَرَةِ :
١٩٧] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْفُسُوقُ إِتْيَانُ مَعَاصِي اللَّهِ فِي الْحَرَمِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَزَلَ
بُرْدٌ فِيهِ بِالْخُلُوفِ يَنْقُلُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ حُلَاطٍ أَيْمٍ ﴾ [الْحَجِّ : ٢٥] . وَفَالِئِكَ كَانَ جَمَاعَةٌ
مِنَ الصَّحَابَةِ وَالسُّلَفِ يَتَّقُونَ سَكْنَ الْحَرَمِ عَشِيَّةَ لَرْتِكَابِ الْقُتُوبِ فِيهِ ، مِنْهُمْ : ابْنُ
عَبَّاسٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو وَابْنُ الْعَاصِ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَرَوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لِأَنَّ أَحَطَّاهُ سَبْعِينَ مِظْلَمَةً - بِعَنِي بَخِيرٌ مَكَّةَ - أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ

أن أخطئ، عظمية واحدة بمكة . وعن محمد قال : تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات .

ج - والسيف من بعض عباد الله أعظم ، لشرف قائلها وقوة معرفته بالله وقرينه معه سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن بَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ سَبْعِينَ مَرَّةً ذَلِكَ مِنْ اللَّهِ يَسُورٌ . وَمَن يُفْسِدْ سِكُنًا لَهُ وَرَسُولُهُ وَتَعْمَلْ جَانِحًا نُفُوتُهُمْ أَعْرَاضًا مَّرْتِينَ .. ﴾ [الأحزاب : ٢٠ - ٣١] .

٢ - اهتم بالحسنات : ومعنى اهتم الإرادة والقصد ، والعزم والتصميم ، لا مجرد الخاطر ، فمن هم بمسألة كتبها الله عنده حسنة واحدة ، وذلك لأن اهتم بالحسنة سبب وبديهة إلى عملها ، وسبب الخير خير ، وقد ورد تفسير اهتم في حديث أبي هريرة عند مسلم « إذا تحدث عبيدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة » . وفي حديث آخر من فالتك في المسند « من هم بمسألة فلم يعملها فعلم الله منه أنه قد أشعر قلبه وحرص عبيد كسبت له حسنة » . قال أبو القبراء : « من أتى فراشه وهو ينوي أن يصلي في الليل فضيعة حياته حتى يصبح كتب له ما نوى » وروى عنه مرفوعاً ، وخرجه ابن ماجة مرفوعاً ، قال الدارقطني : المخطوط الموقوف ، وقال سعيد ابن المسيب : من هم بمسألة أو صيام أو حج أو غزوة ، فحبل بينه وبين ذلك بلغه الله تعالى ما نوى .

٤ - اهتم بالسيئات : وإذا هم العبد بسيئة ولم يعملها ، ككتبت له حسنة كاملة ، وفي حديث أبي هريرة عند مسلم : « إذا تركها من جرأت » وعند البخاري « وإن تركها من أجل » وهذا يدل على أن ترك العمل مقيد بكونه قد تعال ، فهذا التارك يستحق الحسنة الكاملة ، لأنه قصد عملاً صالحاً ، وهو إرضاء الله تعالى وترك العمل السيئ . أما من ترك السيئة بعد اهتم بها محاطة من المخلوقين أو مراعاة لهم ، فإنه لا يستحق أن تكتب له حسنة ، بل قيل إنه يعاقب على ترك السيئة بهذه النية ، وذلك لأنه قدم الخوف من الناس على الخوف من الله وهو حرام ، وكذلك قصد الرياء للناس حرام .

وقد صوب القاصي عياض تليد حديث ابن عباس بحديث أبي هريرة .

وقال الحافظ ابن حجر : يحصل أن تكون حسنة من ترك بغير استحضار ما قبله به دون حسنة الآخر ، لما تقدم أن ترك المعصية كف عن الشر ، والكف عن الشر خير ، ويحصل أيضاً أن يكتب لمن هم بالمعصية لم تركها حسنة مجردة ، فإن تركها من عظمة ربه سبحانه وتعالى كتبت حسنة مضاعفة .

وقال الخطابي : محل كتابة الحسنة على الترك أن يكون التارك قد قدر على الفعل ثم تركه ، لأن الإنسان لا يسمى تاركاً إلا مع القدرة ويدخل فيه من حال بينه وبين حرمه على الفعل مانع ، كأن يمشي إلى امرأة ليزني بها مثلاً فيجد الباب مغلقاً ويعصر عنقه ...

٥ - الفضل العظيم : في رواية مسلم زيادة : « أو عفاها الله تعالى ، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك » وهذا يدل على فضل الله العظيم ، الذي لا يهلك معه إلا من ألقى يده إلى الهلكة ، ولجاوز الحدود ، وتجرأ على السيئات ، وأعرض عن الحسات ، وهذا قال ابن مسعود : وبلى لمن غلبت وحدانية عن عشراته .

٦ - اطلاع الملائكة على ما بهم به الإنسان : وهذا يحصل لهم إما بالهام ، أو يكشف عن القلب ، وقيل : يجد الملك لهم بالسنة رائحة عذبة وبالْحَسنة رائحة طيبة .

٧ - فضل الصيام : يمتاز الصيام عن غيره من العبادات بأنه لا يعلم فخر مضاعفة ثوابه إلا الله تعالى ، قال رسول الله ﷺ : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به » ذلك لأنه أفضل أنواع الصبر ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

٨ - أن رحمة الله بعباده المؤمنين واسعة ، ومظنونه شاملة ، وعطاياه غير محدود .

٩ - لا يؤخذ الله تعالى على حديث النفس والتفكير بالعصية إلا إذا صدق ذلك العمل والتفكير .

١٠ - هل المسلم أن يولي فعل الخير دائماً وأبداً ، لعله يكتب له أجره ونوابه ، ويروض نفسه على فعله إذا عجزت له الأسباب .

١١ - الإخلاص في فعل الطاعة وترك العصية هو الأساس في ترتيب الثواب ، وكلما عظم الإخلاص كلما تضاعف الأجر وكثر الثواب .

وَسَائِلُ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَتِلْكَ مَحَبَّتُهُ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ لَمْ تَعَالَى قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالنَّحْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَّا أَنْحَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَقُّلِ حَتَّى أُجِبَهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَبَلَدَهُ الَّذِي يَتَقَلَّبُ فِيهَا ، وَرَجُلَهُ الَّذِي يَتَخَفَى فِيهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأُفْعِلَّهُ ، وَلَيْسَ اسْتَعْلَانِي لِأُجِيبَهُ » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

الحديث رواه البخاري في الرقاع (باب التواضع) رقم / ٦١٣٧ . وفي البخاري رواية : « مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي فِي نَفْسِ عَبْدِي النَّوَسِ ، بِكُرْهُ الْمَوْتِ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاقَتَهُ » .

أهمية الحديث :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَوَلَّى أَوْلِيَائِهِ بِالْحُبِّ وَالرَّعَايَةِ ، وَيَهْجُرُ عَلَيْهِمُ أَنْ يَهْجُرَ أَحَدُ إِلَهُهِمْ بِسوء ، وهذا الحديث الشريف يبين من هم أولياء الله وأصحابه في الدنيا والآخرة ؛ ولذلك قيل فيه : إنه أشرف حديث في ذكر الأولياء .

وقال الشوكاني : حديث « من عادى لي ولياً » قد اشتمل على فوائد كثيرة النفع جليلة القدر لمن فهمها حق فهمها ، وادبرها كما ينبغي .

وقال الطوسي : هذا الحديث أصل في السلوك إلى الله تعالى ، والوصول إلى معرفته ومحبه ، وطريقة أداء المفروضات الباطنة وهي الإيمان ، والظاهرية وهي

الإسلام ، والركب منها وهو الإحسان ، كما تضمنه حديث جبريل عليه السلام .
والإحسان يتضمن مقامات السالكين من الزهد والإخلاص والمراقبة وغيرها .
لغة الحديث :

« عادي » : آذى ونهض وأغضب بالقول أو الفعل .

« ولي » : الولي عيل بمعنى فاعل + لأنه والى عبادة الله وطاعته من غير تحمل
معصية . أو بمعنى مطعون ؛ لأن الله تعالى والآء بالحفظ والرعاية مقابل حفظ حدوده
ورعاية أولاده وتوابعه . قال في الصحاح : والولي ضد العدو ، والولاية ضد العداوة
وأصل الولاية المحبة والتقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد . وقال ابن حجر في فتح
الباري : المراد بولي الله العالم بالله تعالى ، الموظع على طاعته ، المخلص في عبادته .
قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا
وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ
الْقَوْلُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس : ٦٢ - ٦٤] .

« طد آذنته بالحرب » : آذنته : أغلظته ، وألحى أن من آذى مؤمناً فقد آذاه
الله أنه يحارب له ، والله تعالى إذا حارب العبد أغلظته .

« التواكل » : ما زاد على التفرغ من العبادات ، والتواكل جمع تاكل وتعل وتعل وهي
الغنيمة والعطية والزينة .

« استعاذني » : طلب العود والحفاظ مما يخاف منه .

« لأعبدنه » : لأحفظه مما يخاف .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١ - أولياء الله تعالى : هم حصص عباد القائمون بطاعاته المخلصون له ، وهم
وصيهم الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم مصلحين هما الإمام والتقوى ، فقال تعالى :
﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

[يونس : ٦٢ - ٦٣] ، فالحركين الأول للولاية هو الإيمان بالله ، والركن الثاني لها هو التقوى ، وهذا يفتح الباب واسعاً وشبهاً أمام الناس ليدخلوا إلى ساحة الولاية ، وينفوذوا ظلال أمنها وطمانيتها ، ومن ثم يرتقون في مدارج الطاعة والإخلاص حتى يصلوا إلى طبقة الساطين الأبرار من أمة محمد ﷺ ، والتي وردت في لسان الله تعالى : ﴿ ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فجعلناهم آياتاً لغيرهم ومنهم من قطعنا ومنهم سائق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ [فاطر : ٢٢] ، قال تعالى نفسه أصحاب الذنوب المعصرون عنها ، والمقتصد المؤدي لتقاضي المحب لمسلم ، وهذا من أولياء الله ، ولكنه يقع في الطبقة الأدنى ، والسائق بالخيرات هو المؤدي لتقاضي الوفاة والمحب للمسلمات والكرويات ، وهذا هو الذي يرتقي إلى الطبقة الأعلى من طيفي أولياء الله تعالى .

وأفضل أولياء الله تعالى هم الأنبياء والرسل ، المعصومون من كل ذنب أو عطفة ، المؤيدون بالمعجزات من عند الله سبحانه وتعالى ، وأفضل الأولياء بعد الأنبياء والرسل أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين عملوا بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، ومن جاء بعدهم من القرون حتى أيامنا هذه ممن ينسب إلى الولاية ، ولا يكون ولياً لله حقاً إلا إذا تحقق في شخصه الإيمان والتقوى ، وضع رسول الله ﷺ وأتبعه به في أقواله وأفعاله .

ومن خطأ الفادح الذي وقع في حياة المسلمين في عصورهم الأخيرة ، أنهم قصروا الولاية على أفراد قليل ، يوجد بهم الزمان بين قرن وآخر ، والطامة الكبرى أن هذه الكلمة الرفيعة في الإسلام أصبحت تمنح لأشخاص مجهولين ، أو أعداء المالكين يتماثلون الشبهة والدخل ، وهم أولئك الذين يصنفوا مع أولياء الشيطان ، أعداء الله والإسلام .

٢ - معاداة أولياء الله تعالى : إن كل من يؤذي مؤمناً تقياً ، أو يعتدي عليه في ماله أو نفسه أو عرضه ، فإن الله تعالى يعلمه أنه محارب له ، وإذا حارب الله عبداً

أهلكه ، وهو يجهل ولا يعلم ، ويعد للظالمين مدام بما أخذهم أحد عزير مقتدر ، وقد وقع في بعض روايات الحديث أن معاداة الولي وإذائه محاربة لله ، فهي حديث عائشة رضي الله عنها في المسند « من آذى ولياً فقد استعمل معارضي » وفي حديث أبي أمامة عند الطبراني « من ألعان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة » .

وأما المعاداة من الولي كما يمكن أن تصور ، فقد أوضحها ابن حجر في فتح الباري فقال : (وقد استشكل وجود أحد يعاديه — يعني الولي — لأن المعاداة إنما تقع من الجاني ، ومن شأن الولي الحظم والنصح عن من يجهل عليه) .

وأجيب بأن المعاداة لم تنحصر في الخصومة والمعاملة العدائية مثلاً ، بل قد تقع عن بعض ينشأ عن التعصب ، كالبتدع في بغضه للسني ، فضع المعاداة من الجانبين ، أما من جانب الولي فله تعالى وفي الله . وأما في جانب الآخر فما تقدم . وكذا القاسق المجاهر بغضه الولي ، وبغضه الآخر لإنتكازه عليه وملازمته له عن شهواته . وقد تطلق المعاداة ويراد بها الوقوع من أحد الجانبين بالفعل ، ومن الآخر بالقوة) . انتهى بتصريف .

٣ — الفضل الأعمال وأحبها إلى الله تعالى أداء الفرائض : وهذه العائدة صريحة في قول الله تعالى في هذا الحديث : « ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه » . وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله ، والورع عما حرم الله ، وصدق الله فيما عند الله تعالى . وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال في عطية : أفضل العبادات أداء الفرائض ، واجتناب المحرم . وذلك أن الله تعالى إنما افترض على عباده هذه الفرائض ، ليقرّبهم عنده ويوجب لهم رضوانه ورحمته ، وأعظم فرائض الدين التي تقرب إلى الله الصلاة ، قال تعالى : ﴿ واسجد وحرك ﴾ [البقرة : ١٩] وقال ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

ومن الفرائض المقررة إلى الله تعالى عند الرضا في رعيته سواء كانت رعية عامة

كالحياكم ، لو رعية خاصة ، كمعدل أحوال الناس في أهله وولده ، فلي الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « إن أحب العباد إلى الله يوم القيامة وأدناهم إليه مجلساً إمام عادل » . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلنا يديه يمين ، الذين يعملون في أحكامهم وأحكامهم وما ولوا » .

١ - من أداء الفرائض ترك المعاصي : لأن الله تعالى افترض على عباده ترك المعاصي ، وأمر سبحانه أن من تعدى حدوده وارتكب معاصيه ، كان مستحقاً لعقاب الأليم في الدنيا والآخرة ، وبهذا يكون ترك المعاصي من هذه الناحية داعلاً تحت عموم قوله : « وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه » أي دخول فرائض ترك المعاصي مقدم على دخول فرائض الطاعات ؛ كما يدل حديث النبي ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فلا تفروا » .

وقد ذهب ابن رجب في شرحه لهذا الحديث إلى أن جميع المعاصي محاربة لله ، ونقل عن الحسن بن آدم قوله : « هل لك بمحاربة الله من طاعة ؟ فإن من عصي الله فقد حاربه ، لكن كلما كان الذنب أفتح كانت المحاربة لله أشد ، ولهذا سمي الله تعالى أكلة الربا وقطاع الطريق محاربين لله تعالى ورسوله ، لعظم ظلمهم لعباده وسعيهم بالفساد في بلاده .. » .

٥ - التقرب إلى الله تعالى بالموافق : ولا يحصل هذا التقرب والتحبب - كما في حديث أبي أمامة - إلا بعد أداء الفرائض ، ويكون بالاجتهاد في لوافي الطاعات ، من صلاة وصيام وزكاة وحج .. ، وكف النفس عن دقائق الكروهاات بالورع ، وذلك يوجب للمعبود محبة الله ومن أحببه الله رزقه طاعته والاشتغال بذكره وعبادته ، فأوجب له ذلك القرب منه والخطب عند ، وقد وصف الله تعالى عباده المحبين له والمحبوبين لديه بقوله تعالى : ﴿ من يرث منكم عن دينه فسوف يأتي الله ﴾

يقوم نعيمهم ونعيمونه أدلة على المؤمنين أعزّ على الكافرين يُعاملون في سبيل الله ولا يخالفون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴿ [الآية : ٥٤] .

ومن أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من التوابع كثرة تلاوة القرآن ومحاذاة تفكر وتذكر وتعلم ، ففي الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً : ما تقرب العبد إلى الله بمثل ما أخرج منه ، يعني القرآن ، ولا شيء عند الحسن أحل من كلام محبوب ، فهو لذة قلوبهم وغاية مطبوهم . وقال ابن مسعود : من أحب القرآن أحب الله ورسوله .

ومن أعظم التوابع كثرة ذكر الله ، قال تعالى : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ أَكْثَرًا ﴾ [البقرة : ١٥٢] وفي البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : أنا عبد ظن عبيدي بي وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ غيرته في ملأٍ غير منه » .

٦ - أثر محبة الله في وليه : يظهر أثر محبة الله في وليه بما ورد في الحديث : فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وفي بعض فروقات : « قلبه الذي يعقل به ، ولسانه الذي يخطب به » قال ابن رجب : والمراد من هذا الكلام أن من اجتهد بالتقرب إلى الله بالفرائض ثم بالتوابع قرب إليه ورفقه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان ، فيصير بعد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه ، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبه وعظمته ، وحوله ومهاتته ، والأنس به والشوق إليه ، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاعداً له بعين البصيرة .

ومنى ابتداء القلب بعظمة الله تعالى مما ذلك من القلب كل ما سواه ، ولم يبق لتعب شيء من نفسه وهواه ، ولا إرادة إلا ما يريد منه مولاه ، فحقيقة لا تطلق العبد إلا بذكره ، ولا يتحرك إلا بأمره ، فإن نطقى نطق بالله ، وإن سمع سمع به ، وإن نظر نظر به ، وإن بطش بطش به . فهذا هو المراد بقوله : « كنت سمعه الذي يسمع

به .. : ومن أشار إلى غير هذا ، فلإنما يشير إلى الإلحاد من الخلول والاتحاد ، والله
ورسوله يريانه منه .

وقد ذهب المشوكائي إلى أن المراد : إيمان العرب سبحانه بهذه الأعضاء بنوره الذي
تلوح به طرائق الهداية وتنفذ عنده سبحانه القواية ، وقد نطق القرآن الكريم بأن
الله سبحانه هو نور السموات والأرض . وثبت في الصحيح من دعاء النبي عليه
الصلوة والسلام : اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي
نوراً .. : .

٧ - القول بحجاب الدعوة : ومن تكريم الله لوليه أنه إذا سأله شيئاً أعطاه ، وإن
استعاض به من شيء أخافه منه ، وإن دعاه أخافه ، فيصير بحجاب الدعوة لكرامته على
الله تعالى ، وقد كان كثير من السلف الصالح معروفين بإجابة الدعوة ، كالبراء بن
مالك ، والبراء بن عازب ، وسعد بن أبي وقاص .. وغيرهم ، ولكن أكثر من كان
بحجاب الدعوة منهم يصبر على البلاء ويحتمل توبه ولا يدعو لنفسه بالفرج منه .. وربما
دعا المؤمن بحجاب الدعوة بما يحلم الله الخيرة له في غيره ، قال : فلا يجيبه إلى سؤاليه
ويعرضه عما هو خير له ، إما في الدنيا أو في الآخرة ، فقد أخرج أحمد والبيهقي
يعلى بن أسامة حمداً ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، من حديث أبي سعيد الخدري
أن النبي ﷺ قال : ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم ، إلا
أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يجعل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ،
وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها .

٨ - المراد بتردد الله سبحانه عن نفس المؤمن : وردت في صحيح البخاري
ريادة : وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت
وأنا أكثره مساقته ، قال ابن الصلاح : وليس المراد بالتردد هنا حقيقته المعروفة هنا ،
بل أنه يفعل به كمن فعل التردد التكرار ، أي لمحبته له يكره مساقته بالموت ، لأنه أعظم
آلام الدنيا ، إلا حل قلبه ، وإن كان لا بد له منه كما في رواية لما سبق من محرم قصاته

والقدرة بالموت ، إذ كل نفس ذائقة الموت ، وفيه إشعار بأنه لا يفعل ذلك مريداً إرادته ، بل رغبته ، إذ هو طرقت إلى انتقله إلى دار الكرامة والنعيم .

٩ - مشروعية التواضع : استدلل البحاري بهذا الحديث عن التواضع ، فذكره في باب التواضع ، لأن التقرب إلى الله تعالى بالتواضع لا يكون إلا بعبادة التواضع ، وكذلك موالاته أولياء الله تعالى وعدم معادتهم لا تنأى إلا بعبادة التواضع والتفعل لله تعالى . وقد روى مسلم من حديث عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » .

١٠ - وفيه الحديث :

١٠ - عظيم قدر الولي ، لكونه خرج من تدبير نفسه إلى تدبير ربه تعالى ، ومن انتصاره لنفسه إلى انتصار الله له ، وعن حوله وقوته يصدق توكله .

١١ - أن لا يحكم الإنسان آدى ولأى لم لم يعاجل مصيبة في نفسه أو حاله أو ولده ، بأنه يسلم من انتقام الله تعالى له . فقد تكون مصيبته في غير ذلك مما هو أشبه عليه ، كالمصيبة في الدين مثلاً .

رَفَعَ الْخَرَجَ فِي الْإِسْلَامِ

عَنْ ابْنِ عُثَيْمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنْ اللَّهُ كَلَّجُوا لِي عَنْ أُنْتِي : الْخَطَأُ ، وَالسَّيِّئُ ، وَمَا اسْتَخَرْتُمْهُوا عَلَيْهِ » .
 حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَغَيْرُهُمَا .

الحديث أخرجه ابن ماجه في الطلاق (باب طلاق المكره والسبي) رقم /٤٣٠٤٣/ ونقطه : « إِنْ اللَّهُ وَصَحَ عَنِ ... » والبيهقي في الأيمان (باب جامع الأيمان ...) /٦٠/٦٠ .

وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، والدارقطني . وقال ابن رجب الحنبلي عن سند الدارقطني : وهذا إسناده صحيح في ظاهر الأمر ، ورواه كلهم محتج بهم في الصحيحين . « جامع العلوم والحكم » . وقال ابن حجر الميمني في شرحه عن الأربعين : فقد روي مرفوعاً من وجه آخر يفيد مجموعها أنه حسن .

أهمية الحديث :

قال النووي رحمه الله تعالى في شرح الأربعين : وهذا الحديث اشتمل على فوائد وأمر مهمة ، لو جمعت بلغت مصلفاً لا يحتمله هذا الكتاب .

وقال ابن حجر الميمني : وهو عام النفع ، لوقوع الثلاثة في سائر أبواب الفقه ، عظيم الرقعة ، يصلح أن يسمى نصف الشريعة ، لأن فعل الإنسان الشامل لقوله : إما أن يصدر عن قصد واختيار وهو العمد مع الذكر لاختياراً ، أو لا عن قصد واختيار وهو الخطأ أو السيان أو الإكراه ، وقد علم من هذا الحديث صريحاً أن هذا القسم مطعون ، ومفهومه أن الأول مؤاخذ به ، فهو نصف الشريعة باختيار مطعون ،

وكلها باعتبارها مع مفهومه . أي باعتبار متطوقه مع مفهومه ، والمطوق ما يقهم من اللفظ بصيغته ، والمفهوم ما يقهم من النص بدلالته .

لغة الحديث :

« تجاوز » : عفا ، من جازاه إذا تعداه وعبر عليه ، وهو ما يعنى رفع أو ترك .

« نبي » : لأجل وتعظيم أمره ورفعة قدره وحصول ترضي صديري

« أمي » : أمة الإحابة ، وهي كل من أمر به ﷺ واستجاب لدعوته .

« الخطأ » : ضد العمد لا ضد الصواب ، كأن يقصد بعله شيئاً فيصادف قسه غير ما قصده ، مثل : أن يقصد قتل كافر فيصادف قتله مسلماً .

« السيان » : ضد الذكر ، يعنى الذكر ، كأن يكون ذاكرة لشيء فينساه عند الفعل .

وقد يطلق على الترك من حيث هو ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ليسوا الله فسيهم ﴾

[التوبة : ٦٧] . وقوله سبحانه : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾

[البقرة : ٢٣٧] .

« استكبروا عليه » : بال : أكرهه على كذا إذا حملته عليه قهراً ، والكره

المشقة ، والكره القهر . وقيل : بالفتح الإكرام ، وبالقسم المشقة ، وقيل : لغتان .

لغة الحديث وما يرشد إليه :

١ - المعنى الإجمالي للحديث : إن من أتى بشيء مما سى الله به ، أو أعمل بشيء بما أمر الله تعالى به ، دون قصد منه لتلك الفعل أو الحلال ، وكذلك من صدر عنه مثل هذا شيئاً أو أعمل عليه ، فإنه لا يتعلق بتصرفه دم في الدنيا ولا مؤاحدة في الآخرة ، فضلاً من الله تبارك وتعالى ونعمته .

٢ - فضل الله عز وجل على هذه الأمة ورفيع الخرج عنها - وهكذا لقد كان

فضل الله عز وجل عظيماً على هذه الأمة ، إذ جفف عنها من التكليف ما كان يأعد

به غيرها ، فقد كان بنو إسرائيل : إذا أمروا بشيء فسوه ، أو أمروا من شيء فأعطوه ، وفارقوه عجل الله لعائل فم العقوبة ، وأحدهم عليه ، بينا استجاب لهذه الأمة دعائها الذي ألقمها إياه ، وأرشدها إليه جل وعلا ، إذ قال : ﴿ وما لا تؤاخذنا إن نسبنا أو أعطائنا ربما ولا نحمل علينا إسراء ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . فتجاوز سبحانه عما يقع خطأ أو تسببا قدم ما لا طائفة لنا به ﴿ [البقرة : ٢٨٦] . فتجاوز سبحانه عما يقع خطأ أو تسببا قدم يؤاخذها به ، قال سبحانه : ﴿ ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ [الأعراب : ٥] . أي لا تؤاخذون فيما وقع منكم خطأ ، ومنعه فسبا ، ولكن تؤاخذون بما قصدتم إلى فعله . كما أنه سبحانه لم يكلفها من الأعمال ما تعجز عن القيام به في العادة ، أو يحملها من التكليف ما فيه عسر وحرج ، أو يوقع التزمه في مشقة وضيق ، وذلك لامتناعها أمر الله عز وجل على لسان رسوله المصطفى ﷺ إذ قالت : ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه نحاسبكم به الله فيقدر من يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : ٢٨٤] . قال : فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ، لم يركبوا عن تركب فقالوا : أي رسول الله ، كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطبقها ، فقال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وأطعنا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » . قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، فلما أقرعوا القوم ودلت بها أنفسهم ، فأنزل الله إثرها : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق من

أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا تخفراك ربنا وإليك المصير ﴿ [البقرة : ٢٨٥] .
 فلما فعلوا ذلك تسبها الله تعالى ، فأمر الله عز وجل : ﴿ لا يكلف الله نفساً
 إلا وسعها لما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾
 — قال : نعم — ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾
 — قال : نعم — ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ — قال : نعم — ﴿ واعلم
 عباد الله أنكم مولانا فاقصروا على القوم الكافرين ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .
 — قال : نعم — . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : قد فعلت ، بئس : نعم .

٣ - المتجاوز عنه الإثم ، لا كل ما يترتب من الحكم : إن تصرف المكلف
 إذا لم يأت على وجه ما جاء به الشرع ترتب عليه أحكام : منها الواحدة والإثم ،
 ومنها تدارك ما فات أو ضمان ما تلف وهو ذلك ، ولفظ الحديث عام في رفع جميع
 ما يترتب على التصرف من أحكام . قال ابن حجر الهيتمي : يحصل عن حكمه
 — أي غير الإثم — أو عن إثم ، أو عنهما جميعاً ، وهذا هو الأشبه ، إذ لا مرجع
 لأحدهما ، فأبقى الحديث على ثلوثهما ، وتخصيصه بالتالي يحتاج إلى دليل .

ولقد قامت الأدلة من الشرع على أن المراد رفع الإثم والمواعدة ، لا كل ما يترتب
 من أحكام ، على تفصيل في الحكم ، ستعرف عليه فيما يلي من كلام عن الحديث ،
 قال القاري في شرحه على الأربعين : ولا يخفى أن حكم الخطأ نعم من إثم فعله وما
 يترتب عليه من التدارك ، فرفع الإثم مستفاد من هذا الحديث ، كما أن تداركه مأخوذ
 من نحو قوله تعالى : ﴿ ومن قتل مؤمناً خطأ فصيرروا رقبته مؤمناً ودية مسلمة إلى
 أهله ﴾ [النساء : ٩٢] .

وهكذا اقتضت حكمة الله عز وجل : أن لا يؤاخذ مردأ من هذه الأمة إلا بما
 نعتد العصبان ، وقصد قلبه الخائفة وترك الامتناع ، عن رغبة وطوعة . قال ابن
 حجر : إن الخطأ عن ذلك — أي عن إثم الخطأ والسيئات والإكراه — هو مقتضى
 الحكمة والظفر ، مع أنه تعالى لم يأخذ بها لكان عادلاً ، وذلك . لأن فائدة التكليف

وخافته تميز الطائع من العاصي ، ليهلك من هلك عن بينة وبها من حي عن بينة ، وكل من الطاعة والعصية يستدعي قصداً ليربط به ثواب أو عقاب ، وهؤلاء الثلاثة لا قصد لهم : أما الأولان فظاهر ، وأما الثالث فلأن القصد لكرهه لا له ، إذ هو كالآلة ، ومن ثم ذهب أكثر الأصوليين إلى عدم تكليفهم .

٤ - أخطأ من الكتاب والسنة : هناك أخطاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فيما رفع الإثم عن الخطيئ، والسامعي ، مع المطابقة لما يترتب من أحكام أخرى ، منها :

أ - قتل الخطأ : من قصد إلى رمي صيد أو عدو فأصاب مسلماً أو معصوماً ، فإنه لا إثم عليه ولا ذنب ، وإن كان هذا لا يفتيه من المطالبة بالدية والكفارة ، قال تعالى : ﴿ وما كان ثمن أن يقتل مؤمناً إلا عطاءً ﴾ ومن قتل مؤمناً خطأ فمحرر رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلا أنه إلا أن يصلحوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فمحرر رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وللمحرر رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴿ . [النساء : ٩٢] .

ب - فأخبر الصلاة عن وقتها : من أخر الصلاة عن وقتها بعذر كنوم أو نسيان فإنه لا يأثم ، ولكنه يطالب بالقضاء فور الاستيقاظ أو التذكر . روى البخاري ومسلم : من حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك ﴾ وأقيم الصلاة للذكرى ﴿ [طه : ١٤] » . وفي رواية عبد مسلم : « من نسي صلاة أو نام عنها ... » .

ج - التلصص بالكفر : فإن من أكره على أن يطلق بالكفر فإنه يسأى بالمعاصي ، أي بما يوهم أنه يعلق بالكفر لا بما يدل عليه صريحاً ، إلا إن أكره على ما يكفر صريحاً ، فإنه يترك ذلك بلسانه ، من غير أن يعتقد بفسده ، مع طمأنينة قلبه بالإيمان ، والشرح صبره باليقين والعرفان . قال تعالى : ﴿ من كفر بالله من

بعد إيمانه إلا من أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴿١٠٦﴾ (الحل : ١٠٦) .

هذا ، ولو صير الكفرة على الكفر ولم يثقل به ، واحتمل الأدنى واحسب الأجر عند الله عز وجل ، كان أفضل له وأكرم ، حتى ولو قتل في سبيل ذلك كان شهيداً .
روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تشركوا بالله وإن قطعتم وحرقتهم ، أي لا تظلموا بالشرك ونحوه ، إذا أكرهتم على ذلك ، ولو وصل بكم الحبل إلى ما ذكر .

هـ - تفصيل القول في حكم الخطأ والسيان^(١) : إن ما يترتب عن تصرف المكلف ، خطأ أو سياناً ، يختلف باختلاف الفعل أو القول الذي يقع منه ، وقد لوحظ في هذه أقسام أربعة ، إليك بيانها :

أولاً :

إن وقع الخطأ أو السيان في ترك مأمور به لم يسقط ، بل يجب تداركه . ومثال ذلك في الخطأ : ما لو دفع زكاة ماله إلى من طلبه فقراً ، فيان خطأ ، لم تخريء عنه ، ووجب عليه دفعها للتقصير ، وله أن يرجع بها على العتي .

ومثاله في السيان : ما لو تيمم ناسياً للماء في رحله وحصل ، ثم تذكر الماء ، فإنه يجب عليه التوضوء والإعادة .

ثانياً :

إن وقع الخطأ أو السيان في فعل منهي عنه ، ليس من باب الإختلاف ، فلا شيء عليه . ومثاله في الخطأ : من شرب خمرأ ، ظاناً أنها شراب غير مسكر ، فلا حد عليه ولا تعزير ، وفي السيان : ما لو تطيب المحرم أو لبس عتيطاً ونحو ذلك ، ناسياً فلا شيء عليه .

(١) وانظر مزيداً من التفصيل في هذا كتاب (معطى الفروع في الفقه الإسلامي) لأستاذنا عبد الله محمد

إن وقع الخطأ أو النسيان في فعل منهي عنه ، هو من باب الإختلاف ، لم يسلط الضمائم ، ومثاله : ما لو قدم له طعام منسوب ضيافة ، فأكل منه ناسياً أنه منسوب أو ضامناً منه أنه غير منسوب ، فإنه ضامن ، ومثله لو قتل صيداً وهو محرم ، ناسياً لإحرامه أو جاهلاً بالحكم ، ف عليه القدية . ونظيره : ما لو مخاطب امرأته بالطلاق ، طائناً أنها غير زوجته ، فإذا هي زوجته ، طلقت منه ، وكذلك الحكم لو قال : زوجتي طالق ، ناسياً أن له زوجة ، فإن زوجته انطقت عليه .

رابعاً :

إن وقع الخطأ أو النسيان في فعل منهي عنه ، وكان الفعل يوجب العقوبة ، كان الخطأ أو النسيان شبهة تستلزم تلك العقوبة .

ومثاله : ما لو قتل مسلماً في دار الحرب ، طائناً أنه كافر ، فلا قصاص عليه ولا دية ، وكذلك : لو عفا الموكل عن القصاص ، ونقص الوكيل ناسياً لعفوه ، فلا قصاص عليه ، وإن وجبت الدية في ماله .

٦ — قالوا يعذر به النامي : ما سبق من القول من رفع المؤاخلة عما وقع من تصرف نسياناً إما هو في النامي الذي لم يتسبب في نسيانه ، أما من تسبب في ذلك كأن ترك الاحتفظ وأعرض عن أسباب التذكر ، فإنه قد يؤخذ عن تصرفه ولو وقع منه نسياناً ، وذلك : كمن قصر في تعاهد القرآن ومهاون في مدرسة ما حفظ منه حتى نسيه ، وكمن رأى نجاسة في ثوبه فتباطأ عن إزالتها حتى صل بها نامياً لها ، فإنه بعد مقصراً مع وجوب القضاء عليه .

٧ — مسائل فقهية في النسيان :

أ — ترك التسمية على الذبيحة والصيد نسياناً :

التسمية على الذبيحة سنة عند الشافعي رحمه الله تعالى ، وهو رواية عن أحمد

رحمه الله تعالى ، فإذا تركها عمداً أو نسياناً أكلت الذبيحة .

وحجته في هذا : ما رواه البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « المسلم يذبح على اسم الله ، سمي أو لم يسم » . وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنه ﷺ سئل عن الرجل يذبح وينسى أن يسمي ؟ فقال : « اسم الله على فم كل مسلم » رواه الدارقطني .

وقال أبو حنيفة ومالك ، وهو المشهور عن أحمد ، رحمهم الله تعالى : إن التسمية شرط ، فإن تركها عمداً لم تؤكل الذبيحة ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ [الأنعام : ١٢١] . وأدلة أخرى ، فإذا تركها نسياناً أكلت عند الجميع ، بخلاف الذي نحن في صدد الكلام عنه .

ومثل الذبيحة الصيد — فيما سبق — لدى مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله تعالى .

وقال أحمد رحمه الله تعالى : إذا ترك التسمية عند إرسال الخارج أو رمي الآلة سهواً أو عمداً لا يؤكل الصيد ، لقوله ﷺ : « إذا أرسلت كلبك وصحبت فكل » متفق عليه . وقوله : « وما صدت بقوسك وذكرت اسم الله عليه فكل » متفق عليه .

ولم يوجب ذلك في الذبيحة ، لأن الذبح فيها يقع في عمله أي العتق ، فبصاحم فيها ، وأما الصيد فالذبح فيه يكون في غير عمله عالياً ، فلا تصاحم فيه ، قال ابن قدامة : والفرق بين الصيد والذبيحة : أن الذبح وقع في عمله فجار أن تصاحم فيه ، بخلاف الصيد .

ب — الكلام في الصلاة سهواً : مذهب الشافعي رحمه الله تعالى أنها لا تبطل ، لأن الكلام الذي يفسد الصلاة هو المني عنه ، وهو لا يتناول كلام الناس ، وقد ثبت في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ صلى الظهر أو العصر وسلم من ركعتين ، فقال له رجل يقال له ذو اليمين : يا رسول الله ، أنسيت أم قصرت الصلاة ؟ قال : « لم أنس ولم تقصر » ، ثم قال لأصحابه : « أيا يقول ذو اليمين » .

فقالوا : نعم ، فتقدم فصل ما ترك ، ثم سجد سجدة في آخر صلاته وسلم . رواه البخاري .

ووجه الدلالة بالحديث : أنه تكلم معقلاً أنه ليس في الصلاة ، وهم تكلموا على طين المسح ، ثم بنى هو وهم على ما سبق .

وهنا مفيد بالكلام القليل عرفاً ، لأنه إذا طال الكلام حصل التذكر .
وهذا قال مالك رحمه الله تعالى .

وقال الحنفية رحمه الله تعالى : يتلّ مطلقاً ، لأن الكلام بني عنه لكونه مطلقاً بصورته ، فلا يختلف الشهر عن العدد ، واستثنى الأكل نسياناً في الصوم من ذلك لورود النص به ، واعتبروا الأحاديث التي عن الكلام في الصلاة بأسخا لما ظهره صحتها حال التكلم سهواً .

ومن أحمد رحمه الله تعالى روايتان .

ج - الأكل والشرب أو الجماع في الصوم نسياناً : ذهب جمهور الفقهاء إلى أن من أكل أو شرب ناسياً لصومه فإن كان الصوم واجباً تمتك فور التذكير بقية يومه ، ولا يتلّ صومه ، ولا قضاء عليه ولا كفارة ، وذلك لما رواه البخاري ومسلم ، واللفظ له : أنه نسي قال : « من نسي وهو صائم فأكل أو شرب ، فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه » .

وقال مالك رحمه الله تعالى : عليه القضاء إن كان الصوم واجباً ولا كفارة ، لأنه بمنزلة من ترك الصلاة ناسياً . جاء في اللوط : قال مالك : من أكل أو شرب في رمضان ، ساهياً أو ناسياً ، أو ما كان من صيام واجب عليه ، أن عليه قضاء يوم مكانه .

والظاهر : أنه حل الحديث لورود على صوم التطوع ، فإنه قل في اللوط : من أكل أو شرب ساهياً أو ناسياً في صيام تطوع فليس عليه قضاء ، ولهم صومه الذي أكل أو شرب وهو متطوع ولا يفطره .

ومثل الأكل والشرب الجماع صد أي حيلة وتشاغي ومالك رحمه الله تعالى .
والمشهور عن أحمد رحمه الله تعالى : أنه يطل صومه بذلك وعليه القضاء ، وفي
وجوب الكفارة عليه روايان .

د - الخطأ والنسيان في اليمين : إذا حلف على شيء وفعله ناسياً ، أو جاهلاً
به ، أي ظاناً أنه غير المحلوف عليه ، فهل يحث في يمينه أم لا ؟

ذهب الشافعي رحمه الله تعالى - في الأظهر من قوله - إلى أنه لا يحث ، ولو
كان يمينه طلاقاً أو عتاقاً ، ولكنه لا يحل يمينه على الأصح ، لأن ما وحده منه لم
يعتر متناولاً يمينه ، وإلا لحث به ، وهذا رواية عن أحمد رحمه الله تعالى .

وقال مالك رحمه الله تعالى : يحث بكل حال ، لأن المرفوع إثم الخطأ والنسيان
لا ذاتهما أو ما يترتب عليهما .

والمشهور عن أحمد رحمه الله تعالى التفريق بين الطلاق والعتاق وغيرها : فإن
كان يمينه بخير طلاق وعتاق فإنه لا يحث ، وإن كان يمينه طلاقاً أو عتاقاً حث ،
ولكنه لا يأثم إذا أقام على امرئته ما دام ناسياً ، فإذا ذكر فعليه اعتزالها فوراً .

وحجته في هذا التفريق : أن الطلاق والعتاق كل منهما معلق بشرط ، فيقع بوجود
شرطه من غير قصد ، كما لو قال : أنت طالق إن طلعت الشمس ، فإنها تطلق بمجرد
طلوعها .

هـ - ما يترتب على فعل المكروه : تختلف الأحكام المترتبة على فعل المكروه
حسب درجة الإكراه ، وطبيعة الفعل المكروه عليه :

أ - فقد يكون الإكراه ملجئاً : بمعنى أن المكروه يصح في حالة لا يكون له
اعتبار في فعل ما أكراه عليه بالكلية ولا قدرة لديه على الامتناع منه ، وذلك : كمن
ربط وحمل كرهاً ، وأدخل إلى مكان حلف على الامتناع من دخوله ، فلا إثم عليه
بالإلتحاق ، ولا يترتب عليه حث في يمينه عند الجمهور .

ب - وقد يكون الإكراه غير ملجئ : بمعنى أن المكروه يستطيع أن يمتنع عن فعل ما أكره عليه ، فإذا كان المكروه على هذه الحال فإن فعله يتعلق به التكليف ، وذلك : كمن أكره بضرب أو غيره حتى فعل ، فإن كان يمكنه أن لا يفعل فهو مختار لفعله ، لكن ليس غرضه نفس الفعل ، بل دفع الضرر عنه ، فهو مختار من وجه ، وغير مختار من وجه آخر ، ولهذا اختلف فيه : هل هو مكلف أم لا ؟

١٠ - مسائل فقهية في الإكراه :

أولاً : الإكراه في الأفعال :

أ - الإكراه على القتل أو الزنا : القتل بغير حق والزنا من الكاثر المطلق على تحريمها في جميع ما نزل على الأنبياء والمرسلين من شرائع ، ولذا لاباحاد في حال من الأحوال ، حتى في حال الإكراه ، بمعنى أن المكروه عليهما لو أتى فعلهما قتل كان مأجوراً ، ولكن قد تختلط الآثار الشرعية على فعل شيء منهما حسب درجة الإكراه ، واليك بيان ذلك :

ب - الإكراه على الزنا : ذهب عامة العلماء : إلى أن المرأة إذا أكرهت على الزنا ، لا حد عليها ، فإن كان الإكراه ملجئاً لا تأثم ، وإن كان غير ملجئ ، كانت آثمة . واستحبوا على ذلك حديث الباب ، وما رواه الأئمة : « أن امرأة استكرهت على عهد رسول الله ﷺ ففترأ عنها » - وأثنى عمر رضي الله عنه يوماء - أي ساء مخلوقات - استكرههن غلمان - عبيد - فضرب العلمان ولم يضرب الإماء . ولأن الإكراه شبهة ، والشبهة تسقط الحد .

وحكم الرجل كالزنا عدا أكثر أهل العلم ، وهو القول الأصح . وقال أكثر الحنابلة ومحمد بن الحسن من الحنفية ، عليه الحد ، لأن الوطء لا يكون إلا بالاشارة والإكراه بتابعه ، فإذا وجد الانتشار انقضى الإكراه ، فيلزم الحد .

وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : إن كان الإكراه من السلطان فلا حد عليه ، وإن كان من غيره فعليه الحد .

ج - الإكراه على القتل : اتفق العلماء الذين يعتمدون على أنه : لو أكره على قتل إنسان معصوم الدم لم يجر له أن يقتله ، فإن قتله كان أكثراً ، لأن قتله له اقتداء لنفسه ، فيكون باعتباره . هذا مع اتفاقهم أيضاً على أن الإكراه على القتل لا يكون إلا بالتهديد بالقتل أو بما يهدف منه القتل بشروط تفصيلها كتب الله .

واعتقدوا في هذه الحالة في وجوب القصاص :

— قتل مالك وأحمد — وهو الأظهر من قول الشافعي — رحمهم الله تعالى : يجب القصاص عليهما . أي المكره والمكره — لاشتراكهما في القتل : المكره بالنسب ، والمكره بالباشرة .

— وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : يجب على المكره وحده ، لأن المكره صار كالآلة ، وهو قول عند الشافعية .

— وقيل : يجب على المكره وحده لما شرته الفعل ، وليس كالآلة ، لأنه أتم بالانقياد ، وهو قول رافى من الحنفية ، وقول عند الشافعية .

ثانياً : الإكراه على غير القتل والرقا من المحرمات :

كالسرقة وشرب الخمر والجموعا :

فقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن من أكره على فعل شيء من ذلك ، أبيع له فعله ، وعليه ضمان فيما فيه إتيان مال غيره ويرجع بما طمسه عن المكره ، ولا إثم عليه ولا عقوبة .

وقال بعض المالكية ، وهو رواية عن أحمد : لا يباح له ذلك ، بمعنى : أنه لو فعل شيئاً به عقوبة مدنية كمسح السرقه والشرب أقيمت عليه ، وإن كان في ذلك إتيان مال غيره كان الضمان عليه وعلى المكره .

ثالثاً : الإكراه على الأقوال :

ذهب جمهور العلماء — منهم مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى — إلى

أن الإكراه متصور في جميع الأقوال ، فمن أكره بغير حق إكراً معترفاً على قول
مهرم كان له أن يلتزم بقوله ولا يتم عليه ، وكان قوله لغواً لا يترتب عليه ما يقتضيه
من الأحكام .

وذلك أن الله تعالى وضع الإثم عن أكره على التلطف بالكفر بقوله تعالى : ﴿ وَإِلَّا
من أكره ، وقوله مطلق بالإيمان ﴾ [النحل : ١٠٦] .

والكفر أحكام كثيرة أعظمها الإثم ، فإذا سقط سقطت جميع الأحكام المترتبة
على القول المكره عليه ، لأنه إذا سقط الأعظم سقط الأسفل من باب أولى ، ولأن
كلام المكره صدر منه وهو غير راضٍ به ، فلا يؤخذ به في الآخرة ، كما لا يترتب
عليه حكمه في الدنيا .

ولا فرق في هذا بين قول وقول ، بل ذلك جارٍ في العقود كالمبيع والشكاح ،
كما يجري في التمسوخ كالطليح والطلاق ، وكذلك الأيمان والبنور . واستدل لهذا
بحديث الباب ، وبما روي عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ ، أنه قال :
« لا طلاق ولا عتاق في إغلاق » أي إكراه ، رواه أبو داود وغيره .

وفرق أبو حنيفة رحمه الله تعالى بين : ما يقبل الفسخ عنده ويثبت فيه الخيار ،
كالبيع ، فقال : يعتبر فيه الإكراه ، فلا يلزم المكره ولا يترتب عليه آثاره .

وما ليس كذلك ، كالشكاح والطلاق ، والأيمان ، والبنور ، فقال : لا يعتبر فيها
الإكراه ، وتلزم قائلها ، ولو كان مكرهاً عليها .

١١ - وحتى المكره بما أكره عليه : إذا ظهر من المكره ما يدل على رضاه بما
يكره عليه ، ووجدت رغبة لديه فيه ، فإنه يصح منه ما يوقعه من العقود وغيرها ،
ولا يعتد بالإكراه ولو كان قائماً ، لصحة قصده لما يصدر عنه من تصرف .

١٢ - الإكراه بحق :

إذا أكره المكلف على قول مطالب به ، أو فعل يلزمه ، فإن إكراهه لا يمنع من
لزوم ما أكره عليه ، وترتب ما يقتضيه من أحكام . من ذلك :

— إذا أكره الخمرى على الإسلام فطلق به صحيح إسلامه .

— إذا آلى من زوجته — أي حلف أن لا يقربها — ثم مضت أربعة أشهر ولم يقربها وألى أن يطلقها ، وأكرهه الحاكم على الطلاق وقع طلاقه .

— إذا حلف أن لا يؤدي دينه ، فأكرهه الحاكم على الوفاء ، حنث بيمينه ، وكان عليه الكفارة .

— إذا أكره الحاكم أحداً على بيع ماله ليؤدي دينه صحيح بيعه .

اختتام الدنيا للفوز بالآخرة

عن أبي عُمَرَ رضي الله عنهما قال : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمَانِي فَقَالَ :
« كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ لَهِيبٌ ، أَوْ عَائِلٌ مَسِيْلٌ » .

وكان من عَمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ : إِذَا أُنْسِيتَ فَلَا تَنْظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإِنَّا أَصْبَحْنَا فَلَا تَنْظِرِ الْمَسَاءَ ، وَتُحَذِّرُ مِنْ صَحْبِكَ إِفْرَضِيكَ ، وَمِنْ خَلِيقِكَ إِيْمَوْتِكَ .
وَأَمَّا الْبُخْلَى :

الحدیث رواه البخاری فی الترقاق (باب قول النبی ﷺ : کن فی الدنیا كأنک
مغرب ...) رقم / ۶۰۵۲ .

الحمد لله

هنا جليلة شريف ، عظيم القدر ، جليل العوائد ، جامع لأنواع الخير ، وجوامع الخواصط ، وهو أصل في قصر الأمل في الدنيا ، فإن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطناً ومسكناً فيطمئن فيها ، ولكن ينبغي أن يكون فيها كخانه على جناح سفر ، يهيئ جهازه للرحيل ، ويستعد ليوم الوعيد ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

المادة ١٠٠

Abstract

١- يمكنني ان يشهده الياء ، مفسر منكب ، والشكيب : مجتمع رأس العضد والكشف ، فهي به لأنه يعتمد عليه .

« إذا أصبحت » : دخلت في النهار ، وهو من الزوال إلى نصف الليل .

« إذا أصبحت » : دخلت في الصباح ، وهو من نصف الليل إلى الزوال .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١ - الرسول الثري : كان رسول الله ﷺ معلماً لأصحابه ومربياً ، وقد سبق في تعليمه وتربيته لهم أحدث ما توصل إليه علماء التربية الحديثة من طرق ووسائل ، فهو يحثهم العزم والناميات ، ويضرب لهم الأمثال ، وينقل لهم المعنى الجرد إلى محسوس ومشاهد ، ويدخلهم بالموعظة ويخاطبهم بما تقتضيه حاجتهم ، وتذكره حقوقهم ويراقب أعمالهم مع تصويب ما كان صحيحاً ، وتصحيح ما كان خطأ ، وكل ذلك بالقدرة الحسنة ، والصبر والمصابرة والحافطة .

ورسول الله ﷺ في هذا الحديث بأحد بمنكر عبد الله بن عمر ، ليسه إلى ما ينقلى إليه من علم ، وليشعره بأهميته وحرصه على إيصال هذا العلم إلى قرارة نفسه وكرانه الشبه كله .

وقد تبه ابن حجر الميمني رحمه الله تعالى إلى هذا الدرس النبوي الكريم فقال : « وفيه من العلم أو الواضحة بعض أعضاء التعلم أو الموهبة عند التعلم ، وظهور قول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : علمني رسول الله ﷺ فنشهد كفى بين كفيه . وحكمة ذلك ما فيه من التأسيس والتبني والتذكير ، إذ يهل عادة أن يسي من فعل ذلك معه ، وهذا لا يفعل غالباً إلا مع من يهل إلى الفاضل ، فيه دليل على عهده ﷺ لأن ابن عمر وابن مسعود » .

٢ - لقاء الدنيا وبقاء الآخرة : يعيش الإنسان في هذه الدنيا ما أراد الله أن يعيش ، ثم هو لابد يوماً من الأيام أن يموت ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ﴿ إِنَّكَ تَمُوتُ وَلَهُمْ مَهَلٌ ﴾ [الزمر : ٣٠] . وإن هذا

(١) مع الذين يخرج الأرحس من ٢٢٣ .

الإنسان لا يدري متى ينتهي أجله ويأتيه الموت ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب فداً
وما تدري نفس بأني لأرسل موت ﴾ [لقمان : ٣٤] .

فهذه الدنيا طانية مهما طال عمر الإنسان فيها ، وهذه حقيقة مشاهدة ، نراها
كل يوم وليلة ، ونحس بها كل ساعة ولحظة ، ثم لابد لهذا الإنسان من أن يعيش حياة
دائمة مستقرة عائلية ، لا نهاية لها ولا أمد ، تلك الحياة الباقية هي الحياة الأخروية ،
بعد أن يموت الله عز وجل الناس من قبورهم ، ويجمعهم إليه ليحاسنهم على أعمالهم ،
ويقضي بينهم إما إلى حنة عرضها السموات والأرض ، أعدت للحقوقيين عابدين فيها
أبداً ، وإما إلى نار وقودها الباس والحجارة ، أعدت للكافرين وما هم منها بمخرجين .

المؤمن العاقل هو الذي لا يفر هذه الدنيا ، ولا يسكن إليها ويطمئن بها ، ويطلبها
كل شيء ، بل يقصر أمه فيها ، ويحتملها مزرعة ينثر فيها العمل الصالح ليحصد ثمراته
في الآخرة ، ويتخطها مطية للنجاة على الصراط المستقيم على متن جهنم ، وقد انفتحت
على النبية إلى هذه الحقيقة وحاصلها الأنبياء وأتباعهم ، قال الله تعالى حاكماً عن مؤمن
آل فرعون : ﴿ إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ﴾
[غافر : ٣٩] وقال رسول الله ﷺ : « مالي والدنيا : إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل
راكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها » . قال : نام في النهار ليستريح .

٣ - الدنيا معبر للآخرة وطريق : والمؤمن إما غريب فيها أو عابر سبيل ، فهو
لا يركن إليها ، ولا يشغل برحمتها ويخضع بما فيها ، فهي ليست أفعلاً لأن يتعلق بها
ويجهد نفسه من أجلها ، لأنها دار حبور وليست بدار قرار ﴿ وما الحياة الدنيا إلا
متاع الغرور ﴾ [آل عمران : ١٨٥] . وإنما يستشعر المؤمن في نفسه وقلبه دائماً
وأبداً ، أن يعيش في هذه الدنيا يعيش الغريب عن وطنه ، البعيد عن أهله وعياله ،
فهو دائماً وأبداً ، في شوق إلى ربه لوطن ، وفي حنين إلى لقاء الأهل والعيال والأحباب
والخلائ ، ومهما طالت غربته في البلد الذي هو فيه ، لا يطمئن إليه ، ولا يزال قلبه
يتجهب إلى مفارقه ، وبذلك لا يشيد فيه بناء ، ولا يقني فراشاً ولا أساساً ، بل

يرضى بما تيسر له ، ويدعمر من دار الغربة ، ويجمع من الحدايا والصحف ، ما ينفع به في بلدته ، بين الأهل وذوي القربى ، لأنه يعلم أن هناك اللقاه والمستقر ، وهكذا المؤمن يزهد في الدنيا ، لأنها ليست بدار مقام ، بل هي لحظات بالسية للآخرة ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ [التوبة : ٣٨] ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ [غافر : ٣٩] .

قال الحسن البصري : المؤمن كالغريب لا يخرج من ذل الدنيا ، ولا ينافس في عزها ، له شأن وللشأن شأن . وقال ابن رجب : لما خلق الله آدم عليه السلام أسكن هو وزوجته الجنة ، ثم أعبط منها ، وأوجد بالرجوع إليها وصالحو ذريتهما ، فالؤمن أبداً ينجح إلى وطنه الأول ، وحب الوطن من الإيمان .

بل إن المؤمن يعيش في هذه الدنيا ويستقر أقل مما يعيشه الغريب عن بلدته ويقوم ، فإن الغريب ربما طاب له اللقاه ، واتخذ المسكن والأهل والعيال ، وليس هذا حال المؤمن في الدنيا ، بل هو كالسافر في الطريق ، يمر مَرَّ الكرام ، ونفسه تلهف إلى الوصول لموطنه ومستقره ، فكلمنا قطع مسافة سراً أكثر ، وكلمنا عائله معوق مسافة ساهه ذلك وتألم ، والسافر لا يتخذ في سفره للمساكن والأصدقاء ، بل يكتفي من ذلك بالقليل ، قدر ما يؤنسه لقطع مسافة عبوره ، ويساعده على بلوغ غايته وقصده . وهكذا المؤمن في الدنيا يتخذ من مساكنها ومتاعها ما يكون عوناً في تحقيق مبتغاه في الآخرة من الفوز برضوان الله تعالى ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أنكم أحسن عبداً ﴾ [الملك : ٢] ويتخذ من الحلال من يده على الطريق ، ويساعده على الوصول إلى شاطئ السلامة ﴿ الأبنلاء يومئذ بعضهم لبعض عداوة إلا الخفين ﴾ [الزخرف : ٦٧] ويكون حليراً فيها من التصوم وقطاع الطرق الذين يعبدونه عن الله عز وجل وعاقبته ، كحال المسافر في الصحراء ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتي اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان لليسان حليلاً ﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٩] والمسافر ضرره لسفره ، والمؤمن ضرره من دنياه

لآخرته قال الله تعالى ﴿ وَتَرَوْهُوَ فَإِنْ حَيْرَ الزَّادِ الْقَوَى ، وَالْقَوَى بِأُولَى الْأَثَابِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

٤ - موعظة ابن عمر : ويطلق عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما موعظة رسول الله ﷺ بكل جوارحه ، ويذكرها طلبه وفكره ، ويعيها بعقله وذممه ، فيكون التلمذ الناجح لأستاذه المرسل الرسول ؛ ويصبح هو بدوره مصدر إشعاع وهداية ، فيدعو من يلقه حديث رسول الله ﷺ أن يزهد في الدنيا فيصل إلى نهاية نصر الأمل ، فإذا أمسى لم ينتظر الصباح ، وإذا أصبح لم ينتظر المساء ، بل يقن أن أجله قبل ذلك .

وقد روى الحاكم في صحيحه حديثاً مرفوعاً ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ : « اتقتم حساً قبل محس ، شباك قبل هرمك ، وصحنك قبل سفحك ، وحناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

٥ - على المسلم أن يبادر إلى فعل الخير ، والإكثار من الطاعات والمبرات ، فلا يحمل ولا يهمل ، على أمل التدارك في المستقبل ؛ لأنه لا يدري متى ينتهي أجله .

٦ - على المسلم أن يغتنم الماسيات والفقرص ، إذا سمحت له ، وقيل أن يفوت الأولون .

٧ - وفي الحديث حث على الزهد في الدنيا ، والإعراض عن مشاغلها ، وليس معنى ذلك ترك العمل والسعي والنشاط ، بل المراد عدم التعلق بها والاستغفال بها عن عمل الآخرة .

٨ - شأن المسلم أن يجهد في العمل الصالح ، ويكثر من وجوه الخير ، مع حروفه وحلوه دائماً من عقاب الله سبحانه وتعالى ، فزدها عملاً ونشاطاً ، شأن المسافر الذي يبذل جهده من الحذر والمحطة ، وهو يحشى الانقطاع في الطريق ، وعدم الوصول إلى المقصد .

- ٩ - الخلق من صفة الأشرار ، الذين هم بمثابة قطاع الطرق ؛ كسي لا يتصرفوا بالمسلم عن مقصده ، ويحولوا بيته وبين الوصول إلى غايته .
- ١٠ - العمل الديني واجب لكف النفس وتحصيل النفع ، والمسلم يسطر ذلك كله من أجل الآخرة وتحصيل الأجر عند الله تعالى .
- ١١ - مثل هذا الحديث يعيدنا إلى الوسطية والاعتدال في العمل للدنيا والآخرة كلما زاد اتصالنا بتراب الأرض وأصابنا عن الآخرة غفلة وشروء .

اتباعُ شرعِ الله تعالى عمادُ الإيمان

عن أبي عبد الله عليه السلام في عمرو بن قنص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .
حديث صحيح ، رويناه في كتاب الخُصَّة بإسناد صحيح .

كتاب الخُصَّة : هو كتاب في عقيدة أهل السنة ، يتضمن ذكر أصول الدين على قواعد أهل الحديث ، واسمه : « كتاب الخُصَّة على تاركها سلوك الخُصَّة » . قال فيه ابن حجر الهيتمي : وهو كتاب جيد نافع ، مؤلفه أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي ، القفطي الشافعي الزاهد ، نزل دمشق ، (توفي ٤٩٠ هـ) . « شروح الأربعين » .

لغة الحديث :

« لا يؤمن » : لا يكمل إيمانه ، أو لا يصح .
« هواه » : ما تحبه نفسه وتميل إليه فله ويرغبه طبعه .
« تبعاً » : تابعاً له بحيث يصح اتباعه كالطبع له .
« لما جئت به » : ما أرسلني الله تعالى به من الشريعة الكاملة ، بما فيها من أمر ونهي ، نص عليها الكتاب المنزل أو وجهت إليها السنة الملهمة .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

١ - المسلم إنسان متكامل : المسلم إنسان متكامل فيه جوانب الشخصية التالية ، فلا تعارض بين قوله وفعله ، ولا تناقض بين سلوكه وفكره ، بل هو إنسان يتوافق فيه القلب واللسان مع سائر أعضائه ، كما يتناسق لديه العقل والفكر والعاطفة ،

وتوازن عند الروح والجسد ، ينطق لسانه بما يحقد ، وتتعكس عقيدته على جوارحه ، فتقوم سلوكه وتحدد تصرفاته ، فلا تملك الشهوة ، ولا تطفئه بدعة ، ولا يهوي به متعة ، مطلقه في جميع شؤونه وأحواله شرع الله تعالى الحكيم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذا ما يقرره رسول الله ﷺ - وقد أوتي جوامع الكلم - عندما نصب لنا العلامة القارقة للمسلم المؤمن فيقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

٢ - حقيقة الهوى وأنواعه : قد يطلق الهوى ويراد به الميل إلى الخلق خاصة ، وعينه والالتفات إليه . ومنه ما جاء في قول عائشة رضي الله عنها : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك ، قالت ذلك لما نزل قوله تعالى : ﴿ تَرْجِي مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ [الأحزاب : ٥١] أخرجه البخاري . وقول عمر رضي الله عنه في قصة المشاورة في أسارى بدر : فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يبر ما قلت .

وقد يطلق ويراد به الميل والحنة مطلقاً ، فشمع الميل إلى الحق وغيره ، وهذا المعنى هو المراد في الحديث .

وقد يطلق ويراد به مجرد إشباع شهوات النفس وتحقيق رغباتها ، وهذا المعنى هو المراد عند إطلاق كلمة الهوى ، وهو الأكثر في الاستعمال ، وهو المعنى الذي تضاهرت نصوص الشرع على ذمه والتحذير منه والتنبيه عنه ، إذ الغالب فيه أن يكون ميلاً إلى خلاف الحق ، وتحقيق مشبهات الطبع دون مقتضيات الشرع ، فيكون سبيل الضلال والشقاء . قال الله تعالى مخاطباً داود عليه السلام : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] .

٣ - اتباع الهوى منشأ المعاصي والبعد والإعراض عن الحق : فمن استمرسل في شهواته ، وأعطى نفسه هواها ، جرت إلى المعاصي والآثام ، وتوقفت في مخالفة شرع الله عز وجل ، وفي الحقيقة : ما انحرف المشرعون ، وما امتدح المبتدعون ،

وما أعرض الكافرون الفاسقون والمارقون ، عن السبع القويج والحق المبين ، لعدم وضوح الحق أو عدم اقتناعهم به — كما يزعمون — فالحق واضح أبليج ، والباطل مبني للجليح ، وإنما يبالغ الهوى السبع ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُونَ أَهْوَانَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أَتْبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٌ فَتَدْنِي مِنْ اللَّهِ ﴾ [القصص : ٥٠] .

٤ - الهوى السبع إله بعد من دون الله عز وجل : إن العبادة هي الانقياد والخطوع ، فمن اتفاد هواه وخضع لشهواته فقد أصبح عبداً لها . وإن الهوى والشهوات لا تزال بالإنسان حتى تتمكن منه وتسيطر عليه ، فلا يصدر في تصرفاته إلا عنها ، ولا يأتمر إلا بأمرها ، وإن خالف فكره وعقله ، ونقض معرفته وعلمه . وهكذا نجد عبدة الهوى يملطون أنفسهم عن رؤية الحق ، ويصمون آذانهم عن سماعه ، فلا يسمعون . استطاعة ولا يسمعون شيئاً . قال ابن عباس رضي الله عنه : الهوى إله بعد في الأرض ، ثم تلا : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الفرقان : ٤٣] . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما تحت ظل السماء إله بعد أعظم عند الله تعالى من هوى سبع » . أعظم : أي أكثر إثمًا لأنه أوسع شراً .

٥ - اتباع الهوى ضعف لا يليق بالإنسان المكرم : إن الله تبارك وتعالى قد مسح هذا الإنسان ما ميزه عن الكائنات وجعله مخلوقاً مكرماً : ﴿ وَالْقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْوَعْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠] . وهذه النعمة التي كانت عبود الشكرم هي العقل الذي يصره بالخير ويعرجه بفعنه ويدرك به الشر الذي يصره من اقترابه قل تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمْنَاهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : ٨ - ٩] . والنفس البشرية قابلة للخير والشر ومزودة بدواعي الفجور وسواك التقي ، والإنسان بما منح من القوة العاقلة وما أعطي من الاختيار والقدرة بتدبيره أن يخالف هواه ويسيطر على نوازغ الشر ويكبتها ، ويتعاهد نفسه ويحملها على السمو في درجات

الحوى والتلوى فيبونها الرتبة الثلاثة بها من التكريم والفضل ، فإن هو فعل ذلك كان سلوكه عنوان قوته العقلية وبشرته المثالية وإسانيته لشكاملة ، وإن هو انهمز أمام تولد الشر واستسلم لهواه والعلو في درجات الرذيلة فقد سقط بإسانيته ، وأسف بكرامته ، فكان هذا عنوان حماقة وضعفه ، قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكّاه . وقد عاث من دنّاه ﴾ [الشمس : ٩ - ١٠] . وقال عليه الصلاة والسلام : « المجاهد من جاهد نفسه ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وثمّن على الله الأمانى » . وقال : « يس العبد عبد هوى يفضل ، ويس العبد عبد طمّغ يقوده » .

وأما مجاهدة النفس وانحراد على الهوى فهي نتيجة المعرفة الخفية بالله عز وجل ، واستشعار عظمته ، وإدراك نعمته . ولا يزال العبد يجاهد نفسه حتى يصلح كلياً من عبودية الهوى إلى العبودية الخالصة لله عز وجل ، ويكتمل فيه الإيمان ، ويثبت لديه اليقين ، ويكون من الفائزين بسعادة الدارين ، قال الله تعالى : ﴿ وأما من حاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى . فإنّ الجنة هي المأوى ﴾ [النازعات : ٤٠ - ٤١] .

٦ - اتباع الهوى محسرات وحلال ومجاهدة النفس سعادة ونجاة : إن اتباع الهوى والانغماس في الشهوات والسعي وراء المخطوطة والمطلبات ، دون أكثرات بحلال أو حرام ، عبودية لغر الله عز وجل ، وهذا ظلم وطمّان ، لما فيه من انشغال بالنعمة عن النعم ، وجهل وحلال ، لما فيه من إغتر للذل على التّلي ، وهو مسلك عاقبه الملاك والمحسرات ، لما ينطوي عليه من الكبر والاستعلاء ، وما ينتج عنه من تعد واستعبد : ﴿ فأتأمن من طغي . وآثر الحياة الدنيا . فإنّ الجحيم هي المأوى ﴾ [النازعات : ٣٧ - ٣٩] .

٧ - مراتب الإيمان : إذا نطق المسلم بالشهادتين بلسانه ، وأدعى في نفسه لشرع الله عز وجل ، وعقد العزم في قلبه على التّرام لأوامره واجتناب نواهيّه ، فقد تحقق لديه أصل الإيمان ، وحصل له ثقل مراتبه ، وانتقل من فصيلة الكافرين إلى زمرة

الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَجَّيْتُ لَهُ النِّجَاجَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُؤْمِنًا بِمَا قُلْتُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ .

فَإِذَا التَّوَكَّلَ الْمُسْلِمُ مَتَّحِجٌ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَوَعَدَ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ تَائِبًا لَهُ فِي كُلِّ شَأْنٍ ، يَتَوَكَّلُ مَعَ حَيْثُ دَارَ ، لَا يَأْتُرُ إِلَّا بِأَمْرِهِ وَلَا يَنْتَهِى إِلَّا بِنَهْيِهِ ، بِحُكْمِهِ فِي كُلِّ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ ، وَيَتَوَكَّلُ إِلَيْهِ كَمَا يَتَوَكَّلُ لِمُسْتَهْيَاةِ الْخَلِيلَةِ ، وَيَكْتَفِيهَا عَلَيْهِ ، فَيُؤَيِّدُ مَا يَفْرَهُ وَيَنْصَحُ مَا يَنْهَى ، يَحْتَلِ حِلَّالَهُ وَيَحْرُمُ حُرَامَهُ ، يَتَّقِي الشُّبُهَاتِ وَيَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالْوَرَعِ ، دُونَ أَنْ يَجِدَ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً ، أَوْ يَشْعُرَ بِكَرْهٍ أَوْ مُشَقَّةٍ ، إِذَا أَصْبَحَ الْمُسْلِمُ هَكَذَا فَقَدْ اكْتَمَلَ إِيمَانُهُ ، وَيَلْغُ أَرْقَى مَرَاتِبِ الْيَقِينِ ، وَإِنْ هُوَ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَمَا زَالَ فِي إِيمَانِهِ نَقْصٌ وَدَخَلَ .

وَأَمَّا مَنْ تَرَكَ أَحْكَامَ شَرَعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، مَعْرُضًا عَنْهَا ، رَاحِيًا فِي غَيْرِهَا ، غَيْرَ مُذْعِنٍ لَهَا إِذْ عَانَ الصَّادِقِينَ ، وَلَا مُعْتَقِدٍ بِهَا اعْتِقَادَ الْمُخْلِصِينَ ، لَمْ يَتَّيَسَّرْ لَهُ أَصْلُ الْإِيمَانِ ، وَلَمْ يَصْبَحْ مَعَ إِسْلَامٍ ، بَلْ هُوَ فِي عَدَدِ الْكَافِرِينَ ، الْخَالِدِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَهَنَّمَ وَفِيهِ الْقَصِيرُ .

٨ - حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ : حَتَّى يَتَحَقَّقَ لَدَى الْمُسْلِمِ أَصْلُ الْإِيمَانِ ، وَيَسِيرَ فِي طَرِيقِ بَيَوتِ كَلَامِهِ ، لَا يَدَّ مِنْ أَنْ يُحِبَّ مَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى ، حُبَّهُ تَحْمِلُهُ عَلَى الْإِيمَانِ بِمَا وَحَبَّ عَلَيْهِ مِنْهُ وَمَا نَدَبَ إِلَى فِعْلِهِ ، وَأَنْ يَكْرَهُ مَا كَرِهَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، كَرَاهَةً تَحْمِلُهُ عَلَى النِّكَافِ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِ مِنْهُ وَمَا نَدَبَ إِلَى تَرْكِهِ ، وَهَذِهِ الْحُبَّةُ لِمَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى وَالْكَرَاهَةُ لِمَا كَرِهَهُ ، لَا لِمُتَحَقِّقَانِ إِلَّا لِأَنَّ أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ حُبًّا يَلْقَوْنَ بِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ ، يَحِبُّ بَعْضُهُ فِي سَبِيلِهَا بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَيَكْرَهُهَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَفْشَوْنَ كَسَلَتْهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرْتَفِئُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين . فلا يكون مؤمناً حتى يقدم محبة الرسول ﷺ على محبة جميع الخلق ، ومحبة الرسول تابعة لمحبة المرسل ولازمة لها ، فلا توجد محبة ﷺ إلا إذا وجدت محبة الله عز وجل ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ أَحِبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

٩ . عنوان المحبة الموافقة والاتباع : المحبة الصحيحة تقتضي متابعة الحب لمن أحب ، وموافقته فيما يحب ويكره ، قولاً وفعلًا واعتقادًا ، فمن أحب الله تعالى ورسوله ﷺ محبة صادقة أوردته تلك المحبة - كما علمنا - حباً لما يحبهه وكرهاً لما يكرهه ، ومن ألزم ذلك أن يعمل بموارحه يلتضي هذا الحب وذاك المقتضى ، فيقف عند حدود شرع الله عز وجل ، يحل أمره ويحجب عنه على أم وجه ، ليكون ذلك رهان المحبة ودليل الإيمان . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... ﴾ [آل عمران : ٣١] قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : قال أصحاب النبي ﷺ : يا رسول الله ، إننا نحب ربنا حباً شديداً ، فأحب الله أن يجعل محبة علماء ، فأقول هذه الآية .

فمن ترك شيئاً مما يحبه الله عز وجل ورسوله ﷺ ، وفعل شيئاً يكرهه ، مع قدرته على فعل المحبوب وترك المكروه ، كان في إيمانه خلل ونقص ، عليه أن يسعى لإصلاحه وتداركه ، وكانت محبته دعوى تحتاج إلى بينة .

قال بعضهم : كل من ادعى محبة الله تعالى ، ولم يوافق الله في أمره ، قد هوى باطلاً ، وكل يحب ليس بخائف الله فهو مغرور .

وقال آخر : ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده .

ورحم الله تعالى من قال :

تعصي الإله وأنت تزعم حبه	هذا العمري في القيام شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته	إن الفتى بمن سجت مطيع

وهذا يتطرح لك تناقض موقف أولئك الناس الذين يسمون وحداً عند ذكر الله تعالى أو رسوله ﷺ ، وتعرف عيونهم دموعاً ، وتحتضن رؤوسهم خشوعاً ، ويعلمون دعواتهم بحبة الله ورسوله ﷺ غريضة ، وهم على مصيبة قد عرّ وحل ، من تعامل بالرها ، وخش واستكار ، وحشع وطمع ، ومن سفور واحتلاط ، وترك لأداب شرع الله تعالى الحكيم ، تسأل الله تعالى لنا ولهم إقبالية إلى أئمة سبيل .

١٠ - حلاوة الإيمان : للإيمان أثر في النفوس ، وطعم في القلوب ، أطيب لدى المؤمنين من طعم العذب البلود على الفم ، وأحل من طعم العسل بعد طول مرارة اللقاح . وهذه الحبة وذلك الطيب ، لا يشعر بهما ولا يحد للشيء إلا من استكمل إيمانه ، وصدقت بحبه لله تعالى ورسوله ﷺ ، وانثرت في جوانب نفسه ، فأصبح لا يحب إلا الله ، ولا يخلص إلا الله ، ولا يعطي إلا الله ، ولا يمنع إلا الله . روى البخاري ومسلم : عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر - بعد أن أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى في النار » . حلاوة الإيمان : معناها اللذة في الطاعة . قال الطبري : هذا حديث عظيم ، أصل من أصول الإسلام .

١١ - الاحكام إلى شرع الله عز وجل والرضا بحكمه : من لوازم الإيمان أن يحكم المسلم إلى شرع الله عز وجل في خصوصياته وأفعاليه ، ولا يعدل عنه إلى سواء ، ويرضى بحكم الله تعالى الثابت في الأدلة الشرعية الخيرة ، من كتاب وصلة وما استنبط منهما وتفرع عيها ، مطبقاً لتلك الحكم ومستسلماً له ، سواء أكان له أم عليه ، يوافق هوى أم يخالف رغبته . قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . وقال سبحانه : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكِّمُوكَ فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويُسلموا تسلماً ﴾ [النساء : ٦٥] وتحكم رسول الله ﷺ بعد

موته يكون بالأحكام إلى شريعته ومسته .

١٢ - حب ما كرهه الله تعالى وكره ما أحبه كفر وضلال : علمنا أن أصل الإيمان لا يتحقق إلا بحب ما أحب الله تعالى وكره ما كره ، وأن كمال الإيمان لا يكون إلا بالعمل بملتصبي ذلك . فمن لم توجد لديه تلك المحبة فقد الإيمان أصلاً ، ومن عكس الأمر : فأحب ما كرهه الله تعالى وكره ما أحب ، فقد إرداه كفرةً وضلالاً ، وصحواً وحنافاً ، وكان أشد الناس عسراً في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَفْعَسَاءُ غَمٍ وَأَسْلُ أَعْمَالِهِمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ فَأَحْبَطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٨ - ٩] . نعماً : هلاكاً وحية . فأحبط : أبطل وأذهب .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ فَشَيْطَانٌ سَوَّلَ غَمٍ وَأَسْلَىٰ لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَلَّذِينَ كَفَرُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَاطِطُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ . فَكَذَّبَ إِذَا تَوَعَّدَهُم بِالْعَذَابِ أَنَّهُ يَأْتِيهِمْ وَلَيَأْتِيَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٥ - ٢٨] . سَوَّلَ : رَئى لَهُم التَّصَبُّحَ حَتَّى رَأَوْهُ حَسَباً . أَسْلَى لَهُمْ : أَمَلَهُمْ بِطَوْلِ الْعَمْرِ .

١٣ - الخوض المظالي : لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ الخوض المظالي في صدق محبتهم لله تعالى ورسوله ﷺ ، وحبهم ما يرضيهما وبغضهم ما يسخطهما ، وتقديم محبتهما على كل شيء ، والتكيف أفعالهم تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ ، حتى بلغوا في سبيل ذلك نفوسهم وأرواحهم وأموالهم ، وقاتلوا عليه آباءهم ، وهجروا أزواجهم وعشيرتهم وأوطانهم ، لأنهم كانوا أعرف بحقه وأدرك لفضله . وانظر إلى موقف عمر رضي الله عنه إذا يقول : لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال ﷺ : لا والذي نفسي بيده ، حتى أكون أحب إليك من نفسي . فسكت ساعة - أي فترة قصيرة من الزمن - أدرك فيها أن حتى رسول الله ﷺ أكمل من كل حل ، ومقدم على كل الحق ، حتى النفس التي

وجب بلغا في سبيله ، لأنه هو الذي استغفها من النار ، فقال : غلبك الآن والله أحب إلي من نفسي ، فقال : « الآن يا عمر » رواه البخاري . أي الآن تم إيمانك .
 وبهذا استحق هذا الرجل الأول من ركب الإيمان الثناء الخالد من الله عز وجل إذ يقول : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ الْقَوْمُ الْمُغْنَى ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

١٤ - أقوال الحديث :

- ١ - أنه يجب على المسلم أن يعرض عمله على الكتاب والسنة ، ويسعى لأن يكون موافقا لهما .
- ٢ - من صدق شرع الله تعالى بقلبه وأقر بلسانه وخالف بفعله فهو فاسق ، ومن وافق بفعله وخالف في اعتقاده وفكره فهو منافق ، ومن ليس لكل موقف لونه فهو زنديق ملوث .
- ٣ - من لوازم الإيمان بصرة سنة رسول الله ﷺ والدفاع عن شريعته .

سَعَةُ مَغْفِرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

عن أميرٍ رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم ، إني ما أغفرتُ لِمَن دَخَلَني ورَخَّولَني غَفَرْتُ لَكَ عن ما كانَ بينَكَ ولا أبالي . يا ابن آدم ، لو نَلَعْتَ ذُنُوبَكَ غَدًا السَّنَاءَ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ . يا ابن آدم ، إني لو أَهَنْتُ بِقُرَابِ الْأَرْضِ عَطْلَهَا ، ثُمَّ لَقِيتُني لَا تُشْرِكُ بي شَيْئًا ، لَا أُبَيِّتُ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (باب غفران الذنوب مهما عظمت) رقم [٢٥٣٤] ، والدارمي رقم [٦٧٩٦] ، وقال السخاوي في الخرج الأربعين النوبة بعد تخرجه : هذا حديث حسن .

لغة الحديث :

« ما دهوني » : ما دمت نسألي مغفرة ذنوبك وغيرها ، وتعبدني بالطاعات والدعوات ونحوها ، فإن الدهاء مع العادة .

« حقيقه الدهاء » : استدعاء العبد ربه واستمداده منه للعونة في حقه .

« ما » : زمانية طريقة أي مدة دوام دعائك .

« رخولني » : حقت من غفوتي ورخوت مغفرتي ، وطمعت في رحمتي ، وحشيت من عظمتي ، ويكون لرحاء بمعنى الخوف ، والرحاء : تأهيل الخير وقرب وقوعه .

« غفرت لك » : سترت عيوبك ومحويت ذنوبك .

« هل ما كان منك » : مع ما وقع منك من الذنوب الكثيرة ، الصغيرة والكبيرة .
« لا أبالي » : أي لا تعظم كثرتها علي ، فإن حرام العباد وأثم أهل العباد في
جنب عظمة الرب كثرة صغيرة وأقل منها .

« بلغت » : وصلت من كثرة كميتها ، أو من عظمة كثرتها . فيه مبالغة بكثرة
الذنوب بحيث لو كانت أجساماً ملأت ما بين السماء والأرض .

« عنان » : هو السحاب ، وقيل ما انتهى إليه البصر منها .

« استغفرتني » : طلبت مني المغفرة ، وهي وقاية شر الذنوب مع سترها .

« يفراب الأرض » : ملؤها ، أو ما يفراب ملأها .

« خطايا » : ذنوباً كبيرة أو صغيرة .

« ثقتني » : أي مت وثقتني يوم القيامة .

« لا تشرك بي شيئاً » : اعتقاداً ولا عملاً ، أي تعتقد أنه لا شريك لي في ملكي
ولا ولد لي ولا والد ، ولا تعمل عملاً تنفي به عوي .

« مغفرة » : هي إزالة العقاب وإعصال التوب .

فقه الحديث وما يرشد إليه :

هذا الحديث أرجى حديث في السنة ، لما فيه من بيان كثرة مغفرته تعالى ، لئلا
يأمن المذنبون منها بكثرة الخطايا ، ولكن لا ينبغي لأحد أن يعثر به فينهك في
العاصي : فربما استولت عليه ، وحالت بينه وبين مغفرة الله عز وجل . وإليك بيان
ما فيه :

١ - أسباب المغفرة :

لمغفرة ما يفرط من الإنسان من خطايا طرق وأسباب منها :

١ - الدعاء مع رجاء الإجابة : الدعاء مأثور به وموجود عليه بالإجابة ، قال

تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] وعن العبدان بن بشر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن الدعاء هو العبادة ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ... ﴾ . رواه الترمذي وغيره . وإن الله سبحانه وتعالى لا يتفضل على العبد ، ويوفقه لأن يدعو ويطلب إليه ، إلا ويتفضل عليه بالقبول والإجابة ، أخرج الطبراني مرفوعاً : « من أعطي الدعاء أعطى الإجابة ، لأن الله تعالى يقول : ادعوني أستجب لكم » . وفي حديث آخر : « ما كان الله ليضع على عبد باب الدعاء ويطلق عنه باب الإجابة » .

٢ - شرائط الإجابة وموانعها وآدابها : الدعاء سبب مقتضى للإجابة عند استكمال شرائطه وانتفاء موانعه ، وقد تختلف الإجابة لانتفاء بعض شروطه أو آدابه ، أو وجود بعض موانعه :

أ - الحضور والرجاء : ومن أعظم شرائطه حضور القلب مع رجاء الإجابة من الله تعالى .

أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، وإن الله تعالى لا يجلب دعاء من قلب غافل لاه » . وفي المسند : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سأأتم الله عز وجل - أيها الناس - فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة ، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاء عن ظهر قلب غافل » .

ومن علامة الرجاء حسن الطاعة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنُؤَاتِكَ تَرْجُونَ رَحْمَةً اللَّهِ ﴾ [النور : ٢١٨] .

ب - العزم في المسألة والدعاء : أي أن يدعو العبد بصدق وحزم وإبرام ، ولا يكون تردد في قلبه أو قوله ، فقد نبى رسول الله ﷺ أن يقول الداعي أو المستغفر في دعائه واستغفاره : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ولكن ليعزم

في الدعاء ، فإن الله صانع ما شاء لا مكره له . رواه مسلم .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال : « إذا دعا أحدكم فلا يلق : اللهم إن شئت انصر لي ، ولكن ليحزم وليعظم الرغبة ، فإن الله سبحانه لا يتعاضده شيء أعطاءه » . رواه الترمذي .

ج - الإلحاح في الدعاء : إن الله تعالى يحب من عبده أن يعلن عبوديته له وساجدة إليه حتى يستجيب له ويلبي سؤاله ، فما دام العبد يلح في الدعاء ، ويطلب في الإجابة ، من غير قطع الرجاء ، فهو قريب من الإجابة ، ومن فرغ الباب يوشك أن يفتح له . قال الله تعالى : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مَنِ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٦] ، وفي مستدرک الحاكم عن أسمر مرفوعاً : « لا تعجزوا عن الدعاء ، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد » وقال ﷺ : « من لم يسأل الله يغضب عليه » رواه ابن ماجه . وجاء في الآثار أن العبد إذا دعا ربه وهو يحمه قال : يا جبريل ، لا تعجل بقضاء حاجتي عبيدي ، فإنني أحب أن أسمع صوته .

د - الاستعجال وترك الدعاء : نبى رسول الله ﷺ العبد أن يستعجل ويترك الدعاء لاستعجال الإجابة ، وجعل ذلك من مواقع الإجابة ، حتى لا يقطع العبد رجاءه من إجابة دعائه ولو طالبت المدة ، فإنه سبحانه يحب للحمين في الدعاء ، قال رسول الله ﷺ : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول : قد دعوت ربي فلم يستجب لي » متفق عليه .

هـ - المزق الحلال : إن من قبح أسيات استجابة الدعاء أن يكون روى الإنسان حلالاً ، ومن طريق مشروع ، ومن مواقع الاستجابة أن لا يبالي الإنسان برزقه : أس حلال أو حرام . ثبت عنه عليه الصلاة والسلام : « الرجل يمد يديه إلى السماء ، يقول : يا رب ، يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك » رواه مسلم وغيره . وقال : « يا سعد ، أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » رواه الطبراني في الصغير .

٢ - سؤال المغفرة : من أعم ما يسأل العبد ربه مغفرة ذنوبه وما يستلزم ذلك ، كالجاء من النار ودخول الجنة . قال عليه السلام : « حولها ثلثين » رواه أبو داود وغيره . يعني حول سؤال الجنة والنار . وقال أبو مسلم الخولاني : ما عرضت لي دعوة فذكرت النار إلا صرفها إلى الاستعانة بها .

٣ - صرف طلب العبد إلى ما فيه غيره : من راحة الله تعالى بعد أن العبد قد يدعو بحاجة من حوائج الدنيا ، فلما أن يستجيب له أو يعوضه غيراً منها : بأن يصرف عنه بذلك سواء ، أو يدخرها له في الآخرة ، أو يفر له بها ذنباً . روى أحمد والترمذي ، من حديث جابر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل ، أو كف عنه من سوء مثله ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » . وفي المسند ومستنوك الحاكم ، عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم أو قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يجعل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يكشف عنه من السوء مثلاً » . قالوا : إذا فكثر ؟ قال : « الله أكثر » . وعبد الظماني : « لو يظفر له بها ذنباً قد سلف » يدل قوله : « لو يكشف عنه من السوء مثلاً » .

٤ - من آداب الدعاء : تحري الأوقات الفاضلة . - تقديم السجود والصلاة . - التوبة . - استقبال القبلة ورفع الأيدي . - اقتباضه بالحمد والثناء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . - جعل الصلاة في وسطه وعتمه بها وبآمين . - لا يخص نفسه بالدعاء بل بعم . - بحسن الظن بالله وبرجوه منه الإجابة . - الاعتراف بالذنوب . - خفض الصوت .

٥ - الاستغفار مهما عظمت الذنوب : إن ذنوب العبد مهما عظمت فإن عفو الله تعالى ومغفرته أوسع منها وأعظم ، فهي صغيرة في حسب عفو الله تعالى ومغفرته . أخرج الحاكم ، عن جابر رضي الله عنه . « أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : والذنوباء ، مرتين أو ثلاثاً ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : قل : اللهم معصرتك

أوسع من ذنوبي ، ورحمتك أرجى عدي من عجل ، فقال لها : عد ، فعاد ،
ثم قال له : عد ، فعاد ، فقال له : قم ، قد غفر الله لك .

٦ - الاستغفار في القرآن : نكث في القرآن ذكر الاستغفار :

- فقرة يؤمر به ، قال تعالى : ﴿ واستغفروا لله إن الله غفور رحيم ﴾
[المزل : ٢٠] . وقال : ﴿ وأب استغفروا ربكم لم تؤبوا إليه ﴾ [هود : ٣] .
- وتارة يمدح الله ، قال تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران :
١٧] وقال : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا
لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصبروا على ما فعلوا وهم يعملون ﴾
[آل عمران : ١٣٥] .

وتارة يرتب عليه المغفرة ، ويذكر أن الله تعالى يغفر لمن استغفره ، قال تعالى :
﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ [النساء :
١١٠] .

وما ذلك إلا دليل على أن الاستغفار له شأن كبير ، وأنه أساس نجات العبد الذي
لا ينفك عن الوقوع في مخالفة والذنب عن قصد أو غير قصد .

٧ - التوبة والاستغفار : كثيراً ما يفرق بين الاستغفار والتوبة : ﴿ أفلا تنبهون إلى الله ويستغفروا ﴾ [المائدة : ٧٤] . ﴿ أن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ [هود : ٣] - إلى غير ذلك من آيات ، فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة ، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلوب والجوارح .

وتارة يفرق الاستغفار ويرتب عليه المغفرة : ﴿ قال ربني إني ظلمت نفسي فاعفُ
لي فعفّر له ﴾ [القصص : ١٦] . ﴿ واستغفروا لله إن الله غفور رحيم ﴾
[المزل : ٢٠] . إلى غير ذلك من آيات . ومثله ما ذكر في هذا الحديث وما أشبهه ،
فمعنى استغفركني : أبت توبة صحيحة ، بأن عدت على العصية من حيث كونها

معصية ، وأقفلت له عنها ، وهزمت على أن لا تعود إليها وتداركت ما يمكن من قضاء الطاعة التي فوجأ ، ورد النظام إلى أصلها أو استحللهم منها . فلابد للمغفرة من الإخلاص عن الذنب وإصلاح الحال ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المائدة : ٢٩) .

٨ - الاستغفار والإصرار : قيل : إن نصوص الاستغفار المطلقة كلها تنهت بما ذكر في آية آل عمران من عدم الإصرار ، فإن الله وعده فيها بالمغفرة لمن استغفره من ذنوبه ولم يصبر على فعله . أخرج أبو داود والترمذي من حديث أبي بكر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : ﴿ ما أصبر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » . وفي الصحيحين : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : « إن عبداً أذنب فقال : رب أذنبت ذنباً فافخر لي ، قال الله تعالى : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ به ، عفرت لعبدي ، لم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر ... فذكر مثل الأول مرتين آخرين » . وفي رواية لمسلم أنه قال في الثالثة : « قد عفرت لعبدي ، فليعمل ما شاء » . والمعنى : ما دام على هذا الحال ، كلما أذنب استغفر . والظاهر : أن مراده الاستغفار المتكرر بعدم الإصرار ، فالاستغفار التام الموجب للمغفرة هو ما قارن عدم الإصرار ، كما مدح الله تعالى أعله ووعدهم بالمغفرة ، وهو حينئذ يؤمل ثوبة نصوحاً . قال بعض العارفين : من لم يكن ثمرة استغفاره تصحيح توبته فهو كاذب في استغفاره .

— وأما الاستغفار باللسان مع إصرار القلب على الذنب ، فهو دواء مجرد ، إن شاء الله أجهل وإن شاء رده ، وقد يرجح له الإجابة ، ولا سيما إذا خرج عن قلب منكسر بالذنوب ، أو صادف ساعة من ساعات الإجابة ، كالأسحار وعقب الأثان والصلوات المفروضة ونحو ذلك . وقد يكون الإصرار مائعاً من الإجابة ، فلي المسند من حديث عبد الله مرفوعاً : « ويل للذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون » . وعن ابن عباس رضي الله عنه : الثائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمستغفر من

طلب وهو مقبوع عليه كالسهمزىء بالله . أخرجه ابن أبي الدنيا . وعن حنيفة رضي الله عنه قال : بحسب من الكذب أن يقول : أستغفر الله ، ثم يعود .

٩ — توبة الكذابين : من قال : أستغفر الله وأتوب إليه ، وهو مصر بطلبه على المعصية ، فهو كاذب في قوله ، آثم في فعله لأنه عود تائب ، فلا يجوز له أن يخرج عن نفسه بأنه تائب وهو غير تائب ، والأشبه بحاله أن يقول : اللهم إني أستغفرك فب علي . ومثل هذا يخشى عليه من العتاب الشديد ، فهو كمن يرجو حصاناً ولم يزرع ، أو ولدأ ولم ينكح .

١٠ — التوبة والعهد : جمهور العلماء على جواز أن يقول العبد التائب : أتوب إلى الله ، وأن يعاهد ربه على أن لا يعود إلى المعصية ، فإن العزم على ذلك واجب عليه في الحال .

١١ — الإكثار من الاستغفار : في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » . جاء عن لقمان أنه قال لأبيه : يا بني عود نفسك : اللهم اغفر لي ، فإن الله ساعات لا يرد فيها سائلاً . قال الحسن : أكثروا من الاستغفار في ميوتكم وعلى موائدتكم ، وفي طرفكم وفي أسواقكم ، وفي مجالسكم ، وأماكنكم ، فإياكم ما لغرون متى تنزل المغفرة . وفي عمل اليوم واليلة للناسي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : ما رأيت أحداً أكثر أن يقول : أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله ﷺ . وفي السنن : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة يقول : رب اغفر لي ونب علي ، إنك أنت فتواب الغفور .

١٢ — سيد الاستغفار : يستحب أن يرد في الاستغفار عن قوله : أستغفر الله وأتوب إليه ، روي عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول : أستغفر الله وأتوب إليه ، فقال له : يا حنثي ، قل : توبة من لا يملك لنفسه نجاة ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . ومثل الأوزاعي عن من يستغفر فيقول : أستغفر الله العظيم الذي

لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، فقال : إن هذا أحسن ، ولكن يقول : رب اغفر لي ، حتى يتم الاستغفار . وقد خرج هذا اللفظ عن رسول الله ﷺ أبو داود والترمذي وغيرهما .

— وأفضل أنواع الاستغفار وسيله : أي أشرفه وأكثر أجراً وقبولاً ، أن يبدأ العبد بالله على ربه ، ثم ينفي بالاعتراف بذنبه ، ثم يسأل الله المعفرة بما ثبت عن رسول الله ﷺ . روى البخاري عن صفاد بن أوس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت ، عافيتني وأنا عبيدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

١٣ — الاستغفار لما جهله من الذنوب : من كثرت ذنوبه وسبائته وغفل عن كثير منها ، حتى فاقت العدد والإحصاء ، فيستغفر الله عز وجل بما علمه الله تعالى من ذنبه ، روى صفاد بن أوس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : « سألتك من حو ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستعفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب » . فإن الله قد علم كل شيء وأحصاه ، قال تعالى : ﴿ يوم يحسبهم الله جميعاً فبينهم بما عملوا أحصاء الله ونسوه ﴾ [المجادلة : ٦] .

١٤ — من ثمرات الاستغفار : إن من يستغفر الله تعالى يشعر أنه يأوي إلى عفو رحيم ، ولحي كريم ، وعليم حكيم ، فيطمئن قلبه وينشرح صدره ، ويحلي عنه الغم والهم ، ويستبشر برحمة الله تعالى ورضوانه ، فيعيش متعائلاً النفس ، لا يجد البأس إلى نفسه شيئاً . روى مسلم ، عن الأنس الحارثي ، عن النبي ﷺ قال : « إله ليغان على قلبي ، وإنّي لأستعفر الله في اليوم مائة مرة » ليغان : يفتشني ويعرض لي ما يعرض للبشر من المشاغل ، والفقر ، النعم ، وقيل : الشجر الكثيف .

وفي سنن أبي داود عن ابن عباس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من

أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، وورقه من حيث لا يحتسب .

ومن حديث أبي ذر مرفوعاً : « إن لكل ذنب عواء ، وإن عواء المقلوب الاستغفار » .

قال قتادة : إن هذا القرآن يدلكم على ذنوبكم وذواتكم ، فأما ذنوبكم فالذنوب ، وأما ذواتكم فالاستغفار .

قالت عائشة رضي الله عنها : طوى لي واحد في صحيفته استغفراً كثيراً .
قال أبو الهيثم : ما حاور عبد في غيره من حار أحب إليه من استغفار كثير .
وقال بعضهم : إنما معول المنبيين الشك والالتماع ، فمن أخرجه ذنوبه أكثر لها من الاستغفار .

ولعل من ثمرات الاشتغال بالاستغفار أن يشغل لسانه عن غيره ، وتباعد في نفسه معاني الصبح والعصر وحسن الخلق . وفي مسند أحمد عن حليمة قال : قلت : يا رسول الله ، يني ذنب اللسان ، وإن حلة ذلك هي أعني ؟ فقال : « أين أنت من الاستغفار » . يني لأستغفر الله في اليوم والميلة مائة مرة . « ذنب اللسان : حلة اللسان ، لا أُنْبِئُ بما أقول وما يكون مني من فساد الطبع وسلاطة اللسان .

١٥ - طلب الاستغفار ممن يظن فيهم قلة الذنوب : من زاد اهتمامه بذنوبه فرحاً تعلق بأذيال من قتل ذنوبه ، فالتمس منهم الاستغفار ، وكان عمر رضي الله عنه يطلب من الصبيان الاستغفار ، ويقول : إنكم لم تذهبوا . وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول لقتاد الكتاب : قولوا : اللهم اغفر لأبي هريرة ، يؤمن عن دعاالهم

١٦ - تحسين الظن بالله تعالى وأنه وحده الغفار : لا يند للعبد القوم الذي يستغفر ربه من أن يحسن ظنه بالله تعالى ، وأنه يحقر له ذنبه ، جاء في الحديث القدسي : « يقول الله تعالى : أنا عبد ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء » . وفي رواية : « لا

تظفوا بهنّ إلا عبراً . ومن أعظم أسباب المغفرة : أن العبد إذا أنسب دنياً لم يرج مغفرته من غير ربه ، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب ويأخذ بها غيره . قال الله تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا تَطْلَمُوا أَنْصِبْ لَهُمُ ذِكْرًا أَنْ فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : أن أبا بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله علمني دعاء أدعوه به في صلاتي قال : « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

ويتأكد وجوب تحسين الظن عندما يقلب على الظن أن الأجل قد أقبل ، وأن العبد قليل على الله سبحانه ، حتى يكون رجاء المغفرة هو الغالب . روى أحمد والطبراني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إن شئتم نسأتكم ما أول ما يقول الله للمؤمنين يوم القيامة ، وما أول ما يقولون له ؟ قلنا : نعم يا رسول الله . قال : فإن الله تعالى يقول لمؤمنين : هل أحسنتم القرآن ؟ فيقولون : نعم يا ربنا فيقول : لم ؟ فيقولون : رجعونا عقوقك ومغفرتك ، فيقول : قد وحت لكم مغفرتي » .

١٧ — الخوف والرجاء : ولا بد لتحقيق الرجاء من الخوف ، فيجب على الشخص أن يجمع بينهما ليسلم ، ولا يقتصر على أحدهما دون الآخر ، لأنه ربما يفضي الرجاء إلى التكر والخوف إلى القنوط ، وكل منهما مدموم . وفي الحديث الشريف : « أقسم الخوف والرجاء أن لا يجتمعا في أحد في الدنيا فخرج ربح النار . ولا يفرقا في أحد في الدنيا فخرج ربح الجنة » .

واختار عبد المالكية قلب الخوف إن كان صحيحاً وخرجاء إن كان مريضاً ، والراجح عند الشافعية استوفاهما في حق الصحيح : بأن ينظر نظرة إلى عيوب نفسه فيخاف ، ونارة ينظر إلى كرم الله تعالى فيرجو . وأما المريض : فيكون رجاءه قلب

من عوفه ، لقوله ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو بحسن الظن بالله تعالى » .

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه في مرض موته :

وَمَا قَسَا قَلْبِي وَمَضَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَاءَ مَتْنِي لِعُضْوِكَ مَتْلَعًا
لِعَاطِلِي ذَلْسِي فَلَسْتُ فَرَحًا بِعُضْوِكَ رَبِّي كَانَ عُضْوُكَ أَعْظَمًا

والعل هذا هو الحكمة في عدم هذه الأحاديث المختارة بهذا الحديث وروايته على الأربعمائة .

٦٨ - التوحيد أصابع المغفرة : من أسباب المغفرة التوحيد ، وهو السبب الأعظم ، فمن فقد هذه المغفرة ، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ - ١٦٦] . وإن الذنوب لتتصل بالمرء أمام نور توحيد الله عز وجل ، فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض غطابها لقيه الله عز وجل بقرابها مغفرة ، عل أنه موكل إلى مشيئة الله تعالى وفضله : فإن شاء عذره ، وإن شاء أعده بنوبه .

٦٩ - عاقبة الموحدين الجنة : فلا يبعد في النار ، بل يخرج منها ثم يدخل الجنة ، وهو لا يلقى في النار كما يلقى الكفار ، ولا يلقى فيها كما يلقى الكفار . قال ﷺ : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه ما يزن من الخير نبرة » رواه البخاري . أي : قسمة .

٢٠ - النجاة من النار : إذا كمل توحيد العبد وإصلاحه لله فيه ، وقام بشروطه كلها ، بقلبه ولسانه وجوارحه ، أو بقلبه ولسانه عند الموت ، أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكليبة . قال ﷺ لعلاء بن جبر رضي الله عنه : « أتدري ما حق الله على العباد ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أتدري ما سلفهم عليه ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أن لا يعبدوا غيري وغيره . وفي المسند وغيره : عن أم هانئ رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « لا إله إلا الله لا تترك ذنباً ولا يسفها عمل » .

وفي المسند أيضاً : عن شداد بن أوس وعبد الله بن الصامت رضي الله عنهما :
 أن النبي ﷺ قال لأصحابه : « ارفعوا أيديكم وقولوا : لا إله إلا الله . فرفعنا أيدينا
 ساعة ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده ثم قال : الحمد لله ، اللهم بعثني بهذه الكلمة ،
 وأمرني بها ، ووعدني الجنة عليها ، وإنك لا تخلف الوعد . ثم قال : أبتشروا ، فإن
 الله قد غفر لكم . » وهذا معمول على ما ذكرناه من تقديم التوبة وحسن العمل ،
 قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَتْلُوا اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَمْبٍ وَمَا كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

٢٢ . التوحيد الخالص : من تحقق بكلمة التوحيد فيه أخرجت منه كل ما
 سوى الله تعالى ، محبة وتعظيم ، وإجلالاً ومهابة ، وعشقة ورجاء وتوكل ، وحيدة
 المحرق لذنوبه وعظاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر ، وربما قلبها حسرات وأحرق
 نور محبة لربه كل الأغيار من قلبه : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب
 إليه من سواهما » رواه البخاري وغيره . ومحبة رسول الله ﷺ من محبة الله عز وجل .

ثم شرح الأربعين بفضل الله تعالى وتوحيده وحلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
 وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

باب ضبط الحفي من الألفاظ

قال النووي رحمه الله تعالى ، بعد ذكره الحديث الثاني والأربعين :

فهذا آخر ما ألفصته من بيان الأحاديث التي جمعت فروع الإسلام ، ولخصت
مالا يخص من أنواع العلوم في الأصول والفروع والآداب ، وسائر وجوه الأحكام .
وها أنا أذكر بها مختصراً جداً في ضبط عصى ألفاظها ، مرتبة ، لئلا يخلط في
شيء منها ، يستغني بها حافظها عن مراجعة غيره في ضبطها ، ثم أشرع في شرحها ،
إن شاء الله تعالى ، في كتاب مستقل^(١) ، وأرجو من فضل الله تعالى أن يوفيني فيه
بيان مهمات من اللطائف ، وجمل من القوائد والمعارف ، لا يستغني مسم عن معرفة
مثلا ، ويظهر لطائفها جراحة هذه الأحاديث وعظم فتنها ، وما اشتملت عليه من
اللطائف التي ذكرها ، والهمات التي وصفتها ، ويعلم بها الحكمة في اعتبار هذه
الأحاديث الأربعين ، وأنها حقيقة بذلك عند الناظرين .

وإنما أفردتها عن هذا الجزء ليسهل حفظ ذا الجزء بغيره ، ثم من أراد ضم الشرح
إليه ليفعل ، والله عليه ثقة بذلك ، إلا يقف على دقائق اللطائف المبسطة من كلام
من قال الله في حقه : ﴿ وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحىٌ يُوحى ﴾
[الحجر : ٣ - ٤] والله الحمد أولاً وآخراً ، وبلياً وظاهراً .

باب الإشارات إلى ضبط الألفاظ المشكوكات

هذا الباب وإن ترجمته بالشكوكات فقد أنه فيه عن ألفاظ من التوضيحات .
في الخطبة^(٢) ، نصّر الله امرئاً ، روي بتشديد القاء وتخفيفها ، والتشديد
أكثر ، ومعناه : حسنه وجملته .

(١) يوجد هذا الكتاب مطبوعاً .

(٢) أي في المقدمة .

الحديث الأول :

« عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه » هو أول من سمي أمير المؤمنين .

قوله عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات » المراد لا تحسب الأعمال الشرعية إلا بالنية .

قوله عليه السلام : « فهاجرة إلى الله ورسوله » معناه : مقبولة .

الحديث الثاني :

« لا تُرى عليه كُرُ السفر » هو بضم الياء من « تُرى » .

قوله عليه السلام : « تؤمن بالقدر خير وشره » معناه : تعتقد أن الله قدر الخير والمشر قبل خلق الخلق ، وأن جميع الكائنات بقضاء الله تعالى وقدره وهو مريد لها .

قوله عليه السلام : « فأخبرني عن أمارتها » هو يفتح الهمزة : أي علاماتها ، ويقال : أمار — بلاهاء — لغتان ، لكن الرواية بالهاء .

قوله عليه السلام : « تلك الأمة رثيها » : أي سبها ، ومعناه : أن تكفر السراري حتى تلد الأمة السرية بتناً لسبها ، وبنت السيد في معنى السيد ، وقيل : يكثر بيع السراري حتى تشتري المرأة أمها وتستعبدها جاهلة بأنها أمها ، وقيل غير ذلك . وقد أوضحته في شرح صحيح مسلم بدلائله وجميع طرقه (١) .

وقوله عليه السلام : « الغائبة » : أي الفقراء ، معناه : أن أسافل الناس يصيرون أهل ثروة ظاهرة .

قوله عليه السلام : « ليست ملياً » هو بتشديد الياء : أي زماناً كثيراً ، وكان ذلك

(١) كتاب الإيمان ، باب : باب الإيمان والإسلام والإيمان .. (١ / ١٠٥) .

توضيحاً : هكذا جاء مينا في رواية أبي داود والترمذي وغيرهما^(١) .

الحديث الخامس :

قوله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ » : أي مردود ، كالخلق بمعنى الخلق .

الحديث السادس :

قوله ﷺ : « استبرأ لدينه وعرضه » : أي صان دينه وحى عرضه من وقوع الناس فيه .

قوله ﷺ : « ثوبك » هو يضم الياء وكسر الشين : أي يسرع ويقرب .
قوله ﷺ : « حى الله بحارمه » معناه : الذي حماه الله تعالى ومنع دخوله هو الأشياء التي حرمها .

الحديث السابع :

قوله : « عن أبي رُقَيْة » هو يضم الراء وفتح القاف وتشديد الياء .
قوله : « الثوري » منسوب إلى جد له اسمه الدار ، وقيل إلى موقع يقال له : دارين ، ويقال فيه أيضاً : الثوري نسبة إلى دير كان يبعد فيه . وقد بسطت القول في إيضاحه في أوائل شرح صحيح مسلم^(٢) .

الحديث الثامن :

قوله ﷺ : « واحملاتهم » هو يضم الفاء لا بكسرها .

(١) أي كان الزمان الذي له ثلاثة أيام .

(٢) سمي أبي داود : كتاب السنة ، باب في القدر (٤٦٩٥) . والترمذي : أبواب الإيمان ، باب ما جاء في وصف جبريل عليه السلام (٢٦١٣) . وابن ماجه المقدمة ، باب في الإيمان (٩٢) والسلفي كتاب الإيمان وشرائعه ، باب نعت الإسلام (٩٢/٥) .

(٣) انظر شرحه على مسلم أواخر المقدمة [١٤٢/١] .

الحديث العاشر :

قوله **عَنْهُ** : « فُلَيْي بِالْحَرَامِ » هُوَ يَضُمُ الْفَيْنَ وَيَكْسِرُ الدَّالَ الْمُعْجَمَةَ الْخَفِيفَةَ .

الحديث الحادي عشر :

قوله **عَنْهُ** : « دَعِ مَا يَرِيكَ إِلَّا مَا لَا يَرِيكَ » فَتُحْ خَاءٌ وَمُصْمَعُهَا الْخَفِيفُ ، وَالتَّصْحِخُ أَنْ يَهْرَ ، وَمَعْنَاهُ : اتْرِكْ مَا شَكَّكَتَ فِيهِ وَاعْدِلْ إِلَى مَا لَا تَشْكُ فِيهِ .

الحديث الثاني عشر :

قوله **عَنْهُ** : « يُعْبِدُ » يَقْتَضِي أَوَّلَهُ .

الحديث الرابع عشر :

قوله **عَنْهُ** : « التَّيْبُ الزَّائِي » مَعْنَاهُ : الْمُخْصَنُ إِذَا زَانِ ، وَلِلْإِخْصَانِ شُرُوطٌ مَعْرُوفَةٌ فِي كِتَابِ الْفَقْهِ .

الحديث الخامس عشر :

قوله **عَنْهُ** : « أَوْ لَيْسَتْ » يَضُمُ الْيَمِيمَ .

الحديث السابع عشر :

« الْقِتْلَةُ » وَ« الذَّبْحَةُ » يَكْسَرُ أَوَّلُهُمَا .

قوله **عَنْهُ** : « وَلَيْجَدُ » هُوَ يَضُمُ الْيَاءَ وَيَكْسِرُ الْهَاءَ وَيَشْدِدُ الدَّالَ ، يُقَالُ : أَحَدٌ مِنَ السَّكِينِ ، وَحَدَّثَهَا ، وَاسْتَحْدَّثَهَا بِمَعْنَى .

الحديث الثامن عشر :

قوله : « جُنْدَبٌ » يَضُمُ الْجِيمَ وَيَضُمُ الدَّالَ وَفَتْحُهَا . وَ« جُنَادَةُ » يَضُمُ الْجِيمَ .

الحديث التاسع عشر :

« لِحَافَتِ » يَضُمُ التَّاءَ وَفَتْحُ الْهَاءِ : أَيْ أَصْلُكَ كَمَا فِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى .
وَ« تَعْرِفُ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّعَاءِ » أَيْ نَحْبُ إِلَيْهِ لِلزُّرُومِ طَاعَتِهِ وَاحْتِسَابُ مَهْلِكَتِهِ .

الحديث العشرون :

قوله عليه السلام : « إذا لم تستح فاصع ما شئت » معناه إذا أردت فعل شيء ، فإن كان بما لا يستحى من الله ومن الناس في فعله فافعله ، ولا فلا . ومعنى هذا مدار الإسلام .

الحديث الحادي والعشرون :

« قل آمنت بالله ثم استقم » أي استقم كما أمرت بمثل ما أمر الله تعالى بمجنباً إليه .

الحديث الثالث والعشرون :

قوله عليه السلام : « الطهور شطر الإيمان » : المراد بالطهور الوضوء ، قيل : معناه يعني تصحيح ثوبه إلى نصف أمر الإيمان ، وقيل : الإيمان بحسب^(١) ما قبله من الخطايا وكذلك الوضوء ، ولكن الوضوء توقف صحته على الإيمان فصار نصفاً ، وقيل : المراد بالإيمان الصلاة ، والطهور شرط لصحتها ، فصار كالشرط ، وقيل غير ذلك .

قوله عليه السلام : « والحمد لله ثلث الميزان » : أي ثوابها . « وسبحان الله والحمد لله ثلاثان » : أي لو قدر ثوابهما جسماً . وسبح ما اشتملتا عليه من التبرية والتفويض إلى الله تعالى .

« والصلاة نور » : أي تمنع من المعاصي وتنبئ عن الفحشاء ويهدي إلى الصواب ، وقيل : يكون ثوابها نوراً تصاحبها يوم القيامة ، وقيل : لأنها مسبوقة لاستنارة القلب .

« والصدقة برهان » أي حجة لصاحبها في أداء حق المال ، وقيل : حجة في إيمان صاحبها لأن المطلق لا يفعلها غالباً .

« والصبر ضياء » : أي الصبر المحبوب ، وهو الصبر على طاعة الله ، والجماع

(١) يقطع ويحصر ما سببه من كبر ومعصية .

ومكافاة الدنيا ، وعن المعاصي . ومعناه : لا يراد بهجه مستفيضاً مستمراً عن الصواب .

« كل الناس يندو فإلح نفسه » معناه : كل إنسان يسعى بنفسه ، فعلمهم من يبعها لله تعالى بطاعته فبعثها من العذاب ، ومنهم من يبعها للشيطان والهوى يتابعهما .

« فبرقها » : أي يهتكها . وقد بسطت شرح هذا الحديث في أول شرح صحيح مسلم^(١) فمن أراد زيادة على راجعه ، وبالله التوفيق .

الحديث الرابع والعشرون :

قوله تعالى : « حرمت العظم على نفسي » أي تقدست عنه ، « فإلح مستحيل في حق الله تعالى ، لأنه محالولة للحد أو التصرف في غير ملك ، وهما جميعاً محال في حق الله تعالى .

قوله تعالى : « فلا تظالموا » هو يمنع الباء : أي لا تظالموا .

قوله تعالى : « إلا كما ينقص البسيط » هو بكسر الهم وإسكان الباء المعجمة وفتح الياء : الإبرة . ومعناه : لا ينقص شيئاً .

الحديث الخامس والعشرون :

« فتنور » يضم الدال والياء المثناة : الأموال . واحدها دُرّ كفض وقلوس . قوله **فَيُضْعُ أَحَدُكُمْ** : « ويَضْعُ أَحَدُكُمْ » هو يضم الياء وإسكان الصاد المعجمة . هو كتابة عن الجراح ، إذا توى به العبادة ، وهو : قضاء حق الزوجية وطلب ولد صالح وإعفاف النفس وكفها عن المحارم .

(١) أول كتاب الطهارة ، باب : غسل الوضوء ، [٩٩/٣] .

الحديث السادس والعشرون :

« السُّلَامَى » يضم السين وتحذف اللام وفتح الميم ، وجميعه سلاميات يفتح الميم ، وهي المفصل والأعضاء ، وهي ثلاثة وستون منفصلاً ، ثبت ذلك في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ (١) .

الحديث السابع والعشرون :

« التُّرَاس » يفتح التون وتشديد التو . « وَتَشْعَان » بكسر السين المهملة وفتحها .

قوله ﷺ : « حَلَا » بالحاء المهملة والكاف : أي تردد .
« وابصة » بكسر الباء الموحدة .

الحديث الثامن والعشرون :

« البِرْيَاض » بكسر العين الموحدة . « سَارِيَة » بالسين المهملة والياء المثناة من تحت .

قوله رضي الله عنه : « فَرَزْتُ » يفتح الفال المعجمة والراء : أي سالت .
قوله ﷺ : « بالتواجد » هو بالفاء المعجمة ، وهي الأنياب ، وقيل : الأضراس . والبدعة ما عمل على غير مثال سبق .

الحديث التاسع والعشرون :

« وَخُرُوقَ السَّيَام » بكسر الهمزة وضمها : أي أهله .
« وَبَلَاكِ الشَّيْءِ » بكسر الميم : أي مقصوده .
قوله ﷺ : « يَكْب » هو يفتح الياء وضم الكاف .

(١) قال : « خلق كل إنسان من نثر آدم على سبعين واللائحة معصير » [كتاب فرائد] باب : يد إلى اسم الصفة يقع على كل نوع من العروق ، رقم : ٩٠٠٩ .

الحديث الثلاثون :

« الخشبي » يضم الحاء وفتح الشين المعجمتين والنون ، منصوب إلى خمسة قبيلة معروفة .

قوله : « جُرْثُوم » يضم الجيم والياء الثالثة وإسكان الراء بينهما ، وفي اسمه واسم أبيه اختلاف كثير .

قوله **يَكَلِّبُ** : « فلا تكبوها » انتهاك الحومة^(١) : تلوطها بما لا يحل .

الحديث الثاني والثلاثون :

« ولا ضرار » بكسر الضاد المعجمة .

الحديث الرابع والثلاثون :

« فإن لم يستطع فقلبه » معناه : فليتكرب بقلبه .

« وذلك أضعف الإيمان » أي أقله ثمرة .

الحديث الخامس والثلاثون :

« ولا يَهْلِكُهُ » هو يفتح الباء وضم الهاء المعجمة .

قوله **يَكَلِّبُ** : « بحسب امرئ » من الشر « هو بإسكان السين المهملة : أي يكلفه من الشر .

الحديث الثامن والثلاثون :

قوله تعالى : « لقد آذنته بالحرب » هو بيمزة محدودة : أي أعلمته بأنه محارب لي .

قوله تعالى : « استعاذني » ضبطوه بالنون والياء^(٢) ، وكلامها صحيح .

(١) أي القابوس والجرء : حومة البحر والرجل والقدال والجرء : معطلة أو أشد موصح إليه .

(٢) أي : استعاذني ، والمعطلة هي . قال في فتح الباري : الأشهر بالنون بعد الدال .

الحديث الأربعون :

قوله **ﷺ** : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » : أي لا تركز إليها ولا بالاعتناء بها ، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه ، ولا تشغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله .

الحديث الثاني والأربعون :

قوله **ﷺ** : « عان السماء » يفتح العين ، قيل : هو السحاب ، وقيل : ما عن لك منها أي ظهر إذا طلعت وأمسك .

قوله **ﷺ** : « بقراب الأرض » بضم القاف وكسرها ، لغتان روي بهما ، والقسم أشهر ، معناه : ما يقارب ملائها .

فصل :

اعلم أن الحديث المذكور أولاً : « من حفظ عمل أربعين حديثاً » معنى الحفظ هنا : أن يقلها إلى المسلمين وإن لم يحفظها ولم يعرف معناها . هذا حقيقة معناه ، وبه يحصل انتفاع المسلمين لا يحفظ ما يقله إليهم ، والله أعلم بالصواب .
فرغت منه ليلة الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة ثمان وستين ومائة .

تراجم الرواة من الصحابة رضي الله عنهم

أنس بن مالك : حديث رقم /١٢/ و /٤٢/

الأصباري المزرجي ، خادم رسول الله ﷺ ، خدمه وهو ابن عشر سنين ولازمه عشر سنين ، كناه النبي ﷺ «أبا حمزة» . وأمه أم سليم رضي الله عنها ، دحاله أنس ﷺ فقال : «اللهم أكثر ماله وولده وأهل عمره وبارك له وأدخله الجنة» فكان رضي الله عنه من أكثر الناس مالاً ، ودفن له من الأولاد بصعة وعشرون ومائة ، وأطلق عمره فعاش أكثر من مائة سنة . توفي بالبصرة سنة ٩٣ هـ ، وله في كتب الحديث ٢٢٨٦ حديثاً .

قيس بن أوس الداري ابن خارجة : حديث رقم /٧/

أبو ربيعة ، صحابي ، نسبته إلى الدارين هاهنا من علم ، كان نصرانياً فأسلم سنة ٩ هـ ، وسكن المدينة ، ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فنزل بيت المقدس ، وكان كثير التهجيد ، توفي في فلسطين سنة ٤٠ هـ ، وله في كتب الحديث ١٨ حديثاً . قال أبو نعيم في «الخطبة» : كان قيس الداري راعب أهل عصره وعابد أهل فلسطين ، وهو أول من أسرج السراج في المسجد ، وأول من قص في زمن عمر بإذنه .

جابر بن عبد الله الأصباري : حديث رقم /٢٢/

المزرجي السلمي ، أبو عبد الله . أسلم قبل الهجرة ، وحضر مع أبيه بيعة العقبة وهو صغير ، وكان معاهداً ، فبني صحيح مسلم عن جابر أنه قال : « غزوت مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة ، ولم أشهد بدرأ ولا أحدأ ، معني أبي ، فلما قيل أبي لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة قط » . وكان من الرواة الكثرين ،

فقد روى ١٥٤٠ حديثاً ، توفي بالمدينة سنة ٧٤ هـ .

جندب بن جندب (أبو ذر) : حديث رقم /١٨/ و /٢٢/ و /٢٥/

ابن سفيان بن عيينة ، من بني غنار ، من كثافة من خزاعة ، صحابي ، قدم الإسلام ، روي عنه أنه قال : « أنا خامس الإسلام » . يضرب به المثل في الصلح ، وهو أول من حبى رسول الله ﷺ بشجرة الإسلام ، توفي بالربذة سنة ٣٢ هـ ، وله في كتب الحديث ٢٨١ حديثاً .

أبو ثعلبة الخشني ، جرثوم بن قاهر : حديث رقم /٢٠/

صحابي مشهور بكنيته ، اختلف في اسمه واسم أبيه ، قيل : جرثوم ، وقيل : جرثومة ، وقيل : جرثم أو جرهم .

كان ممن بايع تحت الشجرة في المدينة ، وضرب له ﷺ بسهمه يوم خيبر ، وأرسله النبي ﷺ إلى قومه من قبيلة عثينة فأسلموا . توفي سنة ٧٥ هـ . روي له عن رسول الله ﷺ ٤٠ حديثاً .

الحارث بن عاصم الأشعري (أبو مالك) : حديث رقم /٢٣/

نسبه إلى الأشعر قبيلة مشهورة من اليمن ، قدم مع الأشعرين على النبي ﷺ ، وبعد في الشاميين ، توفي في خلافة عمر بن الخطاب بالطاعون ، وروي له عن النبي ﷺ ٢٢ حديثاً .

الحسن بن علي بن أبي طالب : حديث رقم /١١/

الهاشمي القرشي ، أبو محمد ، من فاطمة الزهراء ، ولد في المدينة السنة الثالثة للهجرة ، ولشأ في بيت النبوة ، كان عاقلاً حليماً عفيفاً للخير ، فضيحاً من أحسن الناس منقطعاً وندبة ، تابعه أهل العراق بالخلافة بعد استشهاد أبيه ، وحدث له الحجاز واليمن والعراق وحراسان ، وبعد سنة أشهر رأى أن يحقن دماء المسلمين ، فاصطنع مع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وتدارى له عن الخلافة على شرط ، وذلك

سنة ٤٦ هـ ، لسمي الناس ذلك العام بعام الجماعة ، لاجتماع كلمة المسلمين على خليفة واحد ، وفي سنة ٥٠ هـ ، توفي الحسن بالمدينة ، ودفن بالقيع ، وقد روي له عن جده رسول الله ﷺ ثلاثة عشر حديثاً .

سعد بن مالك بن سنان الخدري (أبو سعيد) : حديث رقم /٣٢/ و /٣٤/
نسبه إلى خذوة بطن من الخزرج ، رُذِّ يوم أحد لصفوه ، ومات أبوه فيها شهيداً ، وغزا بعدها مع رسول الله ﷺ التي عشرة غزوة ، وكان من فقهاء الصحابة وعلمائهم وفضلائهم ، توفي بالمدينة سنة ٦٤ هـ . روي له في كتب الحديث ١١٧٠ حديثاً .

سفيان بن عبد الله بن أبي ذبيعة بن الحارث الثقفي : حديث رقم /٣١/
صحابي من أهل الطائف ، وكان عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه على الثغاف ، ولم يرو مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه لسفيان بن عبد الله عن رسول الله ﷺ غير هذا الحديث وقد رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة والسنائي . قال ابن حجر في الإصالة : أسلم سفيان مع وفد ثقف وسأل النبي ﷺ عن أمر يتحصن به ، فقال : لا قل : ربي الله ، ثم استقم .

سهل بن سعد الساعدي الأنصاري الخزرجي : حديث رقم /٣٦/
أبو العباس ، هو وأبوه صحابيان ، كان اسمه في الجاهلية حزنأ فسماه النبي ﷺ سهلاً ، وكان عمره يوم توفي النبي خمس عشرة سنة ، وعاش وطال عمره حتى أئرك الحجاج بن يوسف الثقفي ، توفي سنة ٨٨ هـ وقد جاوز عمره لائة ، وروي له في كتب الحديث ١٨٨ حديثاً .

شداد بن أوس : حديث رقم /١٧/
ابن ثابت الخزرجي الأنصاري ، صحابي جليل من الأمراء ، ولأه عمر من الخطاب إمارة حمص ، ولما قتل عثمان بن عفان اعتزل شداد القصة وعكف على العبادة ،

وكان رضي الله عنه نصيباً حبيباً حكيماً ، توفي في القدس سنة ٥٨ هـ ، وله في كتب الحديث ٥٠ حديثاً .

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها : حديث رقم /٥/
أم عبد الله ، كانت رسول الله ﷺ مابين أعمها أحماء عبد الله بن الزبير .
تزوجها رسول الله ﷺ بمكة وهي بنت ست ، ودخل بها في المدينة في شوال منصرفه من بدر سنة اثنين من الهجرة ، وهي بنت تسع سنين ، وتوفي عنها وهي ست ثمان عشرة سنة ، وعاشت بعده أربعين سنة ، وتوفيت سنة ٥٧ هـ وحصل عليها أبو هريرة رضي الله عنه ، وكان أميراً على المدينة لمروان بن الحكم . كانت من أعلم النساء وأفقههن ، وروي لها ألف حديث ومائتان وعشرة .

عبد الله بن عباس : حديث رقم /١٩/ و /٢٢/ و /٣٧/ و /٣٩/
ابن عبد المطلب الهاشمي ، أبو العباس ، ابن عم رسول الله ﷺ ، ولد بمكة قبل الهجرة بثلاث سنوات بالشعب والرسول والمسلمون محاصرون فيه ، دنا له النبي ﷺ فقال : اللهم فقهِه في الدين وعلمه التأويل ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدينه في مجلسه ويستعين بعلمه العزيز وعقله الكبير ، توفي بالطائف سنة ٧١ هـ ودُفِن فيها رحمه الله تعالى ورضي عنه .

عبد الله بن عمر : حديث رقم /٣/ و /٨/ و /١٠/
هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، الصحابي المؤتسب برسول الله ﷺ .

ولد عبد الله بعد البعثة ، وأسلم وهو صغير ، وهاجر مع أبيه وأمه - زينب بنت مطعم رضي الله عنهم - عرجى على النبي ﷺ يوم بدر وكان ابن ثلاث عشرة سنة فاستصره وردّه وكذلك يوم أحد وكان له أربع عشرة سنة ، وأجلزه يوم الحندق ، وكان قد بلغ الخامسة عشرة من عمره ، ثم حصر بعدها المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

الكتب رضي الله عنه من صحبته لرسول الله ﷺ ، وملازمه للمسجد النبوي ، العلم الوفير ، فكان ممن حفظ القرآن الكريم ، ومن المكثرين من رواية الحديث ، فقد روي له ١٦٣٠ حديثاً .

وكان شديد التمسك بالسنة ، وأكثر الصحابة اتقاء رسول الله ﷺ ، وقد شهد له النبي بالصلاح فقال : « إن عبد الله رجل صالح » .

توفي رحمه الله تعالى في مكة سنة ثلاث وسبعين هجرية ، وله من العمر أربع وثلاثون سنة .

عبد الله بن مسعود : حديث رقم ١/ و ١٤/

عبد الله بن مسعود بن خافض بن حبيب الحلبي . وأمه أم عبد عذابة أيضاً .

كان من مسعود من السابقين الأولين إلى الإسلام ، فقد روي أنه أسلم سادس سنة ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة ، هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وشهد مع رسول الله ﷺ بدرأ وبيعة الرضوان والمشاهد كلها ، وشهد الخيول بعد رسول الله ﷺ . وكان رسول الله يحبه ويكرمه ، وهو خادم رسول الله الأمين ، ومصاحب سره ، ورفيقه في حله وترحاله ، يدخل عليه كل وقت ويمشي معه ، ويحمل له سواكه ولعليه وظهوره .

وهو من كبار علماء الصحابة وحفاظ القرآن ، وصفه النبي ﷺ بقوله له : « إنك عمام معلوم » ونظر إليه عمر بن الخطاب يوماً فقال : « وعا ، مل ، علماً » ، روي عن النبي ٨٤٨ حديثاً .

ولي بعد وفاة النبي ﷺ بيت مال الكوفة ، ثم قدم للمدينة في خلافة عثمان ، وتوفي ليلة ٣٠ هـ عن نحو ستين عاماً ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

عبد الله بن عمرو بن العاص : حديث رقم ١١/

السهمي القرشي ، أسلم قبل أبيه ، وكان من عباد الصالحة وعلمائهم ، كان

يكتب في الجلعالية ، فاستأذن الرسول عليه الصلاة والسلام في أن يكتب ما يسمع منه فأذن له ، وكان يشهد الحروب والغزوات ويضرب بسيفين ، حمل راية أبيه يوم اليرموك ، وشهد صفين مع معاوية ، وولاه معاوية الكوفة مدة قصيرة ، توفي سنة ٦٥ هـ وله في كتب الحديث ٧٠٠ حديث .

عبد الرحمن بن صخر المدائني (أبو هريرة) :

حديث رقم /٩/ و /١٠/ و /١٦/ و /١٥/ و /١٦/ و /٢٦/ و /٣٥/ و /٣٦/ و /٣٨/ الصحابي الميرب ، أسلم عام تبير وشهدا مع رسول الله ﷺ ، ثم لارمه الملاممة الثانية ، وكان أحفظ الصحابة بركة دعاء النبي ﷺ له بذلك ، وشهد له النبي أنه حريص على العلم والحديث ، توفي بالمدينة سنة ٥٧ هـ ، وروى له في كتب الحديث ٥٣٧٤ حديثاً .

أبو تيجان العرياض بن صارية : حديث رقم /٢٨/

صحابي من أهل الصفة ، وهو أحد اليكاتبين الذين رغبوا في الجهاد والتجرو مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وهي غزوة العسرة ، ولم يكن عند رسول الله ما يجهزهم به ، فخرجوا من عنده وهم يمشون . والعرياض من المسلمين الأوائل ، وكان يقول : إنه رابع الإسلام . نزل الشام ، وسكن حمص ، ومات سنة ٧٥ هـ .

عقبة بن عمرو الأنصاري : حديث رقم /٢٠/

وهو عقبة بن عمرو بن عتبة بن أسيرة بن عطية الخزرجي الأنصاري ، أبو مسعود البصري ، وهو مشهور بكنته ، ولم يشهد بدرأ ، وإنما سكن بدرأ أو ما يدعى فليسب إليها . شهد الفقة الثانية ، وكان أحدث من شهدا بدرأ ، ثم شهد أحدأ وما بعدها من المشاهد . سكن الكوفة ، وهو من أصحاب علي رضي الله عنه ، واستحفظه علي على الكوفة لما سار إلى حمص ، اختلف في وقت وفاته فقيل : توفي سنة إحدى أو اثنين وأربعين . وقيل : سنة أربعين . ورجح ابن حجر في الإصابة أنه توفي بعد سنة

أربعين . لأنه لم يترك إمارة الخيرة من شعبة إلى الكوفة .

عمر بن الخطاب : حديث رقم /١/ و /٢/

هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب القرشي العدوي ، أبو حفص ، ثاني الخلفاء الراشدين . كان صغيراً فربى في الجاهلية ، وكان أول البيعة شديداً على المسلمين ، لم أسلم فكان إسلامه فتحاً عليهم ورجحاً لهم من الضيق . قال عبد الله بن مسعود : ما كنا نظفر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر . وكان إسلامه بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة ، ستة ست من البيعة ، وعامر جهمراً على أعين قريش ، وحضر الشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . يوبع بالهجرة يوم وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه سنة ١٣ هـ بعهد منه . وفي أيامه تم فتح الشام والعراق ، واقتلحت القدس والاندلس ومصر والجزيرة . حتى قيل : انكسب في مدله اثنا عشر ألف مسلم في الإسلام .

استشهد سنة ٢٣ هـ بعد أن طعنه أبو لؤلؤة الجهمي في خمارته ، وهو يصلي صلاة الصبح ، وعاش بعد الطعنة ثلاث ليال ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

معاذ بن جبل : حديث رقم /١٨/ و /٢٩/

الأنصاري الخزرجي ، أبو عبد الرحمن ، الإمام المقدم في علم الحلال والحرام بشهادة رسول الله ﷺ إلا قال : « أعلم أنني بالحلال والحرام معاذ بن جبل » كان شاباً جميلاً ، ومن أفضل شباب الأنصار حليماً وسخياً وحياً ، أسلم وعمره ١٨ سنة ، وشهد العقبة ويدرأ والشاهد كلها ، وبعث الرسول ﷺ والياً على اليمن ، توفي في ربيعان شبابه مجاهداً سنة ١٨ هـ يطاعون عمرواس وعمره أربع وثلاثون سنة ، روي له عن رسول الله ﷺ ١٥٧ حديثاً .

(أبو عبد الله) النعمان بن بشير بن كعب الخزرجي الأنصاري :

حديث رقم /٦/

ولد بعد أربعة عشر شهراً من الهجرة ، وهو أول مولود ولد للأنصار بعد الهجرة ،

وأبوه صحابي وأمه صحابية أيضاً — رضي الله عنهم ، توفي النبي ﷺ وعمره ثمانين سنين سكن الشام ، وولاه معاوية رضي الله عنه إمرة حمص ، وقد أبقاه على إمارته يريد ابن معاوية ، وكان النعمان بن مشير رضي الله عنهما كريباً شاعراً ، قتل في قرية من قرى حمص ، لأنه دعا لطاعة عبد الله بن الزبير ، وذلك سنة ٥٦ هـ ، روى له البخاري سنة أحاديث ، وروى له في كتب الحديث ١١٤ حديثاً .

النواس بن سمعان بن خالد بن عمرو العامري الكلابي : حديث رقم /٢٧/ صحابي مملوك في الشاميين ، وقد مع أبيه سمعان عن النبي ﷺ فدعا له ، وأقام في المدينة مع رسول الله ﷺ سنة ليتفقه في الدين ، روى للنواس عن رسول الله ﷺ سبعة عشر حديثاً .

وابنة بن معبد بن مالك بن عبيد الأسدي : حديث رقم /٢٨/ صحابي ، وفد على رسول الله ﷺ سنة تسع فأسلم ، وكان كثير البكاء لا يملك دمعه ، سكن الرقة ومات بها ، روى له عن رسول الله ﷺ ١١ حديثاً .

ورق ایمن

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٧	مقدمة الإمام النووي
١١	الحديث الأول : إنما الأعمال بالنيات
١٥	الحديث الثاني : الإسلام والإيمان والإحسان
٢٠	الحديث الثالث : أركان الإسلام ودعائه العظيم
٢٤	الحديث الرابع : ألقوا سلقى الإنسان وحالته
٣٠	الحديث الخامس : إبطال المنكرات والبدع
٣٥	الحديث السادس : الحلال والحرام
٤١	الحديث السابع : الدين النصيحة
٤٧	الحديث الثامن : حرمة المسلم
٥٣	الحديث التاسع : الأخذ باليسر وترك العسر
٥٩	الحديث العاشر : الطيب الحلال شرط القبول
٨٥	الحديث الحادي عشر : الأمان باليقين والبعد عن الشبهات
٨٩	الحديث الثاني عشر : الاشتغال بما يفيد
٩٣	الحديث الثالث عشر : أحوة الإيمان والإسلام
٩٧	الحديث الرابع عشر : حرمة دم المسلم
١٠٣	الحديث الخامس عشر : من عصا الإيمان
١١٠	الحديث السادس عشر : لا تعصب ولك الجنة
١١٧	الحديث السابع عشر : عموم الإحسان
١٢٢	الحديث الثامن عشر : تقوى الله تعالى وحسن الخلق

١٣١	الحديث التاسع عشر : عون الله تعالى وحفظه
١٤٩	الحديث العشرون : الحياء من الإيمان
١٥٥	الحديث الحادي والعشرون : الاستقامة والإيمان
١٥٩	الحديث الثاني والعشرون : طريق الجنة
١٧١	الحديث الثالث والعشرون : كل خير صدقة
١٨٣	الحديث الرابع والعشرون : تحريم الظلم
١٨٨	الحديث الخامس والعشرون : فضل الله تعالى وسعة رحمته
١٩٥	الحديث السادس والعشرون : الإصلاح بين الناس والعدل فيهم
٢٠٤	الحديث السابع والعشرون : البر والإمام
٢١٠	الحديث الثامن والعشرون : لزوم السنة واجتناب البدع
٢١٧	الحديث التاسع والعشرون : أبواب الخير ومسالك الهدى
٢٢٤	الحديث العاشر والثلاثون : عبود الله تعالى وحرمانه
٢٢٩	الحديث الحادي والثلاثون : حبقلة الزهد والفرح
٢٣٩	الحديث الثاني والثلاثون : نفي الضرر في الإسلام
٢٥٦	الحديث الثالث والثلاثون : أسس القضاء في الإسلام
٢٦٦	الحديث الرابع والثلاثون : إزالة الشك فريضة إسلامية
٢٨٣	الحديث الخامس والثلاثون : أعمدة الإسلام وحقوق المسلم
٢٩٥	الحديث السادس والثلاثون : جوامع الخير
٣٢٩	الحديث السابع والثلاثون : عدل الله تعالى وقضيه وقضونه
٣٣٥	الحديث الثامن والثلاثون : وسائل القرب من الله تعالى وتبليغ عبده
٣٤٣	الحديث التاسع والثلاثون : رفع الحرج في الإسلام
٣٥٧	الحديث الأربعون : اهتمام الدنيا للفرز بالأخرة
٣٦٣	الحديث الحادي والأربعون : اتباع شرع الله تعالى عبادة الإيمان
٣٧٢	الحديث الثاني والأربعون : سعة مغفرة الله عز وجل
٣٨٥	باب ضبط الخطي من الألفاظ
٣٩٤	تراجم الرواة من الصحابة رضي الله عنهم

الوافي

في شرح الأربعين النووية

ألفه وترجمه محمد بن عبد الله بن محمد

ألفه وترجمه محمد بن عبد الله بن محمد

دار المصطفى



